شدو الربابة
بأحوال مجتمع الصحابة

- السفر الثاني -

خليل عبدالكريم

شدو الرّبـابـة بـأحوال مجتـمع الصّحابـة

THE CONDITIONS OF COMPANIONS' SOCIETY

wwww.muhammadanism.org
August 31, 2007
Arabic

السّفر الثّانـي

الصّحابـة والصّحابـة

SECOND VOLUME

THE COMPANIONS & THE COMPANIONS

خليل عبـد الكريم

KHALĪL 'ABD-UL- KARĪM

.٣٠

الصَّحابة والصّحابة

خليل عبد الكريم

شدو الرّبابة بأحوال مجتمع الصحابة

السّفر الثّاني

الصّحابة والصّحابة

سينا للنشر

الطبعة الأولى ١٩٩٧

محتويات الكتاب

الصحابة والنكاح

مقدمة

أولئك الرجال والنسوان الذين آزروا محمداً وهو يقوم بثورته الرائعة في منطقة الحجاز من شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي ــ وسمعوه وهو يتلو عليهم القرآن للمرة الأولى.

وأول من شافههم بأحاديثه وعاين تقريراته ــ الذين استجابوا لدعوته وآمنوا بالديانة التي بشر بها وعاضدوه على نشرها وانخرطوا في السرايا التي كونها ليؤسس دولة قريش حلم آبائه وأجداده بدءاً من جده الأعلى قصي. وعاشوا معه منذ اللحظة التى أبلغهم فيها أنه نبي حتى لقي ربه راضياً مرضياً.

أولئك هم الفاعلون الاجتماعيون في التجربة الرائدة التي قادها محمد آنذاك والتي كانت ولا زالت من أخطر التجارب التي عرفها التاريخ الوسيط والحديث ومن أعمقها وأغناها ويرجع ذلك بادئ بدء إلى أن الذي فجرها شخص فرد لم يسانده حزب أو جماعة أو أياة(١). ولا قبيلة ولا رهط ولا فخذ ولا قاعدة شعبية ولم تكن بيده سلطة أو وظيفة أو ثروة... بل العكس هو الصحيح وقف ضده ملأ البلدة وصناديد القبيلة وأصحاب التجارات وحائزو الثروات أما الأراذل فكانوا أضعف من أن

---

(١) **الأيأة** هي الهياة ــ لفظاً ومعنى ــ **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

يناصروه ــ في الثورات السوابق كان الزعيم يؤسس القاعدة ويربّي الكوادر ويؤلف الحرس ويصف الأعوان ويرص المؤيدين وينشئ الخلايا ويجند الأنصار... الخ ثم يعلن الثورة.

ولكن محمداً فعل العكس فلق الثورة وصدع بالدعوة وبشّر بالديانة بمفرده وأول من آمن به زوجه خديجة وعبده (مولاه فيما بعد) زيد وابن عمه وربيّه عليّ، ماذا يجدي هؤلاء في مقابل الطواغيت ــ طواغيت السلطه والمال والجاه والتجارة والعقائد الفواسد والملل الزيوف والنحل المنحرفة والأنساق والعوائد والعادات والتقاليد البالية جميعها ولكنها راسخة رسوخ الجبال ــ بيد أنه كان واثقاً من نفسه ثقة لا تحدها حدود ومن تفوقه على غيره من البشر جميعهم وتميزه عليهم وتفرده وعبقريته.. الخ.

وكان مؤمناً إيماناً ثابتاً بنجاح ثورته وفلاح دعوته، وفلج قضيته على كل العوائق والعقبات والمثبطات ــ ولم يتطرق إليه مثقال ذرة من شك أن الديانة التي يحث الناس على اعتناقها أسمى من كل العقائد والملل والنحل والمذاهب التي كانت تموج بها مدينة القداسة (مكة) خاصة ومنطقة الحجاز عامة وأنها ستعلو عليها وتسيطر وتكون لها الهيمنة والغلبة ــ وكان يرى في أشد حالات الضيق وأكثر أيام العذاب وأحلك ليالي المعاناه معالم دولة قريش ــ أمنية الأسلاف رأي العين ــ وكان يرسم حدودها للمضطهدين والمقهورين من أتباعه في تلك الأيام الأشد سواداً من قرن الخروب(٢). كان يقول لهم إن الراعي سوف يسير من مكة إلى صنعاء لا يخاف إلاّ الله ثم الذئب على غنمه ويحضهم على الصبر والتحمل ــ وكانت تلك هي حدود دولته التي سوف يقيمها منفذاً بذلك ما بدأه أجداده، وفعلاً تحققت في حياته الحدود عينها ثم وسعها خلفاؤه إلى آفاق لم تكن تخطر على بال ــ نقول إن محمداً فعل العكس بعد أن أعلن الثورة وأذاع الدعوة أخذ يربي الصحاب والأتباع وكانت الخليّة الأولى هي التي تجمعت في دار الأرقم بن أبي الأرقم وفي خلال أقل من ربع قرن ارتفع عدد

(٢) **الخروب** شجر مثمر من الفصيلة القرنية ثماره قرون تؤكل وتعلفها الماشية، (**المعجم الوسيط**).

الصحاب مما لا يجاوز أصابع اليد الواحدة حتى إن بعضهم كان يفتخر ويقول: كنت ربع الإسلام أو خمسه ـــ إلى أكثر من مائة ألف وأربعة عشر ألف في حجة الوداع ـــ ومحمد الذي يشكو إلى الله هوان حاله على الناس عندما سلّط عليه صناديد ثقيف بالطائف سفهاءهم وصبيانهم حتى أدموا قدميه أصبح سيد وديّان العرب وحاكم الجزيرة العربية دون مدافع وأقبلت الوفود من كل صوب وحدب تبايعه وقبّل رؤساؤها قدميه ورجليه تعبيراً عن الانقياد والخضوع والتسليم الزمام.

أما الصحاب الذين كانوا أراذل ومستضعفين يعذبون أقسى عذاب تربعوا على قمة الهرم وصاروا أعيان المجتمع ونجومه وسوف نرى خالد بن الوليد المخزومي السيد الماجد يسترضي عمار بن ياسر مولى رهطه (بني مخزوم) والذين كانوا يربطون الأحجار على بطونهم من الجوع والمسغبة يتحولون إلى أثرياء يبنون الدور والقصور وينكحون العدد من الحرائر والأماء ـــ الذين كانوا لا يجدون في شبابهم سوى المسجد موئلاً وملاذاً يقنون الجواري الروميات وغيرهم ويحلوهن بالذهب ويلبسونهن ملابس الحرات ـــ والذين كانوا يرعون الغنم والماعز والتيوس غدو أحكاماً وولاة... الخ.

نقلة أو نقلات تدير الرؤوس ومن النادر أن تطالع لها مثيلاً في كتاب التاريخ الطويل العريض.

أولئك الصحاب كانوا تشكيلة بالغة التعقيد والتنوع والتصنيف:

فيهم العربي والأعجمى، الغني والمملق، الشريف والوضيع، الحسيب النسيب والمولى، السيد والعبد، الشيخ والشاب، الوسيم القسيم والدميم القبيح، الذكي اللماح ومتوسط الفهم، الشجاع ومن يعوزه الإقدام (حسابن بن ثابت لم يشهد عركة واحدة ودعته صفية عمة محمد في وقعة الخندق لقتل يهودي كان يحوم حول الحصن الذي وضع فيه مع النساء والذراري فقال لها: يا ابنة عبد المطلب أنت تعرفين أنني لست أهلاً لذلك فشدت مئزرها وأخذت عموداً وقتلته، الكريم السخي وصاحب الدوانق، العزوف عن معاشرة النساء ومن نكح عشرين حرة خلاف ملك اليمين من

كان لا يجد غضاضة في أن تصرف عليه زوجته، ومن يعمل في الأعمال الشاقة حتى يحصل على قوته وقوت عياله، ومن كان سادن صنم وحنيفياً ويهودياً ونصرانياً وقبطياً وعابد وثن، من كان خطيباً بليغاً مفوهاً ومن كان يعجزه النطق بعبارة واحدة، من كان شاعراً مفلقاً لبيباً ومن كان عريض القفا من كان أبيض زاهر اللون شامخ الأنف ومن كان أسود أفطس مجموعة بالغة الاختلاف والتباين في كل شيء.

والصاحبات لم يكن أقلّ تغايراً فيما بينهن عن الأصحاب ولا ضرورة لأن نكرر وجوه الاختلاف فهي نفسها التي ذكرناها في حق الصحاب مع الوضع في الاعتبار الفروق الطبيعية بين الرجال والنسوة.

أولئك الصحاب والصواحب كتبت عنهم مئات من المؤلفات في القديم والحديث بعضها تناولهم جمعيهم في محاولة رائعة لحصرهم واحصائهم والبعض الآخر خص طائفة منهم بالدراسة مثل العشرة المبشرين بالجنة ومنها ما إكتفي بفرد واحد بذاته.

ولكن التراثية منها أولت الجانب الروحي أو الديني اهتمامها وبالأخص روايتهم لأحاديث محمد أو سننه العملية والتقريرية أو اشتراكهم معه في غزواته أو قيامهم بالسريا والبعوث والمأموريات الخاصة التي كلفهم بها وهى متعددة ـ أما المؤلفون المحدثون فقد سلطوا الأنوار الكاشفة وإن شئت الدقة قلت المبهرة على الجوانب المضيئة فحسب لدى الصاحب أو الصاحبة... وهذا منهج غير موضوعي ومجاف للروح العلمية لأن أولئك الصحاب والصواحب بشر وبنص حديث محمد كل بني آدم خطّاء (كثير الخطأ) وهم أنفسهم لم يدّعوا لذواتهم القداسة أو العصمة ومحمد أخبرنا في أكثر من حديث أن منهم من سوف يغيّر ويبدل وعندما سيلقاه في الدار الآخر سيقول له سحقاً والسحق هو أشد البعد.

ولسنا بصدد تقييم كتابات السلف أو الخلف ولكننا نذكر ذلك لنؤكد أنه حتى الآن لم يكتب أحد عن أولئك الصحبة من الناحية الناسوتية[٣]

(٣) في **(المعجم الوسيط) الناسوت:** الطبيعة البشرية.

ونعني بها حياتهم الدنيوية: علاقاتهم مع بعضهم البعض ومع الغير، موقفهم من المال، نكاحهم، ملابسهم، زينتهم، معاملتهم لزوجاتهم.

أي تصرفاتهم وسلوكياتهم كبشر، كناس من الناس ـــ وهذا أمر لازم أشد ما يكون اللزوم لتقييم التجربة التي كانوا هم أعمدتها والفاعلون الاجتماعيون فيها وهم الذين موضعوها على أرض الواقع وهي كما قلنا من أخطر التجارب التاريخية منذ العصر الوسيط...

أن تمحيص ثورة محمد المجيدة ودراسة التجربة الفاذة التي حدثت في أثرب: المدينة منذ نزوحه (هجرته) والصحاب والصواحب حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً واستمرارها بعد وفاته على أيدى الصحبة ومعرفة دقائقها وغربلة وقائعها غربلة لا تدع شاردة ولا واردة منها ووضعها تحت المجهر ـــ أمر ضروري ومُلحّ وعاجل. وتأخر قروناً عديدة وكان يتعين أن ينجز منذ زمن سحيق لفهم العديد من الأمور وفي مقدمتها (النصوص) لأن أولئك الأصحاب هم أول من تلقاها من محمد وأول من شافههم وخاطبهم بها ووجهها إليهم وبعد ذلك حملوها إلى التابعين وتابعي التابعين وهكذا.

ولا ندري كيف نهتم ب (المحمول) وهو (النصوص) هذا الاهتمام الذي لم تحظ به (نصوص) في أي ديانة أو عقيدة أو نظرية أو ايديولوجية ولا يُلتفت إلى (الحامل) أو الناقل أو الراوي.

ولا ينتصب رد اعتراضاً على ذلك بأن كتب علوم الحديث على وجه الخصوص أولت عناية فائقة لأحوال الرواة جميعهم فإن تلك المؤلفات ونحن نقدرها تقديراً يفوق الوصف ونحيي مصنفيها تحية حارة قد حصرت نفسها في دائرة ضيقة وهي العدالة وبعض الصفات التي يتوجب توافرها في راوي الأحاديث ـــ وليس إلى هذا قصدت بل رميت إلى لزوم معرفة أحوال الصحبة والصواحب في كل الأمور لتقدير روايتهم ونقلهم (النصوص) التقدير الموضوعي السديد بخلاف الاقتصار على جوانب محددة غاية التحديد ومحصورة أشد الحصر عن صفات الراوي أو الناقل ـــ لنشرح ما نعنيه وذلك بضرب مثلين:

الأول: عندما نوضح أن عبد الله بن مسعود كان في بدء حالة يعيش مما تتصدق زوجته به عليه وأولاده ثم في الختام ينتقل إلى طبقة ملاك الضياع.

الآخر: لما نذكر في سيرة أبي هريرة أنه كان في المفتتح يرافق محمداً على شبع بطنه ثم يعمل في خدمة بُسرة بنت غزوان أخت الأمير عتبة بن غزوان ثم ينقلب إلى زوج لها ويساكنها في قصرها ومن بين أحداث حياته الهامة أن عمر بن الخطاب استعمله على إحدى الولايات ثم شاطره ماله. لما نفعل ذلك يتوجب على الكافة أن تدرك أن (النصوص) التي حملها هذان الصاحبان ينبغي أن يكون لها تقدير مخالف.

كما أن تحليل سلوكيات الصحاب والصاحبات تحليلاً موضوعياً صارماً لا مجال فيه للعواطف الفجة أو المشاعر ـ المسبقة سيضع في دائرة الضوء تلك التجربة الفريدة في حجمها الصحيح بدون تهوين أو تهويل مما يمكننا من الحكم العادل الدقيق على صورتها المصطنعة والمزوقة التي يرسمها لها البعض ونحن على يقين أنه لم يمعن النظر فيها لا في كل نواحيها بل ولا حتى في بعضها إنما خطف خبراً من هنا وآخر من هناك وعممه ووسع دائرته وغطّى به كل المساحة.

وأهمية ما نهدف إليه لا مجرد إثبات أن إعادة التجربة مستحيل بل إن التجربة في ذاتها كانت بشرية لا هي معصومة ولا مقدسة.

ليس ذلك فحسب:

إن تجلية التجربة بالطريقة الموضوعية التي سلكناها سيحقق هدفاً عزيز المنال وهو ربط (النصوص) بموجبات ذلك المجتمع وإكراهات تلك البيئة ومن سبقنا في الحديث عن هذه النقطة بالغة الحساسية كان يكتفي بالقول المرسل والعبارة الفضفاضة ولكننا وضعنا النقط فوق الحروف ورسمنا للقارئ (بانوراما) لذلك المجتمع وتلك البيئة اللذين في باطن أحشائهما تخلقت (النصوص) ثم ولدت.

وهذا يرتب نتيجة منطقية على قدر وفير من الخطر وهي وجوب ربط (النصوص) بالزامات ذلك المجتمع وضغوط تلك البيئة لكي يتحقق هدفان رئيسان:

أ ــ رفع الحرج عن المخاطبين بالنصوص لأن الدين لم يشرع للحرج وهو ما ردده القرآن مراراً.

ب ــ ضرورة تطوير تأويل النصوص (لم نقل تطوير النصوص حتى نقطع السبيل على المتنطعين) التأويل الذي يوائم عصرنا ويوائم متغيراته ويواكب مستجداته وفي هذا حفظ (لمكانة النصوص وقدرها) ورفع العنت عمن يتلقونها.

إن قانون الثورات صارم لا تفلت من أحكامه ولا تشذ عن قواعده ثورة:

في رحم الثورة يتخلق نقيضها ولا يتنبه الثوار الأوائل (الحرس القديم) إليه ولكن الإنتهازيين والإنتفاعيين والحسابين والذين التقوا بركب الثورة إذ يهدئ من سيره وهو يصل إلى نهاية الشوط يدركونه بل إنهم من أبرز العوامل المؤثرة في تفعيله ومن ثم يصبحون أقدر من غيرهم على الإمساك بقرونه والسيطرة عليه وتطويعه لمصالحهم ومنافعهم وشيئاً فشيئاً يزيحون من طريقهم صانعي الثورة وأخلص أعوان زعيمها أولئك الذين دافعوا من أبشارهم وأعمارهم الثمن الباهظ... وفجأة يرى (الحرس القديم) نفسه مهمشاً ومبعداً ومنفيّاً ومتغرباً... الخ في حين أن الإنتفاعيين والإنتهازيين تربعوا على القمة وجلسوا في الصدارة يتمتعون بنتائج الثورة الشهية وقطوفها الدانية وثمارها اللذيذة:

السلطة والأموال بمختلف ضروبها والجاه والنفوذ... الخ ومن ثم فهو أمر طبيعي للغاية في ثورة محمد كما سيرى القارئ بعد قليل ــ أن الطلقاء والطرداء واللعناء ــ من أمثال معاوية والحكم وابنه مروان والوليد بن عقبة بن أبي معيط قد غدوا حكاماً وولاة وتمتعوا بالخيرات الحسان من كل نوع... في حين أن أبا ذر مات شريداً غريباً منفياً في الربذة.

وعبد الله بن مسعود ضُرب بالسياط وجُر من رجليه حتى أخرج من المسجد بعد أن كُسر له ضلعان وحُرم من عطائه.

وأسامة بن زيد (الحِب بن الحِب) يسخر معاوية من أمه التي كانت أثيرة لدى محمد قائد الثورة ومروان بن الحكم يسبه سباً قبيحاً أمام قبر محمد.

والحسن بن علي حفيد القائد يموت مسموماً ويزيد بن معاوية الخليع الماجن السكير الخمّير يتولى الخلافة. هذه مجرد أمثلة تؤكد أن موجبات قانون الثورات حديدة كالسيف الصقيل تطول كل الثورات.

والذين يفسرون سيطرة آل أبي معيط وبني أمية على مقدرات الثورة المجيدة التي قام بها محمد تفسيرات ماورائية آن لهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويقلعوا عن منهجهم المغلوط ويذروا تأويلاتهم اللاعقلانية ولعل قراءة كتابنا هذا تعينهم على ذلك فإذا فعلوا ولو أننا نشك فيه يتحقق هدف عزيز من وراء تأليفه.

في كتابنا (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية) التي أصدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٣ ـ دار سينا للنشر التي اعتبرها دار التنوير الأولى في مصر بغير مدافع ـ أومأت في الإهداء إلى ضرورة كتابة التاريخ العربى الإسلامى كتابة موضوعية (بعيدة عن الحواجب التي تحجب العقل مثل العواطف الفجة والأساطير والماورائيات.. الخ) إذ أن اعتقادي الراسخ ويقيني الثابت أن التاريخ العربى الإسلامى (وأنا هنا أقصد الكتابات التاريخية الحديثة من مؤلفات ورسائل جامعية وأبحاث... الخ) ـ لم يكتب الكتابة العلمية النزيهة.

إن السلف من مصنفي الكتب التاريخية مثل: البلاذري والمسعودي والطبري والدينوري واليعقوبي ونصر بن مزاحم والمقريزي وابن خلدون... الخ أبرأوا ذمتهم وأرضوا ضميرهم وسطروا ما وصل إلى علمهم من أخبار ووقائع ونوازل وأحداث، بيد أننا لا ننكر أن عدداً من أولئك المؤرخين كانت عينة على السلطة الحاكمة وحرصاً على رضاها، ولكن مع ذلك موسوعاتهم حفلت بالعديد مما ساعد على تصور أحوال السلف تصويراً

بالغ الدقة شديد الإحكام ــ فقد يحتاج المرء إلى عين يقظة للقراءة وعقل ناقد عند الاطلاع. ثم جاء الخلف أو المحدثون من المؤرخين والأكاديميين والجامعيين والدارسين وغطرشوا[٤] ــ وتعاموا عما قد يظنون مجرد ظن أو يتخيلوا محض تخيل أنه يمس بالهالة القدسانية التي يضعونها فوق رؤوس السلف الصالح ــ ومن ثم أسقطوها من حساباتهم وهذا مسلك معيب ــ والدوافع في ذلك لا تخفي على فطنة القارئ الذي ــ ومما يضاعف الأسى أن يغدو هو الاتجاه النافق الرائج في الجماعات وعلى وجه الدقة في أقسام التاريخ في كليات الآداب على أيدي الأساتذة وطلاب الدراسات العليا (الذين سيصبحون فيما بعد أساتذة) ومن ثم فلا تقرأ في محرراتهم سوى الجانب التفخيميى، التعظيمي، التبجيلي ــ.. الخ مما يفقدها بأنواعها المختلفة أية قيمة علمية.

نحن نفهم أن يجيء ذلك ــ في كتاب يطرح في السوق ــ للقارئ العام أو حتى للقارئ المثقف، أما أن يتم هذا التزوير ــ ولا أرى تقييماً له خلاف ذلك ــ في الرسائل الجامعية وأطروحات الماجستير والدكتوراه فهذه هي الطامة الكبرى ــ وبهذا الصنيع تفقد الجامعة كينونتها وتتحول إلى أي شيء آخر خلاف الجامعة التي يلزم أن تكون هي معقل البحث العلمي الحر الذي لا يخضع لأي مؤثرات ولا يعبأ بأي ضغوط.

وإذ نردد دائماً أن النظرية شيء والتطبيق شيء آخر ــ فإن دعوتنا لإعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي تصبح صيحة في الهواء إذا لم نبادر نحن من جانبنا بترجمة هذه الدعوة عملياً وهذا ما قمنا به في هذا الكتاب على قدر الجهد والطاقة، نشق بذلك الطريق ونفتح الباب لتسير الأجيال القوادم على الدرب وتكمل المسيرة غير عابئة بأي اعتبار لأن أمانة العلم فوق كل شيء.

هناك خطأ منهجي آخر يرتكبه المؤرخون سواء كانوا محترفين أو هواة، أكاديميين أم غير ذلك وهم يؤلفون في التاريخ العربي الإسلامي خاصة

---

(٤) سوف يأتي شرحها.

وهم يتناولون العهدين المحمدي والخليفي وهو أنهم يستندون إلى كتب السّيَر والتواريخ، ويعرضون عن غيرها.

ومن المعلوم أن (السِّيَر) على وجه الخصوص ثم من بعدها (التواريخ) بدأت مختلطة بالأحاديث بل غالبية العلوم الإسلامية على وجه العموم بدأت بـ (الأحاديث) مثل تفسير القرآن المسمى (التفسير المأثور) وأشهر كتبه (جامع البيان) للقرطبي، (بحر العلوم) للسمرقندي، (معالم التنزيل) للبغوي، (المحرر الوجيز) لابن عطية، (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير... الخ(٥).

وعلوم أخرى غير كتب التفسير تعتمد على الأحاديث مثل (أسباب النزول) و(الناسخ والمنسوخ).

أما الفقه فإن (الأحاديث) تشكل في بنائه وهيكله العمود الفقري وكثير من رؤساء المذاهب كان يصرح: الحديث مذهبي وغيرهم كان يقول: إذا جاءك الحديث (أي المخالف لما أفتيت به) فاضرب بـ مذهبي عرض الحائط ــ وهناك من المذاهب الفقهية ما يتمحور على الحديث وبضاعته من الرأي كانت وشلة (= قليلة) مثل المذهب الحنبلي بل إن مؤسسه وأصحابه وتلاميذه إجماعهم منعقد على أن القياس في الدين باطل والرأي أبطل منه ولغلبة الحديث على مذهب أحمد بن حنبل لا يعده البعض فقيهاً بل مُحدثاً وهذا في رأينا شطط ومبالغة.

ونحن نقول ذلك لنلفت النظر إلى أن الأحاديث أو السنن قد انضوت على كم بالغ الوفر من الوقائع والأخبار والنوازل... الخ والحق أن عجبي لا ينقض البتة كيف انصرف المؤرخون عنها ــ وهذا هو الخطأ الذي ترددوا فيه جميعهم بلا استثناء ــ وهنا لا بد أن ينتصب سؤال وجيه:

(٥) لمزيد من التفصيلات عليك بكتاب **التفسير والمفسرون** تأليف محمد حسين الذهبي، الجزء الأول، الباب الثالث، الفصل الأول، من ص ١٤٣، الطبعة الثالثة، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، مكتبة وهبة بمصر، وكذلك **مذاهب التفسير الإسلامي** للمستشرق أجنتس غولدتسيهر، ترجمة عبد الحليم النجار، ص ١٧٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م)، مكتبة الخان جي بمصر.

ما للمؤرخ وموسوعات الحديث: الصحاح والمسانيد والسنن والموطآت والمختارات والمصنفات والمصابيح والكنوز والجوامع والفتوح والمجامع والزوائد والمستدركات والمعاجم... إلخ.

والجواب:

هذا سؤال رغم وجاهته الظاهرة فإنه يدل على قصور في النظر وفسولة في التفكير ورداءة في الرأي، لأننا لا نطلب من المؤرخ أن يقرأ كتب الحديث ليستخرج منها أحكاماً فقهية فهذا عمل الفقهية أو يستخلص منها فتاوي فهذه وظيفة المفتي ولكن لأنها تعج بالحوادث التاريخية التي أغفلتها كتب السّير والتواريخ أو التفتت عنها أو لإلقاء الضوء على الوقائع التاريخية لتحليلها الموضوعي الصحيح بل إننا نطلب من علماء الإجتماع الديني والانثربولوجيا قراءة كتب الأحاديث وموسوعات السنن لأن فيها كنوزاً عن العادات والتقاليد والأنساق الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك:

في الميلاد والختان والبلوغ والزواج والوفاة (طقوس الإنتقال) والطلاق والعتاق والخلع وكيفية قضاء العدة وفي تملك الأرض التي يهبها ولي الأمر وفي المساقاة والمزارعة وأنواع التجارات والملابس والعطور والزينة... الخ وإذا التفت الاجتماعيون الدينيون والانثروبولوجيون إلى ذلك كله ودرسوه وكتبوا عنه أبحاثاً رصينة جادة ساعد ذلك على فهم النصوص وتأويلها ــ وبالتالي عاون على تطوير تفسيرها (لم نقل تطويرها) ــ واستخراج المعاني والقيم منها التي تصلح لوقتنا أو لزمننا وهكذا يفعل كل جيل.

في كتابنا هذا تفادينا هذا الخطأ المنهجي والتفتنا إلى أهمية الأحاديث والسنن ــ ولعلنا نقول ذلك بكل تواضع نحن أول من فعل ذلك ــ لتوصيف وتحليل أحوال الصحاب وهي تضم العصرين المحمدي والخليفي وإن تجاوزناهما قليلاً لما بعد هما تتبعاً لسلوكيات الصحبة الذين طالت أعمارهم بعد ذلك.

وقد التفتنا إلى كتب التاريخ الإسلامي:

الطبري ــ الدينوري ــ البلاذري ــ المسعودي ــ اليعقوبي ــ المقريزي... وغيرهم وأوليناها ما تستحقه من عناية وكذلك كتب السيرة النبوية وأخذنا منها الكثير رغم أننا كما كررنا لسنا بصدد تأريخ للصحاب والصواحب بيد أننا لم نعتمد عليها أو بتعبير أدق لم نقتصر عليها وحدها ــ بل استندنا إلى غيرها من غالبية كتب العلوم الإسلامية ربما باستثناء أصول الفقه وأصول الدين أو علم الكلام لأنها تتناول مسائل تجريدية وفروضاً نظرية... الخ.

وبذلك كان عمدتنا في الدراسة والبحث عدد وفير من كتب:

تفسير القرآن وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وموسوعات الحديث: الصحاح وغيرها ــ ومناسبات ورود الحديث والفقه والخراج والأموال ــ والأحكام السلطانية وأحوال الصحابة ــ والمناقب والطبقات والأنساب والعواصم... الخ.

وجميعها كتب تراثية وقد تعمدنا أن تكون كلها كذلك لكي نقطع السبيل على أي معترض وحرصنا الحرص كله على أن تجيء الأخبار والآثار والنوازل والوقائع والأحداث موثقة أشد ما يجيء التوثيق لأن بعضاً ولا نكون مغالين إذا قلنا إن كثيراً منها سوف يصدم القارئ صدمة عنيفة قد تفقده توازنه ــ لماذا؟

لأن القارئ عاش طوال عمره وهو يطالع صورة مزوقة مبرقشة جهدت فرق التعظيم والتفخيم والتبجيل على تزيينها وتجميلها وتحسينها عن طريق الانتقاء والاختيار والتلفيق والتوفيق بين المتناقضات وإخفاء الحقائق الثابتة التي تناقض هذه الصورة المصنوعة والمصطنعة والذي لا نشك فيه أن القارئ سوف يسأل: هل كان أصحاب وجماعات التفخيم والتعظيم والتمجيد قد قرأوا ما كتب عنهم ومع ذلك قدّموهم للناس بتلك الهيئة المغايرة؟

لا شك أن الإجابة بالإيجاب؟

إذن كيف طاوعهم ضميرهم وأمانة العلم التي يجب أن يتحلّوا بها أن يغضوا الطرف عنها؟

الأسباب كثيرة وإذ نحن دائماً نفترض حسن النية وسلامة الطوية فنذهب إلى أن العاطفة الدينية الجياشة كانت وراء ذلك كله ولكن مع جيشانها فإنها بميزان صحيح الإسلام باطلة وفاسدة إذ أن محمداً نفسه توقّع أو قل تنبأ أن عدداً من صحبه سوف يحيد عن طريقه ولذا فعندما سيلقاه في الدار الآخرة سيشيح عنه بوجهه ويقول له سحقاً ــ هذه واحدة.

أما الأخرى فإن الصحب أنفسهم كانوا لا يدّعون القداسة ولا حتى العصمة بل إن من أكابرهم من صَرح دون جمجمة أن له شيطاناً يعتريه وانتقد بعضهم بعضاً علانية وعلى رؤوس الأشهاد بل سبّ بعضهم بعضاً على أعواد المنابر، ودعك مما يقوله ابن العربي صاحب العواصم من القواصم من أن ذلك جائز لهم ومحرم على غيرهم إذ لا سند له في هذا الإدعاء من (النصوص) إلاّ بلّي اعناقها وعبر باب التمحل.

وقارئ هذا الكتاب سوف يطالع منهجاً جديداً اتبع الموضوعية الصارمة ونحى عن نفسه كل العوائق التي تحول دونه ــ ونحن نرجّح أن الإنتظار طال بالقارئ له ولأمثاله ممن سيسير على دربه حتى يكتب التاريخ العربي الإسلامي كتابة علمية صحيحة.

بقيت كلمة خاتمة وهي أن هذا الكتاب بأسفاره التي نأمل أن ترى النور تباعاً يدفعنا التواضع إلى أن نقرر أنه محاولة رائدة ودائماً وفي كل المجالات تتسم المحاولات الرائدة بقدر قد يكون ضئيلاً أو متوسطاً أو كبيراً من القصور، ولكن الذي لا مشاحة فيه أن للريادة شرفها الذي نرجو أن ينالنا شطر منه ــ والله وحده ولي التوفيق.

الأربعاء ١٣ من ربيع الآخر ١٤١٧هـ

٢٨ ــ ٨ ــ ١٩٩٦

بولاق الدكرور

خليل عبد الكريم

[Blank Page]

مجتمع الصحابة

[Blank Page]

وصف القرآن محمد بأنه بشر مثلكم، وبالتالي فإن الصحابة بشر أيضاً يشتجر بينهم ما يشتجر بين الناس من خلافات ونزاعات وتبادل ألفاظ صعيبة يمكن أن توصف بأنها جارحة أو دامية وهذا مرده إلى أن الغالبية العظمى منهم لم يعاشر محمداً مدة كافية لتهذيب أخلاقه وليقتبس منه الخلق العظيم الذي أضفاه القرآن عليه، حتى الذين عاشوا معه حقبة طويلة صرفهم عنه الإشتغال في الحيطان أو البساتين كناية عن الزراعة أو الصفق في الأسواق كناية عن التجارة، وكل هؤلاء الصحبة (إلاّ أقل القليل يستوي في ذلك الرجال والنسوان) عاش الشطر الأكبر من عمره في الفترة التي يسمونها بالجاهلية! وتخلق بأخلاقها ورضع ألبانها وتعود عاداتها وسنن الإجتماع وتؤكد أنه من أعسر العسر أن ينزع المرء عن إلفه وعوائده وما رُبي عليه فجأةً أو ما بين عشية وضحاها أو حتى بعد عقد واحد من السنين. وقد تفاوتت معاملات الصحابة فيما بينهم من السب والشتم ــ بعضه هيّن والآخر قبيح ــ إلى الضرب إلى القتل، وقد يتساءل قارئ: القتل؟ كيف؟

وقبل أن نقدم الأدلة الموثقة عليه نذكر أننا لم نركّز أو نعوّل

على ما جرى في ساحات الحرب: علي من جانب وعائشة وطلحة والزبير من جانب آخر أو بين علي ــ ومعاوية رغم ما وقع فيها من بشاعات يصعب على المرء أن يصدق نسبتها إلى من صحب محمداً ولو يوماً أو ساعة من زمن، ودافعنا إلى الإغضاء (إلاّ قليلاً) عن نوازل تلك المعارك أنها حدثت في أوقات غير عادية أي استثنائية أي شاذة ــ لأن الحروب تستخرج أسوأ ما في نفس الإنسان وتعود به إلى عصور الهمجية ولا نقول البدائية ــ نحن بداهة نعني بتقديم مجتمع الصحابة ــ وصفاً وتحليلاً ــ وهم يحيون حياتهم العادية. لا هم يحتربون باستثناء أخبار قليلة تضيء أحوال مجتمعهم وهم في حالة استرخاء:

ونبدأ بـ «السب»

رأينا فيما سبق أمثلة من عباراته مثل وصف خالد بن الوليد لعمار بن ياسر وفي حضرة محمد بـ (العبد).

١ ــ (عن عبد الله بن سعيد بن العاص أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول: إن رسول الله (ص) بعث أبان بن سعيد بن العاص على سرية من المدينة قبل نجد فقدم أبان وأصحابه على رسول الله (ص) بـ خيبر بعد أن فتحها وأن حزم خيلهم ليف، فقال أبان: إقسم لنا يا رسول الله، فقال أبو هريرة: فقلت: لا تقسّم لهم يا رسول الله فقال أبان: يا وبر تحدر من رأس ضال، فقال رسول الله (ص) إجلس يا أبان ولم يقتسم لهم رسول الله[١].

(والوبر دويبة على قدر السنور والضال باللام مكان أو جبل

(١) **أسد الغابةِ في معرفة الصحابة** لابن الأثير الجزري، المجلد الأول ص ٤٧، طبعة ١٩٧٠م كتاب الشعب بمصر.

بعينه ــ يريد توهين أمره وتحقير قدره ويروا (ضان) بالنون جبل في أرض دوس. أ. هـ).

أما أبو هريرة فهو دوسّي (من قبيلة دوس) ضعيف كان في عداد خدم محمد يلازمه على شبع بطنه ولذا فقد عزَّ على أبان العبشمي (نسبة إلى عبد شمس) أن يتدخل مثل أبي هريرة في مسألة بينه وبين ابن عمه محمد فسبّه وشبهه بالسنّور الذي يتحدر من قمة الجبل، خاصة وإن الأمر يتعلق بالغنائم التي كان لها في نفوس الأصحاب مكانة حبيبة. والذي يلفت النظر أن محمداً لم يزبُر (يزجُر لفظاً ومعنى. أ. هـ) أبان وكل ما قاله له: إجلس ولو أنه وافق الدوسي على رأيه ولم يقسّم لأبان ولا لأصحابه ولو قلنا إن ذلك كان جزاءً وفاقاً لأبان لتطاوله على أبي هريرة يثور السؤال ولكن ما ذنب أصحاب أبان في تلك السرية؟

إذن عدم القسم كان لعلة رآها محمد غير السب.

٢ ــ (واقعة أخرى حدثت أيضاً بين أموي عبشمي قرشي وبين مولى أسود أفطس أما الأول فهو مروان بن الحكم والآخر هو أسامة بن زيد بن حارثة وكان يقال له (الحب إبن الحب) أي حبيب محمد وإبن حبيبه ولكن ذلك لم يشفع له لدى مروان فسبه سباً قبيحاً. وإذا كانت الحادثة قد وقعت بعد وفاة محمد إلاّ أنها بين صحابين معروفين: (روى محمد بن إسحق عن صالح بن كيسان عن عبيد الله عن عبد الله قال: رأيت أسامة بن زيد يصلي عند قبر النبي (ص) فدُعي مروان إلى جنازة ليصلي عليها، فصلى عليها ثم رجع وأسامة يصلي عند بيت النبي (ص) فقال له مروان: إنما أردت أن ترى مكانك فعل الله بك ــ وقال قولاً قبيحاً ثم أدبر فانصرف أسامة وقال: يا مروان إنك آذيتني وإنك فاحش متفحش وإنى

سمعت رسول الله (ص) يقول إن الله يبغض الفاحش المتفحش)[٢].

كان مروان علاوة على حسبه ونسبه عاملاً لمعاوية على المدينة فغاظه أن يتجاهله أسامة بن زيد ولا يصلي خلفه صلاة الجنازة ويستمر في صلاته عند بيت محمد ولا شك أنه فعل ذلك معتزاً بصلته وصلة أبيه الحميمة بمحمد.

ولم يتبلع أسامة الإهانة كما فعل أبو هريرة في الخبر الأول بل كال الصاع صاعين لمروان وهو على ثقة أنه لن يقتص منه لمكانته ومكانة أبيه من محمد وأنه لو أقدم على ذلك لأهاج هائج من بقي من الصحب والتابعين وسائر المسلمين.

٣ ــ وهذه واقعة بطلها أيضاً أموي عبشمي قرشي وقعت بين إثنين من مشاهير الصحابة.

(ثم صار عبادة بعد إلى فلسطين وكان معاوية خالفه في شيء أنكره عبادة فاغلظ له معاوية في القول فقال عبادة: لا أساكنك بأرض أبداً ورحل إلى المدينة)[٣].

الأول هو معاوية بن أبي سفيان من بني أمية والآخر هو عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري وكان قديم الإسلام إذ شهد العقبتين الأولى والثانية ثم بدراً وسائر المشاهد مع محمد ولكن ذلك لم يشفع له لدى ابن أبي سفيان فهو من ذروة قريش وكان والياً على الشام لعمر آنذاك لأن بقية الخير (فقال عمر: ما أقدمك؟ فأخبره فقال عمر: إرجع إلى مكانك فقبّح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك، وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه)[٤].

---

(٢) **أسد الغابةِ** الجزء الأول، ص ٧٧ وكذا في **الاستيعاب** المجلد الأول ٨٠/ ٨١.
(٣) **أسد الغابةِ** ج ٣، ص ١٦٠.
(٤) الصفحة نفسها والمصدر نفسه.

ولعل هذا الخبر يحمل إرهاصات تحولات قادمة لا تقدر السابقة في الإسلام حق قدرها وذلك بسبب التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية التي استجدت والتي انتهت بـ السلطة السياسية إلى أيدي بني أمية، لأنهم كانوا أقدر فروع قريش على التعامل مع الأوضاع التي طرأت، فهم يمتازون بالتفكير العقلاني الواقعي.

٤ ــ وهذا الخبر يؤكد ما قلناه:

(عن عكرمة بن خالد المخزومي أن أسيد بن حُضير الأنصاري كان عاملاً (= والياً) على اليمامة وأن مروان كتب إليه أن معاوية كتب إليه: أيما رجل سرقت منه سرقة فهو أحق بها حيثما وجدها فكتب إلى مروان: أن رسول الله (ص) قد قضى إن كان الذي إبتاعها من الذي سرقها غير متهم (حسن النية) فخُير سيدها فإن شاء أخذ ما سُرق بثمنه أو اتبع سارقه. ثم قضى بذلك بعده أبو بكر وعمر وعثمان ــ فكتب بذلك مروان إلى معاوية فكتب إليه معاوية إنك لست أنت ولا أُسيد تقضيان علي ولكني قضيت عليكما فيما وليت ــ فأرسل مروان إلى أُسيد بكتاب معاوية فقال أُسيد: لست أقضي ما وليت بما قال معاوية)(٥).

وأُسيد بن حُضير أوسي أنصاري له صحبة ورواية (له رواية ــ حديث عن محمد أ. هـ) وهو أخو عبّاد بن بشر (لأمه).

والأخير هو الصحابي الذي اقترح عمر على محمد أن يأمره بقطع رقبة عبد الله بن أبي سلول زعيم المعارضة السياسية أو رأس المنافقين ــ كما ذكرنا فيما سلف ــ وكان (أُسيد) أبدي إستعداده للاشتراك في عركة أُحُد ولكن محمداً إستصغره ورده وشارك في

---

(٥) **أسد الغابةِ** ج١، ص ١١٣.

غزوة الخندق وكانت شديدة الوقع على محمد والمسلمين ــ وهو أيضاً ابن عم رافع بن خديج صحابي معروف ــ أي أن أُسيداً كانت له صحبة ورواية ومنزلة يعرفها معاوية ولكنه لم يعبأ بذلك كله واستهان به.

٥ ــ ولم يكن كبار الصحابة بمنجاة من لسان غيرهم من الصحابة.

(عن ناشرة بن سُمي اليزني قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول يوم الجابية (قرية تابعة لدمشق شمال حوران. أ. هـ.) وهو يخطب: إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد، إنى أمرته بحبس هذا المال من المهاجرين (أو من ضعفة المهاجرين) فأعطاه ــ ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فنزعته وأثبت أبا عبيدة بن الجراح، فقام أبو عمرو بن حفص المخزومي فقال: والله ما عدلت يا عمر لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله (ص) وغمدت سيفاً سله رسول الله (ص) ووضعت لواءً نصبه رسول الله (ص) ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم. فقال عمر: إنك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك)[٦].

هذا الخبر يتناول واقعه تاريخية لم تنل حظها من تمحيص الباحثين والدارسين وهي عزل خالد بن الوليد من القيادة العامة للجيش. رغم انتصاراته الساحقة في كل المعارك فهو لم يهزم لا في (الجاهلية؛) ولا في الإسلام وحقق للإسلام فتوحات باهرة لم يكن يحلم بها المسلمون، وهذه الواقعة مثل كثير غيرها من وقائع التاريخ العربي الإسلامي لم تدرس دراسة موضوعية ويمر عليها المؤرخون مهرولين ونعود السياق:

(٦) **الإستيعاب في معارفة الصحاب** لإبن عبد البر المجلد الرابع، ص ١٧٢٠، الخبر بنصه في **أسد الغابةِ** ص٦٦ ج١ مصدران سابقان.

أبو حفص هذا من بني مخزوم (رهط خالد بن الوليد لذا قال له عمر: مغضب في إبن عمك أي خالد. أ. هـ.) وهو صحابي أرسله محمد مع علي عندما بعثه أميراً على اليمن ومجابهته لعمر بن الخطاب تنبعث من مستوقد الغضب المكتوم الذي تنضوي عليه صدور أبناء الفروع العوالي من قريش: بني هاشم/ بني أمية/ بني المغيرة/ بني مخزوم... الخ على تولي كل من أبي بكر (من بني تيم) وعمر (من بني عَدّي) الخلافة وهما من رهطين أقل مكانة في قريش منهم وليست تسخطاً من أبي عمر حفص على عزله إبن عمه خالد فحسب.

والحيثيات التي قدمها ابن الخطاب تبريراً لعزله سيف الله المسلول خالد بن الوليد غير مقنعة ولو أنها كشفت بوضوح عن نظرة عمر بن الخطاب وغيره من الصحاب المهاجرين إلى الأموال الأسطورية التي نُزحت نزحاً وكسحت كسحاً من البلاد الموطوءة (فارس ــ العراق ــ الشام ــ مصر) لا بدّ بطريق الجزم واللزوم أن تصب في جيوب المهاجرين لأن غالبيتهم العظمى من قريش صاحبة السيادة والدولة ولأنهم هم الذين نصروا محمداً في تأسيسها. ونختم هذه الفقرة ببيان كيفية تقبل أبي عبيدة بن الجراح تعيين ابن الخطاب له قائداً على جيوش الفتح (فيلد مارشال) بدلاً من العبقري خالد (عن تميم عن سلمة قال: لما قدم عمر ــ رضي الله عنه ــ استقبله أبو عبيدة بن الجراح فصافحه وقبل يده ثم خلوا يبكيان)[٧].

---

(٧) أخرجه عبد الرزاق الخرائطي في **مكارم الأخلاق** والبيهقي وابن عساكر، عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي ج ٣، ص ٣٢٢.

وفي إعتقادي أن بكاء عمر بكاء استغفار وندم لعزله ابن الوليد في غير ذنب ولا جريرة أما بكاء ابن الجراح فهو بكاء فرح لأنه فاز برتبة ما كان يحلم بها لا في منام ولا يقظة والبكاء كما يكون من الندم يكون من الفرح، أما تقبيل اليد فلا يحتاج إلى مفسّر.

٦ ــ وحتى علماء الصحابة أو قرّاؤهم لم يكونوا بعيدين عن الوقوع في بعضهم بعضاً: فقد (صح عن عبد الله بن مسعود أنه قال لما كتب زيد بن ثابت المصحف أنه قال: لقد أسلمت وأنه في صلب رجل كافر)[٨].

ابن مسعود وزيد بن ثابت معدودان من علماء الصحابة ومن الذين حفظوا القرآن واستظهروه وكانوا حجة فيه (للدقة يقال إنهم استظهروا أغلبه لأن الإخباريين لم يذكروهم ضمن الأربعة الذين حفظوا القرآن في حياة محمد. أ. هـ) وفي هذه القالة نفّس ابن مسعود عن غضبه لأنه لم يتم إختياره ولو حتى عضواً في اللجنة التي كلفها عثمان بن عفان بكتابة المصحف الذي عُرف بـ(مصحف عثمان كما كان له مصحف خاص به كتبه بيده، فأمر عثمان بإحراقه وكذا سائر المصاحف الأخرى التي كانت لدى عدد من الصحبة منهم: علي وأبي ولكن عبد الله بن مسعود رفض تسليم مصحفه وقاوم وعصلج)[٩].

فأمر به عثمان فجُلد وجُر برجله حتى كسر له ضلعان ومنعه عطاءه فظل (ابن مسعود) مغاضباً للخليفة حتى توفي[١٠].

كانت تلك الواقعة من أسباب الثورة على عثمان إذ حسبت

(٨) أسد الغابةِ، ج ١ ص ٩٧.
(٩) في **المعجم الوسيط، عصلج** الشيء أي تعسر واشتد.
(١٠) **تاريخ اليعقوبي** المجلد الثاني ص ١٧٠، د. ت. ن. دار صادر بيروت.

عليه أخطاؤه ولكن السؤال الذي لا بد أنه ثار في ذهن كل قارئ: ما الذي كان في مصحف ابن مسعود ودفع الخليفة الثالث إلى إحراقه ولو أدى إلى جلد صحابي في وزن ابن مسعود وكسر ضلعين من ضلوعه وحرمانه من عطائه؟ كذلك تدخل هذه الواقعة في باب المعاملة العنيفة التي عامل بها عدد من الصحاب حتى الأكابر منهم بعضهم بعضاً والتي لا تتدرج تحت التجاوزات الملفوظة. والأدلة على عراك كبار الصحابة وإيذاء بعضهم بعضاً باللسان كثير منها:

٧ ــ عن الشعبي عن عبد الله بن أبي أوفي قال: إشتكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبى (ص) فقال: يا خالد لم تؤذي رجلاً من أهل بدر، لو أنفقت مثل أُحد ذهباً لم تدرك عمله، فقال يا رسول الله: يقعون فيّ فأرد عليهم فقال: لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه على الكفار(١١).

حتى أكابر الصحاب من بلغ منهم الذروة لم يكونوا بمنجاة من ذلك.

٨ ــ عن ابن عمر أن أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ قال عن عمر شيئاً ثم قال إستغفر لي يا أخي فغضب عمر فقال ذلك مرات فغضب عمر فذكر ذلك للنبي (ص) وانتهوا إليه وجلسوا فقال (عمر) والذي بعثك بالحق نبياً ما مرة يسألني إلاّ وأنا استغفر له وما من خلق الله أحب إلي بعدك منه، فقال أبو بكر والذي بعثك بالحق ما من أحد بعدك أحب إلي منه ــ فقال رسول الله (ص): لا تؤذوني في صاحبي فإن الله عز وجل بعثني بالهدى ودين الحق فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدقت ولولا أن الله عز وجل أسماه

(١١) **الاستيعاب في معرف الصحاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني ص ٤٢٩، المصدر السابق.

صاحباً لاتخذته خليلاً ولكن أخوةً في الله، ألا فسدوا كل خوخة إلاّ خوخة ابن أبي قحافة)[١٢].

والخبر عينه رواه البخاري وعُجُزه كالآتي:

(... فجعل وجهه النبي (ص) يتمعر حتى أشفق أبو بكر وجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله والله أنا كنت أظلم مرتين)[١٣].

ترى ما الذي قاله أبو بكر لعمر حتى أغضبه لتلك الدرجة ووصل الأمر إلى محمد.

٩ ــ (عن ربيعة الأسلمي قال: كنت أخدم النبي (ص) فقال لي يا ربيعة ألا تزوج قلت: لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج وما عندي ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلني عنك شيء... فأرسلني إلى حيّ من الأنصار.. فزوجوني وألطفوني... ثم قال: إن رسول الله (ص) أعطاني بعد ذلك أرضاً وأعطى أبا بكر أرضاً وجاءت الدنيا فاختلفنا في عزق نخلة فقلت أنا: هي في حدي وقال أبو بكر: هي في حدي وكان بيني وبين أبي كلام فقال لي أبو بكر كلمة كرهتها... ووصل الأمر إلى رسول الله (ص) فقال: يا ربيعة مالك والصديق... الخ)[١٤].

---

(١٢) أخرجه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، ج٢ ص ٢٧٦ وأورد الخبر بتمامه شيخ الإسلام ابن تيمية في **منهاج السنة المحمدية** في الجزء الرابع مرتين الأولى ص ٤٥ والأخرى ص ٢٥٣ المصدر السابق.

(١٣) أخرجه البخاري عن أبي الدرداء، رضي، وكذا في **صفة الصفوة**، عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني، ص ٢٧٦، المصدر السابق.

(١٤) أخرجه أحمد والطبراني وأبو يعلي والحاكم وابن سعد نقلاً عن **حياة الصحابة**، المصدر السابق.

والخبر بهذه المثابة صحيح لوروده في العوالي من كتب السنة وأخرجه الثقات مثل أحمد والطبراني وأبو يعلي والحاكم وابن سعد ـ وفضلاً عن أنه يدخل في باب السب وإقدام الأكابر من الصحب عليه فيما بينهم فإنه يدلنا على أن الأموال كانت في نظرهم أثيرة تدعو المحافظة عليها إلى العراك بل إلى رفع السلاح في وجوه بعضهم البعض كما سنرى في الفقرة التالية والخبر ينقل إلينا أن الدنيا أقبلت على الأصحاب (وجاءت الدنيا) ولا بد أن ذلك كان بعد الغزوات والسرايا وما جرته من غنائم وأسلاب... الخ أما بعد الفتوحات ونزح ثروات البلاد الموطوءة وصبها صباً في حجورهم فلا شك أن الدنيا أقبلت عليهم وجاءت إليهم بشكل أسطوري لم يكن يخطر في خيالهم!!! كل ذلك بعد أن كان الواحد منهم لا يملك مهراً يتزوج به ولا طاقة له على إعالة زوجته.

١٠ ـ عن الزهرى قال أخبرني رجل من الأنصار من أهل الفقه أنه سمع عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ يحدث أن رجلاً من أصحاب النبي (ص) حين توفي النبي (ص) حزنوا عليه حتى كان بعضهم يوسوس قال عثمان: كنت منهم، فبينما أنا جالس في ظل أُطُم من الآطام مرّ عليّ عمر ـ رضي الله عنه ـ فسلم عليّ فلم أشعر أنه مر ولا سلم، فانطلق عمر حتى دخل على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وقال له ما يعجبك أني مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام، وأقبل هو وأبو بكر في ولاية أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حتى سلما علي جميعاً ـ ثم قال أبو بكر جاءني أخوك عمر فذكر أنه مر عليك فسلم فلم ترد عليه السلام، فما الذي حملك على ذلك، قال: قلت ما فعلت، فقال عمر والله قد فعلت ولكنها عبيتكم يا بني أمية قلت والله ما شعرت أنك مررت ولا سلمت،

قال أبو بكر: صدق عثمان...) عُبيّة الجاهلية بالضم والكسر ــ الكبر[١٥].

ابن الخطاب لا تفارقه حقيقة وضعه القبلي في قريش فهو من عديّ الأدنى رتبة من بني هاشم وأمية ومخزوم فهو في هذا الخبر يفسر إحجام إبن عفان عن رد السلام عليه على انتسابه إلى بني أمية وعندما واتته الفرصة لتولي الإمامة العظمى أو الخلافة نفّس ــ بعض الشيء ــ عن هذه النزعة فأطاح بخالد بن الوليد وحوّله من قائد عام إلى مجرد (نفر).

١١ ــ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: كلم طلحة عامر بن فهيرة بشيء فقال له النبي (ص) مهلاً يا طلحة فأنه قد شهد بدراً كما شهدته وخيركم خيركم لمواليه)[١٦].

طلحة بن عبيد الله ولو أنه من بني تيم رهط أبي بكر بن أبي قحافة وهم لا يعتبرون من علياء قريش إلا أنه من أثرياء الصحابة وبذل كثيراً في سبيل الإسلام ودولة قريش حتى أن محمداً نفحه ألقاباً فخمة مثل (طلحة الفياض) و(طلحة الخير) ومن السابقين في دخول دين محمد فهو معدود من الأكابر بين الصحبة ــ فضلاً عن

(١٥) الحديث أخرجه الإمام أحمد في **مسنده** وأبو يعلي في **مسنده** بلفظ ومن طريقه السابق، رواه الهيثمي في **مجمع الزوائد**، وقال: رواه أحمد والطبراني في الأوسط باختصار وأبو يعلي بتمامه والبزار بنحوه، وفيه رجل لم يسّم ولكن الزهري وثقه وأبهمه، نقلاً عن السيوطي في **الجامع الكبير أو جمع الجوامع**، العدد الخامس عشر من الجزء الرابع ص ١٨٧١، من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، مصر.

(١٦) ورد في **معجم الطبراني الكبير** وعبد الرحمن هو ابن عوف، كما ذكره الحاكم في **المستدرك** وقال عنه صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في **التلخيص**، وهو أيضاً في **مجمع الزوائد** نقلاً عنه صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التلخيص، وهو أيضاً في **مجمع الزوائد** نقلاً عن جمع **الجوامع** للسيوطي ج٤ العدد ٢٤ ص ٢٩٧٢، الطبعة الأولى، مجمع البحوث الإسلامية بمصر، المصدر السابق.

أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة وهم كما ذكرنا مراراً ــ وليغفر لنا القارئ التكرار ــ الذين حلوا محل (الملأ) ملأ قريش الذي كان يهيمن على مقاليد الأمور في مدينة القداسة مكة قبل إعلان محمد لنبوته.

أما عامر بن فهيرة فهو من المستضعفين وكان عبداً مملوكاً للطفيل أخي عائشة من أمها وطفق يعذبه لإسلامه حتى يرجع عنه فاشتراه أبو بكر وأعتقه ومن ثم أصبح مولي لبني تيم (رهط أبي بكر وطلحة) وهذا ــ يفسر قولة محمد خيركم خيركم لمواليه ولعب ابن فهيرة دوراً متميزاً إبان هجرة محمد (وأبي بكر) من مكة ليثرب/ المدينة وآخى محمد بينه وبين أحد الأنصار: الحارث بن أوس بن معاذ وشهد بدراً واحداً(١٧).

ومعلوم أن الذين شهدوا بدراً أعطاهم محمداً صكاً بالبراءة من النار أي مغفورة لهم خطاياهم، ولكن طلحة بن عبيد الله اعتماداً على جاهه وثرائه الطائل وأنه مولي لعامر لم يعبأ بهذا التاريخ الناصع البياض الذي يحمله ابن فهيرة على كتفيه ــ الأمر الذي دعا محمداً إلى أن يلفت نظر طلحة إلى أن عامراً يساويه في رتبة شهود غزوة بدر الكبرى وسبق أن ذكرنا أنها رتبة عالية ترتفع بها درجة من يحوزها.

وهذا الخبر وأضرابه يثير مشكلاً: كيف تسنى للصحاب المبشرين بالجنة والمغفورة لهم خطاياهم والحاصلين على صكوك البراءة من دخول نار الجحيم أن يتسابوا ويتشاتموا ويقع بعضهم في حق الآخر بل كيف سلوا السيوف في وجوه بعضهم بعضاً كما

(١٧) **أنساب الأشراف** للبلاذري، تحقيق محمد عبد الله، الجزء الأول ص ١٩٣ الطبعة الأولى، دار المعارف بمصر.

حدث بين علي وطلحة والزبير؟ والحق أن هذا السؤال حيرني كثيراً ولم أعثر له على إجابة. هذه واقعة دفعت عدداً من كبار الصحاب إلى أن يدخل في معركة كلامية مع بطلها لإن الفعل الذي ارتكبه كان على درجة قوية من الفظاعة والاستهانة بالروح الآدمية وقبل أن يثير ثائرتهم ويطلق ألسنتهم فيه، أفزع محمداً أيما إفزاع حتى إنه اتجه إلى السماء يعلمها أو يعلنها أنه بريء منه وحاول أن يأسو الجراح التي خلفها ولكن أنى يعوض المال فقد الأحباب!

بعد فتح مكة بعث محمد خالد بن الوليد إلى (بني جذيمة) في ثلثمائة وخمسين رجلاً من بني سُليم والمهاجرين والأنصار داعياً إلى الإسلام فقالوا: نحن قوم مسلمين قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد وأذنا فيها ولكن خالداً أمر بهم فأسروا ودفعهم إلى جنوده كل واحد رجلاً أو رجلين ثم نادى من كان معه أسير فليذاف = يضرب عنقه) وكان معه عدد من كبار الصحاب اعترضوا على رأيه وقالوا إنهم مسلمون ولا يحق له قتلهم ولكنه لم يعبأ وجرت مذبحة من أبشع المذابح ــ (فلما بلغ رسول الله (ص) ما صنع خالد بن الوليد رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه وهو يقول: اللهم أني أبرأ إليك مما صنع خالد..)[١٨].

ثم إنه (دعا علي بن أبي طالب فقال: يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله (ص) فدوي لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى إنه ليدي ميلغة الكلب ــ حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم علي حين فزع منه: هل بقي دم أو مال لم يؤد لكم؟

---

(١٨) **كتاب المغازي** للواقدي، ص ٨٨١، الجزء ٣، المصدر السابق.

قالوا: لا قال فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله (ص) مما لا يعلم ولا تعلمون ثم رجع إلى رسول الله (ص) فأخبره فقال: أصبت وأحسنت ثم قام رسول الله (ص) فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد[١٩].

وقد باشر محمد بنفسه التحقيق في الواقعة (... انفلت رجل من القوم فأتى رسول الله (ص) فأخبره الخبر فقال رسول الله (ص) هل أنكر عليه أحد؟ فقال نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهمه (زجره ونهره) فسكت عنه وأنكر عليه رجل طويل مضطرب فراجعه، فاشتدت مراجعتهما، فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة)[٢٠].

وممن عارض خالداً في أمره بذبح الأسرى الجذيميين الأنصار والمهاجرون الذين كانوا معه ولم يطعه إلاّ البدو الأعراب الجفاة من بني سليم ــ و(غضب خالد على من أرسل من الأنصار فكلمه يوم إذن أبو أسيد الساعدي (الأنصاري) وقال: اتق الله يا خالد والله ما كنا لنقتل قوماً مسلمين قال: وما يدريك؟ قال: نسمع إقرارهم بالإسلام وهذه المساجد بساحتهم)[٢١].

وهكذا شهد هؤلاء الصحبة العدول على ابن الوليد أنه قتل قوماً

---

(١٩) **الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، تأليف الإمام أبي الربيع الكلاعي الأندلسي، ٥٦٨/ ٦٣٤هـ، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، ص ٣١٨ الجزء الثاني، طبعة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م، مكتبة الخان جي بمصر، وهذه الواقعة لا يخلو منها كتاب من كتب السيرة، انظر على سبيل المثال **عيون الأثر** لابن سيد الناس، ص ١٨٦ المجلد الثاني، د. ت. ن. دار المعرفة ببيروت.
(٢٠) **السيرة النبوية**، ت. ٣١٣هـ، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، ص ٣٨، الجزء الثالث.
(٢١) كتاب **المغازي** للواقدي، المجلد الثالث، ص ٨٨٧، المصدر السابق.

مسلمين ــ أما ما جاء في كتب السيرة المتأخرة تبريراً لفعلة خالد التي أفزعت محمداً من أن هؤلاء الجذيمين لم يكونوا يحسنون قول: أسلمنا فقالوا صبأنا فهذا مردود عليه بالآتي:

١ ــ أن هذا لا أصل له في كتب السيرة المتقدمة مثل سيرة (ابن هشام) و(المغازي) للواقدي و(عيون الأثر) لابن سيد الناس و(الاكتفاء) لِ الكلاعي.

٢ ــ حتى لو قالوا: صبأنا فقد كان على خالد أن يستفسر منهم عن معناها لديهم ويطلب منهم النطق بالشهادتين.

٣ ــ أن المذبحة لم تتم فوراً ولكن بعد جدال وشد وجذب بينه وبين المهاجرين والأنصار الذين كانوا معه أي كان هناك وقت كاف للتأكد من ــ إسلام الجذيميين.

٤ ــ كيف لم ير خالد المساجد في ساحة بني جذيمة والتي أشار إليها غيره من الصحاب الذين كانوا معه في تلك السرية!.

٥ ــ لو كان الاختلاف في اللهجة هو سبب قتل بني جذيمة لذكره خالد تبريراً لفعلته سواء لمحمد أو لعمر بن الخطاب وعلى سبيل المثال نقل إلينا الواقدي دفاع خالد عن نفسه أمام عمر تفصيلاً وليس فيه إشارة لذلك(٢٢).

لا شك أن خالداً كان يميل للشدة ولذا قال في حقه شيخ الإسلام ابن تيمية في **منهاج السنة النبوية** أنه قتل من خلق ما لا يحصيه إلاّ الله ــ وذكر ابن عبد البر أن قتل بني جذيمه لم يكن صواباً(٢٣).

---

(٢٢) **كتاب المغازي**، للواقدي، الجزء ذاته والصفحة نفسها.
(٢٣) **الاستيعاب**، المجلد الثاني، ص ٤٢٨، مصدر سابق.

وأكد ابن تيمية أن من كان معه من أعيان الصحابة مثل عبد الله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهما أنكر على ابن الوليد فعلته في بني جذيمة مما دفع محمد إلى أن يرفع يديه إلى السماء ويبرأ من صنيع خالد[٢٤].

هذا العمل المستشنع من قبل خالد أثار حفيظة كبار الصحبة فدخلوا في اشتباك استبابي لم يفضه إلاّ محمد.

أ ــ وكان أول الحانقين عبد الرحمن بن عوف (فقال له عبد الرحمن بن عوف: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام فقال: إنما ثأرت بأبيك، فقال عبد الرحمن بن عوف كذبت قد قتلت قاتل أبي ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شر فبلغ ذلك رسول الله (ص) فقال: مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك مثل أُحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحة)[٢٥]. وقد أورد هذه الخناقة[٢٦] الواقدي في مغازيه (الجزء ٣ ص ٨٨٠) وكذلك أخرج حديثهما بن إسحق برواية أبي جعفر وهناك رواية أخرى لـ أحمد في مسنده من حديث ابن عمر مما يعطيها قوة لإن ابن عمر أحد شهود مذبحة بني جذيمة[٢٧].

(إنما ثأرت بأبيك) والروايات المختلفة يتأكد أن خالد ثأراً فظيعاً من بني جذيمة وروى ابن هشام القصة تفصيلاً وموجزها أن بني

(٢٤) **منهاج السنّة النبوية** لابن تيمية، ج ٢ ص ٢٢٩.
(٢٥) **السيرة النبوية** لابن هشام، الجزء الثالث، ص ٣٩، المصدر السابق.
(٢٦) في **مختار الصحاح** للرازي الخناق بالكسر: حبل يخنق به والمراد بها هنا المشادة.
(٢٧) نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني، ص ٢٤٨/ ٢٤٩.

جذيمه قتلوا الفاكه بن المغيرة عم خالد وعوف بن عبد عوف والد عبد الرحمن وشرعوا في قتل عفان بن أبي العاص بن أمية (والد عثمان) ولكنه أفلت منهم وخلص نجياً[٢٨].

فانتهزها خالد فرصة وكال لبني جذيمة الصاع صاعين فذبحهم ذبحاً ذريعاً وشفى صدره من قتل عمه الفاكه بن المغيره وكان ابن الوليد حديث عهد بالإسلام إذ لم يسلم إلاّ قبل فتح مكة بوقت يسير وعادة أخذ الثأر من العادات الذميمة للفترة السابقة (الجاهلية!)

ثاني المشتبكين مع ابن الوليد كان عمر بن الخطاب (قال عمر لخالد ويحك يا خالد أخذت بني أمية بالذي كان من أمر الجاهلية، أوليس الإسلام محا ما كان قبله في الجاهلية)[٢٩].

ج ـ وإذا كان ابن الخطاب واجه بن الوليد بعبارة لا تعتبر قاسية أو شديدة ولو أنها تحمل التأنيب والتقريع والتوبيخ إلا أن أبا اليقظان دعس ابن الوليد بلسانه دعساً مكيناً بل معسه معساً بليغاً (يا رسول الله لقد حمش قوماً قد صلوا وأسلموا ثم وقع بخالد عند النبي (ص) وخالد جالس لا يتكلم فلما قام عمار وقع به خالد فقال النبي (ص) يا خالد لا تقع بأبي اليقظان فإن من يعاده يعاده الله... الخ)[٣٠].

كان عمار مولى لبني مخزوم ـ رهط ابن الوليد ولكنه سبقه إلى الإسلام والانخراط في دعوة محمد بأمد طويل فغدا من السابقين الأولين في حين أن ابن الوليد لم يسلم إلاّ عن قريب ومن ثم فهو

---

(٢٨) **السيرة النبوية** لابن هشام، المجلد الثالث ص ٣٨، مصدر سابق.
(٢٩) **المغازي** للواقدي، الجزء الثالث، ص ٨٨١.
(٣٠) المصدر ذاته والجزء والصفحة نفسيهما.

لا يساميه في المكانة بميزان الإسلام فانتهزها عمار فرصة جدّ مواتية وفشّ[٣١] غله الذي يملأ صدره من وضعه الطبقي إزاء خالد فهبده[٣٢] هبداً وجيعاً وبطحه غائراً[٣٣] وسلقه بلسانه سلقاً واعراً ــ ولم يستطع ابن الوليد أن يرد عليه حرفاً واحداً لإن محمداً حماه.

في هذه الواقعة اشتبك ثلاثة من أعيان الصحاب مع خالد هم عبد الرحمن بن عوف وأبو اليقظان عمار بن ياسر وعمر بن الخطاب وأسمعوه ألفاظاً قاسية وكلمات قوارص وعبارات حامية شأنهم في ذلك شأن غيرهم من البشر وكأنما كانت تلك المشاحنات الكلامية بني الصحبة هي المقدمة لتلك الحروب الطاحنة التي دارت بينهم والتي هرست بآلتها الجهنمية مئات الألوف من المسلمين وقل أن نقرأ في كتاب التاريخ أن الجنود المخلصين لقائد فذ لثورة ناجحة تقاتلوا بضراوة بالغة وبعنف شديد وقساوة مضاعفة مثلهم مع أنهم في حياة محمد كانوا مثل (السمن على العسل).

وهو حدث مُحير يثير العديد من الأسئلة:

١ ــ هل كان ذلك الوفاق هو السطح الظاهري وفي الصدور والقلوب ما فيها.

٢ ــ أم أن تعاليم محمد السامية لم تتغلغل في وجدانهم بصورة عميقة.

٣ ــ أم هي النشأة الأولى على القتال والغزو وسفك الدماء لأهون سبب.

---

(٣١) **فش الزق:** أخرج ما فيه من الريح، **مختار الصحاح**، للرازي.
(٣٢) **هبد:** كسر **المعجم الوسيط.**
(٣٣) **بطحه:** ألقاه على وجهه، **مختار الصحاح.**

٤ ــ أم هو الخلاف على السلطة وغنائم البلاد المغزوة وخيراتها لأنها جاءت بصورة أذهلتهم كما رأينا.

٥ ــ أم هو التحول بدعوة محمد من دين لهداية البشر إلى سلطة للقهر والغلبة وإذا شئت قلت المبالغة في هذا الشق والاهتمام به دون الشق الآخر ــ لأن هذا التحول بدأ مبكراً للغاية وإن بقي متوازناً مع جانب الهداية والإرشاد.

أغلب ظني أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي دفعت الصحاب (الحرس القديم للثورة) إلى الاحتراب وسلّ السيوف في وجوه بعضهم بعضاً ولكن الذي لا شك فيه أنه لو كان أولئك الأصحاب على درجة أرقى في سلم الحضارة لما وقعت بينهم الحروب بتلك الصورة البالغة البشاعة.

بعد سرد هذه الأمثلة التي تقطع بأن الصحابة كانوا فيما بينهم حتى من كان منهم كبيراً أو مشهوراً أو صاحب سابقة في الإسلام يتبادلون فيما بينهم عبارات السب المهين الجارح. ننتقل بعدها إلى ذكر الأفعال التي تتوسط الشتم والقتل لنختم هذا الفصل بالقتل والاغتيال بأساليب متنوعة ما بين جرعة سُمّ أو ضربة سيف.

قبل ختام الفقرة السابقة انتهينا إلى ذكر نازلة وقعت في بدايات الفتنة أو الخروج أو الثورة على الخليفة الثالث عثمان ونختار من غمارها خبرين:

١ ــ (روي أن جهجاه هو الذي تناول العصا من يد عثمان يومئذ فأخذته الأكلة في ركبته وكانت عصا رسول الله[٣٤].

جهجاه من غفار قبيلة أبي ذر وممن شهد بيعة الرضوان تحت

(٣٤) **الاستيعاب في معرفة الصحاب**، لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٢٦٩.

الشجرة وهؤلاء حازوا على جائزة رضي السماء بنص الآية (لقد رضى الله المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة)[٣٥].

ومن يفوز بذلك لا يسخط الله عليه أبداً لأنه جل جلاله حاشا أن يرجع في عطيته ــ وجهجاه أيضاً هو الذي أوشك أن يشعل نار الفتنة الكامنة تحت الضلوع بين المهاجرين والأنصار في غزاة بني المصطلق حين نادى: يا للمهاجرين فرد عليه سنان بن وبرة الجهني وكان حليفاً لبني عوف بن الخزرج: يا للأنصار ولولا حنكة محمد النادرة لوقع شر مستطير بين الفرقتين.

وكان جهجاه أجيراً لعمر بن الخطاب ومن ثم كان لزيقا به وعاين ممارساته أيام كان خليفة وقارنها بما فعله ابن عفان أثناء ولايته فأحنقه ذلك فخطف العصا من عثمان وهو يخطب ولم يلحظ في ثورته الجامحة أنها عصا محمد وأن إرث محمد يتعين أن يعامل بقدر وفير في التقديس ولكن يبدو أن غفار فيهم حدة أو قل فيهم إستقامة الخلق كما سنتبينه في الخبر التالي الذي بطله غفارى آخر ــ ودعك مما رواه ابن عبد البر في أن الأكلة ضربت ركبة جهجاه (التي كسر عليها العصا أ. ه) فقد تعودنا مثل هذه الأخبار الأسطورية أو الماورائية أو التي يكتبها الإخباريون يوهنون بها شأن الثوار المنافحين عن حقوق العامة أو لزوم نزول نقمة السماء عليهم لجرأتهم على ولاتهم يفعل الاخباريون ذلك، إرضاء للسلطة الحاكمة التي كتبت في عهدها مؤلفاتهم إنما لا يعني هذا أننا نحبذ هذه التصرفات الجافية الغليظة مثلما فعل جهجاه.

٢ ــ أبو ذر الغفاري كان من كبار الصحابة، قديم الإسلام أسلم بعد ثلاثة فكان رابعاً وكان يفتخر وبقول رأيتني ربع الإسلام وكان

(٣٥) الآية ١٨ من **سورة الفتح**.

يحرص على قول الحق مهما كلفه ذلك من ثمن ولذا أثنى عليه محمد خيراً (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر)[٣٦].

فلما رأي ممارسات عثمان التي خالف بها سنة محمد وصاحب أبي بكر وعمر في المال العام (في نظر أبي ذر أنه مال المسلمين صدع بنقده له فوجهه إلى الشام فألفى معاوية يسير على النهج عينه فعاود انتقاده فأرجعه إلى المدينة وفيها استأنف هجومه اللاذع على الخليفة (= عثمان) فأمر بإخراجه منها فسأله: أتخرجني من حرم رسول الله؟ قال نعم وانفك راغم فقال إلى مكة قال: لا، قال: فإلى الكوفة، قال: لا قال إلى البصرة؟ قال: لا ولكن إلى الربذة حتى تموت، يا مروان أخرجه ولا تدع أحداً يكلمه وثقل ذلك على الصحابة وبكى عمار وقبل يدىّ علي ليشفع في أبي ذر لدى عثمان ليعدل عن قراره ولكن الخليفة تمسك وأصر وتلاحيا وحدثث بينهما وحشة فلم يزل أبو ذر في الربذة حتى مات[٣٧].

وفي رواية: أن عثمان أمر بجلد أبي ذر فجُلد ــ وعاش في الربذة شريداً طريداً محروماً وليس في حوزته هو وزوجه سوى ثوب واحد وعندما حضرته الوفاة لم يكن هناك ثوب لكفنه فكفنته رفقة يمانية تصادف مرورها بالربذة وصلّت عليه[٣٨]. والثمن الذي دفعه أبو ذر هو الذي يسدده ولو بصورة أو أخرى كل من يقف في وجه ولى الأمر ويجبهه بكلمة الحق حتى ولو كان صحابياً مثل عثمان!.

---

(٣٦) لمزيد من التفصيلات انظر السفر الأول من هذا الكتاب في باب «التلقيب».
(٣٧) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني ص ١٧٢ مصدر سابق.
(٣٨) **الاستيعاب** المجلد الأول ص ٢٥٥.

٣ ــ وكان الجدال حتى في الشئون الفقهية بين بعض الصحاب ينتهي إلى مد اليد (لما توفي عبد الرحمن بن عوف وخلف مالاً، جعل ذلك أبو ذر من الكنز الذي يعاقب عليه وعثمان يناظره في ذلك حتى دخل كعب ووافق عثمان فضربه أبو ذر)[٣٩].

خلف عبد الرحمن بن عوف تركة أسطورية فقد كان من كبار الأثرياء الصحابة وكان محمد كلما يلقاه يقول له لن تدخل الجنة إلاّ زحفاً وفي رواية إلاّ حبواً يا ابن عوف.

تلك التركة التي عدت بالملايين اعتبرها أبو ذر كنزاً نزولاً على حكم الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة)[٤٠].

ولكنها على مذهب عثمان وهو من الأغنياء الأماثل ليست كذلك فتجادلا فيها وهي مسألة فدخل كعب ولم ينسبه الخبر مع أنه يوجد عشرون صحابياً يحملون هذا الاسم وناصر ابن عفان والله تعالى أعلم بدوافعه فأما إنه كان هو الأخير مليئا أو ممالئلاً للخليفة أو كان يرى أن ابن عوف أنفق في سبيل الإسلام وقدم لمحمد الشيء الكثير إذن ما خلفه ليس كنزاً لأن ذلك مشروط بعدم الإنفاق في سبيل الله بنص الآية (ولا ينفقونها في سبيل الله)[٤١].

وأياً كان الباعث لكعب في تأييد الخليفة فما كان يجوز لأبي ذر أن يضربه لأن الحوار الفقهي أو العلمي لا يليق أن يصل إلى هذه الدرجة. ولكن ذلك يؤكد ما توصلنا إليه وهو إتصاف الغفارين بالحدة ساعة ما ذكرنا خبر جهجاه آنفاً.

٤ ــ كانت بعض تصرفات الصحاب وخاصة الأعراب تثير

---

(٣٩) **منهاج السنّة المحمدية** لابن تيمية، الجزء الثالث، ص ١٩٨.
(٤٠) الآية ٣٤ من **سورة التوبة**.
(٤١) الآية نفسها.

اشمئزاز محمد (عن ابن عوف عن محمد بن سيرين عن عمران بن الحصين أن رجلاً عض يد رجل فانتزع يده فسقطت ثنيته أو ثنيتاه فاستعدى رسول الله (ص) فقال رسول الله (ص): ما تأمرني، تأمرني أن آمره أن يدع يده في فيك تقضمها كما يقضم الفحل، ادفع يدك حتى يعضها ثم انتزعها)[٤٢].

٥ ــ من الثابت أن في نفس عمر من خالد بن الوليد أشياء ربما لأن خالداً من رهط رفيع من قريش (من بني مخزوم) في حين أن عمراً من فرع خفيض (من بني عديّ) وكان خالد قائداً عسكرياً عبقرياً فخشي أن بما تحت إمرته من جيش جرار ينقلب عليه فيزيحه من الخلافة وقيل إن تلك لمنافسة ترجع إلى ما قبل الإسلام أيام الشباب، المهم أن عمراً لم يكتف بعزل خالد من القيادة العامة لجيش الفتح بل كان يلاحقه:

أخرج ابن عساكر وابن سيرين أن خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ دخل على عمر ــ رضي الله عنه ــ وعلى خالد قميص حرير، فقال له عمر ما هذا يا خالد، قال: وما باله يا أمير المؤمنين، أليس ابن عوف قد لبسه؟ قال: فأنت مثل ابن عوف؟ ولك مثل ابن عوف؟ عزمت على من في البيت إلا أخذ كل واحد منهم طائفة مما يليه؟ فمزقوه حتى لم يبق منه شيء)[٤٣].

صحيح أن لبس الحرير حرام على أمة محمد حلال لنسائهم وأن محمداً قد رخص لابن عوف في لبس الحرير لحكة علت جلده أو جسمه وخالد لم يبلغه شيء خاصة وأن بضاعته من الفقه

---

(٤٢) الحديث في **سنن النسائي**، وفي **صحيح مسلم**، أورده السيوطي في **جمع الجوامع**، ص ٢١٤٤ مصدر سابق.

(٤٣) كذا في **كنز العمال** نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة**، للكاندهلوي الجزء الثاني، ص ٢٢٧، مصدر سابق.

شحيحة (لم يحفظ إلا عدداً محدوداً من قصار سور القرآن. أ. هـ) فلما رأي ابن عوف يرتدي الحرير وخالد من بني مخزوم وأبوه الوليد بن المغيرة الذي وصفه القرآن بأن له مالاً ممدوداً أي أن خالداً كان غنياً أيضاً فلم يرَ بأسا من لبس الحرير لثرائه الطائل ومكانته السامية في قريش إنْ في (الجاهلية!) أو في الإسلام ومن ثم، كان يتوجب على عمر أن يلفت نظره برفق إلى هذه المخالفة فهو لا مشاحة حفظ الآية: (وقولوا للناس حُسناً)[٤٤].

ويرى الفقهاء أن التوجيه الرفيق يأتي عن طريق الوشوشة[٤٥] بين الناصح والمنصوح.

ولكن عمراً تجاوز ذلك وصك ابن الوليد صكاً عنيفاً ولامه لوماً جهيراً ولم يبين له الرخصة التي منحها محمد لابن عوف ليلبس الحرير بل استنفره وصرّح له بأنه أدنى مكانة منه وأهبط قدراً (عبد الرحمن من بني زهرة وهم أدنى مكانة من بني مخزوم رهط خالد ولكن ابن عوف أسبق منه إسلاماً. أ. هـ) ولم يكتف بذلك بل عزم على كل من كان في الغرفة من عبيد وخدم وجلساء أن يجذب ما يطوله من ملابس خالد فيمزقه إرباً ففعلوا إذ من يستطيع منهم أن يعصي له أمراً! وبكل المقاييس كان تصرفاً استفزازياً وبعيداً عن الإسلام وروحه قبل نصه.

٦ ــ كرر عمر الواقعة عينها مع صبي لم يبلغ الحلم مما أفزعه وأطار قلبه:

عن أبي سلمة قال: دخل عبد الرحمن بن عوف على عمر ــ رضي الله عنه ــ ومعه ابنه محمد وعليه قميص من حرير، فقام عمر

---

(٤٤) الآية ٨٣ من **سورة البقرة.**
(٤٥) في **المعجم الوسيط توشوش** القوم: همس بعضهم إلى بعض.

فأخذ بجيبه فشقه فقال عبد الرحمن: غفر الله لك قد أفزعت الصبي فأطرت قلبه قال: تكسوهم الحرير؟ قال: فأنا ألبس الحرير قال فإنهم مثلك! وفي رواية أخرى: أما علمت أن رسول الله (ص) أحله لي فقال: إنما أحله لك لأنك شكوت إليه القمل فأما غيرك فلا)[٤٦].

وكان حرياً بعمر بن الخطاب أن يترفق ويتلطّف مع الصبي ويربت على كتفيه ويفهمه أن لبس الحرير محرّم على الرجال في شرع الإسلام لا أن يمزّع (يمزق لفظاً ومعنى. أ. هـ) قميصه بهيئة أفزعته وأطارت قلبه، ثم يوشوش الأب بأن رخصة لبس الحرير التي نفحه إياها محمد خاصة به وحده دون أولاده الذكور.

لا ندري كيف عاش بن الخطاب قرابة عشرين عاماً مع محمد لازمه فيها ومع ذلك لم يتعلم منه دماثة الخلق ورقة الحاشية والكياسة ولين الكلام والفعل، هذه الصفات الطيبة التي شهد له بها القرآن.

* * *

كانت الأموال بالنسبة للصحاب عزيزة وذات بال وأثيرة لديهم وقد كشفنا عن هذا الملمح فيما سلف في باب (التغنيم والتنفيل) ولذا كان العراك فيما بينهم بشأنها ساخناً ولعل السبب في ذلك أنها جاءت بعد أن ظلوا حيناً من الدهر وهم شرقانون لها[٤٧].

ثم وصلت إلى أيديهم بعد استنزاف البلاد المفتوحة بكثافة أذهلتهم ولم تكن حتى تخطر لهم في الأحلام ومن ثم كان القتال

---

(٤٦) عن ابن عيينة في جامعه، ومسدد وابن جرير، وابن سعد في **الطبقات** نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني ص ٢٢٧.
(٤٧) في **المعجم الوسيط، شرقت** أرض منع منها الماء حتى أجدبت واشتد جفافها.

عليها بينهم مستعراً يبلغ حد إمتشاق الحسام والتهديد بالإغتيال واستئصال الشأفة.

١ ــ (أخبرنا ابن جريج قال أخبرني سليمان الأحول أن ثابتاً الاحول مولى عمر بن عبد الرحمن أخبره: أنه لما كان بين عبد الله بن عمرو وبين عنبسة بن أبي سفيان ما كان، تيسروا للقتال فركب خالد بن العاص إلى عبد الله بن عمرو فوعظه خالد فقال عبد الله بن عمرو أما علمت أن رسول الله (ص) قال: من قتل دون ماله فهو شهيد)[٤٨].

وفي رواية أخرى:

(أخبرني عمرو بن دينار أن عبد الله بن عمرو بن العاص تيسر للقتال دون الوهط قال: مالي لا أقاتل دونه وقد سمعت رسول الله (ص) يقول: من قُتل دون ماله فهو شهيد ــ قلت له من أراد أن يقاتل؟ قال: عنبسة بن أبي سفيان.)[٤٩].

عبد الله بن عمرو بن العاص صحابي معروف وأبوه أشهر منه: عمرو بن العاص الذي وطئ مصر بجيشه وكان يستصفي أموالها من أصحابها ويرسلها إلى المدينة لينعم بها المهاجرون والأنصار وفي إحدى المرات أرسل قافلة أولها في المدينة وآخرها بفسطاط مصر محملة بخيرات مصر (عرق وجهد الفلاحين المصريين).

أما عنبسة فقد أدرك محمداً ولكن لم تصح له رواية ولا صحبة وعلى ذلك فهو من التابعين[٥٠].

---

(٤٨) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه** وعبد الرازق في **مصنفه**.
(٤٩) الخبران أوردهما السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** العدد السادس عشر من الجزء الرابع، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، مجمع البحوث الإسلامية بمصر.
(٥٠) **أسد الغابةِ**، المجلد الرابع، ص ٣٠٤، مصدر سابق، ومما يؤكد ذلك أن عبد البر لم يورد اسمه في **الاستيعاب**.

والذي يعنينا هو موقف الصحابي الشهير الذي قيل إنه كان يصوم الدهر ومع ذلك لم يتورع عن قتال أحد التابعين وابن صحابي وأخي صحابي وأخته إحدى أمهات المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان. (أبوه: أبو سفيان أخواه معاوية ويزيد وكلهم من الصحابة. أ. هـ) ولم يقف عند هذا الحد بل تعلل بحديث رواه عن محمد ومن موقفه نعلم أن تبرير الأفعال كل الأفعال بلافتات من (النصوص) بدأ مبكراً للغاية وما زال مستمراً.

ولكي يقيم القارئ الفطن موقف ذلك الصحابي تقييماً صحيحاً نذكر له وصف (الوهط) الذي كان مثار ذلك النزاع هو (بستان ومال كان لعمرو بن العاص بـ الطائف على ثلاثة أميال من وَجّ كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم)(٥١) والطائف كانت وما تزال أخصب واحة في منطقة الحجاز كلها ــ فكيف لا يسُلّ الصحابي الزاهد الصوام للدهر سيفه دفاعاً عن ملكيته لبستان مثمر مبارك يغلّ مليون درهم في العام؟

٢ ــ بعث عثمان (بن أبي عفان) حبيب بن مسلمة بن مالك إلى أذربيجان وسليمان بن ربيعة أحدهما مدد لصاحبه، فاختلفا على الفيء (فتواعدا بعضهما بعضاً فقال رجل من أصحاب سلمان: فإن تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم... وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل)(٥٢).

صحابيان آخران اختلفا على الفيء ــ في أذربيجان إحدى البلاد التي وطئتها جيوش الفتح فتوعّد أحدهما الآخر ووصل الوعيد إلى درجة القتل.

---

(٥١) **القاموس المحيط** فصل الواو، باب الطاء.
(٥٢) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٣٢٠ المصدر السابق.

وحبيب هذا قرشي فهري أي ممن يعتبرون أو يدركون أن الدولة التي أقامها محمد في يثرب هي دولتهم، (ولاه عمر بن الخطاب أعمال الجزيرة ثم ضم إليه أرمينة وأذربيجان)[٥٣].

ويرى ابن الأثير الجزري (أن عمراً لم يستعمله وأن عثمان هو الذي سيّره من الشام إلى أذربيجان وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي من الكوفة إليها وإنهم تهددوا سلمان بالقتل)[٥٤].

أما سلمان بن ربيعة فهو صحابي تولى (القضاء لعمر قبل شريح كما كان يلي له الخيل ولذا لقب بـ (سلمان الخيل) وكان الأمير في غزاة بلنجر)[٥٥]. والبادي أن دراية سلمان بالفقه والقضاء مع الفروسية هي التي دفعت عثمان ليرسله إلى أذربيجان مع حبيب بن مسلمة ليعد عليه أنفساه ويحصي عليه أمواله، فاستنكر الصحابي القرشي (الذي يعد الدولة دولة قبيلته) أن يراقبه باهلي من بني قُتيبة فتوعده هو وأصحابه بالقتل مما دفع أصحاب سلمان لأن يردوا عليهم الوعيد بمثله وأفهموهم أنهم لو مسّوا شعرة من سلمان فأن روح مسلمة ستفيظ[٥٦].

وأثمر هذا الرد ثمرته إذ لم يجرؤا على قتله إنما سقط قتيلاً في غزاة بلنجر سنة ثمان وعشرين في خلافة عثمان[٥٧] وكلما قرأت خبراً مثيلاً لهذا تساءلت:

هل خرج الصحاب من جزيرتهم ليخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد كم كانوا يعلنون أم خرجوا لكسح

(٥٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة نفسيهما.
(٥٤) **أسد الغابةِ** لابن لأثير الجزري، ص ٤٤٩، الجزء الأول، مصدر سابق.
(٥٥) **الاستيعاب** المجلد الثاني، ص ٦٣٢.
(٥٦) في المعجم الوسيط **فاظت نفسه فوظاً:** مات ويقال: فاظ الرجل.
(٥٧) **أسد الغابةِ**، المجلد الثاني، ص ٤١٥، مصدر سابق.

خيرات البلاد المفتوحة والاقتتال عليها إذا حدث خلاف بينهم بشأنها؟

٣ ـ وقد يتحرج الصحابي عن سل سيفه لإزاحة خصمه الصحابي من طريقه عند الخلاف على الغنائم والفيء والأسلاب فيدعو السماء لتتوب عنه وتتولى التصفية الجسدية لذلك المناوئ اللدود، حدث ذلك عندما وطئت جيوش الفتح العربي الإسلامي بلاد العراق والشام ومصر وكانوا يسمونها أرض السواد فأراد الصحاب وخاصة أكابرهم أن تقسم وكانوا يدركون أن نصيبهم منها سوف يغدو كبيراً لأنهم (أهل السابقة) خاصة وأن عمراً صرّح بتفضيلهم على غيرهم (لا أسوّي من حارب محمداً بمن حارب ضده) واستشهدوا بما فعله محمد في خيبر، وذلك ليحوزوا الضيعات الوسيعة في أخصب البقاع وليعيشوا في بُلهنية تعوضهم عن أيام الحرمان أيام كانوا يربطون الأحجار على بطونهم من الجوع والمسغبة ولكن عمراً كان أوسع أفقاً وأدهي فقد رأي عدم تقسيمها عيناً وأن تظل في أيدي العلوج[٥٨] ليصبّ خراجها في جيوب المهاجرين والأنصار وذراريهم وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ليعيشوا منعمين مرفهين من عرق المصريين والشوام والعراقيين حتى تقوم الساعة ولما اشتدت معارضة الصحاب لابن الخطاب استنجد بالسماء لتزيحهم من طريقه وتكفيه شر خصامهم ولددهم وتريحه من مناكفتهم[٥٩].

ولم تتوان السماء عن الاستجابة بدعوة ابن الخطاب (فما حال

(٥٨) مقلوب كلمة العجول ويعنون بها الفلاحين الذين يزرعون الأرض في البلاد المقهورة. أ. هـ..
(٥٩) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادى: **تناكفا** الكلام أي تعاوراه ونكف عنه أنف منه وامتنع أ. هـ.

الحول ومنهم عين تطرف) أي لم يمضِ عليهم عام حتى فلعوا[٦٠].

(عن الليث بن سعد عن حنيفة بن أبي ثابت قال: إن أصحاب رسول الله (ص) وجماعة من المسلمين أرادوا أن يقسّم الشام كما قسّم رسول الله (ص) خيبر وأنه كان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن بن أبي رباح فقال عمر ــ رضي الله عنه ــ اذن أترك بعدكم المسلمين لا شيء لهم ثم قال: اللهم إكفني بلالاً وأصحابه ــ فرأي المسلمون أن الطاعون الذي أصابهم بِعمواس كان من دعوة عمر)[٦١].

والخبر عينه أورده أبو عبيد القاسم بن سلام عن طريقين الأول من حديث الماجشون والآخر من حديث أبي بردة (... عمر: لا، هذا عين المال ولكنى أحبسه فيما يجري عليهم وعلى المسلمين فقال بلال وأصحابه إقسمها بيننا ــ وفي رواية قام الزبير فقال يا عمرو بن العاص إقسمها فقال عمرو: لا أقسمها فقال الزبير لتقسمها كما قسم رسول الله ــ ص ــ خيبر فقال عمرو: لا أقسمها حتى أكتب لأمير المؤمنين فكتب إلى عمر فكتب إليه: أن دعها حتى يغذو ومنها حبل الحبلة)[٦٢].

فهنا نجد صحابياً من العشرة المبشرين بالجنة يدعو على صحابي أخبر محمد بدخوله الجنة الأول هو عمر/ والآخر هو بلال والسبب

---

(٦٠) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادى: فلع كمنع: قطع والفالعة الداهية وسيف فلوع كصبور: قطاع، والعامة في مصر تقول فلسع بدلاً من فلع وعلى ذلك ممكن: أن يُقال باللهجة المصرية العامية أنه: لم يمض عليهم عام حتى فلسعوا أ. هـ.

(٦١) **كتاب الخراج** لقاضي القضاة أبي يوسف صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة، ص ٢٨، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.

(٦٢) كتاب **الأموال** لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق الشيخ، محمد خليل الهراس، ص ٧٣ ــ ٧٤.

هو الخلاف على أرض البلاد المقهورة، الأخير يهدف إلى تقسيمها عيناً والآخر تقسم خراجاً حتى تتمتع بخيراتها الأجيال وراء الأجيال (حبل الحبلة) في مكة والمدينة على حساب عرق وكد فلاحي العراق والشام ومصر ــ وكان عمر ــ عندما كانت العلاقة بينه وبين بلال كالسمن على العسل يقول له هاشاً باشاً = أبو بكر سيدنا أعتق سيدنا (معلوم أن أبا بكر بن قحافة أعتق بلالاً في مكة) أي يحييه: يا سيدنا فلما عارضه دعا عليه بالهلاك ونفهم من ذلك أن المعارضة في الرأي لا جزاء لها عندهم إلا الموت! ــ ولكن الدعوة ــ دعوة عمر ــ فيما يبدو لم تصب إلاّ بلالاً لأن الزبير عاش خلافة عمر حتى نهايتها ثم زمن عثمان حتى قُتل وكان من المؤلبين عليه وبداية عهد علي إذ قتل أثناء وقعة الجمل في رواية وبعدها بقليل في رواية أخرى، فلماذا كان بلال هو وحده الذي أصابه سهم دعوة عمر؟ لعله كان أشد المعارضين شراسةً أي زعيم المعارضة (في هذا الشأن) فاستحق هذا الجزاء الأوفى.

وقلنا إن عمر بن الخطاب كان أوسع أفقا وأدهى أما سعة الأفق فقد أوضحها هو بنفسه عندما ذكر العلة الظاهرة في عدم تقسيم (أرض السواد) على الصحبة وأما دهاؤه فيتمثل في أنه لم يفصح عن العلة الخفية وهي أن الصحاب لو قسم عليهم الأرض كانوا سيتقاتلون بسبب القسمة لإن الأرض لا بد أن تتفاوت في خصوبتها وجوهاً وغلتها... الخ ولكن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وهو من فرع يمتاز بالصراحه ومطابقة الباطن بالظاهر واستقامة الخلق والطهرانية ــ ولعل هذا هو السبب في إخفاقهم في شؤون السياسة والحكم ــ أفصح عن العلة الخفية:

(حدثنا قيس بن الربيع عن حبيب بن أبي ثابت عن ثعلبة الحماني قال: دخلنا على علي ــ رضي الله عنه ــ بالرحبة فقال: لو لا

أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسّمت هذا السواد بينكم ــ وله رواية أخرى عن شريك عن الأجلح عن ثعلبة عن عليّ ــ رضي الله عنه)[٦٣].

ولقد صدق أبو الحسن فيما صرّح به.

حقيقة أن أعوان علي لم يكونوا جميعهم من الصحابة ولكن كان منهم عدد وفير ــ لقد كانت ألفاظ علي دقيقة (يضرب بعضكم وجوه بعض) أي يقاتل بعضكم بعضاً ــ وأبو الحسن كان على معرفة وثيقة بالصحاب ورأي أنهم تعاركوا على ما هو أقل قيمةً من أرض السواد التي سوف نرى في فصل قادم أنها كانت تغل ما قيمته ملايين الدراهم الأمر الذي عقد لسان متنفذيهم بالدهشة البالغة.

وأياً كان الأمر فالذي لا شك فيه أن هذه الواقعة أوصلت أكابر الصحبة ــ في النزاع على الغنائم والأموال إلى حد الدعاء بالموت على من كان بالأمس القريب من أعز الأحباب ومن كان لا يخاطب إلاّ بـ (سيدنا)!

(٦٣) كتاب **الخراج** تأليف يحيى بن آدم القرشي، المتوفي ٢٠٣هـ. تصحيح وشرح الشيخ أحمد شاكر (١٣٠٩هـ ــ ١٣٧٩هـ)، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ، ص ٤٤، المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.

[Blank Page]

نلج باب القتل:

قتل الصحابة بعضهم بعضاً وربما يستهول الكثيرون ذلك ويستبشعونه ثم يستعبدونه، ولكن ذلك ما حملته كتب السيّر والتواريخ ودووواين السنة ومؤلفات (معرفة الصحابة)، إنها لم تُخف شيئاً، ولكن في العصور المتأخرة حدثت عملية غطرشة واسعة ومتعمدة (في معاجم اللغة: غطرش فلان غطرشة = تعالى عن الحق وتعامى عنه. أ. هـ.) لا على وقائع القتل بل على كل الوقائع، حتى الاحتكاكات البسيطة وذلك لحساب التعظيم والتفخيم والتبجيل المتوهم... الخ وهذا في اعتقادنا منهج خاطئ لأننا عندما نعرض صورة الصحابة يتعين عرضها بكل جوانبها، المضيء والمعتم، والناصع والمظلم، فعلاوة على ذلك ما تحتمه موضوعية البحث وما توجيه أمانة العلم، فإنه يقنع الناس أن ذلك الجيل مجموعة من البشر مثلهم مثل غيرهم من أبناء آدم، يخطئون ويصيبون، يحسنون ويسيئون، وهم ليسوا ملائكة ولا عصمة لهم ولا قداسة، ومن ثم فإن ما حققوه يمكن لأي مجتمع إسلامى أن يحققه إذا توافرت له الظروف الاجتماعية والاقتصادية والإنتاجية التي رافقتهم، إذا صح

العزم وصدقت النية مع انفرادهم (= الصحابة) بميزة لقائهم بميزة لقائهم ب محمد وهي لحظة تاريخية نادرة لم تتح لغيرهم. ما تخبرنا به المصادر الموثقة أن عدداً منهم ليس قليلاً قتل عدداً ممن يحمل اللقب والصفة غير عابئ ولا مقيم وزن لأي اعتبار، حدث ذلك في ساعة السكون (ولا أقول الرضى) وفي حالة الغضب، في السلم وفي الحرب، في حالة ما يكون الدم بارداً بتعبير الفرنجة وعندما يغدو ساخناً حاراً، بتدبير وإحكام وتخطيط أي بسبق إصرار حسبما يجيء في قوانين العقوبات أو بإندفاع وهيجان وبغي، والأمثلة كثيرة وكما ذكرنا سوف نتغاضى عما وقع في الحروب ــ إلاّ الصور الصوارخ والنوازل الفلوت ولن نذكر ما حدث في وقعة الجمل = قيل أن عشرة آلاف سقطوا فيها منهم ألوف الصحابة ولا في صفّين ولا في النهروان (وهي بين علي والحرورية وهم أوائل أو باكورة فرق الخوارج والذي قد لا يعرفه كثير من القارئين أن عدداً لا يستهان به من قياداتهم كان من الصحابة بل من خيارهم ممن مات محمد وهو راض عنه ثم اشتركوا في الفتوحات وأبلوا فيها بلاءً حسناً. ا. هـ).

١ ــ مالك بن نويرة اليربوعي التميمي، كان من الصــحابة أسلم هــو وأخوه الشاعر متمم بن نويرة (قال الطبري: بعث النبي ــ ص ــ مالك بن نويرة على صدقة بني يربوع)[١]. عقب وفاة محمد وبادئ خلافة ابن أبي قحافة ارتدت العرب وظهرت سجاح فصالحها مالك كنوع من المداراة لأن خلقاً كثيراً تابعوها (إلا أنه لم تظهر عنه ردة)[٢]. وكان خالد بن الوليد أحد قواد الجيوش التي

(١) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثالث، ص ١٣٧٢ و**أسد الغابةِ** للجزري، المجلد الثاني، ص ٥٣.
(٢) **أسد الغابةِ** المجلد والصفحة نفسيهما.

حاربت المرتدين فلما مر بحيهم بعث سرية تتحرى حقيقة أمرهم فاختلف أصحاب السرية فيهم وكان منهم أبو قتادة الصحابي المشهور الذي شهد مع آخرين أن جماعة أو رهط مالك مسلمون: أذّنوا وأقاموا وصلّوا وكانت علامة التفرقة بين الحيّ المسلم والحيّ المرتدّ الأذان وإقامة الصلاة ــ وكان على خالد أن يتثبت ويتأنّى حتى يتأكد ويصير تحت يديه دليل كالشمس الساطعة على ردة مالك وحيه ولكنه لم يفعل وأمر بقتله وإياهم جميعاً وربما إحراقهم لأن صيغة الأمر (دفئوا أسراركم) تشي بذلك خاصة وأن تعليمات رأس الدولة أبي بكر كانت صريحة في كيفية معاملة المرتدّين: الحرق، الرمي من شواهق الجبال، التنكيس في البيار... الخ.

وكان وراء قتل خالد لمالك بالذات دافع باعث هو أنه كان زوجاً لأم متمم وهي من أوضأ نسوان الجزيرة العربية قيل إنها كانت صاحبة أجمل ساقين حتى كان يضرب بهما المثل فيقال: (أجمل من ساقي أم متمم) وجمال الساقين عند العرب دليل على أن المرأة تعطي المتعة الجسدية الكاملة ــ وذُكر أن ابن الوليد ــ قبل الإسلام كان يتعشقها ويتمنى وصالها وما إن قتل زوجها وقبل أن يستبرئ رحمها ــ وعلى خلاف ما جرى عليه العرف المستقر منذ (الجاهلية عدم وطء الأسيرات في أرض العركة) وكانت أوامر محمد صريحة وقاطعة في عدم مفاخذتهن دون انتظار حيضهن ــ هرع خالد فامتطى أم متمم محققاً بذلك حلمه القديم، غير عابئ بأي عرف أو بأحاديث محمد الحاسمة في هذا الشأن.

الأمر الذي أفزع عمر بن الخطاب فهرول إلى الخليفة أبي بكر ــ فور سماع الخبر ــ طالبا توقيع حدّي القتل والزنا على ابن الوليد:

(عن ابن أبي عوف وغيره أن خالد بن الوليد ــ رضى الله عنه ــ

إدّعى أن مالك بن نويرة ارتد بكلام بلغه عنه فأنكر مالك ذلك وقال: أنا على الإسلام ما غيّرت ولا بدلت، وشهد له أبو قتادة وعبد الله بن عمر ــ رضي الله عنه ــ فقدمه خالد وأمر ضرار بن الأزور الأسدي ــ رضي الله عنه ــ فضرب عنقه وقبض خـــالد أم متمم فتزوجها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قتله مالك بن نويرة وتزويجه إمراته فقال لأبي بكر ــ رضي الله عنه ــ إنه قد زنى فارجمه فقال أبو بكر: ما كنت لارجمه تآول فاخطأ قال: إنه قتل مسلماً فاقتله، ما كنت لأقتله تأول فاخطأ، قال: فاعزله قال: ما كنت لأشيم (أغمد) سيفاً سلّه الله عليهم أبداً)[٣]. وعندما حضر خالد إلى المدينة وقدم إلى أبي بكر ــ بعد أن استدعاه ليحقق في الأمر قابله ابن الخطاب وصاح في وجهه (يا عدو الله قتلت إمرءاً مسلماً ثم نزوت على أمراته، لأرجمنك)[٤].

هذان الخبران نخرج منهما بشواهد كثيرة منها: أن مالكاً أقر ببقائه على الإسلام علاوة على شهادة كل من: قتادة وعبد الله بن عمر وهما معدودان من خيرة الصحابة وقول عمر لابن الوليد قتلت إمرءاً مسلماً شهادة أخرى لمالك فعمر ليس ممن يلقون القول جزافاً ــ ومع ذلك قتله خالد وتزوج الحسناء الفائقة الجمال ذات الساقين الخِدلّجين (الممتلئين) معشوقته القديمة، وفي ليلة حرق زوجها وفي موقع المأساة، وقد اعتبر ابن الخطاب ذلك قتلاً وزناً وطلب توقيع الحد عليه لولا أن الخليفة رفض ذلك لاعتبارات حربية وعسكرية لإن خالداً فعل الأفاعيل في حرب الردة ولولاه لتغير تاريخ الجزيرة العربية بالكلية ولو لم يكن ابن الخطاب متأكداً من أن

(٣) أخرجه ابن سعد في **الطبقات** كذا في كنز العمال. نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، الجزء الثاني، ص ٢٧٢، المصدر السابق.
(٤) **أسد الغابةِ**، المجلد الخامس، ص ٥٣، المصدر السابق.

ما قارفه خالد قتل وزنى لما طلب توقيع الحد عليه. وحتى تتضح الصورة نقول: لو أن أبا بكر وافقه على رأيه، هل كان عمر ومشهور عنه العدل ــ يقبل ضميره أن يقتل ويرجم خالداً لو كانت هناك مجرد شبهه بسيطة؟

ونخرج من الخبرين أيضاً: أن دواعي السياسة العليا (= الأمن القومي) قد تدفع ولي الأمر إلى التغاضي عن توقيع حدود الله.

كما أن الأثرين أخبرانا أن: ابن الخطاب كان يترصد ابن الوليد ويعد عليه أنفاسه ويتتبع أخطاءه! وطلب من ابن أبي قحافة أن يعزله فرفض ولما تولى الخلافة عزله:

ترى ما الذي كان بين الرجلين مع أنهما من قبيلة واحدة وكان كلاهما عبقرياً في مجاله: عمر في السياسة وابن الوليد في المعارك!

مقتل عثمان

عشرات الألوف من الصفحات كتبت بالعربية وغيرها من اللغات الحية قديماً وحديثاً إنْ للسرد أو للتحليل، في مقتل عثمان، ومن ثم فإن القارئ معذور إذا ظن أننا نعاود الدراسة موضوع قُتل بحثاً وقد يبدو هذا صحيحاً ولكن إلى حد ضئيل إذ أننا في هذه الواقعة نسلط الضوء على (الدور الصحابي) ونعني به الدور الذي قام به الصحاب: أحدهم دعا له محمد أي كان موضوع رضاه لأنه بداهة لا يدعو لمن يحوز سخطه، ولكنه (محمداً) أخبرنا أن من الصحابة من سوف يبدل ويغير وأنه عندما سيلقاه في الدار الآخرة سيقول له: سحقاً.

غالبية الكتب وخاصة الحديثة تتستر على ما قام به الصحابة في

هذه الفتنة الدامية التي أحدثت شرخاً في الجسد الإسلامي ما زال ينزف دماً حتى بعد مضى أربعة عشر قرناً ولذلك فإن غالبية القارئين لنوازل ذلك الحدث المأساوي تعتقد أن من نفذه هم عصابات من الغوغاء جاءت إلى يثرب/ المدينة من مصر والكوفة والبصرة وأن الصحابة قاوموها أو تصدوا لها ولكن التيار كان جارفاً، وهذا مناف للتاريخ فحصار عثمان لمدة أربعين يوماً كان بقيادة صحابة والذين تسوروا عليه الدار ثم قتلوه منهم أربعة من الصحابة شاركوا بأيديهم في القتل أو أشاروا به على من ارتكبه والذي منع دفن عثمان في البقيع كان من الصحابة بعد أن حُمل عثمان على مصراع باب داره وكانت رجلاه تتدليان خارجه وسار خلفه أربعة فقط منهم أحد بنيه ولم يُصلّ عليه ودُفن دون أن يحظى بصلاة الجنازة التي ينالها أقل المسلمين شأناً ولم يجدوا مكانا يدفنونه فيه إلاّ (حُش كوكب) وليعرف القارئ صفة هذا المكان نورد له ما ذكره الفيروزآبادى في شرحه لكلمة (الحش): المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين[٥].

وبعد ذلك لا يفلت القتلة من أيدي صحابة آخرين مثلهم ويتعقبونهم يقتلونهم بأنفسهم أو يأمرون بقتلهم بعضهم بصورة بشعة ويُحمل رأس أحدهم مئات الأميال ليتأكد الصحابي الآمر بالقتل من قتل الصحابي المشارك في قتل عثمان ثم يأمر برمي الرأس في حجر زوجته بعد أن كان قد أمر بسجنها حتى يُسلم زوجها نفسه (وهذا نفسه ما يحدث حالياً في بعض الأنظمة العربية على أيدي زبانية حكامها من أجهزة الأمن. ا. ه) ولعل القارئ سيلحظ أن فرمانات القتل كانت تصدر عن طريق (الأمر المباشر)

---

(٥) **القاموس المحيط** فصل الحاء، باب الشين.

من الخليفة أو نائبه (عامله على المصر) دون استجواب المتهم (= استنطاقه) أو سماع شهوده أو إعطائه فرصة للدفاع أي دون محاكمة عادلة (ومع ذلك يوجد بيننا من يملك كما وفيراً من الحياء فيدعي بكل جرأة على الحق أننا أول من عرف حقوق الإنسان بل إننا نحن الذين علّمناها للدنيا كلها شرقاً وغرباً. ا. هـ) وإذا كان الخليفة الصحابي أو الوالي الصحابي لم يكن يعطي الصحابي (زميله في مدرسة محمد) فرصة الدفاع عن النفس أو الحق في محاكمة عادلة فكيف إذن كان يعامل (الرعية!) وخاصة أهل البلاد الموطوءة الذين كانوا يسمونهم العلوج؟

بعد هذه الفرشة السريعة نتناول الدور أو الأدوار التي قام بها صحابة في ذلك الحدث الدامي: خلف عثمان عمر بن الخطاب في منصب الإمامة العظمى وكان ذلك أمراً حتمياً تعبيراً عن انتصار حزب التجار المتمولين على حزب المستضعفين الذين كانوا يرون في عليّ قائداً، وسار ابن عفان ولو بطريق القصور الذاتي الشطر الأول من خلافته بصورة مرضية لحد كبير وإن لم تصل إلى درجة سُنّة سلفيه أبي بكر وعمر ــ أما في الشطر الآخر من زمنه فقد إنقلب الحال ولم يعد عثمان ماضياً على المنهج نفسه أو حتى مقارباً له وخاصة في النواحي المالية ــ وهو ما سوف نتناوله فيما بعد في الفصل الخاص ب (الصحابة والأموال) ــ وهذا مرده إلى في رأينا أن الإسلام ــ ميراثاً عن الفترة السابقة عليه التي يسمونها الجاهلية ــ لم يكن يعرف فكرة المال العام ــ وما جاء في القرآن عن مصارف الزكاة أو عن توزيع الغنائم لا صلة له بتلك الفكرة وكذلك حديث (ابن اللتبية) لا يدل عليها وكلمات الحديث صريحة في ذلك (هذا لكم وهذا ما أهدي إليّ) وهذا لكم أي للحاكم ولا تعني المال

العام تلك الفكرة التي عرفها المسلمون بعد احتكاكهم بحضارات ونظم الآخرين (الفرس/ البيزنطيين) وحاولوا تطبيقها في عهد الخليفة الثاني بصورة ساذجة وفرق بين فكرة (مال بيت المسلمين أو بيت المال) ونظام (المال العام) فالأولى أشبه ما تكون بخزينة تُجمع فيها الأموال بأنواعها التي تفيض بعد توزيع الأعطيات وأقل شاهد على ذلك أن هذه العطاءات كانت تمنح حسب إرادة الخليفة والتاريخ يخبرنا أن أبا بكر وابن الخطاب اختلفا في مقدار الأنصبة التي تنفح ثم جاء عثمان فكانت له وجهة نظر مغايرة تماماً.

وترتيباً على العلة الأولى أو بالأصح تكملة لها ونعني عدم معرفة المسلمين وقبلهم عرب ما قبل الإسلام بنظام (المال العام) كان الخليفة مطلق اليد في الأموال يوزعها كيف شاء تماماً كما كان شيخ القبيلة يوزع الغنائم التي تحصل عليها قبيلته نتيجة غارات النهب والسلب دون رقيب عليه فهو أولاً له المرباع أي ربع الغنيمة ثم له الصفيّ وهو ما يصطفيه لنفسه من سيف يعجبه أو سبية تروق له أو فرس يحلو في عينه... الخ بخلاف النشيطة والفضول ثم لا تكون القسمة بالسوية فكبار القبيلة وأعضاء مجلسها أنصباؤهم تعلو على أنصبة سائر أفرادها وكانوا يسمونهم (القبيل).

إذن عثمان عندما أخذ يوزع الغنائم الأسطورية التي استنزفت من البلاد المفتوحة كما يشاء كان في ذلك يسير على عرف عاش في جنباته خمسة وخمسين عاماً (توفي عثمان وعمره خمسة وثمانون عاماً على أرجع الأقوال) ومن المستحيل أن يخالف الإنسان عرفاً ألفه طوال مدة تزيد على نصف قرن، كما أن هناك ملحظاً شديد الأهمية وهي أن الانتقادات التي وُجهت في هذه الخصوصية لم توجه إلى المبدأ نفسه وهو انفراده دون سواه ودون مشورة أحد حتى من كبار الصحابة الموجودين في المدينة/ يثرب

آنذاك بل لأنه آثر بها أقرباءه وأصهاره وبتعبير البعض (حمل آل أُبي معيط على رقاب المسلمين ــ وآل أبي معيط هم رهطه الأدنون. أ. هـ).

ودليل آخر أن البعض الذي نفحه عثمان نفحات جزيلة لم يشارك في نقده في هذا الشأن بالذات في حين أن من لم يجزل له العطاء أو أنقص عطاءه الذي كان يأخذه قبل ذلك كان من أشد الناقمين عليه منهم عائشة بنت أبي بكر (وكان بين عثمان وعائشة منافرة وذلك أن نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب وصيرها أسوة بغيرها من نساء رسول الله، فإن عثمان قام يوماً ليخطب إذ دلت عائشة قميص رسول الله، ونادت: يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته (فقال عثمان: رب إصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم)[٦].

نخلص من ذلك إلى أن الخلاف لم يكن على المبدأ ولكن على الكيفية أو الطريقة لأنهم كانوا يجهلون فكرة المال العام وعلى الذين يكتبون عن هذه الفترة البالغة الحرج والإثارة في تاريخ الإسلام والمسلمين ألا يحاكموها بمقاييس عصرهم حتى يأتي الحكم صائباً ــ وبداهة ليس هذا بدفاع عن عثمان فإن الاختلاف في شأنه: هل قتل مظلوماً؟ أم كان قتلته على حق؟

هذا الاختلاف قديم سلخ من عمر الزمان قروناً أربعة عشره، ولكن لتوضيح المنهج الصحيح في تناوله التاريخ.

وبعد هذه الاستطرادة اللازمة نعود إلى سياقة الحديث:

لم تكن التجاوزات المالية هي وحدها التي قام بها عثمان بل

(٦) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص ١٧٥، مصدر سابق.

نسبت إليه أخرى منها ما ذكرناه آنفاً: معاملته لكل من عبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري وكانا من أقرب المقربين من محمد... وثارت الفتنة الهوجاء التي انتهت بمقتله ووقائعها مسطورة في المصادر القديمة والمراجع الحديثة (مما يؤسف له أن يكون القدماء أشد أمانة للعلم من المحدثين. ا. هـ) وتولى قيادة الفتنة صحابة، ونحن لا نعد ما حدث فيها حرباً فالفرق بين الثورة والحرب واضح ونعني الحرب الأهلية فالذي حدث زمن عثمان أو في أواخر أيامه لم يكن حرباً أهلية وإنما كان ثورة (فتنة بتعبير السلف) وإن أعقبت أو خلفت أو أورثت الحروب الأهلية المعروفة.

في الفتنة يتم التخطيط والرسم باحكام وعلى قدر ملحوظ من التمهل وبعد مشاورات ومداولات قد لا تصل إلى مثيلاتها في الأوقات العادية ولكنها بالقطع لا تبلغ درجة ما يحدث في ميادين المعارك ــ ومن هذه الزاوية يجيء اختيارنا لها وضمها إلى طابور وقائع القتل التي حدثت بين الصحبة ــ ويكفي أن نذكر أن وفود الأمصار (مصر ــ الكوفة البصرة) مكثت على مشارف أثرب/ المدينة قرابة شهرين أما حصار عثمان فقد استمر أربعين يوماً حتى انتهي بمصرعه (يوم الدار)(٧).

(٧) نحن لا نستعبد أن يكون إصرار الإخباريين على أن الحصار ــ حصار عثمان ــ دام أربعين يوماً يرجع لما للعدد أربعة ومضاعفاته وخاصة العدد أربعين من حظوة في النصوص المقدسة لا في الإسلام ولكن في الديانتين الإبراهيميتين اللتين سبقتاه ونعني بهما المسيحية واليهودية، ولما كانت واقعة الحصار جزءاً من التاريخ الإسلامي فنحن نذكر أهمية العددين أربعة ثم أربعين في «النصوص» المقدسة الإسلامية:

١ ــ **أربعة:** قال: ﴿**فخذ أربعة من الطير**﴾ الآية ٢٦٠ **آل عمران.**

﴿**فسيحوا في الأرض أربعة أشهر**﴾ الآية ٢ **سورة التوبة.**

﴿**منها أربعة حرم**﴾ الآية ٢٦ سورة التوبة.

﴿**وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام**﴾ الآية ١٣ **سورة النور.**

﴿**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء**﴾ الآية ٤ **سورة النور.**

إن كتب التاريخ والسيّر تكاد تجمع على أن أربعة من الصحابة كان لهم دور فعال ومؤثر في واقعة (يوم الدار) أي مقتل عثمان في داره وهو يقرأ القرآن بعد أن حاصروه وأهله وعياله ومنعوا منهم الماء والزاد حتى الذي يبقي على حياتهم وهم:

١ ــ محمد بن أبي حذيفة.

٢ ــ محمد بن أبي بكر بن أبي قحافة.

٣ ــ عمر بن الحمق الخزاعي.

٤ ــ عبد الرحمان بن عُديس.

محمد بن أبي حذيفة

ونبدأ بـ محمد بن أبي حذيفة لأنه أعطى مثلاً شروداً في نكران الجميل وقطع (لا عضّ) اليد التي أحسنت وبرّت وقدمت كل خير وسبقت بالفضل الجزيل والعطاء الوفير ــ عندما قرأت حكايته مع عثمان تساءلت كيف يمكن أن يعد مثل محمد بن حذيفة ضمن

وشهود حد الزنا أربعة يرون الميل في المكحلة، وصلاة العصر (صلاة الوسطى في أصح التفاسير) وصلاة الظهر، وصلاة العشاء كل منهما **أربع** ركعات والمذاهب الفقهية **أربعة** والخلفاء الراشدون **أربعة** والزوجات اللاتي يباح للمسلم الزواج بهن **أربع**.

٢ ــ **أربعون:** ﴿**وإذا واعدنا موسى أربعة ليلة**﴾ الآية ٥١ **سورة البقرة.**

﴿**قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتهيون**﴾ الآية ٢٦ **سورة المائدة.**

﴿**فتم ميقات ربه أربعين ليلة**﴾ الآية ٤٢ **سورة الأعراف.**

﴿**حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة**﴾ الآية ١٥ **سورة الأحقاف.**

وتستحق الزكاة في الغنم إذا بلغ عددها **أربعين** ولا زكاة فيها إذا كانت دون **الأربعين** ولو بواحدة والنقود إذا بلغت عشرين مثقالاً من الذهب أو مائتي درهم استحقت عليها زكاة العشرون هي نصف **الأربعين** والمائتان هي خمسة أضعافها، ونكتفي بهذا القدر لإثبات أن للعدد **أربعة** وللعدد **أربعين** قداسة في الديانة الإسلامية كما في الديانتين اليهودية والمسيحية مما يجعلنا نرجّح أن حساب عدة أيام حصار عثمان بأربعين لم يأتِ اعتباطاً.

صحابة محمد ولو لم يكن منهم ماذا كان يفعل أكثر مما فعل وكيف تسنى لرجل رأى محمداً وجالسه ساعة من نهار أن يجسر على إتيان ما فعله هذا الصاحب؟

هو محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمى القرشي من فرع سامق من قريش أبوه أبو حذيفة وأمه سهلة بنت سهيل بن عمرو وهما صحابيان من السابقين إذ ممن هاجروا لأرض الحبشة[٨]. وبعد موت أبيه أبي حذيفة كفله عثمان ولم يزل في كفالته ونفقته سنين إلى أن كبر[٩].

وهو ابن خال معاوية بن أبي سفيان لأن هنداً أم معاوية وأبا حذيفة أبوهما عتبة بن ربيعة وسوف نرى بعد قليل ما فعله الصحابي معاوية في ابن خاله الصحابي محمد بن أبي حذيفة، ونعود إلى سياقة الواقعة (.. ثم سار (= محمد بن أبي حذيفة) إلى مصر فصار من أشد الناس تأليباً على عثمان ــ قال أبو نعيم: هو أحد من دخل على عثمان حين حوصر)[١٠] (فلما قاموا على عثمان كان محمد بن أبي حذيفة أحد من أعان عليه وألب وحرض أهل مصر)[١١] وفي تاريخ اليعقوبي (وأقام عثمان محاصراً أربعين يوماً... وكان الذين تولوا قتله محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة... الخ)[١٢].

(٨) سهلة بنت سهيل هي صاحباة قصة إرضاع الرجل الكبير سالم مولى أبي حذيفة التي سبق ذكرناها.
(٩) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري، المجلد الخامس ص ٨٧ **والاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثالث.
(١٠) **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(١١) **الاستيعاب** المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(١٢) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني ص ١٧٦، مصدر سابق.

وهكذا رد محمد بن أبي حذيفة الجميل لعثمان الذي كفله وأنفق عليه بعد موت أبيه حتى بلغ سن الرجال ولكن ابن خاله الصحابي معاوية لم يتركه يفلت وجازاه بما يستحق على وفائه الرائع للرجل الذي تولى أمره يوم أن كان ضائعاً صائعاً[١٣].

إذ بعد مقتل عثمان ــ أخذ (العثمانية) وهم أقرباء عثمان وأولياء دمه وغيرهم ممن كانوا يوادون الخليفة الثالث إبّان حياته أو من أرقتهم عقدة الذنب لعدم الوقوف بجانبه والذبّ عنه وفك الحصار عن داره وتوصيل الماء والطعام إليه وإلى من كان معه، أو أصحاب المطامع السياسية الذين وجدوا في شعار تسليم قتلة عثمان مطعناً يوجهونه لعليّ وتوهيناً في شرعية تولية الخلافة؛ العثمانية أولئك وطبعاً يجيء على رأسهم معاوية بن أبي سفيان أخذوا يلاحقون قتلة عثمان وخاصة الرؤوس الكبيرة ومنهم محمد بن أبي حذيفة (فلما قتل عثمان هرب (محمد بن أبي حذيفة) إلى الشام فوجده رشدين مولى معاوية فقتله)[١٤]. ويحدد لنا ابن الأثير الجزري الموقع الذي لقي فيه محمد بن أبي حذيفة جزاءه العادل فهو جبل الجليل.

قال أبو نعيم: هو أحد من دخل على عثمان حين حوصر وأخذ محمد بـ جبل الجليل ــ جبل لبنان فقتل[١٥].

صورة فريدة قل أن يحفظ لنا التاريخ لها شبيهاً:

صحابي يكفل صحابياً وهو صغير ويتولى تربيته ورعايته حتى يصير رجلا فينقلب عليه ويشترك في حصاره داخل منزله ويمنع عنه

---

(١٣) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادى **صوّعته:** فرقته وخوّفته وأفزعته **وتصيّع الماء:** اضطرب على الأرض.
(١٤) **الاستيعاب** الصفحة نفسها من المجلد نفسه.
(١٥) **أسد الغابةِ** الصفحة نفسها في المجلد نفسه.

ــ مع آخرين ــ ما يمسك عليه حياته من زاد هو واهله الذين لا بد أن من بينهم من شارك في العناية به وهو طفل ولا يكتفي بذلك بل يتسلق عليه داره ــ ربما كانت نفس الدار الذي شهدته وهو صبي ــ يساهم مع آخرين في اغتياله غير عابئ لا بهرمه (جاوز عثمان الخامسة والثمانين ساعتها) ولا بسابق فضله عليه ــ ثم يجيء صحابي ثالث من أقرب الناس إلى القاتل الغادر فيأمر رجاله بمطاردته وقتله حتى ولو كان في جُحر ضب فينفذون أمره ويجهزون على الغريم وهو معتصم بأحد الجبال!

ونضع تحت عين القارئ ملاحظة ذات بال وهي أن القتل كان يتم بـ (الأمر المباشر) دون إعطاء أقل فرصة للدفاع عن النفس أو للمقاضاة العادلة ومع ذلك يوجد بين ظهرانينا من يتحسر على تلك الأيام البواهر ويتمنى عودتها أو بالأصح أن نقول إنه يعمل جاهداً على إعادتها ويصرّح بملء فيه أن البشرية لم ترَ لها مثيلاً طوال تاريخها!

محمد بن أبي بكر

قواعد التربية تحيل (من الاستحالة) أن تصدر من هذا الصحابي تلك الأفعال التي قام بها فأبوه هو أبو بكر وربي في حجر عليّ بن أبي طالب وأخته أم المؤمنين عائشة (سمته محمداً وكنته أبا القاسم)[١٦] وأمه أسماء بنت عميس، وقد زكاها محمد وبرأها من الفحشاء (ولما استشهد جعفر بمؤتة من أرض الشام تزوجها بعده أبو بكر فولدت له محمداً بذي الحُليفة لخمس بقين من ذى القعدة وهي شاخصة إلى الحج هي وأبو بكر ــ مع النبى (ص) فأمرها أن تغتسل وترجل ثم تهل بالحج وتصنع ما يصنع الحاج إلا أنها لا

---

(١٦) **الاستيعاب** لابن عبد البر ص ١٣٦٦ المجلد الثالث.

تطوف بالبيت ــ فكانت سبباً لحكم شرعى إلى قيام الساعة وزكاها النبى (ص) وبرأها من الفحشاء.. ولما توفي أبو بكر تزوجها عليّ بن أبي طالب فنشأ محمد بن أبي بكر في حجر علي)[١٧].

كيف يتأتى لمن كانت تحوطه هذه الكوكبة من الأسماء اللوامع = الأب ــ المربّي ــ الأخت ــ الأم أن يرتكب ما قارفه محمد بن أبي بكر؟

فقد كان أحد قادة حصار دار عثمان ــ والحصار يستتبع كما رأينا منع الماء والزاد ــ ولم يكتف بذلك بل كان أحد المتسورين والداخلين على عثمان عقر داره وأحد قاتليه السافحين لدمه ولو أن بعض الروايات تقص علينا أن عثمان لما رآه بين عصبة القتلة وبخه فاستخزى ولكنه أشار على الآخرين باغتياله وهذه الرواية ــ على فرض صحتها ــ لا تغير شيئاً لأنه بهذه المثابة يُعد شريكاً بالتحريض والشريك كالفاعل الأصلي سواء بسواء وجزاؤهما متساو وقد حذّر محمد من المساهمة في قتل مسلم ولو بإشارة من أصغر أصبع أو بنطق حرف واحد.

(وكان (أي محمد بن أبي بكر) ممن حضر قتل عثمان وقيل إنه شارك في دمه وقد نفي جماعة من أهل العلم ذلك والخبر أنه شارك في دمه وأنه لما قال له عثمان: لو آراك أبوك لم يرض هذا المقام منك، خرج عنه وتركه ثم دخل عليه من قتله، وقيل أنه أشار على من كان معه فقتلوه)[١٨].

فهنا يؤكد ابن عبد البر على مشاركة محمد بن أبي بكر في دم

---

(١٧) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري، تحقيق د. النشرتي وآخرين، مطابع الأهرام بالقاهرة.
(١٨) **الاستيعاب** لابن عبد البر ص ١٣٦٦، المجلد الثالث.

عثمان (والخبر أنه شارك في دمه) ثم يورد خبراً يفيد تحريضه القاتلين بعد خروجه إثر تأنيب عثمان له (وقيل إنه أشار على من كان معه فقتلوه) ــ ويؤكد اليعقوبي أن محمد بن أبي بكر أحد قتله عثمان (وكان الذين تولوا قتله محمد بن أبي بكر..)[١٩].

ويثير اغتيال محمد بن أبي بكر عثمان عدة مشاكل ماورائية منها:

ماذا يقول أبو بكر لعثمان عندما يقابله في الجنة وكيف يعتذر له؟

أبو بكر وعلي وعائشة ــ الثلاثة مضمونة لهم الجنة ــ فكيف ينعمون بلذائذها وابن الأول وربيب الثانى وأخي الثالثة يتلظى بنيران الجحيم؟

وأسماء بنت عميس زوجة الشهيد الطيار جعفر ثم زوجة أبي بكر ثم زوجة علي وفوق ذلك حائزة على براءة وتزكية من محمد إبان حجة الوداع، كيف يهون عليها أن يتقلب إبنها محمد في سعير جهنم؟

أليس مما تؤكده طبائع الأمور بل البديهيات أن ما ينغص على الشخص متعه علمه بأن أقرب الناس إليه أو فلذة كبده يعاني أهوال الحريق؟

وكما لم يفلت محمد بن أبي حذيفة من أيدى (العثمانية) كذلك لاحق هؤلاء محمد بن أبي بكر وكما كان قتل محمد بن أبي حذيفة بأمر مباشر من ابن خاله والصحابي مثله وهو ابن أبي سفيان كذلك كان قتل محمد بن أبي بكر على أيدي صحابة مثله، وزادوا على ذلك بأن أفحشوا وتجاوزا كل الحدود حتى

(١٩) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني، ص ١٧٦.

الحدود الدنيا التي توجبها الإنسانية بل الفطرة السليمة (كان محمد بن أبي بكر على الرجالة يوم الجمل ثم ولاه مصر فقتله بها معاوية ابن جديج صبراً)[٢٠].

ويسرد لنا ابن الأثير الجزري الطريقة البالغة البشاعة التي قتل بها محمد بن أبي بكر ويعلق دمه في رقبة صحابيين = عمرو بن العاص ومعاوية بن حديج (ولما ولى محمد بن أبي بكر مصر سار إليه عمرو بن العاص فاقتتلوا فانهزم محمد ودخل خربة فأخرج منها وقتل وأحرق في جوف حمار ميت، قبل قتله معاوية بن حديج الكوفي وقيل قتله عمرو بن العاص صبراً)[٢٠].

وسبق أن قلنا إن الفترة التي قضاها الأغلبية العظمى من أصحاب لم تكن كافية لتمحو من نفوسهم ما ألفوه من جلافة وغلظة وإلاّ فكيف نفسر أن يقدم الصحابي عمرو بن العاص أو الصحابي معاوية ابن حديج على حرق جثة ابن أبي بكر ــ وأبو بكر مكانته لدى المسلمين السنة معروفة بعد وضعها في جوف حمار ميت وأين حرمة الموتى؟

وهل هذه هي السلوكيات الروائع التي يبغي البعض أن نتأسى بها؟

وإذا فرضنا أن قتل محمد بن أبي بكر ــ دون محاكمة عادلة ــ كان جزاءً عادلاً لقتله أو مشاركته في قتل الخليفة الثالث، إذن فما هو المبرر لحرق جثته في جوف حمار ميت؟

وأوردنا أن دم محمد بن أبي بكر معلق في رقبة صحابيين هما عمرو بن العاص وهو معروف ــ والآخر هو:

---

(٢٠) **الاستيعاب** المجلد ذاته، الصفحة نفسها.

معاوية بن حديج الكوفي

(له صحبة ورواية.. قيل هو الذي قتل محمد بن أبي بكر بأمر عمرو بن العاص.. فقالت عائشة:... إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي)[٢١].

ويؤكد ابن عبد البر ذلك (.. يقولون إنه الذي قتل محمد بن أبي بكر بأمر عمرو بن العاص له بذلك).

فهنا صحابيان أحدهما يأمر بالقتل والآخر ينفذ الأمر ويقتل، إذن هما في الجرم سواء ــ والقتل يتم فوراً دون أن تسبقه أية إجراءات مثل سماع دفاع المتهم وشهادة شهوده... الخ.

يقول عنه صاحب جمهرة أنساب العرب (معاوية بن حديج.. بن السكوني له صحبة يكنى أبا نعيم.. قاتل قاتل ــ عثمان رضى ــ ولعن قاتله)[٢٢] ويلفت النظر في الخبر الأول أن معاوية بن حديج له صحبة ورواية، فكيف يمكن الوثق برجل تبلغ به الوحشية أن يمثل تمثيلاً فاحشاً مستبشعاً بجثة ابن أبي بكر صاحب محمد إذ هما في الغار والذي نفحه محمد لقب الصديق؟

وكم من الروايات أداها مثل هذا الصحابي الذي حطم كل شيء: تعاليم محمد التي نهت عن المثلة والأخلاق التي تمنع من التشفي بل والمبادئ الإنسانية الفطرية التي تحث على سرعة دفن الميت لاحرق جثته بعد وضعها في جوف حمار ميت؟

وكم هو مقدار البشاعة والفظاعة والفظاظة... الخ التي كانت تحملها نفس ذاك الصحابي؟

---

(٢١) **أسد الغابةِ** المجلد الخامس، ص ٢٠٧.

(٢٢) **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم الأندلسي، تحقيق وتعليق: عبد السلام هارون، ص ٤٢٩، الطبعة الخامسة دار المعارف.

وقبل أن نغادر وقائع مصرع كل من محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر نتساءل هل كان سلوك أم كل منهما له أثره في نزوع كل منهما نحو العدوانية الشديدة حتى ضد أقرب الناس إليه؟ = في حالة محمد بن أبي حذيفة: كافله ومربيه وراعيه... الخ وفي حالة محمد بن أبي بكر: صديق أبيه وصاحبه وزميله في مجلس العشرة المبشرين بالجنة!! ولكن ما الذي صدر من الوالدتين وعقد نفسية الولدين وطبعهما بطابع الشراسة؟

ا ــ أم محمد بن أبي حذيفة:

سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشية من بني عامر بن لؤي... إمراة:

١ ــ أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة

وهي أيضاً أم سُليط بن

٢ ــ عبد الله الأسود القرشي العامري

وأم بكير بن

٣ ــ شماخ بن سعيد بن قائف

وأم سالم بن

٤ ــ عبد الرحمان بن عوف

(قال أبو عمر في الاستيعاب والزبير)[٢٣]. أي أنها تزوجت بعد أبي حذيفة بن عتبة ثلاثة أزواج فيغدو المجموع أربعة أزواج ــ ولا شك أن ابنها محمد بن أبي حذيفة كان يرى ويسمع ويدرك تنقل أمه من زوج إلى آخر حتى انتهي بها المطاف إلى عبد الرحمان بن عوف الذي تقول بعض الروايات إنه تزوج عشرين إمرأة (طبعاً مع

(٢٣) **أسد الغابةِ**، المجلد السابع، «كتاب النساء» ص ١٥٥.

المحافظة على الحد الأقصى وهو أربع زوجات في العصمة) وكان الولد أي محمد بن أبي حذيفة قابعاً في بيت عثمان محروماً من حنان الأمومة.

ب ــ أم محمد بن أبي بكر:

أسماء بنت عميس الخثعمية تفوقت على سهلة بنت سهيل في عدد أزواجها:

أ ــ حمزة بن عبد المطلب فولدت له إبنة تسمى أمة الله وقيل أمامه.

ب ــ شداد بن الهاد حليف بني هاشم فولدت له عبد الله وعبد الرحمن إبني شداد.

ج ــ جعفر بن أبي طالب فولدت له عبد الله بن جعفر وآخرين.

د ــ أبو بكر بن أبي قحافة فولدت له محمداً.

هـ ــ عليّ بن أبي طالب فولدت له يحيى(٢٤).

وأسماء وإن لم تتزوج بعد أبي بكر (والد محمد) إلاّ زوجا واحداً هو عليّ بن أبي طالب فلا بد أنه سمع بزيجات أمه الثلاث السوابق(٢٥).

---

(٢٤) **الاستيعاب** ابن عبد البر، ص ١٧٨٥ المجلد الرابع.

(٢٥) يبدو أن الخثعميات كن يتميزن بالوضاءة والحسن الفائق وإلاّ فما الذي يدعو خمسة من الرجال منهم أربعة من قريش إلى التعاقب في زواج أسماء بنت عميس الخثعمية لو لم تكن جميلة حسناء، ويخبرنا الإخباريون أن رجلاً من خثعم قدم إلى مكة ومعه ابنته (القتول) وكانت من أوضأ النساء فاغتصبها منه نبيه بن حجاج وغيّبها في داره فوقف عند الكعبة ونادى بأعلى صوته «يا لحلف الفضول»، كما يذكر لنا أصحاب الحديث أن محمداً في حجة الوداع كان يردف خلفه ابن عمه الفضل بن عباس فجاءت امرأة «خثعمية» ظاهرة الوضاءة تستفتي محمداً في بعض أمور دينها فأخذ الفضل يحدّق فيها فجعل محمد وجه الفضل إلى الناحية الأخرى، إذن الخثعميات كنّ صاحبات حلاوة وملاحة فلا غرو إذن أن تتزوج أسماء أم محمد بن أبي بكر خمسة أزواج.

ومهما كانت الرعاية والحنو اللذان كان يوفرهما له ابن أبي طالب إلاّ أنه من الثابت أن شعور الغربة لم يكن يزايله إذ أن أمه قد خلفت من عليّ نفسه وكان لها أولاد من أزواجها السابقين، فضلاً عن أن بيت علي كان يعج بالعديد من أولاد وبنات علي من زوجاته الثلاث الأخريات بخلاف جواري المتعة(٢٦).

هذه هي الأحواء التي تربى فيها كل من المحمدين (محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر) والتي أصابتهما بالعلل النفسية والتي رسّبت في أعماقهما الشعور بالغربة والإستلاب مما دفعهما إلى التنفيس عن تلك العقد بالنزوع إلى الشراسة والعدوانية وكان من الطبيعى توجيهها إلى ولي أمر ذلك المجتمع وممثله ورأسه ذلك المجتمع الذي لم يجدا فيه سوى الغربة المعنوية أو النفسية التي هي أقسى من الغربة المكانية.

عمرو بن الجموح الخزاعي

ثالث قتلة عثمان وهو عمرو بن الجموح بن الكاهن بن حبيب وقيل عمرو بن الحمقى... الخزاعي.

(له صحبة وكان ممن أجلب على عثمان)(٢٧) وكلمة أجلب لا تفيد بذاتها القتل أو الاشتراك فيه بالمساعدة أو التحريض.. الخ وقصارى ما تدل عليه أنه ألب عليه ــ ولكن المصادر التي سنوردها فيما بعد سوف تؤكد اشتراكه ومساهمته في القتل.

عمرو هذا صحابي بإجماع (هاجر إلى النبي (ص) بعد الحديبية

---

(٢٦) سبق أن ذكرنا أن ابن تيمية الحراني في كتابه منهاج **السنة المحمدية** أورد أن علي بن أبي طالب ترك أربع زوجات وأربع عشرة سريّة.
(٢٧) **جمهرة أنساب العرب** لمحمد بن حزم الأندلسي ص ٢٣٨، مصدر سابق.

وقيل أسلم بعد حجة الوداع والأول أصح)[٢٨].

ويؤكد ابن الأثير الجزري هجرة ابن الجموح أو ابن الحمق إلى محمد بعد الحديبية ويوهّن رأي من يذهبون إلى أن إسلامه كان بعد حجة الوداع[٢٩]. ويضيف صاحب أُسد الغابةِ خبراً طريفاً عنه فيقول (سقى النبى (ص) فقال اللهم متعه بشبابه فمرت عليه ثمانون سنة لا تُرى في لحيته شعرة بيضاء)[٣٠]. وهذه الدعوة من محمد إلى ابن الحمق تؤكد ما كان يردده محمد دائماً من أنه لا علم له بالغيب إذ لو كان يعلم الغيب فكيف يدعو لأحد قتلة عثمان وهو أحد المقربين له وصهره مرتين كما تُوثق ما تنبأ به أن مِن الصحابة من سوف يغير ويبدل ويحيد عن السراط المستقيم فيقول له: سحقاً ــ وأي تغيير وتبديل... أشد من قتل عثمان.

وابن عبد البر وابن الأثير مطبقان على أن عمرو بن الجموح أحد الأربعة الذين قتلوا عثمان (وكان ممن سار إلى عثمان وهو أحد الأربعة الذين دخلوا عليه الدار فيما ذكروا)[٣١]. وأورد ابن الأثير العبارة عينها بحروفها[٣٢]. ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية اليعقوبي (وكان الذين تولوا قتله.. وعمرو ابن الجموح الخزاعي)[٣٣].

ولا شك أن عمرو بن الحمق كان يعلم قدر عثمان لدى محمد ومصاهرته إليه في إبنتيه ولكن كل ذلك لم يمنعه من الاشتراك في القتل ومن المؤلم أن يذكر لنا ابن عبد البر أن عمراً هذا (حفظ عنه

---

(٢٨) **الاستيعاب** لابن عبد البر، ص ١١٧٤، المجلد الثالث.
(٢٩) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري، ص ٢١٨ من المجلد الرابع.
(٣٠) المصدر نفسه والصفحة والمجلد نفسيهما.
(٣١) **الاستيعاب**، الجزء الثالث، ص ١١٧٤.
(٣٢) **أسد الغابةِ**، المجلد الرابع، ص ٢١٨.
(٣٣) **تاريخ اليعقوبي**، ص ١٧٦، المجلد الثاني، مصدر سابق.

(أي من محمد) أحاديث)[٣٤]. وهذا يقطع بأن من بين حملة أحاديث محمد ونقلته أو رواته للناس قتلة وليسوا قتلة من النوع المألوف ولكن قتلة صهر محمد ومن أشد الناس حميمية إليه وليس هذا طعناً في السنة أو في الأحاديث النبوية ولكنه دعوة إلى من يتمثلون بالأحاديث إلى التأني ومعرفة حقيقة رواياها. ثم صار عمرو بن الجموح (من شيعة علي ـــ (رضى) ـــ وشهد معه مشاهده كلها: الجمل والنهروان وصفّين[٣٥]. وتحول عدد من المجلبين على عثمان والمحرضين عليه والأهم قتلته إلى شيعة لعليّ. وقبوله إياهم في عسكره من أقسى المطاعن التى وجُهت إلى أبي الحسنين إذ تساءل المسلمون ومنهم صحابة أكابر: كيف يؤوي علي من تلطخت يداه بدم عثمان وهو من هو وكيف لم يراع أن عثمان قرشي مثله ومن السابقين للإسلام ومن الذين بذلوا الأموال السخية في نصرة دين محمد (ابن عم علي) ودولة قريش وأنه أصهر إلى محمد مرتين وأنه زميله في مجلس العشرة المبشرين بالجنة وهو المجلس الذي حلّ محل (الملأ) الذي كان يحكم مدينة التقديس (مكة) قبل الإسلام؟.

كيف تغاضى عليّ عن ذلك وقبل في جيشه وبين صفوف شيعته عمرو بن الجموح الخزاعي وأمثاله وهم يعدون بالمئات؟.

ونحن نرجح أن الوهن الذي أصاب خلافة علي كان من بين أبرز أسبابه موقف علي من هذا الأمر ولا يصح أن يقال تبريراً لذلك إن أبا الحسن كان في مركز بالغ الحروجة وأنه وقع بن شقيّ الرحى: عائشة والزبير وطلحة من جانب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص (لاحظ أن جميعهم صحابة) من جانب آخر وأنه

(٣٤) **الاستيعاب** المجلد والصفحة نفسيهما.
(٣٥) **الاستيعاب** المجلد نفسه والصفحة نفسها، **أسد الغابةِ** المجلد والصفحة نفسيهما.

لذلك كان في حاجة إلى أنصار ومؤيدين وأتباع وشيعة... الخ وأن الظرف القاسي حتّم عليه أن يُغمض عينيه عن المُجليين على عثمان وسافحي دمه ولكن هذا تبرير نفعي (براجماتي) ونسبته إلى علي ترسب في النفس أشياء.

ونعود إلى سياقة حكاية عمرو بن الحُمق الخزاعي فنقول:

إن (العثمانية) لم يدعوه يفلت من بين أيديهم إذ بعد أن حقّق معاوية حُلمه وحُلم بني أميه في تولى السلطة وبعد أن إنصاع إلى نصيحة أبيه (أدبروها كما يدير الصولجان الكرة)[٣٦]. وأصبح هو السيد المطاع سلّط واليه على العراق وأخاه زياد ابن أبيه أو زياد بن أبي سفيان وهو أيضاً صحابي سلّطه عليه وأمره بأن يأتيه برأسه (ثم هرب في زمن زياد إلى الموصل ودخل غاراً فنهشته حيّة فقتلته فأخذ عامل الموصل رأسه وحمله إلى زياد فبعث به زياد إلى معاوية وكان أول رأس حُمل في الإسلام من بلد إلى بلد)[٣٧]. ويؤكد محمد بن حزم الأندلسي تلك الواقعة فيقول عن عمرو الخزاعي (ورأسه أول رأس مُسلم حُمل في الإسلام من بلد إلى بلد)[٣٨]. صورة مركبة تنطق بالبشاعة والدموية:

صحابي يقتل صحابياً مثله فيأمر صحابي ثالث صحابياً رابعاً بملاحقته فيشير إلى جنوده فيأتوه برأسه فيحملها مئات الأميال إلى الصحابي الآمر بالقتل ليستوثق من قتل الصحابي الأول. لو لم ترد هذه الواقعة في مصادر موثقة لا مطعن عليها لما صدقها المرء = إذ

(٣٦) في **المعجم الوسيط الصولجان والصولجانة:** عصا يحملها الملك ترمز لسلطانه.
(٣٧) **الاستيعاب** المجلد والصفحة نفسيهما، وكذلك **أسد الغابةِ** المجلد والصفحة نفسيهما.
(٣٨) **جمهرة الأنساب** ص ٢٣٨ مصدر سابق.

كيف يقدم هؤلاء على تلك الأفعال المستشنعة وهم ينتمون إلى القرون؟.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد الفظيع ــ ففي إبان هروب عمرو بن الحمق من ملاحقة معاوية وزياد له أمر معاوية بسجن زوجته آمنه بنت الشريد حتى يسلم نفسه (بذلك يكون معاوية هو أول من سنّ هذه السنة: سنة سجن أقارب المتهم الهارب لإجباره على تسليم نفسه وعنه أخذتها أجهزة القمع في جميع العصور حتى يومنا هذا. أ. هـ).

فلما قُتل وتأكد من ذلك بوصول الرأس إلى بلاطه أمر بها فألقيت في حِجر زوجته وهي مسجونة فارتاعت لذلك (آمنة بنت الشريد كانت تحت عمرو بن الحمق فحبسها معاوية في دمشق زماناً حتى وجه إليها رأس عمرو بن الحمق فالقي في حِجرها فارتاعت لذلك[٣٩]. فهل تجد بين صفحات التاريخ مثل هذه الحكايا المقززة؟.

عبد الرحمن بن عديس البلويّ

رابعهم: هو عبد الرحمن بن عُديس البلويّ (أي من من بني بلى) (له صحبة وشهد بيعة الرضوان وبايع فيها وكان أمير الجيشين القادمين من مصر لحصر عثمان رضى الله عنه ــ لما قتلوه)[٤٠].

ونظراً لأن عبارة صاحب الأسد غير محكمة ولا تفيد القتل فإننا لا نعول عليها وحدها ونضيف إليها ما جاء في الاستيعاب (هو كان الأمير على الجيشين القادمين من مصر إلى المدينة الذين

(٣٩) **أسد الغابةِ** المجلد والصفحة نفسيهما.
(٤٠) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري، المجلد الثالث ص ٤٧٤.

حصروا عثمان وقتلوه)[٤١]. كما ذكره اليعقوبي من بين الذين تولوا قتل عثمان[٤٢]. وقال عنه صاحب الجمهرة إنه (أحد المحاصرين لعثمان)[٤٣]. ونكتفي بهذا القدر لأننا كما قلنا لسنا بصدد كتابة تاريخ إنما نورد الأخبار بالقدر الذي يفصح عن المعنى الذي نهدف إليه ــ فالخلاصة إذن أن هذا البلويّ واحد من قتله الخليفة الثالث ــ ولكن حالته ليست كحالة الثلاثة السابقين لأنها تثير مُشكلاً فى غاية من الحروجة ذلك أنه من أهل بيعة الرضوان أي من الذين بايعوا محمداً تحت الشجرة وعلى إثرها تلا محمدٌ عليهم آيات من القرآن تخبرهم أنهم حازوا رضوان الله (لقد رضى الله على عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة)[٤٤]. ومن ينال رضى الله عليه لا يسخط عليه أبداً ــ ومن ناحية أخرى فإن القتل العمد خاصة (قتل المسلم) من أكبر الكبائر وجزاؤه جهنم.

وهذا البلويّ جمع بين الإثنين (المبايعة تحت الشجرة والقتل العمد وليس لمسلم عادي ولكن لأحد أكابر الصحابة وصهر محمد مرتين) فما هو المخرج من هذا المُشكل العسر، وكما تمت ملاحقة الثلاثة الأولين لم ينجُ البلويّ من المتابعة، (فلما كانت الفتنة كان ابن عديس ممن أخذه معاويّة في الرهن فسجنهم بفلسطين فهربوا من السجن فأتبعوا حتى أُدركوا فأدرك فارس منهم ابن عديس فقال ابن عديس: ويحك اتقِ الله في دمي فإني من أصحاب الشجرة فقال: الشجر بالخليل كثير فقتله)[٤٥]. ويؤكد

(٤١) **الاستيعاب** المجلد الثانى، ص ٨٤٠.
(٤٢) **تاريخ اليعقوبي** مجلد الثاني، ص ١٧٦.
(٤٣) **لسان العرب** لابن أبي محمد بن حزم الأندلسي، ص ٤٣٧.
(٤٤) الآية ١٠٠ **سورة التوبة.**
(٤٥) **أسد الغابةِ**، ابن الأثير الجزري، المجلد الثالث ص ٤٧٤.

صاحب الجمهرة وضع معاوية لعدد من قتلة عثمان في السجن ذكر منهم محمد بن حذيفة ثم هروبهم ثم ملاحقتهم (فأدركوا فقتلهم معاوية كلهم)[٤٦].

والخبر الذي حكاه ابن الأثير الجزري أنفا يثير الإندهاش فابن عديس البلويّ يسترحم الفارس الذي هم بقتله مستشفعاً بكونه من المبايعين تحت الشجرة وما دام الأمر كذلك فلماذا لطخ يمينة التي بايع بها محمداً تحت الشجرة ــ بدم عثمان صهر محمد ومن أعز أصحابه وأقربهم لقلبه؟ ولذا حملت إجابة الفارس سخريةً مريرةً لأن البلويّ بضلوعه في اغتيال عثمان استهان بحرمة الشجرة والبيعة التي تمت تحتها ومن ثم سوّاها بأي شجرة غيرها وهكذا نزل القصاص العادل بالصحابة الأربعة الذين سفكوا دم عثمان وداسوا على المبادى والقواعد والأعراف، الدينية، الخلقية، الإنسانية ولم يراعوا صحبتهم لمحمد حتى ولو كانت لساعة واحدة.

نختم مأساة قتل عثمان التي أظهرت عدداً من الصحاب على حقيقتهم وكشفت عن دخائل نفوسهم الصحيحة التي لم تستطع فترة الصحبة الزاهرة أن تمحوها بالآتي:

ظل عثمان بعد قتله ــ ثلاثةً أيام ــ بدون دفن، أي لم يكتف القتلة بقتله بل منعوا مواراته التراب. ويحار المرء في وصف شعور هؤلاء الصحاب إزاء هذا الموقف الخالي من أي ذرة من الأدمية ــ وساءَ ذلك القرشيين جميعاً فأرسلوا إلى علي ليكلم الثوار ليسمحوا بذلك.

وبعد لأي وافقوا ــ ولما أراد أهله دفنه في البقيع حيث دفنت فاطمة بنت محمد ومن مات من زوجات محمد وعدد كبير من

---

(٤٦) **جمهرة أنساب العرب** لمحمد بن حزم الأندلسي، ص ٤٣٥.

الصحابة بل وعامة من يتوفى من المسلمين، قوبل الطلب بالرفض وكان على رأس الرافضين: أسلم بن أوس بن بجرة بن الحارس... بن ساعدة بن كعب بن الخزرج[٤٧].

فمن هو أسلم؟

عز الدين بن الأثير الجزري قال (إن هناك اثنين من الصحابة اسمهما أسلم، أولهما أسلم من بجرة.. الخزرجي الساعديّ قال ابن ماكولا: شهد أحداً، وقال هشام الكلبي: هو الذي منعهم أن يدفنوا عثمان بالبقيع فدفنوه في (حش كوكب).

والآخر هو أسلم بن بجرة الأنصاري الذي قال جعلني رسول الله (ص) على أسارى بني قريظة فكنت أنظر إلى فرج الغلام فإذا رايته انبت ضربت عنقه وانتهى إلى قوله: هل هذا والذي قبله واحد أو اثنان؟

وما أقرب أن يكونا واحداً فإنهم كثيراً ما ينسبونه إلى الجد وذكرناه لئلا يراه من يفطن غير الأول والله أعلم)[٤٨]. وسواء أكانا اثنين أم واحداً ــ فإن الذي يهمنا هو أن الذي ترأس فرقة رفض دفن عثمان في جبان البقيع هو صحابي أنصاري ــ وفي تقديرنا أنه لم يكن الأنصاري الوحيد الذي وقف ذلك الموقف بل غالبية الأنصار كانوا كذلك وهذا الرفض رمز لاحتجاجهم على تسلط قريش على مقاليد الحكم وذلك منذ سقيفة بني ساعدة وتهميش الأنصار وعدم اشتراكهم في مقاعد السلطة ولا مراكز القيادة العسكرية علاوة على الاستئثار بكل الخيرات ــ إلاّ الفتات ــ وشعورهم بالدونية مع أن على أسيافهم توطد دين محمد وقامت دولة القرشيين ــ وكنا

(٤٧) **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم الأندلسي، ص ٢٤٩.
(٤٨) **أسد الغابةِ** المجلد الأول، ص ٩١.

نود ألا يظهر هذا الشعور الحبيس في حنايا الضلوع في أمر يتعلق بكرامة الإنسان وحرمة الميت أيا كان.

ولكن هذا الخبر ينفحنا بمُعطى بالغ الدلالة وهو أن أسلم بن بجرة خزرجي أي من رهط سعد بن عبادة سيد الخزرج ومرشحهم للخلافة في سقيفة بني ساعدة إثر وفاة محمد والذي قال عمر نفسه في تلك الواقعة (أقتلوا سعداً قتل الله سعداً)(٤٩). وذلك بعد أخذ البيعة لابن أبي قحافة وقد تخلّف سعد عن بيعة أبي بكر وكذلك عن بيعة عمر وظل مغاضباً لهما لا يصلي بصلاتهما ولا يحج بحجهما وسار إلى الشام فأقام بِ (حوران) إلى أن مات سنة خمس عشر لسنتين مضتا من خلافة عمر(٥٠). في ظروف غامضة وأشيع أن الجن قتلته وأنهم سمعوا شاعرهم يصيح:

قتلنا سيد الخزرج   سعد بن عبادة
رميناه بسهمين   فلم نخطء فؤاده

وحوران التي مات أو قتل فيها ابن عبادة قرب دمشق وكانت الشام آنذاك تحت حكم معاوية ابن أبي سفيان خبير تصفية أعداء دولة قريش.

فهل كان إصرار أسلم بن بجرة الخزرجي وغيره من الأنصار على عدم دفن عثمان بالبقيع نوعاً من الثأر للمصرع الغامض الذي لقيه سيد رهط الخزرج علاوة على المُعطيات السوابق التي ذكرناها باعتبار أن عثمان وقتها هو رمز دولة قريش التي همّشتهم وغمطتهم حقوقهم وقتلت أعز سادتهم، فإذا لم يستطيعوا الإنتقام من رأسها

---

(٤٩) **تاريخ اليعقوبي** الجزء الثاني، ص ١٢٤.
(٥٠) **أسد الغابةِ في معرفة الصحابة** لابن الأثير الجزري، المجلد الثاني، ص ٣٥٧، وكذلك **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لابن عبد البر. المجلد الثاني ص ٥٩٩.

حيّاً فلا أقل من الثأر منه ميتاً فلا يُدفن في القرافة التي يدفن فيها المسلمون ــ حتى عامتهم أو سوادهم ــ بل جزاؤه وجزاء قريش ألاّ يوارى الا في (حش كوكب)!

إن في الفتنة التي انتهت بمصرع عثمان وما أعقبها بقليل صوراً صوارخ من الجنوح والانفلات من كل المبادئ والأعراف والتقاليد وقعت من عدد وفير من الصحاب ولكن إحصاءها تنوء به كواهل جماعة من الباحثين لا فرد واحد ومن هنا نكتفي بالأمثلة ــ وهي بالفعل مجرد أمثلة ــ التي قدمناها لنبرز المعنى الذي نقدمه في هذه الفاصلة وهو أن بعض الصحاب ــ وهو ليس بالقليل ــ لم يتورع عن قتل صحابة مثله غير عابئ بأي شيء ــ ومن الصحبة من لم يكتف بإزهاق روح نظيره بل مثّ بجثته أو مانع في مواراتها التراب ومنهم من يصرّ على أن يُدفن صاحبه في مكان قضاء الحاجة!

قتل حُجر بن عديّ وجماعته

حُجر بن عديّ الكندي يكنى أبا عبد الرحمن، كوفيّ (كان من فضلاء الصحابة... وكان على كندة يوم صفّين وكان على الميسرة يوم النهروان = في جانب عليّ)[٥١]. ويزيدنا ابن الأثير الجزري تعريفاً به (... المعروف بِ حُجر الخير.. وفد على النبى (ص) هو وأخوه هانىء وشهد القادسية، وكان من فضلاء الصحابة وكان على كندة بصفين وعلى الميسرة يوم النهروان وشهد الجمل أيضاً مع عليّ وكان من فضلاء أصحابه)[٥٢].

ولما استتب الأمر لمعاوية ولى زياداً أخاه البصرة ثم جمع له معها

---

(٥١) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٣٢٩.
(٥٢) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري، المجلد الأول.

الكوفة بعد وفاة المغيرة بن شعبة فكان يقيم في هذه نصف العام والأخرى النصف الآخر وأظهر في كليهما الغلظة وسوء السيرة وفي إحدى سفراته عن الكوفة خلف عليها عمرو بن حريث العدوي فقعد له حجر وأصحابه فحصبوه وهو يخطب على المنبر... فكتب إلى زياد الذي أسرع بالعودة وقبض على حُجر وأصحابه وحبسهم وأرسلهم إلى معاوية وأرجلهم في سكك الحديد مع مائة رجل من الجند)[٥٣]. وكل جريرة حجر وأصحابه إنتقادهم لممارسات زياد بن أبيه وإلى المصريين القاسية ومعاملته الجائرة للرعية[٥٤]. وتعددت الروايات عن وصولهم إلى معاوية (عن محمد بن سيرين أن معاوية لما أتى بحجر بن الأدبر قال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين قال: أوأمير أنا إضربوا عنقه[٥٥]. أما المسعودي فيروي أنه عندما وصل حجر ومن معه مرج عذراء على إثنى عشر ميلاً من دمشق أرسل لهم رجلاً أعور خاطب حُجراً بقوله: (إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب وقتل أصحابك إلاّ أن ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه)[٥٦]. ثم قتلهم وفى الاستيعاب ــ أن زياداً بعث حجراً في اثنى عشر رجلاً كلهم فى الحديد فقتل منهم ستة واستحيا منهم ستة وكان حجر ممن

---

(٥٣) **الأخبار الطوال** لأبي حنيفة الدينوري سنة ٢٨٢هـ تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيّال، الطبعة الأولى، ١٩٦٠، سلسلة «تراثنا»، وزارة الثقافة، مصر.

(٥٤) كانوا يطلقون على مواطني الدولة ــ **الرعية** ــ وفي قواميس اللغة **الرعية:** هي الماشية التي ترعى الكلأ وغيره وهي لفظة تدل على نوعية نظرة الحكام لمن يحكمونهم.

(٥٥) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ٣٣٠.

(٥٦) **مروج الذهب ومعادن الجوهر** لأبي الحسن على المسعودي، ت. ٣٤٦هـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني طبعة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م. كتاب «التحرير»، دار الشعب بمصر.

قتل[٥٧]. أما ابن الأثير الجزري فيؤكد واقعة قتلهم في قرية مرج عذراء قبل وصولهم إلى دمشق[٥٨]. وهناك من يرى أن معاوية سمع الشهود الذين أرسلهم زياد بن أبيه مع حجر وأصحابه ليشهدوا على واقعة حصبهم لِـ عمرو بن حُريث العدوي وهو يخطب على المنبر.

وحتى على فرض الأخذ بهذه الرواية فهل هناك نص في القرآن أو السنة يجيز لصحابي أن يقتل صحابياً مثله أو مسلماً عادياً لأنه حصب نائب الوالي. ولكن هذه هي العلة الظاهرة أما العلة الأصلية المستخفية وراءها وهي الخطة التي انتهجها معاوية وهي تصفية المناوئين لدولة قريش التي آلت إلى بني أمية حتى ولو كانوا صحابة وإزاحة خصومها وهي ما يمكن استخلاصها من قول معاوية.

فقال معاوية (قد كنت هممت بالعفو عنهم إلاّ أن كتاب زياد ورد إلي يعلمني أنهم رؤساء الفتنة وأني متى إجتثثتهم، إجتثثت الفتنة من جذورها)[٥٩]. والفتنة حسب معجمهم تعني الثورة والثورة على من؟ على الدولة وما دام حجر وصحابه من رؤسها فلا بد من إجتثاثهم والملاحظ أن الاقتراح باستئصالهم جاء من صحابي أيضاً هو زياد!

وقتل حجر أصاب الصحابة الباقين آنذاك بالذعر الشديد لأنهم أيقنوا أن معاوية أهدر (مقام) الصحبة وأسقط (مكانتها) وربما يأتي الدور عليهم:

أ ــ (قال نافع: كان عبد الله عمر في السوق فأطلق حبوته

(٥٧) **الاستيعاب**، ص ٣٢٨، المجلد الأول.
(٥٨) **أسد الغابةِ**، المجلد الأول، ص ٤٦٢.
(٥٩) **الأخبار الطوال** للدينوري، ص ٢٢٤، مصدر سابق.

وقام غلب عليه النحيب)[٦٠].

ب ــ (فخرج نفر من أشراف أهل الكوفة إلى الحسين بن علي فأخبروه الخبر فاسترجع وشق عليه)[٦١].

ج ــ (ولما بلغ الربيع بن زياد الحارثي وكان عاملاً لمعاوية على خرسان قتل حجر دعا الله عز وجل وقال: اللهم إن كان للربيع عندك خير فاقبضه إليك وعجّل، فلم يبرح من مجلسه حتى مات)[٦٢].

والربيع هذا له صحبة وشارك في الفتوحات، ولا شك أن وفاته جاءت نتيجة إصابته برعب طاغ خشية أن يكون مصيره كحجر بن عديّ.

ولكن الطبري له رواية أخرى:

(أخبرنى محمد بن الفضل عن أبيه قال: بلغني أن الربيع بن زياد ذكر يوماً ب خراسان حجر بن عديّ فقال لا تزال العرب تقتل صبراً بعده ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبراً ولكنها أقرت فذلت فمكثت بعد هذا الكلام جمعة ثم خرج في ثياب بياض في يوم جمعة فقال: أيها الناس إني قد مللت الحياة وإني داعٍ بدعوة فأمنوا ثم رفع يديه بعد الصلاة وقال اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضني إليك عاجلاً فخرج فما توارت ثيابه حتى سقط فحُمل إلى بيته ومات من يومه)[٦٣].

---

(٦٠) **أسد الغابةِ** المجلد ذاته والصفحة نفسها.
(٦١) **الأخبار الطوال** للدينوري، ص ٢٢٤، مصدر سابق.
(٦٢) **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٦٣) **تاريخ الطبري** أو **تاريخ الأمم والملوك** لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري، ٢٢٤/ ٣١٠هـ، الجزء الخامس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة ١٩٦٣م، دار المعارف بمصر.

ويلفت النظر في أقوال الربيع هذه صدق فراسته في أن المحكومين وقد رضوا بقتل حجر بن عديّ ولم ينفروا (يثوروا) على قاتله ظلماً وبغياً قد أعطوه صك أمان وجواز مرور لاستمرارية طاغوته وجبروته وقد أثبتت نوازل التاريخ على أن الربيع كان صائب التفرس.

وهي أيضاً تدل على أن معاوية سوف يقشط كل من يتوسم أو يتوهم فيه ذرة من خطر على ملكه (= دولة بني أمية) ولو كان من الصحابة بل وله مكانة وعزوة كما سنرى في الواقعة التالية. والحسن البصريّ وإن لم يكن صحابياً بل من كبار التابعين (كان يعظّم قتل حجر وأصحابه)[٦٤].

واستنكرت عائشة بنت أبي بكر قتل حجر وأصحابه فوبخت معاوية توبيخاً شديداً ولامته لوماً قارصاً (.. لما حج معاوية جاء إلى المدينة زائراً فاستأذن على عائشة ــ رضى الله عنها ــ فأذنت له فلما قعد، قالت له: يا معاوية ــ أمنت أن أخبأ لك من يقتلك بأخي محمد بن أبي بكر؟

فقال لبيت الأمان دخلت قالت: يا معاوية أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه قال: إنما قتلهم من شهد عليهم)[٦٥]. وواضح أن رد معاوية الذي تضمنته العبارة الأخيرة (مراوغة بينة) فحتى إذا سمع في حقهم شهوداً فإن ما شهدوا به ما كان يجيز له قتلهم وأقصى ما كان يملكه إزاءهم هو التعزير.

ورواية ابن الأثير لمقابلة معاوية بعائشة تشي بمدى قوة العاصفة التي صكته بها (ولما قدم معاوية المدينة دخل على عائشة ــ رضى

(٦٤) **أسد الغابةِ**، الصفحة نفسها من المجلد نفسه.
(٦٥) **الاستيعاب** المجلد ذاته والصفحة نفسها.

الله عنها ــ فكان أول ما قالت له في قتل حجر في كلام طويل فقال معاوية ــ دعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا)[٦٦].

ويقال إن معاوية عندما كان يعاني سكرات الموت كان يقول: (ويل لى من حجر وأصحابه) وهي تقطع بأن معاوية كان موقناً أنه قتل حجراً ظلماً وعدواناً لم يراع صحبته وبلاءه في وطء البلدان التي تمتع معاوية وغيره بخيراتها.

وقبل أن نترك الصحابي حجراً الذي أوعز صحابي (= زياد بن أبيه) بقتله ثم أمر بقتله صحابي ثالث (معاوية بن أبي سفيان) نعرض لصحابي رابع في تلك النازلة وكيف كان يرى علاجه لنزداد تساؤلاً أين هو تأثير الصحبة المباركة عليهم؟

أما رابعهم فهو عبد الرحمان بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي وأمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ــ أما ما أشار به فيحمله الخبر الآتى:

(فبعثت أي عائشة بنت أبي بكر إلى معاوية: عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: الله الله في حجر وأصحابه فوجدها، عبد الرحمن قد قتل هو وخمسه من أصحابه فقال لمعاوية: أين غرب عنك حِلم أبي سفيان في حجر وأصحابه؟ ألا حبستهم فى السجون وعرّضتهم للطاعون قال: حين غاب عني مثلك من قومي ــ قال: والله لا تعد بك العرب حِلما أبداً ولا رأياً قتلت قوماً بعث بهم إليك أسارى من المسلمين قال: فما أصنع؟ كتب إلي فيهم زياد يشدّد أمرهم ويذكر أنهم سيفتقون عليّ فتقاً لا يُرقع)[٦٧]. والعبارة الأخيرة التي نسبتها الرواية إلى ابن أبي سفيان

(٦٦) **أسد الغابةِ** الصفحة ذاتها من المجلد ذاته.
(٦٧) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول ص ٣٣٠ مصدر سابق.

تؤكد ما سبق أن ذكرنا بشأنه بأنه قد وضع بتصميم لا رجعة فيه خطة مفادها تصفية كل من يقف في وجه دولة قريش (إنهم سيفتقون عليّ فتقاً لا يُرقع) ولا ينسى معاوية لحجر أنه أول من ندّم الحسن بن علي بن أبي طالب على صلحه مع معاوية ودعاه بشدة إلى عودة الحرب مع معاوية... الخ(٦٨).

ثم نتناول مشورة أو رأي رابعهم عبد الرحمن بن الحارث:

بدلاً من أن يجابه معاوية بأن ما ارتكبه حجر وصحبه من ذنب وحتى لو شهد به شهود فإنه لم يكن يستوجب سوى تعزير هينٍ خاصة بالنسبة لِ حجر بن عديّ نظراً لصحبته (معهم) لمحمد ولما قام به أثناء فتوح البلدان (الإمبراطورية) التي يتربع على عرشها معاوية، بدلاً من ذلك كان من رأي عبد الرحمن أنه كان يتوجب على ابن أبي سفيان القيام بأمرهم:

١ ــ حبسهم في السجون (طبعاً مدى الحياة)

٢ ــ تعريضهم للطاعون حتى يلقوا حتفهم وهم مطعونون.

وهذا في مذهبه لم يكن يغيّر من نظرة الناس إلى دهاء ابن أبي سفيان وحلمه. هكذا كشف الصحابي الرابع عبد الرحمن بن الحارث عن طوية نفسه إذ أن الاقتراح الذي طرحه أو العقاب الذي كان سينفذه لو كان في مقعد معاوية لهو أشد حساسة وفسولة.

سمّ الحسن بن عليّ

تصالح الحسن بن عليّ بن أبي طالب مع معاوية بن أبي سفيان ووضعت الحرب أو الحروب الأهلية التي استمرت سنوات أوزارها

---

(٦٨) **الأخبار الطوال.**

وسُمّي ذلك العام (عام الجماعة) ومن بين شروط الصلح أن يولّى الحسن الخلافة بعد معاوية والحسن لم يكن قد بلغ الخمسين بعد ومعاوية لا يريد أن يخرج الملك من بني أمية كوصاة والده أبي سفيان.

(رُوي عن الحسن (= البصريّ) أن أبا سفيان دخل على عثمان ــ رضي الله عنه ــ حين صارت الخلافة إليه فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعديّ فأدرها كالكرة وفي رواية فتزقفوها تزقف الكرة، واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك وما أدري ما جنة ولا نار؟ فصاح به عثمان ــ رضى الله عنه ــ قم فعل الله بك وفعل)[٦٩].

وكان معاوية قد ولد قبل الحسن بما يقرب من عشرين عاماً ــ أي أن احتمال تولّي ابن عليّ للخلافة كبير وبذلك سوف تفلت من بني أمية وتنتقل إلى بني هاشم فماذا يفعل وهو الخبير الخريت والدليل الحاذق والعريف بطرق قشع خصوم الدولة؟

اتصل بإحدى زوجات الحسن وتدعى جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي (إنك إن احتلت في قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف درهم وزوجتك من يزيد، فكان الذي بعثها على سمّه فلما مات وفىّ لها معاوية وأرسل إليها إنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه)[٧٠].

ويؤكد ابن الأثير الجزري قيام جعدة بسمّ الحسن (وكان سبب موته أن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس سقته السم)[٧١].

(٦٩) في **المعجم الوسيط الفسولة:** ضعف الرأي مع قلة المروءة.
(٧٠) كتاب **النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم** لتقي الدين المقريزي صفحة ٥٦، مصدر سابق.
(٧١) **مروج الذهب** للمسعودي، تحقيق محمد محيى الدين، المجلد الأول ص ٦١٩، مصدر.

ويتهم المقريزي بني أمية بسمّ الحسن ويذكرها من ضمن الجرائم التي ارتكبوها (حاربوا عليّاً وسمّوا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأقتاب حواسر وكشفوا عورة عليّ بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يُفعل بذراري المشركين إذا دخلت ديارهم عنوة وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى اليمن بسر بن أرطأة...)[٧٢].

والذي حارب عليّاً هو معاوية وصاحب المصلحة في سمّ الحسن ابنه هو معاوية.

ويؤكد ابن عبد البر واقعة استخدام معاوية لجعدة في سمّ الحسن (وقال قتادة وأبو بكر بن حفص = سم الحسن بن على، سمّته إمرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي وقالت طائفة: كان ذلك منها بتدسيس معاوية إليها وما بذل لها وكان لها ضرائر والله أعلم)[٧٣].

وأقوال الحسن عند احتضاره لا تدع مجالاً للشك في نسبة السم إلى معاوية إلا أنه لم يشأ أن يصرّح باسمه لئلا يشعل الحرب من جديد بين شيعة أبيه عليّ وبين معاوية لأنه كان رجل سلم وسلام (ولما اشتد مرضه قال لأخيه الحسين ــ رضى الله عنه ــ يا أخى سُقيت السم ثلاث مرات ولم أسق مثل هذه إنّى لأضع كبدي؟ قال الحسين: من سقاك يا أخي؟ ما سؤالك عن هذا تريد أن تقاتلهم؟ أكلهم إلى الله عز وجل[٧٤].

(٧٢) **أسد الغابةِ**، المجلد الثاني، ص ١٥ مصدر سابق.
(٧٣) كتاب **النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم** للمقريزى ص ٣٧، مصدر سابق.
(٧٤) **الاستيعاب** في معرفة الصحاب، المجلد الأول ص ٣٨٩.

وفي رواية ابن عبد البر (فقال له الحسين = يا أخي من سقاك؟ قال وما تريد إليه؟ أتريد أن تقتله؟ قال: نعم قال: لئن كان الذي أظن فالله أشد نقمة ولئن كان غيره ما أحب أن تقتل بي بريئاً)[٧٥]. والعبارة الأولى وهي عبارة الأسد تشير إلى أن المحرض هو معاوية لأن الحسن قال للحسين: تريد أن تقاتلهم والعبارة الأخرى عبارة الاستيعاب: أتريد أن تقتله تومي إلى الزوجة الخائنة: جعدة بنت الأشعث والأشعث بن قيس الكندي صحابي بلا خلاف فقد وفد على محمد في ستين راكباً من كنده عام الوفود بعد أن أصبح محمد سيد جزيرة العرب بلا منازع فأسلم الأشعث وأسلموا[٧٦]. وذكر ابن الأثير الجزري صحبة الأشعث وإسلامه ووفوده مع الستين راكباً من قومه على محمد[٧٧].

إذن أطراف الواقعة المؤامرة:

* الأمر بالقتل عن طريق السم = صحابي هو معاوية.

* التي باشرت القتل بدس السم = ابنة صحابي هي جعده بنت الأشعث.

* المقتول سماً = صحابي ابن صحابي هو الحسن بن علي، وكان ريحانة محمد وابن أحب بناته إليه بل إنها ربما أحب خلق الله إليه.

فهل هناك صورة تنافس هذه الصورة بشاعة وقسوة ـــ ونستخلص من هذه الواقعة المأساة أن في ذلك المجتمع من اليسير أن تخون الزوجة زوجها وتقتله حتى ولو كان حفيد محمد مقابل

(٧٥) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري، ص ١٥، المجلد الثاني، مصدر سابق.
(٧٦) **الاستيعاب**، المجلد الأول، ص ٣٩٠، مصدر سابق.
(٧٧) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ١١٨.

حفنة من الدراهم ووعد بالزواج. ولكن لماذا اختار معاوية جعدة تلك دون زوجات الحسن الأخريات لم يكن اختيارها من قبله اعتباطاً فمثله وقد عُرف عنه الدهي والمكر والخديعة لا بد أن كل خطوة يخطوها بحساب وترتيب.

فقد اختارها لسببين:

١ ــ انها نشأت في بيت سيده رقيق الدين، واهي الإيمان، ضعيف الإسلام فهي لا بد نشأت مثله ومن ثم فإن تقديس الحسن لم يبلغ لديها مثلما يبلغه لدى غيرها من راسخي الإسلام أو حتى المسلم العادي. هذا من ناحية ــ ومن ناحية أخرى فإن القواعد الأخلاقية عندها وعند من على شاكلتها من السهل تخطيطها في سبيل تحقيق مصلحة أكيدة (المال والزواج من ولي العهد). أى أنها ممن يؤمن أن الغاية تبرّر الوسيلة ــ ولكن كيف عرفنا أن الأشعث كان نحيف الإيمان ومحصوله من الإسلام مهزول؟

لأنه ارتد بعد وفاة محمد وله تضلع منها = (الردة) ومالأ أصحابها وجنف إليهم (وكان الأشعث ممن ارتد بعد النبى (ص) فسير أبو بكر الجنود إلى اليمن فأخذوا الأشعث أسيراً فأحضر بين يديه)[٧٨]. وقد أورد ابن عبد البر الخبر عينه[٧٩].

٢ ــ أن جعدة كانت من بيت فيه الملك فقد كان بنو كندة ملوكاً وقد عرف ذلك معاوية وأن مثلها تتوق إلى أن تغدو (ملكة) ومن ثم مناها بالزواج من يزيد أكبر أبنائه والمرشح الأول لخلافته (وإن لم يكن حتى ذلك الوقت قد أخذ البيعة) أي أنها إذا تزوجها يزيد سوف تصبح ــ ومعاوية حي ــ زوجة ولي العهد وبعد وفاة

(٧٨) **أسد الغابةِ**، المجلد الأول، ص ١١٨.
(٧٩) **الاستيعاب**، المجلد الأول ص ١٣٤.

معاوية ستصير زوجة الخليفة أي الملكة. ولأبيها قصة تؤكد هذا المعطى الذي نطرحه فعند ما جيء به أسيراً إلى المدينة طالب من أبي بكر ألا يقتله لأنه من قبيلة عركت الحرب والقتال ولم يكتف بذلك بل طلب منه أن يزوجه أخته أم فروة وفعل أبو بكر ذلك إذ رأى أن ذلك سوف يعيده للإسلام ويرضى نزوعه الملكي إذ بزواجه من أم فروة سيصبح صهر الخليفة (.. سمعت الأشعث يقول [لأبي بكر] استبقني لحربك وزوجني أختك... هي أم فروه بنت أبي قحافة وهي أم محمد بن الأشعث)[٨٠]. وأكد ابن الأثير الجزري الواقعة عينها[٨١].

إذن شبق آل كنده للملك والمراتب العليا من الحكم أمر لم يكن يجهله مثل معاوية الذي نطالع في سيرته أنه كان يخصص ساعات طويلة من يومه يقرأ فيها عدد من عبدانه سير ملوك العجم والعرب وأخبارهم ونوادرهم وآل كندة يتوقون إلى الملك استرداداً منهم لميراث قديم خلفه في نفوسهم تاريخ آبائهم وأجدادهم.

وهكذا كان معاوية موفقاً غاية التوفيق في اختياره جعدة لتحقق له إربه وتزيح من طريق دولة بني أمية أبرز خصومها. ولم يحفل بالعهد الذي قطعه على نفسه أن يتولى الخلافة بعده الحسن. ولم يطرف له جفن أن الضحية هذه المرة هو حفيد محمد وحبيبه وابن حبيبته فاطمة ولا أن الحسن آثر السلام على حقن الدماء وبذلك أطفأ فتنة دامت سنوات وراح ضحيتها عشرات الألوف منهم ألوف ممن صحبوا محمداً ــ وأن الحسن عرّض نفسه في سبيل ذلك للامتهانات من أخلص شيعته. كل هذه الأمور داس عليها معاوية بنعليه في سبيل أن يبقي الملك في بني أمية.
معاوية الصحابي

(٨٠) **الاستيعاب**، الصفحة نفسها والمجلد نفسه.
(٨١) **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.

وكاتب الرسائل لمحمد (يخطئ الكثيرون بقولهم كاتب الوحي) حبيبة إحدى أمهات المؤمنين زوجات محمد، لم يتورع عن الإقدام على هذه الفعلة المستشنعة.

سمّ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

عبد الرحمن (أدرك النبي (ص) ورآه)[٨٢] ويؤكد صاحب «الاستيعاب» أنه أدرك النبي (ص)[٨٣] وكان من فرسان قريش وشجعانهم وكان له فضل وهدى حسن وكرم وكان مع أبيه يوم اليرموك وكان من أعوان معاوية الأوفياء شهد معه صفّين وكان يستعمله على غزو الروم وله معهم وقائع[٨٤] وكان واليه على حمص وكان فيها محمود السيرة حسن الخصال قال عنه أهلها.

كان يدنو شريفنا ويغفر ذنبنا ويجلس في أفنيتنا ويمشي في أسواقنا ويعود مرضانا ويشهد جنائزنا وينصف مظلومنا[٨٥] وهي صفات طيبة للوالي ولكن ذلك = الصحبة مع محمد، «البنوة» لخالد، النصرة ضد علي، غزو الروم، حسن الأحدوثة والثناء من (الرعية)! والفروسية «والشجاعة» والكرم وقبل ذلك الانتماء إلى بني مخزوم ريحانة قريش كله أهدره معاوية عندما تنسم ريحة خطر تهب من ناحيته على ملك بني أمية ذلك أنه:

(.. لما أراد معاوية البيعة ليزيد ابنه خطب أهل الشام فقال: يا أهل الشام كبرت سني وقرب أجلي وقد أردت أن أعقد لرجل يكون نظاماً لكم وإنما أنا رجل منكم فأصفقوا ـ أي اتفقوا ـ بعبد

---

(٨٢) **أسد الغابةِ**، المجلد الثالث ص ٤٤٠.
(٨٣) **الاستيعاب**، المجلد الثاني ص ٨٢٨.
(٨٤) **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٨٥) **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.

الرحمن بن خالد بن الوليد ــ فشق ذلك على معاوية وأسرها في نفسه ــ ثم إن عبد الرحمن مرض فدخل عليه ابن أثال النصراني فسقاه سماً فمات ــ فقيل إن معاوية أمره بذلك(٨٦) والخبر عينه رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» مع تحوير في ديانة الطبيب الذي تولى التسميم.

(.. ثم إن عبد الرحمن مرض فأمر معاوية طبيباً عنده يهودياً = وكان عنده مكيناً أن يأتيه فيسقيه سقيةً يقتله بها فأتاه فسقاه فانحرق بطنه فمات)(٨٧).

ونلاحظ أن الرواية لابن عبد البر أشد تأكيداً وأكثر توثيقاً من رواية ابن الأثير يسرد الخبر بصورة أكيدة عندما يترجم للمهاجر بن خالد بن الوليد أخي عبد الرحمن ولا يدع مجالاً للشك في صدق الواقعة لأن الناس كانوا يعيّرون آل خالد بن الوليد لعدم أخذهم بثأر عبد الرحمن فيخبرنا ابن الأثير أن المهاجر (له ابن اسمه خالد عيّره عروة بن الزبير، فسار إلى دمشق هو ومولاه نافع فرصد ابن أثال ليلاً وكان يسمر عند معاوية فلما انتهى إليهما ومعه غيره من سمّار معاوية حمل عليه خالد ونافع فتفرقوا وقتل خالد الطبيب ثم انصرف إلى المدينة(٨٨). وبقية الخبر أن خالد بن المهاجر بعد قتل الطبيب الذي سمّ عمه عبد الرحمن ــ بأمر معاوية ــ قال أبياتاً من الشعر وجهها إلى عروة بن الزبير افتخر فيها بأخذ ثأر عمه بينما آل الزبير لم يثأروا من ابن جرموز قاتل الزبير بن العوام ويروي ابن عبد البر القصة بحذافيرها عن ترجمته ل المهاجر بن خالد(٨٩). ولقد

(٨٦) **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٨٧) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني ص ٨٣٠.
(٨٨) **أسد الغابةِ**، المجلد الخامس ص ٢٧٨.
(٨٩) **الاستيعاب** المجلد الرابع ص ١٤٥٣.

أكد اليعقوبي في تاريخه واقعة دس معاوية السم لعبد الرحمن ابن خالد بن الوليد عن طريق ابن أثال النصراني وأنه كافأه على ذلك بأن ولاّه خراج حمص وكان عبد الرحمن والي حمص كما ذكرنا) ولم يعمل النصارى أحد من الخلفاء قبل معاوية ولكن اليعقوبي يذكر أن قاتل ابن أثال هو خالد بن عبد الرحمن لا خالد بن المهاجر وأن معاوية حبسه أياماً ثم أغرمه ديته ولم يقده منه أي لم يأخذ القود منه(٩٠)

وبهذا انقطع دابر أي شك في أن معاوية هو الذي حرض الطبيب الذمي على سم عبد الرحمن بن خالد وسبق أن قلنا أن حكم المحرض والقاتل في الجرم سواء وخالد بن المهاجر ابن صحابي إذن، أبطال القصة هم: القاتل أو بمعنى أدق المحرض على القتل صحابي والمقتول صحابي مشهود له بالفضل من الجميع، والآخذ بالثأر ابن صحابي والذي أهاجه وحرك دوافع أخذ الثأر عنده هو أيضاً ابن صحابي (عروة بن الزبير بن العوام).

نموذج فريد

بعد أن قدمنا أمثلة من الصحابة الذين أقدموا على قتل صحابة مثلهم ــ نقدم نموذجاً فريداً لصحابي قتل صحابة وأبناء صحابة وهدم عليهم دورهم واستحيا نسوانهم وأسرهم ثم باعهن كجوارٍ في سوق النخاسة وهو أمر حدث لأول مرة في تاريخ الإسلام وبالجملة فعل الأفاعيل التي قد يتورع عنها مردة الشياطين ويمكن بهذه المثابة أن يوضع في مصاف كبار السفاحين العالميين، حقيقة أن ما قام به كان متعلقاً بالمعارك ولكنه جاوز كل الحدود المتعارف عليها بين الأديان والملل والنحل كافةً والحد الأدنى الذي تعارفوا

---

(٩٠) **تاريخ اليعقوبي** الجزء الثاني ص ٢٢٣، مصدر سابق.

عليه وعلى ألا يتخطوه ومنه على سبيل المثال ذبح الصبية الصغار ورمي رؤوسهم في حجور أمهاتهم مما أصابهم باللوثة ويزداد العجب والألم معاً عندما نعرف أن أولئك الصبية أبوهم صحابي ليس هذا فحسب بل هو ابن عم محمد ــ فأي نفسية تلك التي كانت ينطوي عليها ذلك الصحابي.

هو ــ بسر بن أرطأة ينتهي نسبه إلى النضر بن كنانة (أصل قريش وأساسها) وقيل أرطأة بن أبي أرطأة واسمه عمير ويكنى أبا عبد الرحمن ــ فهو على كل حال قرشي.

(قال الدارقطني:... له صحبه ولم تكن له إستقامة بعد النبي (ص)[٩١] وهو الذي روى عن محمد حديث تعطيل حد السرقة في السفر[٩٢]. ويذكر ابن عبد البر في الاستيعاب (أما أهل الشام فيقولون: إنه سمع من النبي (ص) وهو أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ مدداً إلى عمر بن العاص لفتح مصر)[٩٣].

ويؤكد أن لبسر حديثين عن محمد، الأول ما ذكرناه والآخر في الدعاء[٩٤].

ويحسم شيخ الإسلام ابن تيمية مسألة صحبة ابن أرطأة إذ يؤكد روايته لهذين الحديثين وحمل بعض دواوين السنة الصحاح لهما [حتى بسر بن أرطأة مع ما عرف عنه روى حديثين رواهما أبو داوود وغيره][٩٥].

(٩١) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري، المجلد الأول، ص ٢١٤ مصدر سابق.
(٩٢) المصدر نفسه.
(٩٣) **الاستيعاب**، المجلد الأول ص ١٥٨.
(٩٤) المصدر نفسه.
(٩٥) **منهاج السنة النبوية**، شيخ الإسلام ابن تيمية الحرّاني ت. ٧٢٨هـ، طبعة مصورة =

بعد إثبات صحبة بسر بن أرطأة القرشي لمحمد ننتقل إلى بيان شطر من أفعاله الشنيعة أو الأمور العظام كما وصفها ابن الأثير والتي أكد أن أهل الأخبار وأهل الحديث هم الذين رووها(٩٦). كان بسر بن أرطأة من الطغاة ورجل سوء أرسله معاوية بعد تحكيم الحكمين إلى الحجاز واليمن (ليقتل شيعة علي ويأخذ البيعة له فسار إلى المدينة ففعل بها أفعالاً شنيعة وسار إلى اليمن)(٩٧). وفي رواية اليعقوبي (وجّه معاوية بسر بن أرطأة ابن أبي أرطأه وقيل العامري من بني لؤى بن غالب في ثلاثة آلاف رجل فقال: سر حتى تمر بالمدينة فاطرد أهلها واخف من مررت به وانهب كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا وأوهم أهل المدينة أنك تريد أنفسهم وأنه لا براءة لهم عندك ولا عذر... فجعل لا يمر بحي من أحياء العرب إلاّ فعل ما أمره معاوية حتى قدم المدينة وعليها أبو أيوب الأنصاري فتنحّى عن المدينة ودخل بسر فصعد المنبر ثم قال: يا أهل المدينة مثل السؤلكم... ثم ما زال يشتمهم حتى نزل وهدم دوراً بها ثم مضى)(٩٨).

ويضيف الطبري (قال [بسر]: يا أهل المدينة والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتلماً إلاّ قتلته ثم بايع أهل المدينة... وكتب أبو موسى قبل ذلك إلى اليمن: أن خيلاً مبعوثة من عند معاوية تقتل الناس، تقتل من أبى أن يقر بالحكومة (أي نتيجة التحكيم الذي جرى بين علي ومعاوية) ثم مضى بسر إلى اليمن

= بالأوفست عن الطبعة الأولى المطبوعة بالقسم الأدبي بالمطبعة الأميرية الكبرى ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٢١هـ، د. ن.

(٩٦) **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.

(٩٧) **أسد الغابةِ**، الصفحة نفسها والمجلد نفسه.

(٩٨) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني ص ١٩٨، مصدر سابق.

وكان عليها عبيد الله بن العباس عاملاً لعليّ فلما بلغه مسيره فرّ إلى الكوفة حتى أتى علياً واستخلف عبد الله بن المدان الحارثي على اليمن فأتاه بسر وقتله وقتل ابنه ولقي بسر ثقل [متاع] عبيد الله بن العباس وفيه ابنان له صغيران فذبحهما)(٩٩). ويؤكد المسعودي أفعال بسر (وقد كان معاوية في سنة أربعين بعث بسر بن أرطأة في ثلاثة آلاف رجل حتى قدم المدينة وعليها أبو أيوب الأنصاري فتنحى وجاء بسر حتى صعد المنبر وتهدد أهل المدينة بالقتل فأجابوه إلى بيعة معاوية وبلغ الخبر عليّاً فأنفذ الحارثة بن قدامة ووهب بن مسعود في ألفين ومضى بسر إلى مكة ثم سار إلى اليمن وكان عبيد الله بن العباس بها فخرج عنها ولحق بعليّ واستخلف عليها عبد الله بن المدان الحارثي وخلف ابنيه عبد الرحمن وقثم عند أمهما جويرية بنت قارظ الكناني فقتلهما بسر وقتل معهما خالاً لهما من ثقيف. وقد كان بسر بن أرطأة العامري ــ عامر بن لؤي بن غالب ــ قتل بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم. وكذلك بالجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال همدان وقتل بِ صنعاء خلقاً كثيراً من الأبناء ولم يبلغه عن أحد أنه يمالئ عليّاً أو يهواه إلاّ قتله)(١٠٠).

أما عبد الله بن المدان الذي نابه عبيد الله بن العباس على اليمن إثر هروبه من اليمن عندما علم بقدوم بسر فهو صحابي (قال الطبري: وفد على النبي (ص) فى وفد بني الحارث بن كعب فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الحجر، قال: أنت عبد الله فأسلم، وكانت

---

(٩٩) **تاريخ الطبري** ص ١٣٩ ــ ١٤٠ من المجلد الخامس، مصدر سابق.
(١٠٠) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن علي المسعودي، ت. العام ٣٤٦هـ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ١٦ الجزء الثاني طبعة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، كتاب التحرير بمصر.

ابنته عائشة عند عبيد الله بن عباس وهي التي قتل ولديها بسر بن أرطأه)[١٠١].

(ويؤكد ابن الأثير ذلك في ترجمة عبد الله بن المدان أن عبيد الله بن العباس كان زوجاً لابنته)[١٠٢]. كما أكد تقي الدين المقريزي أن زوجة عبيد الله بن العباس وأم ولديه الذبيحين عبد الرحمن وقثم هي عائشة بنت عبد الله بن المدان[١٠٣]. وبذلك يتأكد أن زوجة عبيد الله هي ابنة عبد الله بن المدان لا جويرية بنت قارظ الكناني كما ذكر المسعودي في المروج.

وبذلك يكون بسر بن أرطأة قد قتل صحابياً مثله وهو عبد الله بن المدان وولدي صحابي آخر هو عبيد الله بن العباس ــ ابن عم محمد هذا بخلاف الألوف من المسلمين التي سفح دمها ولم تطرف له عين!! لعبيد الله بن العباس موقف نعجّل بذكره ولو أن مكانه (الصحابة والأموال) وهو أن الحسن بن عليّ بن أبي طالب بعد قتل أبيه عزم على حرب معاوية بن أبي سفيان وكان من بين قواد جيشه عبيد الله بن العباس على اثني عشر ألف فارس فأرسل إليه معاوية ألف ألف درهم (مليون درهم) فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه![١٠٤].

أبطال هذه القصة ثلاثة من الصحاب: الخادع معاوية والمخدوع الحسن والخائن المرتشي: عبيد الله بن العباس ــ والثلاثة من أعلى

---

(١٠١) **الاستيعاب** لابن عبد البر، ص ٩٤٣، المجلد الثالث، مصدر سابق.
(١٠٢) **أسد الغابةِ**، ص ٣٠١، من المجلد الثالث، مصدر سابق.
(١٠٣) كتاب **النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم** تأليف تقي الدين المقريزي، تحقيق د. حسين مؤنس، ص ٢٨، طبعة ١٩٨٨ (دار المعارف بمصر).
(١٠٤) **تاريخ اليعقوبي**، ص ٢١٤، المجلد السابق.

فروع قريش: بني هاشم وبني أمية كما أن الحسن وعبيد الله يعتبران إبني عم!

وأُصيبت أم الصغيرين عبد الرحمن وقثم وهي عائشة بن عبد الله بن المدان بلوثة في عقلها (عن أبي مخنف قال: لما توجه بسر بن أرطاة إلى المدينة أخير عبيد الله بن عباس بذلك وهو عامل لعليّ فهرب ودخل بسر اليمن فأتى بإبني عبيد الله العباس فذبحهما وهما صغيران فنال أمهما عائشة بنت عبد الله بن المدان من ذلك أمر عظيم فأنشدت شعراً ثم وسوست فكانت تقف في المواسم (موسم الحج) تنشد هذا الشعر وتهيم على وجهها)[١٠٥].

وإصابة عائشة بنت عبد الله بتلك اللوثة أو الوسوسة أمر طبيعي إذ ماهو ذنب صغيريها حتى يذبحهما الصحابي راوي الأحاديث بسر بن أرطأة؟ ولم تقف أمجاد بسر عند هذا الحد فبعد أن قتل تلك المئات أو الألوف من شتى القبائل سبى نساءهم وكنّ أول مسلمات سُبين في الإسلام ولم يكتف بذلك بل أمر بهن (فأقُمن في السوق وسمي ذلك اليوم (يوم العورة) ذلك أن النساء المسلمات اللاتى سباهن بسر أقمن في السوق فيكشف عن سوقهن (جمع ساق) فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتريت على عظم ساقها)[١٠٦]. وسبق أن ذكرنا في واقعة خالد بن الوليد وأم متمم زوجة مالك بن نويرة أن العربي يعتقد أن المرأة ذات الساق الخدلجة تعطي من المتعة الجنسية ما لا تعطيه صحابة الساق النحيفة أ. هـ.

هذا هو النموذج الفريد الذي قدمه الصحابي بسر بن أرطأة

---

(١٠٥) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد الأول، ص ١٦١، مصدر سابق.
(١٠٦) المصدر ذاته والمجلد والصفحة نفسيهما.

العامري القرشي وتلك هي أفاعيله التي تصيب بالتقزز والغثيان والاشمئزاز والتي تؤكد أن الصحبة لم تؤثر في أمثاله لا من قريب ولا بعيد، والذي يصيب بالحيرة بل بالدوار هو أن بعض دواوين الصحاح الستة مثل سنن أبى داوود كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني تحمل رواية بسر لحديثين مع أن أول شرط في راوي الحديث: العدالة فأي عدالة تلك التي كان يمتلكها بسر؟

وإذ أننا في مجال بحث أحوال مجتمع الصحابة فإن الوقائع المتعلقة بِبسر والتي حملتها أمهات كتب التاريخ (الطبري/ المسعودي ــ اليعقوبي) وكتابان من أبرز كتب «معرفة الصحابة» هما (أُسد الغابةِ) و(الاستيعاب) ترفدنا بالمعطيات الآتية:

١ ــ أن التقاليد التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام في الغارات التي كانت تشنها القبائل بعضها على بعض: القتل/ السلب/ النهب السبي لم تتغير لدى بعض الصحاب فهذا ما فعله بسر وجيشه وكان ذلك بأمر من معاوية.

٢ ــ أن عادة سبىّ النساء وإقامتهن في أسواق النخاسة مع السماح للمشتري بالكشف على (البضاعة) ظلت مستمرة وأمر بها بسر وهو صحابي (لم يرد في الروايات أن معاوية أشار بها. ا. هـ) مع أنه كان يعلم أنهن مسلمات.

٣ ــ أنه عندما يداهم الأعداء المصر (الإقليم) فلا بأس أن يهرب الوالي ويترك (الرعية!) تلاقي الأهوال من قتل للرجال وسبي للنساء فعل ذلك أبو أيوب الأنصاري ــ وهو صحابي له مقام رفيع ــ في المدينة وعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ــ وهو صحابي أيضاً فقد هرب إلى الكوفة من

اليمن بل إنه ترك ثقله = زوجته وابنيه[١٠٧].

٤ ــ أن النظرية شيء والتطبيق شيء آخر لدى الصحبة ــ مثل لدى كثير من أصحاب المذاهب والإيديولوجيات ــ فالذي لا شك فيه أن كلاً من أبي أيوب وعبيد الله يحفظان حديث محمد: من قُتلَ دون عرضه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ــ فلماذا لم يطبقاه وآثرا الهروب بل إن مسئوليتهما كانت أشدّ لأنهما كان واليين وكل راعٍ مسئول عن رعيته بنص حديث آخر لمحمد من المؤكد أنهما سمعاه منه.

٥ ــ أن البيعة تتم بحد السيف فقد أمر معاوية بسراً بأن يفعل ما فعل بكل (من لم يكن دخل في طاعتنا) ومن لم يمتثل ف (لا براءة لهم عندك ولا عذر) أي من لا يعطي صفقه يمينه بالبيعة فدمه وعرضه حلالان! ولذلك فلما (تهدد أهل المدينة بالقتل فأجابوه إلى بيعة معاوية! هذا هو ما يلح البعض على استعادته وهذا ما كان يطبق على أرض الواقع. أما النصوص أو النظريات فقد ظلت حبيسة كتبها.

٦ ــ أن مجرد الممالأة السلمية أو حتى القلبية للخصم جزاؤها القتل (ولم يبلغه عن أحد يمالى علياً أو يهواه إلاّ قتله)! ولا زال بيننا من يكابر ويدّعي بكل صلاقة صوت شديد أن (حقوق الإنسان) من إبداعنا!

٧ ــ أن قتل الإنسان من الجائز أن يتم بدون محاكمة أو استجواب وبمنتهى اليسر بل إنه أسهل من ذبح الشياه.

(١٠٧) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، **الثقل** محركة أي بفتح الثاء والقاف: متاع السفر وحشمه. وكل شيء نفيس ومصون ومنه الحديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي).

فقد رأينا الصحابي بسراً (قتل بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرهم وكذلك ب الجرف قتل بها خلقاً كثيراً من رجال همدان وقتل في صنعاء خلقاً كثيراً من الأبناء) الأبناء لقب أطلق على أبناء الفرس الذين تخلفوا في اليمن ولم يبارحوها عندما كانت فارس تحتل اليمن.

٨ ــ ان قساوة القلب والفظاظة بلغت عندهم حداً لا يصدق، فذبح ولدي عبيد الله في حجر أمهما عمل بالغ الوحشية، ولا ندري عند أي طائفة حدث أن صاحباً فعل ذلك بأولاد صاحبه.

٩ ــ أنه لا مانع من هدم دور المعارضين والخصوم.

١٠ ــ هذه الأفاعيل التي إقترفها بسر من أرطأة ــ وهو نتاج طبيعى لبيئته ــ قطع بأن ذلك المجتمع بلغ الغاية من القساوة والبداوة والجفاوة وأنه كان بعيداً كل البعد عن السمات الحضارية والرقي والمدنيّة.

الصحابة والمال

[Blank Page]

كانت الظروف المعيشية قاسية على أهل مكة باستثناء طبقة كبار التجار والمرابين والنخاسين، أما ما عداهم حتى من الأحرار فقد كانوا يحيون في جهد ومسغبة وعن الموالي والرقيق والمهجّنين واللصقاء والزعانف وسائر المستضعفين فحدّث ولا حرج عن فقرهم وبؤسهم وحاجتهم ومذلّتهم، كانوا يأكلون أردأ الطعام ويلبسون أخشن الثياب ويأوون إلى أحقر الأمكنة.

وكان أتباع محمد من النوعية الأخيرة وسماهم القرآن (الأراذل) وليس في هذا غرابة فكل من سبق محمداً مثل: هود وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى لم يُلبِّ دعواتهم سوى هؤلاء الذين كانوا دائماً مثار سخرية الطواغيت: طواغيت المال وطواغيت السلطة والجاه وهو ما حكاه القرآن وسماهم (الملأ) ــ ومن هنا كانت البداية المالية للكثرة الكاثرة من أصحاب محمد شديدة التواضع حتى الذين انتموا منهم إلى قريش فما بالك بغيرهم؟ والأخبار والآثار تقطع بهذه الحقيقة ولما هاجروا إلى يثرب/ المدينة قاسمهم الأنصار (الأوس والخزرج) أموالهم بل وعرض البعض على عدد منهم أن ينزل له عن إحدى زوجاته لأن النازحين كانوا لا

يملكون مهر المرأة ولا يقدرون على نفقتها ولأن وجود هذا العدد من العزّاب في أحياء الأنصار مسألة فيها نظر خاصة وأن المباضعة (للزوجة) كانت طقساً يومياً أو شبه يومي لدى عرب شبه الجزيرة عامة والحجاز خاصة لأنها كانت التسلية الوحيدة للطرفين إذ هو مجتمع بدائي ليس فيه من أوجه النشاط الفنية والرياضية والاجتماعية ما كان لمجتمع مصر القديمة أو مجتمعات مدن الإغريق ـ ولقد التفت محمد (ص) بثاقب نظره إلى ظاهرة نزوح (هجرة) عدد وفير من الصحاب وهو يحمل بين سابقيه عزوبته فكان يشجعهم على الزواج فيقول لأحدهم التمس ولو خاتماً من الحديد وعندما يجد الصاحب مليطاً من خاتم الحديد يقول: اذهب فقد زوجتك إياها بما معك من القرآن[١]. وكان ينصح بتخفيض المهور لأدنى حد، كل ذلك ليقضي على مشكلة عزوبة صحبه وبذلك يضرب عصفورين بحجر واحد:

الأول: وهو أن يزيل القلق من نفوس اليثاربة على بيوتهم وينزع منهم فتيل الشك والاضطراب.

والآخر: هو أن يتفرغ هؤلاء وأولئك بعد أن يكون الأولون قد استراح بالهم بالنكاح والتنفيس عن العزبة بإتيان طقس التسلية الوحيدة/ اليومي والأخيرون بالطمأنينة على ثقلهم إذا استنفروا للخروج، يتفرغ هؤلاء وأولئك معاً إلى أداء المهام القتالية التي يكلفون بها في الغزوات والسرايا والفرق الخاصة (كان على رأس أعمال الفرق الخاصة التصفية الجسدية للأعداء) وذلك لنشر الدين الذي بشّر به محمد (ص) ولتأسيس دولة قريش.

بعد هذه الاستطرادة نعود إلى سياقة القول:

---

(١) في **القاموس المحيط مليط:** لا ريش عليه.

فنقول إن بداية الصحبة من الناحية المالية كانت شديدة الهزال، ظاهرة النحافة، بينة الضمور والأمثلة القليلة التي سنطرحها سوف تثبت ذلك، ثم بدأت الغزوات وما تغله من أسلاب وغنائم وأنفال ــ رغم أنها في أول الأمر كانت ــ ضعيفة إلاّ أن ريق الصحاب الناشف طفق يعرف البلل والنداوة[٢]. ولما أعقبتها الغزوات الدسمة مثل غزوة حنين تنفسوا الصعداء وسكن البال وهدأ الخاطر. إنما عندما فتح الله عليهم البلاد الموطوءة (العراق/ فارس/ الشام/ مصر/ أفريقيا/ أذربيجان/ وما وراء النهر... الخ) تغيرت أحوالهم بالكلية:

اقتنوا الضياع وبنوا القصور واشتروا العبيد والجواري من كل جنس ولون وبلغت ثروات بعضهم ملايين الدنانير من الصامت والناطق والمثقال والورق (الذهب والفضة) والأرضين والخيول، وقطعان الماشية... الخ.

فسبحان مغيّر الأحوال. وأيقن الأصحاب أن الأيام التي كانوا يضعون فيها الأحجار على بطونهم من الجوع قد ولّت إلى غير رجعة وأنها كانت صفقة كاسبة فقد ربح البيع وطرح ثروات كبيرة وغنى باذخاً لم يكن يخطر لهم حتى في الأحلام...

واعترف عدد منهم إما لامتيازه بالصراحة واستقامة الخلق وإما في ساعة تجلٍ أنهم عبّوا من الدنيا ونهلوا منها وتضلّعوا وأكلوا لحد البشم إلاّ القليل وهذا القليل هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، وما فعله الصحاب كان أمراً طبيعياً بل بديهياً لأن من نواميس الاجتماع أن الشخص الذي عاش ردحاً طويلاً من عمره محروماً ثم تقع بين يديه وفي حجره ثروة طائلة بدون تعب، من المستحيل أن يلتفت عنها ويظل في حرمانه ومسغبته خاصة عندما يقنعه

(٢) في **مختار الصحاح** للرازي: **أرض نشفة** إذا كانت تنتشف الماء (تشربه).

(الفقهاء) و(العلماء) أنها حلال بلال (سبق أن ذكرنا في أكثر من موضع أن تلك الأموال كانت نتاج عرق (العلوج) في العراق والشام ومصر وغيرها).

ومن هنا تبرز الأهمية البالغة للبدء بالكشف عن أحوال الصحبة وهم في بداية الطريق بضرب بعض الأمثلة حتى إذا جاءت أخبار العز والبُلهنية تغدو المقارنة ضرورية ويتأكد أن الصحاب قد ربح بيعهم في الدنيا قبل الآخرة:

١ ــ عن أسماء بنت أبي بكر قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح (الجمل الذي يُسقى عليه الماء) وغير فرسه فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء وأخرز غربه (أخيط دلوه المصنوع من الجلد) وأعجن ولم أكن أحسن الخبز فكان يخبز جارات من الأنصار وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله (ص) على رأسي وهي على ثلثي فرسخ (الفرسخ حوالى ثلاثة أميال)[٣].

٢ ــ عن أبي الأسود أن عبد الله مولى أسماء بنت أبي بكر حدثه أنه كان يسمع أسماء تقول كلما مرت بالحجون صلى الله على محمد لقد نزلنا معه ها هنا ونحن يومئذٍ خفاف قليل ظهرنا (= ركائبنا)، قليلة أزوادنا...)[٤]. وسوف نرى فيما بعد كم بلغت ثروة الزبير وكم خلّف من تركة؟

في الخبر الثاني أسماء بنت أبي بكر تصلّي على محمد

(٣) رواه البخاري ومسلم وأخرجه ابن سعد في **الطبقات**.
(٤) رواه البخاري في **صحيحه** في باب العمرة.

لأن مشروع دولة قريش الذي نفّذه في يثرب/ المدينة نقلها هي وزوجها وأولادها نقلة لم يكونوا يتخيلونها فقد أصبحوا من أثرياء قريش بعد أن كانوا باعترافها الصريح (قليل ظهرنا أي ركائبنا) قليلة أزوادنا.

٣ ــ قال عبد الله بن عمر: كنت غلاماً شاباً عزباً فكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله (ص)(٥).

الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أصح كتب السنّة ومسند أحمد صاحب المقام العالي بينها يشير بصراحة إلى مشكلة العزوبة التي استجدت على مجتمع يثرب/ المدينة بعد نزوح (هجرة) الصحاب، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فسوف نرى هذا الصاحب الذي لم يكن يجد مأوى يؤوب إليه سوى المسجد سوف تتدفق أنهار الثروة بين يديه حتى إنه كان يُلبس جواريه ملابس النسوة الحرائر ويحلّيهن بعقود وأساور الذهب وهو ما لا تجده الحُرّات من النسوان العامة حتى إن أباه عمر بن الخطاب شكاه إلى أخته حفصة إحدى زوجات محمد لتلفت نظره إلى ذلك.

٤ ــ عن عبد الله بن أبي أوفى أنه سئل عن الجراد فقال: غزوت مع رسول الله (ص) ست غزوات نأكل الجراد هكذا رواه سفيان بن عيينة ورواه الثوري عن أبي يعفور قال: سبع غزوات وورد في (تحفة الأحوذي) في كتاب الأطعمة(٦). والغزوة هي التي يشترك فيها محمد بنفسه ومجموع الغزوات هو سبع وعشرون غزوة أي رُبع الغزوات تقريباً لم

---

(٥) والحديث في **مسند أحمد وصحيح مسلم وصحيح البخاري**.
(٦) ص ١٨٢ من المجلد الثالث **أسد الغابةِ**، مصدر سابق.

يكن طعام الصحبة فيها سوى الجراد ثم تغيّر الحال فأصبح أخشن طعامهم (لعاب النحل بـ لباب البر)(٧).

٥ ــ أما إذا كانت سرية (أي لا يشترك فيها محمد) فإنها تخرج بدون زاد، اعتماداً على ما تجده عند من تغزوهم فإذا لم تعثر لديهم على شيء فليس أمام أفرادها سوى الشوك.

حدثني أبو بكر بن إسماعيل بن محمد عن أبيه قال سعد بن أبي وقاص: ولقد أصابنا في سفرنا مجاعة ولقد خرجنا من المليحة وبين المليحة وبين المدينة ستة برد وبينها وبين المعدن ليلة ــ بين معدن بني سُليم وبين المدينة، قال: لقد خرجنا من المليحة نوبة، (الجماعة من الناس) وما معنا من ذواق حتى قدمنا المدينة، قال قائل: أبا أسحق كم كان بين ذلك وبين المدينة؟ قال: ثلاث، كنا إذا بُلغ منا أكلنا العضا، وشربنا عليه الماء حتى قدمنا المدينة(٨).

ثم دارت الأيام وتنعّم سعد بن أبي وقاص مثل غيره من كبار الصحاب بالأموال التي كسحت من البلاد المفتوحة وبنى له قصراً في العقيق(٩)!

٦ ــ وكان بعض الصحاب عديم الكسب، لا حرفة ولا تجارة ولا زراعة فكانت زوجته هي التي تنفق عليه وعلى أولاده

---

(٧) وتفسيرها باللهجة العامية «العسل الأبيض أو عسل النحر بالعيش الفينو»!
(٨) ج ١ **مغازي** الواقدي ص ١٧ أوردها الواقدي في (سرية نخله) **والعضاه** كل شجر يعظم وله شوك.
(٩) **العقيق** حي من أحياء المدينة الراقية مثل الزمالك وجاردن سيتي في القاهرة ــ وتوجد ستة مواضع تحمل اسم العقيق في منطقة الحجاز في تهامة ونجد واليمامة والطائف، **والعقيق** خرز أحمر يأتي من اليمن **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

وعلى البيت وكانت تعتبر ذلك صدقة تُحتسب لها ولا يجد هو غضاضة في ذلك:

زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: يا رسول الله أمرت اليوم بالصدقة وكان عندي حلي فأردت أن أتصدق به فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت عليهم، فقال النبي (ص): قال ابن مسعود زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم ــ رواه البخاري[١٠].

ورواه النسائي:

أن زينب امرأة ابن مسعود سألت رسول الله (ص): هل يسعها أن تضع صدقتها في زوجها وبني أخٍ لها يتامى؟ قال: نعم ولك أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة[١١].

ولكن ابن مسعود لا يظل هكذا فإن الفلك الدوّار يحوّل الأحوال فيغدو (ابن مسعود) إقطاعياً يمتلك الإقطاعيات ــ كما سنرى بعد قليل.

٧ ــ حتى العوالي من الصحاب كان الفقر يضربهم ــ في البدء ــ ضرباً موجعاً حتى لا يجدوا القوت الضروري الذي يسدّون به رمقهم.

روى الأسود بن عامر حدثنا شريك النخعي عن عاصم بن كليب عن محمد بن كعب القرظي قال: قال علي لقد رأيتني على عهد رسول الله (ص) أربط الحجر على بطني من شدة الجوع وإن صدقة مالي تبلغ اليوم أربعين ألفاً رواه أحمد عن حجاج عن شريك ورواه إبراهيم بن سعيد

---

(١٠) **الشرح الكبير** لابن قدامة المقدسي ــ بهامش **المغني** ــ المجلد الثالث ص ٢٨١.
(١١) ٢٨٣ ــ من المجلد نفسه والمصدر السابق.

الجوهري وفيه لتبلغ أربعة آلاف دينار[١٢]. وأبو الحسنين كما وصفناه سابقاً مستقيم الخلق يتسم بالصراحة ويستوي باطنه وظاهره ومن ثم نراه في هذا الخبر يعلن أنه أصبح ثرياً حتى إنه يدفع زكاة المال أربعين ألفاً وهي كما نعلم ربع العُشر وبحسبة بسيطة ندرك أن ثروته مليون وستمائة ألف ـــ من المال السائل فحسب لأن هناك الكثير مما لا يُدفع عنه الزكاة مثل العقارات (المباني) والأرضين والخيول والحُلى (في بعض المذاهب) والعبيد والجواري والأسلحة... الخ.

٨ ـــ والخبر التالي يوضح لنا أيضاً حال علي وهو في أول الطريق:

إن علياً (رض) إستقى لرجل من اليهود كل دَلْو بثمرة وجاء به إلى النبي (ص) يأكل منه قال علي: كنت أدلو الدلْو بثمرة وأشترطها جلدة[١٣].

وبعد ذلك أصبح من أصحاب الأراضي يزارع عليها بالثلث أو الربع كما روى البخاري؛ وطلّق الحسن ابنه إحدى زوجاته فمتعها بعشرة آلاف (درهم أو دينار) فاستقلتها أي رأتها قليلة لا تليق بثروة ابن علي!

٩ ـــ عن عبد الله بن مغفل المزني قال: أصبت من فيّئ خيبر جرب شحم فاحتملته على عاتقي إلى رحلي وأصحابي، قال فلقيني صاحب المغاني الذي جعل عليها، فأخذ بناحيته وقال: هلم هذا نقسمه بين المسلمين قال: قلت: لا

(١٢) ص ١٣٠ ـــ من ج ٤ منهاج **السنّة النبوية** ـــ ابن تيمية سابق.
(١٣) الحديث رواه ابن ماجه في **سننه** وسنن ابن ماجه من كتب الستة الصحاح.

والله لا أعطيكه، فجعل يجاذبني الجراب قال فرآنا رسول الله (ص) ونحن نصنع ذلك قال: فتبسم رسول الله (ص) ضاحكاً، ثم قال لصاحب المغانم: لا أبا لك خلِ بينه وبينه قال: فأرسله فانطلقت به إلى رحلي وأصحابي فأكلناه(١٤).

هذا الخبر الذي حمله إلينا ابن هشام في السيرة يرسم صورة ناطقة عن حقيقة الحالة المالية للصحبة في البداية فصحابي في خيبر يعثر (يصيب) جراب شحم فيعتبره غنيمة دسمة ويحتازه ليخص به نفسه وصحبه الذين هم معه في رحله عند عودته إليهم فيراه (صاحب المغانم) أي الموكل بحفظها فينازعه إياه وينكر عليه قصده في الاستئثار به لأنه في نظره من حق كل رجل اشترك في الغزوة لولا أن محمداً أمره أن يخلي بينه وبين الجراب فانطلق عبد الله فرحاً مسروراً إلى رحله وأكله هو ومن معه. هؤلاء الصحاب الذين كانوا يتنازعون على جراب شحم والي اعتبره من أصابه صيداً ثميناً سيملكون قرى بأكملها!!! كما سنذكر بعد قليل في البلاد التي وطأتها خيولهم المباركة بدعوى إخراج أهلها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد مع أن هؤلاء الأهل لم يشكوا لهم من ذلك ولم يستنجدوا بهم!

١٠ ــ أسماء بنت عميس التي ذكرناها فيما سبق في أكثر من خبر تروى لنا هذا الحديث:

عن أسماء بنت عميس أن النبي (ص) دخل عليها لبعض حاجة

(١٤) ابن هشام **السيرة النبوية** الجزء الرابع ص ٤٤، مصدر سابق.

ثم خرج فشكت إليه الحاجة[١٥]، ولا شك أن ذلك كان بعد وفاة جعفر بن أبي طالب وكان قد ترك لها بضعة أولاد صغار وقبل زواجها من أبي بكر ثم من علي.

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (له صحبة) أسلفه الزبير بن العوام ألف ألف درهم فلما قتل (الزبير) قال ابنه عبد الله لـ عبد الله بن جعفر إني وجدت في كتب أبي أن له عليك ألف ألف درهم، فقال هو صادق فاقبضها إن شئت[١٦]. عبد الله بن جعفر هذا هو أحد أبناء أسماء بنت عميس التي كانت تشتكي إلى محمد حاجتها وحاجتهم ولكن انقلب الحال انقلاباً يفوق الخيال ـــ والفضل في ذلك للبلاد الموطوءة فقد أصبح أحد أولئك الأولاد (عبد الله) مليونيراً إذ بمجرد أن يقول له عبد الله بن الزبير أنه وجد مكتوباً بخط أبيه الزبير (أن له عليك ألف ألف درهم = مليون درهم) ردّ عليه ابن جعفر: هو صادق فاقبضها إن شئت لم يقل نظرة إلى ميسرة أو أمهلني ولو شهراً بل أبدى استعداده لدفع المليون درهم على الفور لا على التراخي ولو ساعة واحدة ـــ ترى كم كانت تبلغ ثروة عبد الله بن جعفر إذا كان على استعداد للوفاء بدينه البالغ مليون درهم في التو!

ومن أي مصدر واتته هذه الثروة السائلة وقد كانت والدته وهو صغير تشكو الحاجة إلى محمد (ابن عم أبيه)؟

وهذه الواقعة قد حدثت بعد وفاة الزبير أو مقتله أي بعد مصرع عثمان لأن الزبير قتل في أثناء موقعة الجمل ـــ ومعلوم أن معظم الفتوحات تمت في خلافة عمر واستكملت زمن عثمان، حينذاك

---

(١٥) الحديث في **مجمع الزوائد** وقال الهيثمي رواه الطبراني وفيه راو لم يُسَمّ وبقية رجاله رجال الصحيح.
(١٦) **أسد الغابةِ** ـــ المجلد ٣، ص ١٩٩، مصدر سابق.

بدأت الأموال تتدفق على المدينة من كل صوب وحدب وعبد الله بن جعفر من بني هاشم وكان عمر يغدق عليهم هم بالذات لأنهم من الفروع السامقة من قريش الذين كانت تعتمل في صدورهم عوامل النقمة لأن الخلافة أفلتت منهم وجنحت إلى فرعين متواضعين تيم (فرع ابن أبي قحافة) وعديّ (فرغ ابن الخطاب) وعبد الله بن جعفر لا بد أنه كان صاحب نصيب موفور من تلك الغنائم لأنه ولد جعفر الطيّار ابن عم محمد ــ وهكذا تحوّل هو وأخوته من الحاجة إلى اكتناز الملايين حتى إنه سدد المليون إلى عبد الله بن الزبير فور المطالبة به.

* * *

ونكتفي بهذه النماذج العشرة لإثبات أن الصحاب كانوا في أول أمرهم يعانون من جهد للبلاء والخلة والعوز، والكتب التراثية للسيرة المحمدية ودواوين السنّة تعج بعشرات الأخبار التي تؤكد هذه الحقيقة التي لا يُماري فيها إلاّ مكابر.

وننتقل بعد ذلك إلى وصف أحوال الصحاب بعد أن أقبلت عليهم الدنيا إقبالاً لم يكونوا يحلمون به بعد الفتوحات التي أشرنا إليها كثيراً ــ وعدد من الصحاب كان لديه الشجاعة الأدبية ليصدع بذلك دون جمجمة وبعبارات واضحة ذات دلالة أكيدة.

[Blank Page]

بات الأصحاب يحوزون الأموال الطائلة ــ وهناك وهم شائع بين الكثيرين أن ذلك كان قاصراً على عدد لا يصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة ويأتي في مقدمتهم، عبد الرحمان بن عوف، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، عثمان. ووصفنا هذا الاعتقاد بأنه وهم لأنه مناقض للحقيقة التي تحملها كتب السيرة والتاريخ بل ودواوين السنّة والتي تنطق بذاتها أمامنا أن شطراً كبيراً من الصحبة وهو الذي كان على قمة الهرم الاجتماعي تحول إلى الثراء البالغ حتى الذين لا ينصرف ذهن المسلم العادي إليهم مثل:

عبد الله بن عمر، عبد الله بن مسعود، سعد بن أبي وقاص، خَبّاب بن الأرَتّ، وأسامة بن زيد فمن هؤلاء من تملك إقطاعيات!!!

أما عمران بن الحصين وأنس بن مالك والحسن بن علي وأبو هريرة ومحمد بن الحنفية (وهو ابن لعلي بن أبي طالب وأخ غير شقيق للحسن والحسين) وابن عباس وأبو قتادة، فقد لبسوا مطارف الخز وجباب الخزّ وبرانس الخز[1].

---

(١) **المغنى** لابن قدامة، المجلد ٢، ص ٦٥ ــ ٦٦. طبعة دار الغد العربي بمصر.

ولكن ما هو الخزّ؟

الخز من الثياب: ما ينسج من إبريسم خالص أما الإبريسم فهو أحسن الحرير[٢].

يعترف الصحابي جابر بن عبد الله أن الصحاب مالت إليهم الدنيا ومالوا إليها ولكنه استثنى اثنين فقط هما ابن الخطاب وابنه عبد الله.

قال جابر بن عبد الله: ما منّا إلاّ من مالت إليه الدنيا ومال إليها ما خلا عمر وابنه عبد الله[٣]. والذي لا شك فيه أن جابر بن عبد الله أثبت بهذه المقولة معدن الأنصار كان نقي السريرة مخموم القلب، طيب الطوية ولا نصدر حكماً مسبقاً لنرى هل ما قدّمه (جابر) من استثناء صحيح أم فاسد وعلى الأخص فيما يتعلق بالابن:

١ ــ حدثني يحيى بن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يحلّي بناته وجواريه الذهب ثم لا يخرج من حليهن الزكاة[٤]. فهو هنا يحلّي بناته وجواريه (بالجمع) الذهب ولا يخرج زكاة هذا الحلي.

٢ ــ ولا يكتفي بتحلية جواريه بذهب بل كان يُلبسهن ملابس الحرائر (جمع حرة) مع أن التفرقة كانت آنذاك مستقرة بين ملابس الأمة والحرة لكي تُعرف الحرة فلا يتعرض لها ذوو النفوس الضعاف ورقيقو الدين.

---

(٢) **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، وفي **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية الجزء الأول (حرف الهمزة/ **الابريسم** هو الحرير وخصّه البعض بالحرير الخام والإبريسم لفظة معربة من الفارسية.

(٣) **أسد الغابةِ**، المجلد الثالث ص ٣٤٢.

(٤) **الموطأ** للإمام مالك ص ١٧١ طبعة دار الشعب بمصر.

ولكن ابن عمر وهو الصحابي المعروف وأخو حفصة إحدى زوجات محمد التسع وإحدى أمهات المؤمنين وابن الخليفة كسر هذه القاعدة وداس عليها بقدميه وسوّى إماءه بالحرّاث.

(حدثني مالك أنه بلغه أن أمة كانت لعبد الله بن عمر بن الخطاب رآها عمر بن الخطاب وقد تهيأت بهيئة الحرائر فدخل على ابنته حفصة وقال لها: ألم أرَ جارية أخيك تجوس الناس وقد تهيأت بهيئة الحرائر؟ وأنكر ذلك عمر)[٥].

وكان عمر يحمل درّة (عصا صغيرة) فإذا رأى جارية لبست لبس الحرة ضربها بها ولكنه لم يفعل ذلك مع جارية ابنه، إنما شكاه لأخته حفصة لتلفت نظره ــ والتفرقة بين الحرة والأمة في اللباس مسألة طبقية بحت ومن هنا يجيء ترجيحنا إلى أن وضع الخُمار والنقاب والحجاب كان لضرورة اجتماعية وليس أمراً دينياً ــ وإذ أن أحوال المجتمع الحالي باينت أحوال مجتمع العهدين المحمدي والخليفي فإن التمسك بأعراف المجتمع الأخير الاجتماعية والتراتبية فيه إعنات وحرج والدين لم يأت لذلك وهذا بنص الآية ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾[٦]. وهنا ملحظ بالغ الأهمية وهو أن الإماء كنّ يمثلنّ في ذاك الوقت الكتلة العاملة ولذلك كان يباح لهن إظهار أجزاء من جسمهن تقتضيهما ضرورة (المهنة) بعكس الحرة التي لا حرفة لها، وإذ أن مجتمعنا الراهن غالبية النسوان فيه يعملن (تدخل في ذلك المرأة في الريف لأنها تعمل) غدت التفرقة في الملبس غير ذات موضوع بعد أن ارتفعت عن جبين البشرية وصمة الرق بجهود البشر ودمائهم لا بمنحة من «النصوص»، بل

(٥) **الموطأ** ص ٦٠٧، مصدر سابق.
(٦) الآية ٥٩ من **سورة الأحزاب**.

على النقيض فإن «النصوص» في الديانات السامية الثلاث لم تلغ العبودية ولم يكن في مقدور نصوص أية واحدة منها أن تفعل لأنها (= النصوص) نتاج البيئة وثمرة المجتمع الذي انبثقت منه وتخلّقت في حناياه وإذ إن تلك البيئة وذلك المجتمع لم يكن يتصور إلغاء الرق بل كان أحد ركائزه الإنتاجية، فبالمثل جاءت النصوص تقنن لـ (مؤسسة الرق). وفي الديانة الإسلامية أتى الفقه بعد ذلك وقعّد بها القواعد والأحكام والضوابط... الخ وإذا فتحت أي كتاب في الفقه إن في المذاهب الأربعة أو في المذاهب الدارسة سيهولنّك الحيز الواسع الذي يحتله نظام الرق فيها، ورغم ذلك فهناك مُتَخَيّل مسيطر على الأمخاخ والأدمغة أننا نحن أساتذة الدنيا في مجال حقوق الإنسان!

بعد هذه الاستطرادة نؤوب إلى سياق الحديث:

وكان لدى عمر جارية رومية أثيرة لديه (وهذا أمر لا يحتاج إلى تعليل) ولكنه أعتقها نفاذاً للآية ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون﴾(٧). (وعندما باعها تصدق بثمنها لينال البر الذي أشارت إليه الآية، وابن عمر واثق أنه بحصوله على البر سيجد في حوريات الجنة العين والكواعب الأتراب ما يعوّضه عن جمال تلك الجارية الرومية.

وكانت الإماء الروميات (بنات بني الأصفر) أغلى الإماء ثمناً لجمالهن: بياض أجسامهن، خضرة عيونهن، ذهبية شعورهن... الخ ومن ثم كان لا يقدر على شرائهن إلاّ كبار الأغنياء.

٣ ــ في إحدى المرات وهو عائد إلى المدينة قابل راعي غنم

(٧) الآية ٩١، **آل عمران.**

وحاوره وأعجب بأمانته وإخلاصه لسيده (صاحب الأغنام)... (فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه فاشترى منه الغنم والراعي وأعتق الراعي ووهب منه الغنم)[٨].

والذي يشتري القطيع والراعي ثم يهب القطيع للراعي لا بد أنه ثريّ أمثل.

٤ ــ عن نافع قال: باع ابن عمر (رض) أرضاً له بمائتي ناقة، فحمل على مائة منها في سبيل الله واشترط على أصحابها ألاّ يبيعوا حتى يجاوزوا وادي القُرى[٩]. ابن عمر كانت له أرض (عزبة) في وادي القُرى (من البقاع الخصبة في منطقة الحجاز) فباعها بمائتي ناقة وكانت طريقة المقايضة في المعاملات معهودة وهذا الثمن المدفوع في الأرض و(العزبة) يوضح لنا قيمتها، ولم يكتفِ بذلك بل جهّز مائة ناقة بما يصلح للفتوحات مساهمة منه في دعم (جهاز الفتح) لأن كل هذا الخير الوفير الذي يعوم في بحوره كان بفضل الفتوحات.

٥ ــ قال نافع عن ابن عمر: قال وكان ربما تصدّق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً[١٠]. والذي يقرأ هذا الخبر يثور في ذهنه سؤال بديهي: كم هي ثروة عبد الله إذا كان في جلسة واحدة يتصدق بثلاثين (ألفاً) درهماً أو ديناراً؟

٦ ــ ويرد خبر برواية ميمون بن مهران (قال: أتت ابن عمر

(٨) **أسد الغابةِ** المجلد الثالث ص ٣٤٢.
(٩) أخرجه أبو نعيم في **الحلية** الجزء الأول ص ٢٩٦، نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي الجزء الثاني ص ١٠١، مصدر سابق.
(١٠) أخرجه أبو نعيم في **الحلية**، والطبراني مختصراً وابن سعد في **الطبقات**، نقلاً عن **حياة الصحابة** ص ٩٢، ج ٢ للكاندهلوي، مصدر سابق.

(رض) اثنان وعشرون ألف دينار في مجلس فلم يقم حتى فرّقها)[١١]. وواضح من سياقته أنه بخلاف الأول وتأكيده على أن الألوف هي في الدنانير.

٧ ــ وابن عمر معذور في هذه البعزقة[١٢]. فعرق علوج الشام ومصر والعراق يصل إليه في عقر داره وهو لا يعمل شيئاً سوى التفرغ للعبادة حتى يجمع بين الحسنيين بُلهنية الدنيا ونعيم الآخرة، ونحن لا نخمن ذلك ولا نستنتج ولا يتركنا ابن عمر نضرب أخماساً في أسداس بل أخبرنا بذلك بغاية الصراحة:

قال عبد الله بن عمر: ما غرست نخلة منذ قبض رسول الله (ص)[١٣].

ولِمَ يتعب ابن عمر نفسه في الغرس والقلع وعنده العشرات بل المئات من العُبدان الذين يتولون عنه العمل، وكل ما عليه هو أن يتلقى الأعطيات والمنح والهبات والنفحات... الخ. ومن هنا يبين أن ابن عمر وغيره من الصحابة هم الذين استنوا هذه السنة لأحفادهم من أبناء شبه الجزيرة والخليج:

فهؤلاء يقبضون ريع النفط ويستوردون أبناء الدول الفقيرة العربية والآسيوية ليقوموا بالأعمال الشاقة وغير الشاقة ــ ومنذ ذلك التاريخ تكرّست لدى العرب عقلية الحصول على الريع الذي يقفز

(١١) أورده أبو نعيم في **حلية الأولياء** نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي ج ٢ ص١٤٠.
(١٢) في **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية، **بعزق** الشيء: فرقه وبدده. الجزء الثاني، حرف الباء. الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
(١٣) رواه سفيان بن عيينه عن عمر بن دينار عنه وأورده يحيى بن آدم القرشي في كتابه **الخراج** ص ٧٧.

حتى الحجر دون بذل أي مجهود؛ في أيام ابن عمر ونظرائه: خيرات البلاد المفتوحة وحالياً: النفط.. الزيت.. البترول.. اختر أي اسم يروق لك؟

٨ ــ ومن الطبيعي أن يعيش ابن عمر عيشة ناعمة ليعوّض أيام الشقاء والحرمان (عن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يغسل جواريه رجليه)[١٤].

٩ ــ القباطي والحلل من ملابس الموسرين ولا يحصل عليها العامة إلاّ بشق الأنفس لأنها قاصرة على فئة محدودة، فالقباطي ثوب رقيق من كتان لا يعمل إلاّ بمصر والحلل جمع حلة وتتكون من ثوبين من جنس واحد. أما سواد الناس فبالكاد يتحصلون على إزار ورداء من قماش خشن ولكن ابن عمر يأبى أن يكسو هديه إن في العمرة أو الحج إلاّ بملابس المترفين وكيف لا يفعل والمال يُصبّ عليه صباً (عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يجلل بدنه بالقباطي والأنماط والحلل ثم يبعث بها إلى الكعبة فيكسوها إياها)[١٥].

والبدنة: الناقة (الجمل) البقرة ــ والخبر ورد بالجمع (بدُن) أي أن ابن عمر كان يهدي قطيعاً من النوق أو الجمال أو البقر كلها مجللة بالقباطي والحلل والأنماط ــ وبعد ذبحها توضع الأردية على الكعبة!

١٠ ــ ونختم بهذا الخبر البالغ الدلالة (قال نافع: ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان أو زاد عليه)[١٦]. ترى كم كان عدد

---

(١٤) رواه مالك في **الموطأ** ص ٥٧ والدرامي في **سننه**، المجلد الأول ص ٢٤٦.
(١٥) أورده مالك في **الموطأ** ص ٢٤٧، مصدر سابق.
(١٦) من كتاب **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري ص ٤٦٧، مصدر سابق.

مماليك وجواري عبد الله بن عمر إذا كان عدد من أعتق منهم ألفاً أو يزيد؟؟

ولكن ما هي مصادر ثروة ابن عمر العريضة تلك؟

يأتي في مقدمها نصيبه من العطاء وهو كبير لأنه صحابي قديم وقرشي ومهاجر وسيأتي بيانه عندما نتحدث عن العطاءات أو الأعطيات في حينه ــ وكان يتقبل عطايا الأمراء حتى ولو كانوا أمراء جور.

وعلى رأس هؤلاء يقف معاوية الذي كان يرفده بمنح جزيلة ليشتري سكوته عن ممارساته متخذاً من موقف الصحابي أبي ذر الغفاري عظة ــ وليضمن عدم معارضته وهو (= معاوية) يعد العدة للتخلص من خصوم دولة بني أمية (الحسن بن علي ثم عبد الرحمان بن خالد) وإعلان ابنه يزيد ولياً لعهده.

كذلك كان يتقبل نفحات من آخرين:

١ ــ عن نافع أن معاوية (رض) بعث إلى ابن عمر مائة ألف[١٧]. وبقية الخبر أنه ما حال الحول وعنده منها شيء، وهذا يرجع إلى أنه كان يعيش عيشة مترفة يشتري الإماء الروميات ويُلبس بناته وجواريه الذهب... الخ.

٢ ــ عن أيوب بن وائل الراسبي قال: قدمت المدينة فأخبرني رجل جار لابن عمر أنه أتى ابن عمر أربعة آلاف من قبل معاوية وأربعة آلاف من قبل إنسان آخر وألفان من قبل آخر وقطيفة[١٨]. وبقية الخبر أنه فرقها في اليوم نفسه.

---

(١٧) أخرجه أبو نعيم في **حلية الأولياء** ص ١٤٠ نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** للكاندهلوي ج ٢ ص ١٤٠.
(١٨) الجزء نفسه ص ١٤١ من المصدر نفسه.

٣ ــ فكان ابن عباس وابن عمر يقبلان هدية المختار[١٩]. والمقصود به هو المختار الثقفي.

* * *

تلك كانت جولة سريعة في رحاب ثروات ــ بالجمع لا بالمفرد ــ عبد الله بن عمر بن الخطاب المتعددة الأنواع والأصناف والأشكال، الذي كان في أول عهده بالنزوح (الهجرة) إلى أثرب لم يكن هناك ما يأوي إليه سوى المسجد ولعلنا بذلك نكون قد قدمنا دليل الثبوت على أن استثناء جابر بن عبد الله له من دون كل الصحابة الذين مالت إليهم الدنيا ومالوا إليها ــ كان عن طيبة قلب وعدم بصر بالأمور وقلة دراية بدخائلها ــ بقي الصحابي الآخر الذي استثناه جابر وهو:

عمر بن الخطاب العدويّ القرشي

سنورد طرفاً من سيرته المالية لنتعرف هل كان جابر محقاً في استثنائه أم لا؟

وبداية فإننا ندرك انتصاب صعوبة أو صعاب في إقناع القارئ بخطأ ذلك الاستثناء وخطله لأن الكتابات التبجيلية وخاصة المتأخرة منها صورت ابن الخطاب بصورة الزاهد المدبر عن الدنيا وأشاعت عنه حكايات لطيفة مسلية مثل أخذه قميص ابنه عبد الله ليكمل به قميصه ولأنه كان رجلاً طوالاً وأنه كان أكل الزيت في وقت الرمادة حتى اسودت بشرته وأن ثوبه كان يحمل ما يقرب

(١٩) كتاب **السيّر الكبير**، للإمام الحنفي محمد بن حسن الشيبابي شرح السرخسي، تعليق الشيخ محمد أبي زهرة، تحقيق زيد، ص ٢٦١ مطبعة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة.

عن عشرين رقعة... الخ ورغم أن من يتحفوننا بهذه الحكايا الظريفة لم يقدموا لنا مصادرها لتأكيدها فإن أغلبها حسب رواياتهم المحبوكة أو المسبوكة، قد حدثت إبّان الفتوحات التي أتت بالأموال الوفيرة، وإذا كان عمر قبل ذلك كان يملك من الثروات ما يغنيه عن ترقيع ثوبه فكيف يلبس ثوباً مرقعاً بعد الفتوحات؟ أما المجاعة: فكيف تحدث في أثرب/ المدينة وقد كانت مصب أنهار ثروات العراق والشام ومصر وغيرها وكلها فتحت في عهده وعلى سبيل المثال يوضح لنا الخبر الآتي مقدار الثروة الأسطورية التي كُسحت من بلد واحد:

وفي هذه السنة فتح عمرو بن العاص الإسكندرية وسائر أعمال مصر واجتباها أربعة عشر ألف ألف دينار من خراج رؤوسهم لكل رأس دينار وخراج غلاتهم عن كل مائة أردب أردبين(٢٠).

فإذا كان هذا هو مقدار الأموال التي جُبيت من مصر وحدها دون سائر البلاد المفتوحة فكيف نسلّم بوقوع رمادة في يثرب/ المدينة.

ولو فرضنا مستحيلاً فإن تلك المجاعة لم تدم سوى أيام لأن غازي مصر عمرو بن العاص أرسل قافلة امتدت من الفسطاط حتى يثرب تنوء ظهور جمالها بمحصول عرق (العلوج) المصريين وشقائهم في أرضهم!

ولقد ناقشت المصادر مسألة إسمرار وجه عمر في زمن المجاعة أو الرمادة وانتهت إلى عدم صحتها ففي الأصل كان ابن الخطاب أسمر شديد السمرة وصاحب الوجه الأسمر أو البالغ السمرة لا

(٢٠) **تاريخ اليعقوبي** ص ١٥٤، المجلد الثاني، مصدر سابق.

يتأثر وجهه يأكل الزيت أو خلافه بل الذي يفعل ذلك أبيض الوجه (قال أبو عمر: وصفه زر بن حبيش وغيره أنه كان آدم شديد الأدمة وهو الأكثر عند العلم)[٢١]. وأكد هذه الحقيقة ابن عبد البر بل إنه أورد العبارة التي تحملها بحروفها ووصف من قال ذلك أنهم (أهل العلم بأيام الناس وسيرهم وأخبارهم)[٢٢].

ويستطرد قائلاً عن حكاية إسمرار وجه عمر من أكله الزيت إبان الرمادة أنها منكرة (وزعم الواقدي أن سمرة عمر وأدمته إنما جاءت من أكله الزيت عام الرمادة وهذا منكر من القول)[٢٣]. وهذا الزعم المنكر، يتحوّل على ألسنة المُحدثين قصيدة عصماء في مدح عمر! ونحن نرى أنها (القصة) تنفي الزهد لأنها تدل دلالة قاطعة على أن أكل الزيت كان بالنسبة إليه استثناء أي أنه في أوقاته العادية كان يتناول طعامه مطبوخاً بالسمن أو الزبد، وبلغ به الرفاه أن أكله الزيت بضعة أيام أضرّ به، فأين هو الزهد إذن؛ أما ترقيع الثوب فقد قلنا إذا كان عمر لم يفعل ذلك قبل الفتوحات فكيف يفعله بعدها فضلاً عن أنه لا يتفق والتفكير السليم إذ إنه كان آنذاك خليفة ورأس دولة مترامية الأطراف ودخولها وفيرة فما الذي يستوجب ذلك؟

بل العكس هو الأقرب إلى المنطق خاصة وقد صار من ضمن (رعاياه) أبناء شعوب مختلفة تعوّدوا على أن يروا حكامهم في هيئة تليق بمقامهم.

وطول حياته لم يلبس محمد المرقعات ولم يؤثر عنه ذلك أبداً

---

(٢١) **أسد الغابةِ** المجلد الرابع ص ١٨١.
(٢٢) **الاستيعاب** المجلد الثالث ص ١١٤٦، مصدر سابق.
(٢٣) المصدر السابق، المجلد نفسه والصفحة نفسها.

فَبِمن تأسى عمر في ترقيع ثوبه؟ بل إننا قرأنا في السيرة أن محمداً كان يقابل وفود القبائل في ملابس حسنة وهيأة مناسبة وهذا هو ما يوجبه التفكير الصحيح وطبائع الأمور.

إنها حكايات ابتدعت الإلصاق الزهد بـ (عمر) ولكن خانها التوفيق!

ولنتفحص أحوال عمر في الحقبتين اللتين مرَّ بهما:

أ ــ قبل الخلافة:

١ ــ حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: لما قدم رسول الله (ص) المدينة أقطع أبا بكر وعمراً (رض)[٢٤].

٢ ــ عن سالم عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب قال: كان رسول الله (ص) يعطيني العطاء فأقول: اعطه من هو أفقر مني، فقال له رسول الله (ص): إذا جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالاً، فلا تتبعه نفسك[٢٥]. هذا حديث عائلي إذا صح هذا التوصيف لأن راويه هو حفيد عمر، مما يعطيه مصداقية كبيرة.

٣ ــ عن ابن عمر (رض) قال: أصاب عمر بـ خيبر أرضاً فأتى النبي (ص) فقال أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفر منه[٢٦].

٤ ــ بل إن ابن الخطاب تضلّع من ملكية الأرض حتى وقف قطعة منها والمعتمد في كتب الفقه على جميع المذاهب أن

(٢٤) كتاب **الخراج** لأبي يوسف قاضي القضاة ص ٣٧، مصدر سابق.

(٢٥) أورده السيوطي في **جمع الجوامع أو الجامع الكبير** الجزء الأول، ص ٤٨٨، مجمع البحوث الإسلامية، مصدر سابق.

(٢٦) أخرجه الستة في **الصحاح** وراوي هذا الحديث هو ابنه الأكبر عبد الله.

الحديث الخاص بها هو أساس (نظام الوقوف)، (حديث عمر أنه أصاب مائة سهم من خيبر واستأذن النبي (ص) فيها فأمره بوقفها)[٢٦].

٥ ـ وكان من الطبيعي أن ينشغل ابن الخطاب العدوى في العناية بأراضيه حتى عن حضور مجالس محمد بانتظام فكان يحضرها يوماً ويتخلف عن حضورها يوماً ليعتني فيه بها (عن ابن عباس (رض) عن عمر قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار من بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة كنا نتناوب النزول على رسول الله (ص) ينزل يوماً وأنزل يوماً.. إلى آخر الحديث)[٢٧].

٦ ـ شهد عمر بن الخطاب مع رسول الله (ص) بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وحنيناً وغيرها من المشاهد[٢٨]. بخلاف السرايا التي ساهم وكان في بعضها على رأس السرية مثل (تربة) سنة سبع من الهجرة، ولا شك أنه أخذ نصيبه من الغنائم فيها وبعضها كثر نزّه مثل خيبر وحنين، وعن نصيبه في خيبر: (قال ابن إسحق فوقع سهم رسول الله (ص) وعمر و... في الشق)[٢٩].

أما غزوة هوازن أو غزوة حنين فمشهور أنها أكثر الغزوات غنائم وقصرها محمد على قريش وقبائل من العرب وحرم الأنصار

(٢٦) **المغني** لابن قدامة المقدسي، ص ٣٥٦ من المجلد السادس، المصدر سابق.
(٢٧) هذا الحديث متفق عليه ويتعلق بواقعة مشهورة وهي اعتزال محمد لزوجاته التسع وقد أخرجه البخاري ومسلم في **صحيحيهما**.
(٢٨) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري ص ١٥٤ من المجلد الرابع، مصدر سابق.
(٢٩) **الدرر في اختصار المغازي والسير** لابن عبد البر، حققه: مصطفى ديب البغا، ص ٢٣٧، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت.

أوسَهَم وخزرجهم فوجدوا في أنفسهم وكثرت القالة[٣٠]... الخ.

هذه إطلالة سريعة على ثروة عمر بن الخطاب قبل أن يلي الخلافة ولعمر الحق ليس هذا هو شأن الزهاد مثل محمد الذي مات ودرعه مرهونة عند يهودي، رهنها ليشتري طعاماً لأهل بتيه!

ثم نلقي نظرة إلى أحواله المالية:

ب ــ بعد الخلافة:

لم يرد في أي مصدر أن ابن الخطاب العدوي انخلع من ثروته بعد أن اعتلى كرسي الخلافة وفي عهده مصّر الأمصار وفتح الفتوح: العراق والشام ومصر والجزيرة وديار بكر وأرمينيا وأذربيجان وبلاد الجبال وفارس وخوزستان وغيرها.

وكل واحدة منها كانت تسفح على أثرب/ المدينة الأموال الطائلة التي تجاوزت عشرات الملايين بصورة أدهشت الصحاب وحيّرتهم ومنهم ابن الخطاب نفسه كما سنرى في فصلة قادمة..

وكانت هذه الملايين توزع كعطايا على أهل يثرب المحظوظين وفي مقدمتهم المهاجرين وعلى رأسهم القرشيين ومنهم عمر ــ ونعوذ بالله أن نقول إنه كان يؤثر نفسه أو بني عديّ بشيء أزيد من أنصبتهم التي فُرضت علانية وعلى رؤوس الأشهاد ــ ولكنه لكونه قديم الإسلام وقرشياً ومهاجراً ومن أهل بدر فلا شك أن نصيبه من العطاء جزيل مثله مثل غيره ممن يشترك معه في هذه المزايا.

١ ــ ودوّن عمر الدواوين وفرض العطاء سنة ٢٠هـ وقال: قد كثرت الأموال فأشير عليه أن يجعل ديواناً.. وقال: اكتسبوا الناس

(٣٠) **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** لابن سيد الناس، المجلد ٢، ص ١٩٤ د. ت. ن. دار المعرفة بيروت.

على منازلهم... وكل من شهد بدراً من قريش ثلاثة آلاف ولنفسه أربعة آلاف ولابنه خمسة آلاف[٣١]. أي أن عطاءه كان أربعة آلاف، هذا بخلاف راتبه كخليفة.

٢ ــ وفي الوقت الذي كان يخطب فيه من على المنبر ينهي عن المغالاة في المهور نراه يدفع لأم كلثوم بنت علي من فاطمة بنت محمد صداقاً في رواية (حفص بإسناد أن عمراً أصدق أم كلثوم ابنه على أربعين ألفاً)[٣٢]. (.. في هذه السنة خطب عمر إلى علي بن أبي طالب أم كلثوم بنت علي وأمها فاطمة بنت رسول الله (ص) فقال عليّ: إنها صغيرة... وأمهرها عشرة آلاف دينار)[٣٣].

وليستبين القارئ ضخامة المهر الذي دفعه ابن الخطاب ليتزوج الصغيرة الشريفة أم كلثوم حفيدة محمد نقول له: إن (دينار الذهب بمكة وزنه وثمانية وعشرون درهماً في عهد النبي (ص)[٣٤].

٣ ــ كانت علامة ثراء المرء هو زواجه من عدد كبير من النسوة الحرائر وتسريه بالإماء وإذا طبقنا هذا المقياس على ابن الخطاب العدويّ ألفيناه محبوكاً عليه فهو قد تزوج:

١ ــ زينب بنت مظعون أم: عبد الله وعبد الرحمان الأكبر وحفصة.

٢ ــ أم كلثوم بنت علي أم: زيد الأكبر ورقية.

---

(٣١) **تاريخ اليعقوبي** المجلد ٢ ص ١٥٣، مصدر سابق.
(٣٢) **المغني** لابن قدامة، المجلد ٨، ص ٦٨، مصدر سابق.
(٣٣) **تاريخ اليعقوبي** المجلد الثاني ص ١٥٠، مصدر سابق.
(٣٤) **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، حرف الدال للشيخ أحمد الشرباصي الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. دار الجيل.

٣ ــ جميلة بنت عاصم بن ثابت حميّ الدُبُر أم عاصم ــ كان اسمها عاصية فسماها محمد جميلة.

٤ ــ مليكة بنت جرول الخزاعية أم: زيد الأصغر وعبيد الله.

٥ ــ عاتكة بنت زيد أم عياض.

٦ ــ فكيهة بنت الحارث بن هشام بن المغيرة أم: فاطمة.

بخلاف الإماء واللاتي بعد ولادتهم يسمين (أمهات ولد) منهم:

٧ ــ لهية: أم عبد الرحمان الأوسط.

٨ ــ أم ولد هي أم عبد الرحمان الأصغر (المجبر).

٩ ــ فكيهة أم ولد (بخلاف فكيهة الحرة) وهي أم زينب[٣٥].

وبعض تلك الزوجات من فروع عالية من قريش مثل فكيهة من آل المغيرة درة قريش يتقاضى مهوراً مرتفعة وكان بعضهن يتميز بالحسن الفائق مثل عاتكة بنت زيد التي تعاقب عليها خمسة أزواج لجمالها الفتان.

٤ ــ وقد روي عن عمر (رض) أنه وصى لأمهات أولاده بأربعة آلاف أي أن كل أم ولد نصيبها أربعة آلاف فإذا لم يكن العبّ من الدنيا والتضلع منها هو: تملك الأراضي، دفع المهور الباهظة والتزوج من ست حرائر ناعمات فواتن بخلاف ملك اليمين... الخ فماذا يكون إذن؟

(٣٥) **الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري**، الصفحات من ٤٦٦ إلى ٤٧٠، تحقيق حمزة النشرتي وعبد الحفيظ فرغلي وعبد الحميد مصطفى، د. ت. د. ن.

وهكذا قدمنا شواهد دوامغ على أن استثناء جابر بن عبد الله لعمر وابنه عبد الله قد جانبه الصواب.

ولا يعني نفي الزهد عن ابن الخطاب حرمانه من الجوانب البواهر الأخرى التي تميز بها مثل: العدل ــ السهر على راحة (الرعية) ــ الحزم في محاسبة الولاة (العمال) ــ قوة الشخصية ــ التقوى.

مجتمع الصحابة وخاصة في أثرب/ المدينة شأنه في ذلك شأن أي مجتمع آخر كان بطريق الحتم واللزوم بعد تدفق خيرات البلاد الموطوءة عليه بتلك الكثافة غير المنتظرة بل غير المُتخيلة أن يخضع لديناميات التغير الاجتماعي التي تكشف عن قوانين الحركة في المجتمعات كافة أو بمعنى آخر عن أسباب ثم نتائج التغير الاجتماعي لأن هذا التغير سمة جوهرية من سِمات أي مجتمع ــ مهما كان (وهو = التغير) لا يخضع لإرادة فرد مهما بلغت درجة تميزه أو فرادته بل هو نتيجة لعدة عوامل فاعلة في مقدمها الثقافية والسياسية والبيئية (بالمعنى الواسع) ولكن العامل الفعّال (صيغة المبالغة لفاعل) هو العامل المادي ومن أظهرها الفرص الاقتصادية الجديدة التي تؤثر على وعي أفراد ذلك المجتمع ــ ونعني الآراء والأفكار والتصورات والنظريات بل وحتى المعتقدات تتغير وإن شئت الدقة تتعدّل (يدخل عليها تعديل وتطوير وتبرير وتوسيع) نتيجة للتحول المادي والانتقال من حال إلى حال خاصة إذا كان هذا الانتقال يأتي (عَ البارد) أي دون بذل مجهود أو سفح عرق مثل أموال المستعمرات أو خروج نفط من باطن الأرض.. ويطول هذا التغير الاجتماعي أولاً أولئك الذين يتربعون على قمة هرم التراتب الاجتماعي الذين يبادرون إلى اقتناص الفرص والاستئثار بها. أما البُنى التحتية من الشّغيلة والكادحين والعمالة الرّثة وذوي الأيادي

الخشنة فهؤلاء لا ينالهم شيء من تلك الفرص أو يُلقى إليهم بالفضالة والحتاتة والحثالة (وكل من شهد بدراً من قريش في ثلاثة آلاف ومن شهد بدراً من الأنصار في أربعة آلاف.. ولنفسه (= عمر بن الخطاب العدوي) في أربعة آلاف ولابنه عبد الله في خمسة آلاف...)[٣٦].

وعن وهب الخولاني أن عمراً (قسّم في الناس فأصاب كل رجل نصف دينار إذا كان وحده فإن كانت معه امرأته أعطاء ديناراً)[٣٧]. وكان هناك من بلغ عطاؤه اثني عشر ألفاً من أهل القمة، أي أن عطاء القرشي البدري يساوي ستة آلاف ضعف الرجل العادي من (الناس) وثلاثة آلاف ضعف عطائه هو وزوجته! مع أنه بأسياف هؤلاء «الناس» فُتحت البلاد التي صبّت عليهم أنهار الثروة التي عاشوا سنوات طويلة وهم في أشد العطش إلى قطرة واحدة منها!

ويتم «هبش» الفرص الاقتصادية الجديدة بواسطة القمة المتربعة على الهرم الاجتماعي[٣٨]، تحت مسميات مختلفة ومعاذير متباينة: السبق إلى اعتناق العقيدة، المساهمة في عركة/ النزوح من مكان إلى آخر/ الجلوس تحت شجرة مباركة/ الانتماء إلى أسرة معينة، الحصول على عضوية اللجنة المركزية للحزب القطري أو القومي.. الخ، وعلى طول التاريخ تغيرت الألقاب ولكن المضمون أو المشمول في النهاية واحد وتبدلت مفردات معجم لغة كبار الصحاب ــ الذين استفادوا من الفرصة الاقتصادية الجديدة ــ من

(٣٦) **تاريخ اليعقوبي** المجلد ٢ ص ١٥٣.
(٣٧) **الأموال** لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق الشيخ خليل الهراس ص ٣٠٨، مصدر سابق.
(٣٨) في **المعجم الوسيط: هبش** جمع وكسب.

الجهاد والغزو والرباط وسبيل الله والشهادة والزحف ووعد الله والصبر والاحتساب والدرجات العُلى، إلى: العلوج والفلاحين والإقطاع والغلّة والمزارعة والصوافي والخطط والمنازل والدور والقصور.. الخ.

والذي يتخيل ــ مجرد تخيل ــ أن مربع الصحبة يحظى بحصانة أكيدة أو مناعة قوية ضد قوانين التغير الاجتماعي واهم ويفتقر إلى أبجديات العلم بديناميات ذلك التغير وآلياته وقوانيه التي تخضع لها المجتمعات كافة ولا ينجو من أحكامها أي مجتمع... وكما ذكرنا فإن أفراد الفئة المربعة على قمة الهرم الاجتماعي والتي (هبرت) الفرصة الاقتصادية الجديدة(٣٩)، هي أكثر فئات المجتمع رضوخاً للتغير الاجتماعي ولا يعني ذلك البُنى التحتية لا يطولها التغير ولكن بدرجة أخف، وحتى يقتنع الواهمون القائلون بحصانة مجتمع الصحابة من ديناميات التغير الاجتماعي نورد لهم مجرد أمثلة على التغير الذي أصاب أهل القمة ونقلهم من حال إلى حال:

١ ــ عمرو بن العاص:

وخلف عمرو من العين (= الذهب) ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ومن الورق (الفضة) ألف درهم، وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيعته المعروفة بـ (الوهط) قيمتها عشرة آلاف ألف درهم(٤٠).

٢ ــ علي بن أبي طالب:

وأما علي (رض) فتوسع في هذا المال من حِلّه، ومات عن أربع

(٣٩) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، هبر له من اللحم هبرة: قطع له قطعة كبيرة.
(٤٠) **مروج الذهب** للمسعودي الجزء الثاني ص ١٨، مصدر سابق.

زوجات وتسع عشرة أم ولد سوى الخدم والعبيد وتوفي عن أربعة وعشرين ولداً من ذكر وأنثى وترك لهم من العقار والضياع ما كانوا به أغنياء قومهم ومساتيرهم وهذا أمر مشهور لا يقدر على إنكاره من له أقل علم بالأخبار والآثار(٤١).

وقد رأينا في فصله (البداية) أن ابن أبي طالب كان يعمل بيديه بأجر زهيد وأنه كان يربط الحجر على بطنه من الجوع ولما بلغ فاطمة بنت محمد خبر عزم أبيها تزويجها منه اعترضت بحجة أنه (فقير آل أبي طالب).

٣ ــ عبد الله بن مسعود:

روى يحيى بن آدم القرشي عن طريق حجاج عن قاسم بن عبد الرحمن قال: جاء دهقان إلى عبد الله بن مسعود (رض) فقال: اشترِ مني أرضي، فقال عبد الله: على أن تكفيني خراجها، قال نعم: فاشتراها منه(٤٢).

وفي البداية رأينا أن عبد الله بن مسعود كانت زوجته تنفق عليه هو وأولاده من الزكاة (الصدقة) وأنها سألت في ذلك محمداً فأجازه والآن نجده (= عبد الله بن مسعود) يشتري الضياع!!!

٤ ــ زيد بن ثابت:

ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة ما كان يُكسّر بالفئوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار(٤٣).

(٤١) **منهاج السنة النبوية** لشيخ الإسلام ابن تيمية، الجزء الرابع ص ١٣٠، مصدر سابق.
(٤٢) **الاستخراج لأحكام الخراج** للإمام الحافظ أبي الفرج بين رجل الحنبلي، تصحيح عبد الله الصدّيق، ص ٨٤، الطبعة الأولى ١٩٨٢م دار الحداثة، بيروت (لبنان).
(٤٣) **مروج الذهب** للمسعودي، المجلد الأول ص ٥٤٤، سابق.

زيد بن ثابت ــ أنصاري ــ ومعدود من علماء الصحابة ــ وقد عيّنة عثمان بن عفان في اللجنة التي انتدبها لجمع القرآن وكتابته في مصحف واحد وعيّن معه قرشيين وقال إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة (لهجة قريش) وقد اعترض عبد الله بن مسعود على اختيار زيد في اللجنة دونه لأنه (ابن مسعود) كان يحفظ شطراً من القرآن وكان ابن ثابت ما زال في صلب أبيه الكافر!

خلاصة القول إنه حتى علماء الصحابة لم يكن في مقدورهم التملص من آليات التغير الاجتماعي التي ضربت مجتمعهم لأن المسألة لا صلة لها بالعلم والتقوى... الخ.

وإنما هي ديناميات لها موجباتها التي تمد يدها الطويلة لكل فرد من أفراد قمة الهرم القانصة للفرص الاقتصادية الطارئة.

ولو كانت المسألة تتعلق بالأفكار والمعتقدات والروحانيات لأفلت منها زيد بن ثابت لأنه يفقه حكم القرآن الذي شارك في جمعه في الذين يكنزون الذهب والفضة.

ومن الغريب والمحيّر أن هناك من لا زال يماري في حتمية التغيرات التي لا بد أن تصيب المجتمع إذا طرأت عليه ظروف مادية لم يكن له بها عهد، وأن مجتمع الصحبة مثله في ذلك مثل غيره من المجتمعات وها هي الأدلة أمام أعينهم.

٥ ــ عبد الله بن العباس بن عبد المطلب:

حدثنا عبد الرحمان بن مهدي عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن قال: جاء رجل إلى ابن العباس فقال: أتقبل منك الأبُلّة بمائة ألف قال فضربه مائة[٤٤].

(٤٤) **الأموال** لأبي عبيد بن القاسم بن سلام، ت. ٢٢٤هـ، تحقيق الشيخ محمد خليل الهراس ص ٨٩ طبعة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

ويرى محقق الكتاب (الشيخ الهراس) أنها لعلها ضيعة لابن العباس كانت على النهر المسمى بهذا الاسم: ا. هـ.

والقبالة: يقال قبلتك الضيعة أي ضمنتها لك والتزمت بها، وتقبلت به أي تكفلت به[٤٥].

الرجل عرض على ابن العباس أن يدفع له مائة ألف (دينار أو درهماً) مقابل أن يتولى هو أمر الضيعة التي تطل على نهر الأبلّة مباشرة ولكن هذا العرض لم يُرق في عين ابن عباس فرفضه ولم يكتفِ بذلك بل أمر بالرجل فضرب مائة سوط وأوقع عليه عقوبة أخرى نحجبها عن القارئ.

وما كان يحق لابن عباس أن يفعل ذلك حتى ولو كان الرجل لصاً واستشعر ابن عباس أنه يريد من وراء هذا العرض أن يسرقه، ولا يوجد في القرآن أو سنّة محمد ما يخوّله ضرب الرجل مائة سوط (أشد نكالاً من بعض الحدود التي وردت بها النصوص ا. هـ). ودعك من العقاب الآخر وتستخلص من الخبر أن كبار الصحبة من حقهم أن يوقعوا أي عقاب على (الناس) أي على العامة أو السواد أو الدهماء أو السوقة أو الرعية... الخ.

الأمر الذي يؤكد أنهم شكّلوا طبقة متميزة عن سائر المسلمين وذلك ما سوف نتبينه رويداً رويداً. وابن عباس من علماء الصحبة ويقال عنه (حَبْر الأمة) وبهذه المثابة لا بد أنه يعلم موقف الإسلام من اجتياز الثروات الضخام والضيعات الوسيعة ولكنه وهو الحبر الحذفور (بضم الحاء = الشريف ا. هـ) لم يستطع أن يفلت وطوته تحت جناحها آليات التغير فاقتنى ضيعة يُعرض عليه فيها مائة ألف

(٤٥) **المعجم الاقتصادي الإسلامي** للشيخ أحمد الشرباصي ص ٣٥٢ ــ ٣٥٣، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

قبالة لها فيغضب ويأمر بضرب العارض أسواطاً يفوق عدها أسواطاً حدّ القاذف وحدّ شارب الخمر مما يقطع بأن القبالة الصحيحة تساوي عشرة أضعاف العرض، إذن كم كان ثمن تلك الضيعة؟

٦ ــ سعد بن أبي وقاص:

وابتنى سعد بن وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات(٤٦). والعقيق كما ذكرنا من أطيب أحياء المدينة وبعض الروايات تسميه (قصر سعد) وسبق أن أوردنا خبراً عن سعد أنهم في بعض السرايا لم يكن لهم ما يقتاتون به سوى شجر (العضاء) أو الشوك.

والقصر ذو الشرفات يحتاج إلى إماء وعبيد وخدم يقومون بشؤونه ويرعون سيده، وسعد من العشرة المبشرين بالجنة وهو بذلك جمع بين الحسنين: بُلهنية الدنيا ولذائذ الجنة التي لا تخطر على قلب بشر.

٧ ــ يعلي بن مُنْية أو يعلي بن أمية التميمي:

هو من الصحابة تميمي حنظليّ يُكنى أبا خالد، أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً والطائف وتبوك ومن رواة الحديث عن محمد وتزوج بنت الزبير وبنت أبي لهب فهو صاحب نظرة واقعية لم تظهر في الزواج فقط بل في السياسة فهو الذي اشترى لعائشة بنت أبي بكر وزوجة محمد الجمل الذي سُميت الوقعة المعروفة به اشتراه بمائتي دينار وسماه (عسكراً) وشهد الوقعة (الجمل) مع عائشة والزبير صهره وطلحة ضد علي فلما انهزموا هداه حسه العملي الواقعي (البرجماتي) إلى الانضمام إلى علي بمنتهى السهولة ولم يجد في

(٤٦) **مروج الذهب**، للمسعودي، ج ٢ ص ٥٤٤، مصدر سابق.

ذلك أدنى غضاضة وحارب معه صفين[٤٧]. والذي يمتاز بهذه النظرة الواقعية العملية النفعية لا بد أن يكون في مقدم المقتنعين للتطورات الاقتصادية التي ضربت مجتمع يثرب/ المدينة بعد الفتوحات ولذا نراه قد جمع ثروة طائلة.

(ومات يعلي بن منية وخلّف: خمسمائة ألف دينار، وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلثمائة ألف دينار)[٤٨].

٨ ــ خَبّاب بن الأرَتّ:

مولى أم أنمار بنت سباع الخزاعية، من السابقين إلى الإسلام والمفديين فيه، كان قيناً أي حداداً يطبع السيوف وهو من رواة حديث محمد[٤٩]. ويضيف البلاذري: أن أم أنمار كانت قابلة في مكة وإن كانت به رثّة وقال الواقدي: كان ألكن إذا تكلم العربية فسمى الأرّت وكان قيناً وسادس ستة سبقوا إلى الإسلام قبل دخول دار الأرقم ووصف طريقة تعذيب المشركين له[٥٠].

وكان رسول الله (ص) قد آخى بينه وبين تميم مولى خراش بن الصُمّة ثم نزل الكوفة ومات في سنة سبع وثلاثين، منصرف علي من صفّين[٥١].

من هذا الموجز الشديد لسيرته يبين أنه كان عبداً اشتراه سباع

(٤٧) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، ص ١٥٨٦ ــ ١٥٨٧، المجلد ٤، مصدر سابق.
(٤٨) **مروج الذهب**، للمسعودي، المجلد ٢ ص ٥٤٤.
(٤٩) **أسد الغابةِ**، المجلد الأول ص ١١٦.
(٥٠) **أنساب الأشراف**، للبلاذري تحقيق د. محمد حميد الله ص ١٧٦ الجزء الأول الطبعة الأولى ١٩٥٩ دار المعارف.
(٥١) **الاستيعاب**، المجلد الثاني ص ٤٣٨، مصدر سابق.

بن عبد العزى الخزاعي فوهبه لأم أنمار فأعتقته فأصبح لها ولاؤه ولذلك نجد أنه عندما نزح (هاجر) إلى أثرب آخى محمد بينه وبين مولى مثله وأم أنمار كانت قابلة وخاتنة وصفها حمزة بن عبد المطلب (مقطعة البظور) إذن هو من الناحية المالية كان مليطاً أما من الناحية الاجتماعية فقد كان شديد التواضع (عبد ــ مولى حداد) وكان عرب الجزيرة (ولا يزالون حتى الآن) يحتقرون العمل اليدوي وكانوا يسمون الحداد قيْناً أي عبداً وإذ شكّل خبّاب في وقت مبكر سدس الإسلام فلا بد بهذه المثابة أن يُعدّ من أهل القمة ومن ثم انفتح الباب أمامه على مصراعيه لاصطياد ما أمكنه اصطياده من الفرصة الاقتصادية الطارئة (= الغنائم الفلكية للفتوحات):

روى قيس بن مسلم عن طارق قال: عاد خباباً نفر من أصحاب رسول الله (ص) فقالوا: أبشر يا عبد الله ترد على إخوانك في الحوض فقال: ذكرتم لي إخواناً ولم ينالوا من أجورهم شيئاً وإنّا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما نخاف أن يكون ثواباً لنا لتلك الأعمال(٥٢).

في مرض الموت يُفضي الشخص العادي بمكنون نفسه بكل صدق فما بالكم بمن هو مثل خبّاب الذي كان سدس الإسلام ولذا نراه يعترف بأنه وبقية الصحبة.. (حتى نلنا من الدنيا ما نخاف أن يكون ثواباً لنا عن تلك الأعمال) والأعمال التي قدمها ابن الارت جليلة: السابقة/ النزوح/ التعذيب/ حضور المشاهد مع محمد.. كل هذا يؤكد أنه نال من الدنيا ما يخشى أن يكون ثواباً له عنها... وتحدث عن صحبة آخرين لم ينالوا شيئاً مثله ومثل سائر

(٥٢) **أسد الغابةِ**، المجلد الأول، ص ١١٦.

الصحاب وعنى بهم أولئك الذين فارقوا الحياة قبل الفتوحات وكشط خيرات البلاد الموطوءة.

٩ ــ أنس بن مالك بن النضر:

أنس بن مالك أنصاري خزرجي من بني النجار ــ قدمته أمه وهو صبي ليخدم محمداً بعد وصوله أثرب وخدمه عشر سنوات ولذلك حمل لقب الخادم، «خادم محمد» وهو من ألقاب التشريف في مجتمع الصحبة.

ونشأته بهذه المثابة تدل على الفقر ولكن عندما تغيرت الأحوال وتاريخه يؤهله لأن يغدو من بين القابعين على رأس الهرم الاجتماعي كان حتماً أن ينال نصيبه الوفير من الفرصة الاقتصادية الجديدة. (وهو آخر من توفي بالبصرة من الصحابة وكان موته بقصره بالطف ودفن هناك على فرسخين من البصرة)[٥٣].

وكما تحول خبّاب من طبقة الموالي إلى طبقة عبّت من الدنيا لدرجة يظن أو يخشى فيها على استيفاء الحسنات واستهلاكها في الحياة الدنيا كذلك انتقل أنس بن مالك بن النضر من طبقة الخدم إلى طبقة أصحاب القصور التي تقع في أجمل البقاع.

ويصرح أنس بذلك: قال أنس: إني لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً[٥٤].

ومدلول هذا التصريح أن أنساً بلغ من الثراء حداً كبيراً لأن هناك من بين الأنصار من كان يملك الأطام (جمع أُطم) والحيطان

---

(٥٣) **أسد الغابةِ**، المجلد الأول، ص ١٥٢، مصدر سابق.
(٥٤) **الاستيعاب**، المجلد الأول ص ١١١.

(البساتين) والمزارع والكروم والنخيل... الخ فإذا فاق غنى أنس ثروة هؤلاء فكم كانت ثروته؟

١٠ ــ سعيد بن زيد بن عمرو:

ابن أحد الحنفاء المشاهير زيد بن نفيل وابن عم عمر بن الخطاب وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب كما أن ابن الخطاب تزوج أخته الجميلة الحسناء عاتكة بنت زيد التي نكحت خمسة أزواج وخطبها اثنان فرفضتهما: عمرو بن العاص ومحمد بن أبي بكر، وقيل إن علي بن أبي طالب كان أحد خطابها (طبعاً قبل زواجها من ابنه الحسين) وسعيد بن زيد أحد السابقين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة، (وكان من المهاجرين الأولين وآخى الرسول (ص) بينه وبين أبي بن كعب ولم يشهد بدراً وضرب له رسول الله (ص) بسهمه وأجره فقيل إنه لم يشهدها لأنه كان غائباً بالشام)[٥٥].

كان في مهمة تجسس مع طلحة بن عبيد الله فاعتبرهما محمد ممن شهد بدراً وضرب لهما بسهميهما فيها (وكان عثمان قد أقطع سعيد أرضاً بالكوفة فنزلها وسكنها)[٥٦]، وسكنها من بعد أولاده.

كما كانت له أرض بـ (الشجرة) وهي التي خاصمته فيها أو في جزء منها أروى بنت أويس إلى مروان بن الحكم والي المدينة فأنكر سعيد ذلك وقال كيف أظلمها... الخ[٥٧].

واستعدى عليها السماء فتولت تصفيتها الجسدية.

---

(٥٥) **أسد الغابةِ**، الجزء الثاني ص ٣٨٧.
(٥٦) **الاستيعاب**، المجلد الثاني، ص ٦١٨، مصدر سابق.
(٥٧) ذات الصفحة وذات المجلد من المصدر نفسه.

وكانت له أرض بـ «العقيق» (توفي بأرضه بالعقيق وحُمل إلى المدينة ودفن فيها سنة خمسين أو إحدى وخمسين في أيام معاوية)(٥٨).

وسبق أن وصفنا العقيق ويبدو أنها كانت المنتجع المفضّل للصفوة المحظوظة من الصحاب. ومما له دلالة عميقة أن سعيداً كان يروي حديث محمد (من قتل دون ماله فهو شهيد) وهو الحديث الذي تمسك به عبد الله بن عمرو بن العاص عندما عزم على محاربة عنبسة بن أبي سفيان بسبب ملكية عزبة (الوَهط) كما ذكرنا.

وحفظ سعيد لهذا الحديث ضرورة بالنسبة إليه ليرفعه في وجه من يتعرض له بشأن ملكية أو حيازة أراضيه الوسيعة في الكوفة والشجرة والعقيق. وقد ذكرنا في السِفْر الأول (محمد والصحابة) في باب «التلقيب» أن نصيب سعيد من الألقاب كان مهزولاً ولم يرد له ذكر في النوازل والوقائع التي دوّنتها كتب السير والتواريخ مع أنه عاش حتى زمن معاوية (عاصر الدعوة المحمدية بطولها ثم خلافة أبي بكر ثم زمن عمر ثم عهد عثمان ثم ولاية علي ثم شطراً من أيام معاوية) ويرجع ذلك إلى انصرافه إلى الاعتناء بأراضيه المتعددة والانصراف إلى العيش بين زوجاته الحرائر وسراريه فقط، فقد (كان له واحد وثلاثون ولداً: ثلاثة عشرة ذكراً وثمانية عشر أنثى)(٥٩).

ولا أعتقد أن واحداً من سائر العشرة المبشرين بالجنة أو ربما غيرهم من الصحاب ينافسه في هذا العدد من الخَلَف الذي يدل على عدة أمور منها:

---

(٥٨) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري، ص ٧٩٨.
(٥٩) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري ص ٧٩٨، مصدر سابق.

١ ــ القدرة المالية الضخمة إذ لا يستطيع إعالة هذا الكم من الأولاد وأمهاتهم وخدمهم.. الخ، إلاّ من كان على درجة وفيرة من الغنى.

٢ ــ أنه نتاج زوجات (حرائر) وأمهات ولد كثيرات.

٣ ــ أنه يستدعي الانصراف إلى معاشرة الزوجات والسريات.

* * *

تلك كانت أمثلة عشر عن صحاب يعدّون بالمئات كانوا في بداية الأمر يربطون الحجر على بطونهم من الجوع ثم أصبحوا يقتنون القصور والدور والضياع والعُبدان والجواري ويتزوجون العديد من الحرائر ويتخذون السراري ويخلّفون العشرات من البنين والبنات وتُحصى تركاتهم فإذا بها تبلغ الملايين أو مئات الألوف ومن كل الأنواع وفي بعضها اُضطروا لتكسير القناطير من الذهب والفضة بالفؤوس، والذي تؤكده وقائع التاريخ أنهم كانوا على قمة الهرم الاجتماعي لسابقتهم في الإسلام أو انخراطهم في جيش محمد فأتاح لهم ذلك الاستئثار بالفرصة الاقتصادية الطارئة التي نجمت عن قشع خيرات البلاد المفتوحة ونزحها إلى أثرب/ المدينة حيث يقيم الصحاب.

وكان ضربة لازب أن تحدث تلك الفرصة الاقتصادية الطارئة تغيراً في ذلك المجتمع وتحولاً في سلوكيات أفراده ــ مهما كان زادهم من الروحانيات ولقد عبر بعض أولئك الصحاب عن تلك التحولات واعترفوا بإقبالهم على الدنيا التي هرولت إليهم وهم في عُقر دارهم وأنهم عبّوا منها وتضلعوا. ولعلنا بعد هذا العرض السريع الذي توخينا فيه الإيجاز على قدر الإمكان نكون قد نجحنا في قطع المكابرين الذين يعارضون في حتمية: أن تطول ديناميات

التغير الاجتماعي أيَّ مجتمع يتعرض لمستحثات تلك الديناميات وأنه لن يفلت منها أي مجتمع مهما وصف بالقدسانية أو الطهرانية.

* * *

هناك نفر محدود من الصحبة حاز غنى طائلاً وثراءً بالغاً وهؤلاء هم الذين يظن أغلبية القراء أنهم وحدهم الذين حازوا الأموال الجسام والباقون كانوا زُهاداً مُقلين معرضين عن الدنيا وقد أثبتنا بالأخبار الموثقة أن هذا (مُتخَيل) مثل عشرات (المُتخيلات) التي ساعدت عوامل عديدة على تسكينها في امخاخ (ج: مخ) السواد الأعظم والتي لن يتم كشطها من رؤوسهم إلاّ بكتابة التاريخ العربي الإسلامي وخاصة (حقبة التدشين) كتابة علمية موضوعية مجردة من الأوهام المسبقة.

الصحابة بالغو الثراء

وإذا شئت وصفتهم بلغة العصر بـ (المليونيرات).

ونبدأ بأعرضهم غنى وأكثرهم مالاً والذي ضرب الرقم القياسي في التموّل:

أ ــ عبد الرحمن بن عوف:

كان لثروته الطائلة ــ يقول له محمد كلما لقيه (لن تدخل الجنة إلاّ زحفاً يا ابن عوف) وفي رواية إلاّ حبواً، ولقد شهدت عائشة بنت أبي بكر بذلك (فقالت عائشة: سمعت النبي (ص) يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً)[٦٠]، كل ذلك ولم يكن

(٦٠) **أسد الغابةِ**، المجلد الثالث ص ٤٨٣.

ابن عوف قد أخذ «هبرته» من غنائم بلاد الفتح المبارك(٦١). ولشدة ترفه أعطاه محمد رخصة لبس الحرير دون رجال أمته حتى الذين يجيئون من بعده إلى يوم القيامة وقد أراد أن يمدَّ هذا الاستثناء إلى بنيه ولكن عمر بن الخطاب زبره زبراً شديداً(٦٢)، وكان يرتدي البُرد أو الحلّة التي تساوي خمسمائة أو أربعمائة(٦٣). في الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب يبحث في السوق عن قميص يصلح للبس بثلاثة دراهم(٦٤)، علماً بأن ابن عوف عندما نزح (هاجر) من مكة إلى أثرب كان على رتبة (اللهم لبيك)(٦٥). وآخى محمد بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وكان من أغنياء الصحابة (توفي بعد ذلك في عركة أحد) وقد عرض سعد على عبد الرحمان أن يشاطره ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه، أجملهما التي تروق له ولكن ابن عوف رفض وقال له بارك الله في مالك وولدك، «دلّوني على السوق»(٦٦). وانصرف للمتاجرة حتى تملك نواة من ذهب فخطب إحدى بنات الأوس وهي بنت أبي الحيسر من بني عبد الأشهل (وهي التي قال له رسول الله (ص) حين نكحها بنواة من ذهب: أولِمْ ولو بشاة)(٦٧). تلك كانت

(٦١) في **المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية**، الهبرة: قطعة من اللحم لا عظم فيها أو القطعة المجتمعة فيه وتقول العامة في مصر عن القطعة الخالية من العظم (مشفية). ا. هـ.
(٦٢) في **مختار الصحاح** للرازي الزبر ــ الزجر والانتهار.
(٦٣) أخرجه ابن سعد في **الطبقات الكبرى**.
(٦٤) رواه إمام الأزد أبو سعيد. والحديثان نقلاً عن ــ «**حياة الصحابة**» ــ للكاندهلوي ــ الجزء الثاني ص ٤٧١ ــ ٤٧٢.
(٦٥) تقول العامة في مصر: فلان اللهم لبيك أي خالي الوفاض مثل الحاج الذي لا يرتدي سوى الإزار والرداء ا. هـ.
(٦٦) **أسد الغابةِ** مجلد ٣ ص ٤٨١.
(٦٧) **جمهرة أنساب العرب** لأبي محمد بن حزم الأندلسي ص ١٣٢، مصدر سابق.

بداية ابن عوف: المهر = نواة ذهب، وحفل العرس = شاة، والنوى قطع من ذهب القطعة خمسة دراهم[٦٨].

وسوف نرى كم وصلت ثروته؟ ونحلل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي مكنته وصاحبيه الآخرين أن يصبحوا من أكبر أغنياء العالم في عصرهم الميمون!

أ ــ عن ابن عيينة عن إبراهيم بن عبد الرحمان بن عوف قال: صالحنا امرأة عبد الرحمان بن عوف التي طلّقها في مرضه من ثلث الثُمن بثلاثة وثمانين ألف، وعن غير ابن عيينة أنها صولحت بذلك عن ربع الثُمن[٦٩]. وبحسبة بسيطة يبين أن ثُمن تركة ابن عوف يبلغ ثلث مليون دينار أي أن ما خلّفه من المال السائل فحسب مليونين وثلثي مليون دينار!!! وأوضح لنا اليعقوبي اسم تلك المرأة (أو الزوجة) ورفع مبلغ التصالح إلى مائة ألف (وكان عبد الرحمان قد طلّق امرأته تماضر بنت الأصبغ لما اشتدت علته فورّثها عثمان فصولحت على رُبع الثمن على مائة ألف دينار وقيل ثمانين ألف دينار)[٧٠]، والحكاية مشهورة ومتواترة في كتب الفقه لأن بها مسألة فقهية وهي طلاق الزوجة طلقة بائنة في مرض الموت ــ ومعنى ذلك أن ــ ثُمن التركة ١٠٠ ألف × ٤ = ٤٠٠,٠٠٠ دينار.

أي أن سائل المال في التركة ٤٠٠,٠٠٠ × ٨ = ٣,٢٠٠,٠٠٠ ثلاثة ملايين دينار ومائتي ألف دينار.

هذا بخلاف عناصر التركة الأخرى المتنوعة، فهذا الذي أصدق

(٦٨) **المعجم الاقتصادي ــ الإسلامي** للشرباصي، ص ٤٧٠ وأضاف: وفي حديث عبد الرحمان بن عوف: تزوجت امرأة من الأنصار على نواة من ذهب.
(٦٩) **الاستيعاب**، المجلد الثاني ص ٨٤٧.
(٧٠) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص ١٧١.

أولى زوجاته في مفتتح وصوله إلى أثرب خمسة دراهم فحسب يتم التصالح مع إحدى زوجاته الأربع (طبعاً اللاتي على ذمته) بثلاثة وثمانين ألف دينار وفي رواية اليعقوبي بمائة ألف دينار!

ب ـــ عن أم بكر بنت السور أن عبد الرحمن بن عوف (هي إحدى حفيداته) (رض) باع أرضاً له بأربعين ألف دينار فقسمها في بني زهرة (رهطه) وفقراء المسلمين والمهاجرين وأزواج النبي (ص)[٧١]. وتفريق المال فيمن ورد بالخبر أمر محمود بمقاييس ذلك الزمن ولكنه (= الخبر) يقطع بثروة ابن عوف المتعاظمة.

جـ ـــ وكان عبد الرحمان لا يخفي أنه صار أكثر قريش مالاً ونسباً وكان ذلك يؤرقه خاصة بعد أن جبهه محمد بحديثه عن دخوله الجنة زاحفاً.

عن أم سلمة قال: دخل عليها عبد الرحمان بن عوف قالت فقال: يا أمّه قد خفت أن يهلكني كثرة مالي، ثم أنا أكثر قريش مالاً. قالت يا بني إنفق فإني قد سمعت رسول الله (ص) يقول: إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه[٧٢]. وعُجُز الحديث في غاية من الخطر والأهمية فأم سلمة إحدى أمهات المؤمنين (إحدى زوجات محمد) تؤكد سماعها منه مباشرة تأكيده القاطع أن هناك من الصحبة من لن يراه بعد فراقه إياه وهذا يعني بكل وضوح أن من بين أصحابه من سيقارف من الأعمال ويرتكب من الممارسات ما يحول بينه وبين رؤية محمد في الآخرة.

د ـــ عن عائشة سقى الله عبد الرحمان بن عوف من سلسبيل

(٧١) أخرجه الحاكم في **المستدرك**، نقلاً عن **حياة الصحابة**، الجزء الثاني، مصدر سابق.
(٧٢) المصدر نفسه، المجلد نفسه، الصفحة نفسها.

الجنة، وقد كان وصل أزواج النبي (ص) بأربعين ألفاً[٧٣].

هـ ــ (... أن عبد الرحمان أوصى بحديقة لأمهات المؤمنين يبعت بأربعمائة ألف)[٧٤].

و ــ قال عبد الرحمان: يا أصحاب رسول الله (ص) كل من كان من أهل بدر له عليَّ أربعمائة دينار؟ فقام عثمان مع الناس فقيل له: ألست غنياً؟ قال: هذه وصلة من عبد الرحمان لا صدقة ــ وهو من مال حلال فتصدّق عليهم في ذلك بمائة وخمسين ألف دينار[٧٥]، والذي يصل زملاء السلاح ــ رُفقة بدر ــ أو الحرس القديم بمائة وخمسين ألف دينار كم كان يملك؟

وفي هذا الخبر مُعطى بالغ الدلالة وهو حرص عثمان بن عفان وكان ثرياً أمثل على اقتضاء (وصلة) عبد الرحمان لأهل بدر، فالذي لا شك فيه أن أربعمائة دينار تعتبر لدى عثمان (فكة)[٧٦]. ولكنه كان يريد أن يعلن للخاص والعام أنه من (أهل بدر) لأنه لم يشترك فيها اشتراكاً فعلياً لإنشغاله بتمريض زوجته (بنت محمد) والذي أعتبر ذلك عذراً قاهراً ومن ثم عُدّ عثمان بدرياً ذلك من ناحية ومن أخرى فإنه كان يريد أن يؤكد هذه الرتبة لعبد الرحمان بن عوف نفسه لأنه أنكرها عليه بل وعيّره بها، فإذا أعطاه (وصلة) كان هذا من جانبه تسليماً واعترافاً بأنه من (البدريين) أما إذا رفض منحه إياها عُدّ ذلك سُبّة في جبين ابن عوف ومثله لا يقبلها على

(٧٣) أخرجه أبو حاتم وكذلك الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
(٧٤) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب، وهذا الحديث والسابق عليه من **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري، ص ٧٦٧، مصدر سابق.
(٧٦) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، هي العملات الصغيرة التي تقابل الوحدة الكبيرة من العملة.

نفسه خاصة وأن النفحة بالنسبة إليه (فُتيته)[٧٧].

روي أن عثمان اعتل علة اشتدت به فدعا حمران بن إبان وكتب عهداً لمن بعده وترك موضع الاسم ثم كتب بيده: عبد الرحمان بن عوف، وربطه وبعث به إلى أم حبيبة بنت أبي سفيان فقرأه حمران في الطريق فأتى عبد الرحمان فأخبره فقال عبد الرحمان وقد غضب غضباً شديداً: استعمله علانية فيستعملني سراً ونمى الخبر وانتشر في المدينة وغضب بنو أمية... ووجه إليه عبد الرحمان بن عوف بإبنه فقال له: قل له: والله لقد بايعتك وإن فيَّ ثلاث خصال أفضلك بهن: إنني حضرت بدراً ولم تحضرها، وحضرت بيعة الرضوان ولم تحضر وثبتُّ يوم أحد وانهزمت، فلما أدى ابنه الرسالة إلى عثمان قال له قل له: أما غيبتي عن بدر فإنني أقمت على بيت رسول الله فضرب لي رسول الله سهمي وأجري وأما بيعة الرضوان فقد صفق لي رسول الله بيمينه على شماله، فشمال رسول الله خير من أيمانكم وأما يوم أحد فقد كان ما ذكرت إلاّ أن الله قد عفا عني ولقد فعلنا أفعالاً لا ندري أغَفَر الله أم لا)[٧٨]؟

بالإضافة إلى أن مناولة المنحة (منحة أهل بدر) من عبد الرحمان إلى عثمان عُدول عمليّ من جانب الأول عن إنكاره كون الثاني من البدريين والفعل أقوى إثباتاً من الكلام ــ فإن هذا الخبر يحمل الكثير من الدلالات، نذكر منها:

١ ــ أنه كان من الجائز تعيين وليّ العهد أو من يلي الخلافة دون أدنى اعتبار للمحكومين (يسمونهم الرعية!) وليتمعن في

(٧٧) تقول العامة عنها **فتفوتة** ا. هـ.
(٧٨) **تاريخ اليعقوبي**، ج٢، ص ١٦٩، مصدر سابق.

هذا الخبر الذين يتكلمون عن البيعة العامة والبيعة الخاصة إلى آخر هذه الشعارات التي لم يطبقها السلف الصالح.

٢ ـ أن عبد الرحمان صرح علانية أنه هو الذي استعمل عثمان أي هو الذي سعى جاهداً حتى عيّن ابن عفان خليفة ويؤكد ما سبق أن قلناه إن فرقة الأغنياء هي التي سيطرت على جهاز الحكم بعد عمر.

٣ ـ أن بني أمية غضبوا لمجرد تفكير عثمان في منح ولاية العهد لابن عوف لأنهم من المستحيل أن يتلقفها من بعدهم فرع خفيض من قريش ـ بنو زهرة (رهط عبد الرحمان) ويكفي أنها مكثت في فرعين هزيلين = تيم (رهط أبي بكر) وعديّ (رهط عمر) مدة طويلة في نظرهم كما أن صنيع عثمان يشكّل مخالفة واضحة لوصية جدهم سيد قريش أبي سفيان الذي قال لعثمان تلقفوها تلقف الكرة واجعل أوتادها بني أمية.

٤ ـ أن العصبية بدأت تطل برأسها القبيح من جديد بعد أقل من ربع قرن من وفاة محمد (ص)، وكأن كل هذا الجهاد وتلك الجهود التي بذلت لدفنها باءت بالاخفاق.

٥ ـ أنه لا مانع لدى الصحبة حتى الأكابر منهم أن يردح بعضهم بعضاً(٧٩). وأن يعيّر أحدهم الآخر فقد عاب ابن عوف على عثمان تخلفه عن شهود بدر الكبرى وبيعة الرضوان وفراره وانهزامه يوم أحد، وهذا يثبت ويؤكد ما نردده أنهم بشر من الناس يثور بينهم ما يثور بين الأخلاء.

---

(٧٩) في **المعجم الوسيط**، ردح الرجل، صرعه.

ولعمر الحق أين كانت هذه النقائص عندما سعى ابن عوف سعيه الحثيث لتسليم عصا الخلافة إلى عثمان وحرمان أبي الحسنين علي أكفأ المرشحين منها ولكن فريق المتموّلين في مجلس الستّة لم يكن ليرضى عنه لأنه كان سيقف حجر عثرة وشوكة في حلوقهم وسيحول دون تحقيق مطامعهم بعكس عثمان الذي فتح لهم الأبواب جميعها على مصاريعها حتى غدت ــ على سبيل المثال ــ ثروة ابن عوف بالمقدار الذي سيكشف عنه قدر التركة الذي سنورده وكذا دفاع عثمان عنها وصكه لأبي ذر عندما اعتبرها كنزاً.

٦ ــ اعترف عثمان أنه وبعض الصحاب فعلوا أفعالاً لا يدري إن كان الله يغفرها لهم أم لا؟ أي تجاوزات عما جاء في (النصوص) تستوجب الصفح من الله إذن مثلهم في ذلك مثل غيرهم من سائر المسلمين!

ز ــ تزوج عبد الرحمان ابن عوف عشرين امرأة منهن خمس أمهات ولد والباقيات حرائر مع الحرص على الاقتصار على أربع فحسب في العصمة ــ وكان زواج الشخص من عشر زوجات قبل الإسلام دليلاً على الثراء الواسع ومن هؤلاء أبو مسعود الثقفي وكان محمد يأمر أصحاب الـ (عشر زوجات) بتطليق ست منهن والإبقاء على أربع، ولم نسمع أن قريشاً لا في الإسلام ولا قبله ــ حتى ذلك الوقت ــ حصّن عشرين امرأة سوى ابن عوف، وكان يُصهر إلى الفروع الكبيرة في قريش مثل عبد شمس وبني أبي معيط ورأيناه تزوج من بني عبد الأشهل وهم رهط عالٍ من الأوس(٨٠).

(٨٠) **الرياض النضرة**، للمحب الطبري، ص ٧٧٢ **وجمهرة أنساب العرب**، لابن حزم الأندلسي ص ١٣١، مصدران سابقان.

وكذلك تزوج بادئة بنت غيلان بن سلمة الثقفي وقيل بادية[٨١]. وغيلان كان من أعيان قبيلة ثقيف وكان أيضاً من ذوي العشر نسوان (أسلم يوم الطائف فأمره رسول الله أن يتخير منهن أربعاً)[٨٢]:

بادئة أو بادية هذه من أجمل نساء ثقيف بل كان يُضرب بها المثل في الحسن من منطقة الحجاز.

وهي التي قال فيها هيت المخنث لعبد الله بن أبي أمية: إن فتح الله عليكم الطائف فإني أدلك على بادية بنت غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمانٍ فسمعه النبي (ص) فقال له: لقد أمعنت النظر وقال: (أي لزوجاته التسع) لا يدخلن هؤلاء (المخنثون) عليكن، ثم نفاه إلى روضة خاخ فقيل: إنه يموت بها جوعاً فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس، ويروى في الحديث زيادة لم تقع في الصحيح بعد قوله: وتدبر بثمان: مع ثغرٍ كالأقحوان، إن قامت تثنت وإن قعدت تبنت وإن تكلمت تغنت يعني تغننت والأصل تغننت وهي هيفاء شموع نجلاء وبادية هذه كانت تحت عبد الرحمان بن عوف فولدت له جويرية وهي امرأة المسور بن مخرمة[٨٣]. فكم ساق ابن عوف صداقاً لهذه الفاتنة التي خلبت لب هيت المخنث الذي لا إربة له في النساء ابنة غيلان أحد وجهاء الطائف؟ وكم هي المهور التي دفعها للباقيات وقد قارب العشرين (باستثناء ملك اليمين) وعدد منهن من الفروع السامقة إنْ في مكة أو المدينة!

---

(٨١) المصدران السابقان.

(٨٢) **الاستيعاب**، المجلد الثالث ص ١٢٥٦.

(٨٣) **الروض الآنف** لأبي القاسم الخثعمي السُهيلي، على هامش «**السيرة النبوية**» لابن هشام المعافري تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ص ١٦٥ من الجزء الثالث د. ت. ن. مؤسسة نبع الفكر العربي بمصر.

وأخيراً نأتي إلى التركة التي خلّفها عبد الرحمان بن عوف فنجد أن الأخبار التي وردت بشأنها اختلفت والذي نراه أن كلاً من الرواة علم شطراً منها فحكاه وأنه أقرب إلى تصوير الحقيقة هو الجمع بين ما ورد في الأخبار التي جاءت بخصوصها.

ح ــ خلّف ألف بعير وثلاثة ألف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً فكان يدخل قوت أهله سنة[٨٤]. وواضح أن الخبر يتناول شطر التركة الذي كان بأثرب/ المدينة لأن البقيع والجرف مكانان فيها.

ط ــ وخلّف مالاً عظيماً من ذلك:

ذهب قطّع بالفئوس حتى محلت (ظهر بها بثور) أيدي الرجال منه، وترك ألف بعير ومائة ألف فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع[٨٥]. وهذا الخبر تدل ألفاظه أنه ذكر بعض التركة (من ذلك).

هذه هرولة في جنبات ابن عوف أول الصحابة بالغي الثراء أو (المليونيرات).

ب. الزبير بن العوام

نذكّر القارئ بما سطرناه في فصلة (البداية) عن حالة الزبير بن العوام أول ما نزح (هاجر) إلى أثرب/ وجاء على لسان ألصق الناس به وأعرفهم بأموره ما ظهر منها وما بطن ــ زوجته أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة ــ وهل هناك أحد أخبر بشؤون الرجل من امرأته؟

---

(٨٤) **الاستيعاب**، المجلد الثاني ص ٨٤٧.
(٨٥) **أسد الغابةِ**، المجلد الثالث، ص ٤٨٥.

قالت إن الزبير عندما تزوجها كان مليطاً من المال سوى ناضح (جمل لسقاية الماء) وفرس وأنها كانت تمشي ثلاثة فراسخ ذهاباً وإياباً لتحضر نوى لعلف الفرس وكان نسوان أنصاريات هنَّ اللاتي يخبزن لها لأنها لم تكن تجيد الخبيز ولم يكن لديها خادم تقوم به... الخ.

وصرحت أسماء بأنها كلما مرت بالمحجون (بمكة) كانت تصلي على محمد لأنهم في حياته كان ظهرهم (ركابهم) متواضع وزادهم (طعامهم) جشب (خشن) وبفضل الخطة الحكيمة والمُحكمة التي نفذها محمد قامت دولة قريش في يثرب وانتقلت أسماء وأسرتها إلى ذروة الثروة فكيف لا تصلي عليه!!!

من الناضح (الجمل) المهزول والفرس اليتيم والافتقار إلى خادم فرد يعين الزوجة المرهقة تحوّل الزبير إلى ملكية ألف فرس أو يزيد ومئات العُبدان والجواري وغيرها وقطعان الماشية الراعية بأنواعها والأراضي والدور... الخ.

ولا عجب في ذلك.. بل ربما يمكن العجب في عكسه ــ فقد طرأت التحولات والزبير بن العوام من أهل القمة لقرابته من محمد فهو ابن عمته وصهر أبي بكر وزوج أخت عائشة وباللقب الفخم الذي منحه إياه محمد (الحواريّ) وبسبقه في دخول الدين فهو خامس المسلمين وهاجر الهِجرتين(٨٦). وبلائه في معارك التثبيت الأولى بل إنه (أول من سلّ سيفاً في سبيل الله)(٨٧). وكان ذلك مبكراً للغاية في مكة في أيام الدعوة الوليدة ذلك أنه سمع أن محمداً قد أخذه الكفار (فخرج عرياناً ما عليه شيء بيده السيف

---

(٨٦) أسد الغابةِ المجلد الثاني ص ٢٥٠.
(٨٧) الاستيعاب المجلد الثاني ص ٥١١.

مصلتاً فتلقاه النبي (ص) فقال: ما لك يا زبير قال: سمعت أنك قد قتلت فقال: فما كنت صانعاً قال: أردت والله أن أستعرض أهل مكة وأجري دمائهم كالنهر لا أترك أحداً منهم إلاّ قتلته حتى أقتلهم عن آخرهم ــ فضحك النبي (ص) وخلع رداءه وألبسه)[٨٨]. ولذلك كان من الطبيعي أن هذا الموقف المندفع الذي وقفه الزبير يقابل من السماء بالتحية والجائزة السنية (فنزل جبريل وقال: (أي لمحمد) إن الله يقرئك السلام ويقول له اقرأ مني على الزبير السلام وبشره أن الله أعطاه ثواب كل من سلَّ سيفاً في سبيل الله منذ بعثك حتى تقوم الساعة)[٨٩].

إذن الزبير كان على القمة ويحوز ميزات رفيعة فكان بديهاً أن يهتبل الفرصة الاقتصادية الطارئة فأحوش من ثمرتها اليانعة ما أمكنه تحويشه[٩٠]. والوقائع الآتية ستؤكد لنا أنه فعل ذلك باقتدار بالغ:

١ ــ عن كعب قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فما كان يدخل بيته درهماً واحداً يعني أنه كان يتصدق بذلك كله[٩١].

الزبير الذي وصفنا حاله في البداية أصبح لديه ألف مملوك يعملون ويكدون ويعرقون ثم (يؤدون إليه الخراج) أي يسلمونه حصيلة شقائهم آخر اليوم أو الأسبوع والخبر يحكي أنه كان يتصدق بعرق هؤلاء الرقيق ولا يبقي منه درهماً.

---

(٨٨) أخرجه صاحب **الصفوة** والزيادة من الملا ــ نقلاً عن **الرياض النضرة** للمحب الطبري ص ٧٣٢.
(٨٩) أخرجه الملا، نقلاً عن **الرياض** الصفحة نفسها.
(٩٠) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادى، **أحوش**، جمع والتحويش: التجميع.
(٩١) **الاستيعاب**، المجلد الثاني ص ٥١٤، **والرياض النضرة**، ص ٧٧٤، **وأسد الغابةِ**، المجلد الثاني ص ٢٥٢.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يعتق الزبير هؤلاء الأرقاء ما دام لا يدخل بيته من تعبهم درهم وهو لا شك يعلم أن **(فك رقبة)** بنص القرآن وأحاديث محمد من أعظم القربات إلى الله!

٢ ــ عن أم درّة قالت: بعث الزبير إلى عائشة بغرارتين تبلغ ثمانين ومائة ألف درهم[٩٢]. وعائشة هي أخت زوجته أسماء فكلتاهما بنت أبي بكر بن أبي قحافة فقد عزّ عليه أن تتمرغ زوجته في حنايا النعيم وأختها (= عائشة) محرومة إذ توفي زوجها محمد ودرعه مرهونة لدى يهودي.

٣ ــ وكانت له دور كثيرة ربما يستعصي إحصاؤها باع أحدها بستمائة ألف: **(عن جويرية قالت: باع الزبير داراً له بستمائة ألف ــ فقبل له يا أبا عبد الله غُبنت، قال: كلا والله لتعلمن أني لم أغبن فهي في سبيل الله)**[٩٣].

لقد عزّ عليه وهو الرأسمالي المرموق أن يقال له غُبنت لأن الغُبنة شارة الغفلة وما يجوز لمثله أن يوصف بذلك فسارع إلى الإعلان بأنه قط ظهّر ثمنها لصالح السماء ــ علماً بأنه رد غير سديد إذ ما كان يمنعه أن يستوفي الثمن كاملاً دون غبن ثم يضعه في سبيل الله وبذلك يكون ثوابه أجزل.

٤ ــ سبق أن ذكرنا أنه أسلف عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ألف ألف (= مليون) درهم فكم كانت ثروته آنذاك وهو يقرض منها مليون درهم؟

(٩٢) **الرياض النضرة**، ص ٧٧٤.
(٩٣) أخرجه في **الصفوة**، المصدر السابق الصفحة نفسها.

٥ ــ ونظراً لثرائه الوسيع وغناه العريض كان الصحابة يوصونه بأولادهم عند غيابهم (أوصى سبعة من أصحاب النبي (ص) منهم: عثمان وعبد الرحمان بن عوف والمقداد وابن مسعود كان يحفظ عليهم أولادهم وينفق عليهم من ماله)[٩٤]. مع أن من بين هؤلاء الصحبة من كان صاحب مال ممدود مثل عثمان وعبد الرحمان بن عوف وعبد الله بن مسعود (بعد الفتوحات)، والذي يكفل ذراري هؤلاء في غيبتهم وينفق عليهم من ماله ولا يمس مالهم لا شك أن ثروته تسع مثل هذا الصنيع دون خدش.

٦ ــ وفي أيام الجهد الأولى اقتصر على زوجة واحدة هي بنت أبي قحافة وكان الوفاء يفرض عليه ألا يرزأها بضرائر ينكدن عليها عيشها وهي التي كافحت معه وكانت تمشي فراسخ طويلة لتحضر النوى لفرسه الفرد.

ولكنه لم يفعل وتزوج خمساً عليها وهكذا لقيت (ذات النطاقين) على يد (الحواري) جزاء سنمار!

وكان يختار زوجاته على الفرازة[٩٥]. وينتقيهن من البطون السامقة: مثل آل أبي معيط (رهط عثمان بن عفان الخليفة الثالث) وآل العاص (بني أمية) وبني أسد بن خزيمة ــ وكان ذلك بداهة يكلفه الشيء الكثير من المهور وغيرها.

٧ ــ وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة: الضياع والدور منهم الزبير بن العوام بني داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت (سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة) تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهازات وغيرهم وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة

---

(٩٤) **أسد الغابةِ**، المجلد الثاني ص ٢٥٢، مصدر سابق.
(٩٥) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، فرز الشيء: ميزة.

والإسكندرية وما ذكرنا من دوره وضياعه معلوم غير مجهول إلى هذه الغاية.

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار(٩٦).

إذا وضعت هذه الصورة التي رسمها لنا المسعودي في المروج في عجلة شديدة بالصورة التي حكتها لنا أسماء في البداية لتبين لك أن الفرق مذهل بدرجة خارقة وأن كثيراً من الصحاب الذين كانوا في قمة التراتبية الاجتماعية صعوداً إلى مدارج في الثروة لم يكونوا يحلمون بها لا في المنام ولا في اليقظة ولعل من أقوى الأدلة على ذلك (= عدم تخيل الصحابة أنهم سيصبحون من الأثرياء الأماثل والزبير كان واحداً من الذين كانوا على قناعة كبيرة به) أن محمداً عندما قرأ على صحبه الآية الثامنة من سورة التكاثر ﴿لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ وهي من أوائل السور المكية، (قال الزبير يا رسول الله وأي النعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان: التمر والماء قال: أما أنه سيكون)(٩٧).

بداية هذا (الحديث عائلي) لأن راويه هو عبد الله الابن الأكبر للزبير ــ ثم إنه ينضوي على وصف دقيق للحالة المالية التي كان يعيشها ابن الزبير إذ يقول (وأي نعيم... إنما هما الأسودان التمر والماء) فهو يقرّ أن كل غذائه تمر وماء وأن هذا ليس نعيماً ولم يكن يتصور مجرد تصور أن يطوله نعيم في أي درجة من درجاته إذ أنّى لمثله أن يصله نعيم؟

ولكن محمداً منذ البداية كان قد عقد العزم على تنفيذ مشروع

(٩٦) **مروج الذهب**، للمسعودي، ج ١ ص ٥٤٤، مصدر سابق.
(٩٧) **أسد الغابةِ** المجلد الثاني ص ٢٥١، مصدر سابق.

جده قُصيّ بهيمنة قريش على الجزيرة العربية كلها والظروف قد تهيأت لذلك[٩٨].

كان واثقاً من نجاح خطته وأن أصحابه سيتحولون من البؤس إلى النعيم وتجد ذلك في رده على الزبير بمنتهى الثقة (أما إنه سيكون).

ج. طلحة بن عبيد الله

هو من بني تيم (رهط أبي بكر بن أبي قحافة)، ولم يعرف منهم من كان على ثراء عريض سوى عبد الله بن جرمان ولما نزح (هاجر) إلى أثرب/ المدينة آخى محمد بينه وبين كعب بن مالك الأنصاري وهو خزرجي قديم الإسلام شهد العقبة الثانية وشاعر حامى عن محمد وأحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[٩٩]. ولم يعرف عنه أنه كان من ذوي اليسار بين الأنصار ــ وكان محمد يراعي في المؤاخاة المشاكلة أو المشابهة.

وفي مكة كان طلحة معدوداً بين المتوسطين في المال وعند النزوح (الهجرة) إلى أثرب ترك ما له شأنه شأن أصحابه ــ نخلص من ذلك أنه ساعة قدومه إلى المدينة كان خالي الوفاض مثل غيره ــ وإذ امتاز القرشيون بالحذق في التجارة وتقريش (تجميع) المال فإن هذا بدوره ينصرف على طلحة. وكان من المتربعين على قمة الهرم الاجتماعي نظراً لقرابته القريبة من الخليفة الأول أبي بكر والزواج من ابنته وبالتالي قرابته من عائشة أهم زوجات محمد (بعد خديجة) وأقواهن شخصية ولسابقته في اتباع محمد على دينه

---

(٩٨) لمزيد من التفصيلات اقرأ كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية** دار سينا للنشر.
(٩٩) **الاستيعاب**، المجلد الثالث ص ١٣٢٣.

ولاشتراكه في المعارك التدشينية الأولى، حقيقة أنه لم يشهد بدراً لأنه كان في مأمورية تجسسية كلفه بها محمد ولكنه قسم له فيها ومنحه أجرها، لذا عُدّ من البدريين، وفي وقعة أحد كان له موقف غاية في الشجاعة إثر الهزيمة التي حاقت بالصحبة لانهماكهم في جمع الغنائم حتى إنهم نسوا أنهم في معركة فنزل بهم الإنكسار الموجع (وأبلى يوم أحد بلاءً عظيماً ووقى رسول الله (ص) بنفسه واتقى عنه النبل بيده حتى شُلّت إصبعه وضُرب على رأسه وحمل رسول الله (ص) على ظهره حتى صعد الصخرة)(١٠٠). وبعدها (= أحد) شهد المشاهد كلها مع محمد وبايعه بيعة الرضوان ومن المهاجرين (النازحين) الأولين إلى أثرب/ المدينة وحظه موفور من الألقاب الرنانة فهو (طلحة الخير) و(طلحة الفياض) وهو وابن أبي قحافة (القرينان) وهو والزبير وعبد الرحمان جميعهم من العشرة المبشرين بالجنة ومن لجنة الستة الذين تخيّرهم عمر لانتخاب أحدهم ليصير خليفة بعده.

فصاحب هذا الرصيد الثقيل من القرابة والسبق والمواقف والألقاب لا بد أن يكون له مكان فسيح على قمة الهرم الاجتماعي وأن ينال من كعكة الفرصة الاقتصادية الطارئة خضمة كبيرة(١٠١). خاصة وأن الكعكة بالغة الدسامة بصورة حيّرت الصحاب وأدهشتهم بل أذهلتهم كما سنثبت في فصلة قادمة. وتحوّل طلحة من وضع إلى وضع وجرى المال بين يديه متدفقاً وامتدت مملكته المالية من العراق إلى المدينة تغل عليه مئات الألوف:

١ ــ عن الحسن قال باع طلحة (رض) أرضاً له بسبع مائة ألف

(١٠٠) **أسد الغابةِ**، المجلد الثالث ص ٨٧.

(١٠١) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، **الخضم:** الأكل بأقصى الأضراس وملء الفم بالمأكول.

فبات ذلك المال عنده ليلة فبات أرقاً من مخافة ذلك المال حتى أصبح ففرقه(١٠٢). والخبر فيه سذاجة واضحة فتلك الأرض التي دُفع له فيها (سبعمائة ألف دينار أو درهم) لم تطرأ عليه بل كان يتملكها قبل بيعها فلماذا لم تؤرقه ملكيته لها؟

٢ ــ عن محمد بن إبراهيم قال: كان طلحة يغلّ بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف ــ ويغل بالسراه عشرة آلاف دينار أو أكثر أو أقل... وكان لا يدع أحداً من بني تيم إلاّ كفاه مؤنة عياله، ويزوج أياماهم ويخدم عائلهم ويقضي دين غارمهم(١٠٣). وبنو تيم هم رهط طلحة.

٣ ــ عن سُعْدَى امرأة طلحة (رض) عنهما قالت: دخل عليَّ طلحة فوجدته مغموماً فقلت: ما لي أراك كالح الوجه (= عبوساً) أرابك من أمرنا شيء؟ قال: لا والله ما رابني من أمرك شيء ولنعم الصاحبة أنت ولكن مالاً اجتمع عندي قالت: فابعث إلى أهلك وقومك فاقسم فيهم ففعل، فسألت الخازن: كم قسمت فقال: أربع مائة ألف(١٠٤). كم كانت تبلغ ثروة طلحة الذي (يبعزق) هذه المئات من الألوف؟ ألم يكن (العلوج) الفلاحون الذين كدحوا لتجميع هذه الثروة بأولى بها من أولئك الذين لا يعلمون شيئاً القابعين في يثرب أقارب هذا وذاك من الصحاب؟

أليس هذا هو منطق الإسلام وروحه بل ونصوصه، ولقد تردد في خبرين سبقا أن طلحة عندما كانت تأتيه غلة أراضيه أو ثمن

(١٠٢) أخرجه أبو نعيم في **حلية الأولياء** وابن سعد في **الطبقات الكبرى** نقلاً عن **حياة الصحابة** للكاندهلوي، ج ٢، ص ١٣٧، مصدر سابق.
(١٠٣) **الرياض النضرة**، ص ٧٢٠.
(١٠٤) أخرجه الحاكم في **المستدرك على الصحيحين** ونقله عنه الكاندهلوي في **حياة الصحابة** ج ٢، ص ١٣٧.

بيعها كان يبيت مغموماً أرقاً فهل من المنطق أن يغلل ذلك بأن هذه الأموال هي حاصل عرق وشقاء (العلوج) وأن هؤلاء أولى بثمارهم وكدهم وكدحهم منه ومن غيره من الصحاب خاصة وأن جباية تلك الأموال كانت تتم بالقسر والقهر بل وبالتعذيب الوحشي كما سنوثق ذلك في فصلة لاحقة.

٤ ــ وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءت عليه كل سنة عشرة آلاف ولقد قضى عن صبيحة (إحدى قريباته) ثلاثين ألف درهم[١٠٥]. وعائشة هي زوجة محمد وبنت ابن أبي قحافة فهي تيمية مثله وتمتّ له بصلة قرابة حميمة فضلاً عن أنها أخت إحدى زوجاته.

٥ ــ وأجمعت المصادر على أن غلته كانت (كل يوم ألفاً وافياً، قال الواقدي والوافي وزنه وزن الدينار)[١٠٦]. أي أن دخله السنوي هو خمسة وستون وثلاثمائة ألف دينار ــ والمسعودي نص في الخبر الذي أورده على أن الألف دينار الوافي اليومي كانت غلة أراضيه في العراق فقط وهذا هو المعقول.

٦ ــ وكما هو المتوقع بعد أن قرت عينا طلحة بهذه البحار المتدفقة من الأموال أن يمتع نفسه فيتزوج عدداً من الحرائر ويتسرى بالأماء، سبع حرائر واثنتين من أمهات الأولاد (المؤرخون عادة لا يذكرون من جواري المتعة إلاّ اللائي يلدن فيتحولن إلى أمهات ولد ولذا فإذا ذكروا أن لطلحة سُريتين أنجبتا فليس معنى ذلك أنهما فقط هما كل ما كان يملكه من جواري المتعة إذ ليس من المنطقي أن يمتلك علي بن أبي طالب تسع عشر سرية كما ذكر ذلك شيخ

(١٠٥) **الرياض النضرة**، ص ٧٢٠.
(١٠٦) **أسد الغابةِ**، المجلد الثاني، ص ٨٩، **الرياض النضرة** ص ٧٢١، **مروج الذهب** للمسعودي، ج ١ ص ٥٤٤، **الاستيعاب** المجلد الثاني، ص ٧٧٠.

الإسلام ابن تيمية (في منهاج السنّة النبوية) وأوردناه في حينه، وطلحة أغنى منه عشرات الأضعاف ومع ذلك لا يتسرى سوى بإثنتين وقد أصهر طلحة لكبار القوم وللأفخاذ والبطون الشامخة:

فقد تزوج أم كلثوم بنت أبي بكر (أخت عائشة) وأصهر إلى عبتية بن ربيعة والقعقاع بن زرارة وإلى بني طيئ وإلى قبيلة تغلب.

ولا شك أنهن كلفنه مهوراً عالية وتجهيزات باذخة.

٧ ــ ويعطينا المسعودي لقطات سريعة من ثروة طلحة فيقول: (ابتنى داره بالكوفة المشهورة بدار الطلحيين بالكناسّة وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك ــ وبناحية الشراة أكثر من ذلك ــ وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجرّ والجُص والساج)[١٠٧]. ويقول الفيروزآبادي إن الشراة وادٍ بين كبكب ونعمان على ليلة من عرفة[١٠٨]، وبناء الدار بالآجر والجص والسراج كان آية الثراء آنذاك مثل استعمال الرخام الطلياني والسراميك... الخ في أيامنا هذه.

* * *

تلك كانت إطلالة سريعة على ثروات (بالجمع) ثالث المليونيرات من الصحبة الذين يندهش المرء ويتحيّر لأمورهم عندما يتذكر أنهم عاشوا مع محمد سنوات وعاشروه وعاينوا بأنفسهم كيف كان يحيى: ألم يسمعوا زوجته عائشة وهي تقول كانت تمر ثلاثة أهلّة ولا يوقد في بيوت محمد التسع نار فقد كانوا يعيشون على الماء القراح والتمر الجاف!

---

(١٠٧) **مروج الذهب** للمسعودي، الجزء الأول، ص ٥٤٤.
(١٠٨) **القاموس المحيط** فصل الشين باب الواو والباء.

[Blank Page]

عوامل كثيرة تضافرت على نماء ثروة الصحاب أو إذا شئنا الدقة احتيازهم الأموال الطائلة التي سردنا بعضاً من وقائعها ــ وهو غيض من فيض أو قطرة من بحر ــ لأننا كما ذكرنا لسنا بصدد تاريخ لسيرهم ولكنها مجرد نماذج لإضاءة الجانب الذي نتناوله ــ إذن هو احتياز لا إنمـــاء لثروات لأن غالبيتهم العظمى كان خالي الوفـــاض مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود ــ بدأ من الصفر أو من لا شيء ودليله المبيت في المسجد أو إنفاق زوجته عليه، أو لتلك العوامل شخصي أو ذاتي وهو ينصرف إلى القرشيين خاصة ونعني به البراعة في التجارة وتثمير المال وتقريشه (تجميعه) لذلك ما إن نزحوا (هاجروا) إلى أثرب حتى هرولوا إلى السوق كما رأينا عبد الرحمان بن عوف يرفض ما عرضه عليه (أخوه) الأنصاري سعد بن الربيع مشاطرته ماله وزوجته وشكره ودعا له بالبركة ثم تكلم بجملة لها مغزى عميق دلّوني على (السوق) لم يقل دلّوني على حلقة علم أو ذكر أو تحفيظ القرآن! وفي حديث أبي هريرة عندما أخذوا عليه كثرة التحديث (رواية الحديث) عن محمد أجاب أنه كان يلازمه في حين أن المهاجرين كان يشغلهم «الصفق في الأسواق» أي المتاجرة وأبو بكر بن أبي قحافة عندما تولى الخلافة لم

ينسّ أنه تاجر فخرج في اليوم التالي وعلى كتفه بضاعته متجهاً إلى السوق ليبيعها لولا أن أدركه بعض صحبه وأفهمه أن هذا لا يليق بمنصب الخلافة (سوف نفصّل القول في هذه الواقعة وغيرها من الوقائع المماثلة عند الكلام على «الأفق العقلي للصحابة» ا. هـ.) وهناك حديث منسوب إلى محمد يفيد أن تسعة أعشار الرزق في التجارة ولا زال العربي حتى الآن يؤمن بذلك ولعل هذا يفسر لنا عدم قيام صناعات (طبعاً ما عدا النفط وهي عملية استخراجية وليست تصنيعاً ا. هـ.) في الجزيرة العربية رغم الموارد المالية العريضة بالإضافة إلى المواد الخام المتوافرة فيها، في حين أن بلداً مثل اليابان لم يسمع عن حديث الرزق والتجارة نجد فيه صناعة متطورة تنافس أقوى صناعات العالم رغم انعدام المواد الخام في أرضه، وهذا المثل يؤكد مدى هيمنة (النصوص) وتأثيرها الفعّال على خُطى المجتمع وضبط حركته مثل حديث التباهي على الأمم بالكثرة التي تنجم عن التناسل الذي أصبح بمضي الزمن فَلُوتاً وأدى بطريق الحتم واللزوم إلى معاناة غالبية الدول الإسلامية من الانفجار السكاني (بنغلاديش/ باكستان/ نيجيريا/ مصر... الخ) السمة المميزة للتخلف والإنحطاط والتردي... ومهمة المفكرين العقلانيين هو إثبات تاريخية النصوص وارتباطها بزمن بزوغها وانبثاقها وأن لكل مجتمع ظروفه وموجباته.

بعد هذه الاستطرادة نعود إلى سياقة الحديث:

يأتي بعد ذلك عامل داخلي تمثل في ازدهار يثرب... وإنْ بدرجة متوسطة، كسوق تجاري بعد أن تعرضت مكة والأسواق المحيطة بها إلى ضربات محمد الموجعة بالغزوات والسرايا والفرق الخاصة (المكلفة بمهام محددة) والتي أدت إلى قطع الطريق على القوافل القرشية المتجهة إلى الشام أو إلى اليمن وبالدرجة نفسها

امتناع أو ندرة وصول البضائع الواردة من تلك الأنحاء وما وراءها مثل البلاد الخاضعة لبيزنطة ومن الهند إلى أسواق مكة أو حتى المرور عليها مما أفاد إلى حد ما حركة التجارة في أثرب والتي تحولت رويداً رويداً إلى أيدي المهاجرين وحصراً القرشيين الذين نافسوا اليهود في بادئ الأمر ثم انزاحوا من طريقهم بعد التصفية التي أجراها محمد لهم الذي حاول في فاتحة الأمر استمالتهم وضمهم إلى دينه ولكنه تصلّبوا معه ورفضوا الإنضواء إليه لا كنبي ولا كحاكم للأثرب فاضطر في النهاية إلى الوقوف في وجههم فأجلى بعضهم وأعمل السيف في رقاب الآخرين وبذلك خلصت سوق المدينة وتجارتها إلى المهاجرين وإلى بني قريش خاصة.

والعامل الثالث هو الغنائم والأسلاب والأنفال التي تحصل عليها الصحاب منها والتي قلنا في موضع سابق إنها بلّت ريقهم النَشِف وأفعمته بالنداوة. والحق أن هذا العامل يكافئ العامل الثاني ويتوازى معه لأن من لم تسعفه ــ من الصحب ــ ظروفه أو قدراته الذاتية أو استعداداته النفسية على احتراف التجارة وجد في الغزوات عوضاً وعوضاً كبيراً. وأبرز مثل على ذلك هو علي بن أبي طالب ــ فرغم أنه من وسط تجاري ــ فأبوه أبو طالب كان تاجراً وإن لم يحقق فيه غنى، وعمه العباس كان تاجراً مرموقاً وربح من التجارة أرباحاً وفيرة ــ رغم ذلك ــ فلم تمل نفسية أبي الحسنين إلى المتاجرة ووجد في حروب السرايا والغزوات مجالاً حقق فيه ذاته فقد أبدى بطولة فذة فقد رأينا شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنّة النبوية» يذكر أن علياً قتل في المعركة الأولى والبالغة الخطورة بدر الكبرى عشرين قتيلاً وسنه لم يتجاوز العشرين آنذاك، وطبعاً كل أولئك الصرعى هم من قريش أو أحلافها ولذلك كان علي

مكروهاً من القرشيين: من كفارهم لأنه أثخن فيهم قتلاً ومن مسلميهم: لوجود قرابة لهم فيمن أجهز عليهم ولأنهم يشعرون نحوه بشيء من الغيرة. ولقد درت ضروع لقاح المعارك (غزوات أو سرايا) دوراً وفيراً وشرب منها الصحبة نَهَلاً ثم عَلَلاً[١]. خاصة بعد غزوات مثل خيبر وهوازن (حُنين).

ولكنهم أبداً لم يعبّوا ويتضلّعوا من الثروات والأموال إلاّ بعد الفتح المبارك الميمون ونزْح خيرات البلاد الموطوءة إلى يثرب وهناك حديث لعمر بن الخطاب يقول فيه إن عاش لقابل (أي العام المقبل) فسوف يرسل للراعي نصيبه في العطاء وهو قابع في باديته!!! (ف (العلج) المصري مثلاً يشقى طوال العام وولاة (عمال) عمر يضعون يدهم على حصيلة كده ويرسلونه إلى عمر الذي يوزعها على صحبه حسب مراتبهم وما يفيض يبعث يه إلى راعي الغنم وهو مستلقٍ على قفاه في باديته)!

إذن العامل الرابح في ثروة الصحاب هو خيرات البلاد المفتوحة وعرق علوجها.

* * *

كانت غزوة تبوك التي قادها محمد بنفسه. ثم سرية مؤتة التي واجه المسلمون فيها موقفاً صعيباً وامتحاناً عسيراً ولولا عبقرية خالد بن الوليد العسكرية لحصدهم العدو حصداً وما أبقى على أحد فيهم، ومن بين النقاط المضبّبة في التاريخ العربي الإسلامي والتي لم يلتفت إليها أحد هي:

لماذا لم يعيّن محمد خالداً قائداً لسرية مؤتة وهو يعرف مهارته

(١) في **مختار الصحاح، النهل:** الشرب الأول **والعلل** الشرب الثاني.

الفذة في الحروب وقد خبرها بنفسه في عركة أحد؟

هل كان يعتقد ــ وهو الخبير بأقدار الرجال وأوزانهم ــ أن جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة أكفأ منه؟

أترجح كفة الولاء والسبق في اعتناق الدين والقرب من محمد على كفة الاقتدار في فن الحرب؟ أم أن محمداً لم يتثبّت بعد من إخلاص ابن الوليد له ولدينه لأنه كان حديث عهد بالإسلام؟ أم هو شبح هزيمة أحد وما لاقاه محمد فيها من جراحات وإصابات ما زال مخيماً خاصة وأن خالداً هو السبب الرئيس في كل ما حدث؟

أو لأن سرية مؤتة والمهمة الموكولة إليها والهدف المنشود منها كل هذا حال دون إسناد قيادتها إلى من أسلم منذ عهد قريب؟

أياً كان الأمر فقد كانت (مؤتة) هي الثانية في الترتيب، ثم يجيء بعدها (بعث أسامة) الذي جهّزه محمد ليثأر مما حدث في مؤتة ثم تأخر إنفاذه لمرضه وتعاضد أبو بكر وعمر على ذلك لأنهما عرفا أن مرضة محمد تلك كانت (مرضة الموت) ولو حدثت الوفاة وهما خارج أثرب لانهارت الخطة التي رسماها ومعهما أبو عبيدة بن الجرّاح بدقة (والثلاثة من البطون المهزولة من قريش) لينالوا خلافة محمد وليمنعوا الفرعين السامقين (هاشماً وأمية) منها فهم وضعوا (السابقة في الإسلام) مكان (الشرف) وتعاقدوا على أن يتولاها أحدهم وهذا ظهر واضحاً في أحداث (سقيفة بني ساعدة) وقبلها عندما طلب الرسول أن يملي عليهم كتاباً (مكتوباً) لا يختلفون بعده وأدرك عمر بذكائه أو الوصية ستكون لأبي الحسنين حال دون ذلك وقال إن محمداً يعاني سكرات الموت ولدينا كتاب الله فيه الغناء (اشتد برسول الله وجعه، فقال: إئتوني أكتب كتاباً لا تضلوا بعدي... أو إئتوني باللوح والدواة ــ أو بالكتف والدواة ــ

أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده... فقالوا إن رسول الله يهجر)[٢].

أما محمد بن سعد كاتب الواقدي فيروي الواقعة كالآتي:

«... فقال ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً»[٣].

كما أن وجود عائشة في بيت محمد ومكانتها العالية فيه كان لهما أثر فيما حدث. تخاذل بني هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعدم إصرارهم على تلقي وصية محمد الأخيرة وعدم تفطنهم إلى تأخير (بعث أسامة) من قبل أبي بكر وعمر لأنهما كانا من أجناده وعدم تمسكهم (=الهاشميين) بتلبية نداء محمد أكثر من مرة (انفذوا بعث أسامة) ولو فعلوا لوجدوا المسلمين كلهم في صفهم لأن ذلك كان أمر محمد الذي لا يستطيع مسلم أن يعصيه.

كلها أخطاء تنسب إليهم (بني هاشم) ولو تفادوا لكان للتاريخ العربي الإسلامي مسار مغاير وسبق أن قلنا إن فيهم طُهرانية واستقامة خلق ونوايا طيبة وهي أمور بينها وبين السياسية طلاق بائن بينونة كبرى على حد تعبير الفقهاء.

الخلاصة أن بعث أسامة كان هو المؤثر الثالث الذي خلّفه محمد لمن أتى بعده بضرورة الإنسياح إلى خارج الجزيرة التي تمت السيطرة عليها والتي اجتنيت ثمارها عن آخرها أو آن الأوان لقطف

---

(٢) **تاريخ الأمم والملوك أو تاريخ الطبري** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثالث ص ١٩٢ ــ ١٩٣، دار المعارف بمصر.

(٣) **الطبقات الكبرى** لمحمد بن سعد كاتب الواقدي، الجزء الرابع ص ٥٨ ــ ٥٩. الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ لجنة نشر الثقافة الإسلامية بمصر.

ثمار مفردات بيزنطة وفارس وكلتاهما في أوضاع متردّية وعلى وشك السقوط(٤).

ولا جدال في أن محمداً كان يعلم ذلك تماماً فلما خلفه أبو بكر وبدأ تنفيذ خطة الفتح على مهل ووهن ثم أكملها عمر ببراعة فائقة وما تبقى أتمه عثمان في سنواته الأولى. ويندّ عن مجال بحثنا التاريخ لتلك الفتوحات المعطاءة وما سنورده لا يعدو أن يكون أمثلة تفي بالغرض. على أن خيرات البلدان الموطوءة كانت هي العمود الفقري للثروات الأسطورية التي احتازها الصحاب فغدا بعضهم غنياً والآخر عريض الثراء وبالغه، وكيف أنها أذهلتهم وعقدت ألسنتهم تحيّراً وكان لمن تربع على قمة الهرم الاجتماعي نصيب الأسد منها.

* * *

إن النقلة من مغانم الجزيرة العربية (المغانم الداخلية) إلى مغانم البلاد الموطوءة كانت مذهلة ونورد فيما يلي خبراً أورده الواقدي عن غنائم غزوة هوازن أو حُنين حتى إذا أتينا بأمثلة سريعة من الغنائم الفلكية الناطق: (العبيد والجواري) منها إلى الصامت (الأموال بكافة أشكالها وأنواعها) التي جاءت من تلك البلاد تبين أنها (النقلة) كانت أسطورية ليلتمس القارئ العذر للصحاب إذا أدارت تلك الغنائم رؤوسهم، ولسنا في حاجة إلى القول بأن هوازن (حُنين) ضربت الرقم القياسي في الغنائم إذ لم تسبقها أو تلحقها غزوة أو سرية أعطت نتاجها، بعد أن أعطى محمد المؤلفة قلوبهم (أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فضّها أي

---

(٤) عالجنا هذا الموضوع تفصيلاً في كتابنا **قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية** دار سينا بمصر.

فرقها على الناس فكانت سهامهم: لكل راجل أربع من الإبل أو أربعون شاة فإن كان فارساً أخذ اثنتي عشر من الإبل أو عشرين ومائة شاة وإن كان له فرس واحد لم يُسهم له)(٥). هذا أقصى ما تحصّل عليه الصاحب من الغنائم ــ قبل الخروج من شبه الجزيرة أربعة من الإبل أو أربعون شاة إن كان راجلاً ــ أما إن كان صاحب فرس فله ثلاثة أضعاف هذا النصيب.

وقيل إنه جعل للفرس وحده حصة اثنين من الرجّالة ولكن أبو حنيفة شيخ مذهب الأحناف رفض هذا التعليل وقال لا أجعل للبهيمة ضعف نصيب الرجل إنما يبدو أن الإمام الأعظم رغم ذكائه المفرط لم يدرك أن الخيول كانت في ذلك الزمن عزيزة مع فعاليتها في المعارك ومن ثم فإن إعطاء الفرس ضعف نصيب الراجل علّته تشجيع وحث الصحبة على امتلاك الخيول وهذا يؤكد ما سبق أن رددناه: أن النصوص ــ كل النصوص ــ يتعين مراعاة ظروف انبثاقها وظهورها وربطها بها ومراعاة ذلك عن تفسيرها ومد أو قصر أحكامها ــ والتشجيع على اقتناء الخيول كان لازماً للاستعداد للغزو الخارجي للإنسياح وراء حدود شبه الجزيرة حيث البلاد التي تقع في قبضة الأمبراطوريتين البيزنطية والساسانية اللتين أخذ السوس ينخر في عظامهما ولذلك نجد حديثاً لمحمد يقرن الخير بالخيل وأنه معقود بنواصيها وبدون الفرسان كان يستحيل اقتحام تلك البلاد ووطئها.

(٥) كتاب **المغازي** لمحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) الجزء الثالث ــ ص ٩٤٩ ــ تحقيق د/ مارسدن جونز ــ د. ت. من مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ــ لبنان.

بعد أن فرغ ابن أبي قحافة من حروب: ما نعي الزكاة (الصدقة) والردة، صوّب نحو الخارج كما فهم من الإشارات الجلية التي تركها محمد لمن يأتي بعده وبدأ يرسل الجيوش إلى تخوم الدولة الساسانية حققت انتصارات معدودة ثم أكمل المسيرة ابن الخطاب الذي خلفه ووطئت خيول الفاتحين العديد من البلاد التي كانت تشكل شطري الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، أما الأخيرة فقد انهارت بالكامل وانتزعت بلادها منها انتزاعاً أما البيزنطية فقد تقلصت كثيراً بعد أن استقطع منها جزء كبير.

ونحن لا نؤرخ لتلك الفتوحات وليس هذا كتاب تاريخ ولكننا نقوم هنا بإبراز العامل الرابح الذي ساهم في ثراء الصحبة وخاصة أولئك الذين تربعوا على القمة لأسباب ذكرناها وسنورد في هذه الفصلة أمثلة من تلك الغنائم المذهلة نقدمها كنموذج لأن إحصاءها يحتاج إلى كتيبة من البُحّاث وهو أمر نلح على ضرورته حتى يتحقق بطريقة موضوعية رصينة القول بأن خروج الصحبة كان لانتشال أهل المستعمرات من أدران الوثنية والضلال إلى نور

التوحيد وهل كان هذا هو الهدف أم كان الهدف نقيضه أم على الأقل وقفت بجانبه دوافع أخرى؟

وهل كان دخول الموطوءين في عقيدة الفاتحين عن طواعية واختيار أم لا وهل كان من المنتظر من أهالي المستعمرات بعد أن رأوا بأعينهم: قتل الرجال حتى بعد أن يستسلموا (يرفعوا الراية البيضاء) وسبيّ النساء والذراري وحرق الحصون ثم هدم ما يتبقى منها وتسويته بأديم الأرض ونزح الأموال (بأنواعها) نزحاً وكسحها كسحاً وفرض الموجبات المالية المتعددة على الرؤوس (لاحظ ما يشي به هذا اللفظ من دلالة لا تخفى) وعلى الأرضين، نعود فنقول هل كان من المنتظر من أهالي المستعمرات أن يظلوا على أديانهم أم يبادروا لاعتناق دين أسيادهم الفاتحين حتى يفلتوا من بعض تلك الفروض؟

ألا يستحق هذان الموضوعان دراسة علمية محايدة وأنه قد آن الأوان للكف عن الكتابة التعظيمية التي تطفح بها الكتب الحديثة والتي يعطي مؤلفوها ظهورهم ــ بكل جرأة ــ لما هو ثابت في أمهات كتب التراث لا التاريخية فحسب بل في شتى العلوم (الدينية)!

وقبل إيراد تلك الوقائع الموحية والشديدة الدلالة نذكر تلخيصاً لشطر من الغنائم المذهلة أورده باحث حديث عُرفَ عنه التدقيق والتمحيص:

ووجد سعد خزائن كسرى مترعة بالأموال وبنفيس الثياب والأمتعة والآنية والألفاظ وما إلى ذلك مما لا تعبر الألفاظ والأرقام عن قيمته.

وكان سعد قد بعث جنده يطاردون يزدجر والذين فروا معه إلى

حلوان وأدركوهم وجاءوا به وبما حملوه فإذا قيمته تضاهي قيمة ما بالقصر ووجد المسلمون بدور المدائن من التحف والنفائس ما أذهل خيالهم وما دلَّ على ترف أهلها ترفاً لم يعرفه غير الفرس.

وإنّا لتتولانا الدهشة اليوم لنفاسة هذه الغنائم وقيمتها وكثرتها، فلا عجب أن تولّت أولئك الفاتحين الذين رأوا هذه الغنائم بأعينهم أضعاف ما يتولانا من البُهر والدهشة وأن يذكر المؤرخون العرب هذه الغنائم في تفصيل يسوّغ دهشتنا ودهشة الفاتحين.

ذكروا أن سعداً وجد بخزائن كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار ــ ثلاث مرات ــ ووجدوا بالقصر من التحف والأمتعة ما لا تُدرى قيمته ــ وجاء الذين خرجوا في إثر يزدجر بتاج كسرى مرصعاً بالدر والجوهر وبثيابه من الديباج المنظوم بالجوهر ومن غير الديباج منسوجاً ومنظوماً كما جاءوا بخرزات كسرى ووشاحه ودرعه التي فيها الجواهر.

وطارد القعقاع بين عمرو فارسياً فقتله وأخذ منه عينتين فيهما أسياف وأدراع لكسرى ولهرقل ولخاقان الترك وللنعمان ولملوك آخرين غزاهم الفرس وغزوا الفرس، وجاء عصمة بن خالد الضبي بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجلٍ من ذهب مكلل بالجواهر ووجد المسلمون بدور المدائن سلالاً مختومة برصاص ظنوا ما فيها طعام فإذا هو آنية من الذهب والفضة متماثلين، ووجدوا بدور المدائن كذلك كافوراً حسبوه لكثرته ملحاً فعجنوا به فوجدوه مراً.

* * *

فصل سعد خمس الغنائم ليرسله إلى المدينة وحرص على أن يكون فيه كل ما يعجب منه العرب وكل ما يعجبهم ثم أراد أن يقسّم خمس القطيف وهو بساط كسرى فرآه لا تعتدل قسمته فقال للمسلمين: هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماسه فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء فإنّا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً، وكان هذا البساط مربعاً ستون ذراعاً في مثلها وكان الأكاسرة تعده للشتاء إذا اشتد القر وهبّت الرياح، وقد صورت في هذا القطيف طرق المملكة وبسطت فيه الأرض مذهبة تجري خلالها أنها رصعت بالدر وجعلت حافاته كالأرض المزروعة فيه نبات الربيع قام على سوق الذهب وجعل ورقه من الحرير وثمره من الجوهر، وأقر الناس رأي سعد فأرسل القطيف مع الخمس إلى المدينة. وقسم سعد الفيء في الجيش وكان قد ضم ستين ألف فارس فأصاب الفارس منهم إثني عشر ألفاً، ثم جعل لأهل البلاد على قدر بلائهم وقسم سعد المنازل بين الناس، وأنزل العيالات في الدور فأقاموا بها حتى ارتحل منهم من ارتحل عنها بعد أن امتد الفتح إلى ما وراءها من ريف فارس.

وذهب بشير بن الخصاصية بـ (خمس الفيء) إلى المدينة ووضعه بين يدي أمير المؤمنين وكان عمر قد سبقت إليه الأنباء بفتح المدائن إذ كتب سعد إليه بما يجعله حاضرها ومع ذلك دهش لما رأى من كثرة هذا الفيء ونفاسته[١]. بقراءة هذا النص قراءة متأنية نخرج منه بكثير من الحقائق نكتفي منها بالآتي:

١ ـــ أن الدولة الساسانية (الفارسية) كانت على درجة ملحوظة

---

(١) **الفاروق عمر**، لمحمد حسين هيكل، من صفحة ١٨٧ وإلى ما بعدها، دار المعارف بمصر، علماً بأن هيكل قد أتى بهذه الأخبار من أمهات المصادر مثل الطبري والكامل وغيرها.

من الحضارة والرقي وجاءت سنابك خيول الفاتحين الأماجد فدعكتها ومعستها[٢]. وسوت بالأرض مبانيها ــ كما سنرى في أكثر من خبر ــ واستولت على نفائسها ومزقتها إرباً جهلاً بقيمتها الفنية.

٢ ــ ظن الفاتحين أن السلال المختومة بالرصاص تحتوي على طعام مما يدل على نهمهم للطعام ونفاسته لديهم حتى اعتقدوا أنه من الجائز أن يوضع في السلال وتختم.

٣ ــ توهمهم أن الكافور ملح ووضعهم إياه في طعامهم دلّ على درجتهم الحضارية التي كانوا عليها حتى إنهم لم يستطيعوا التمييز بينهما.

٤ ــ تأكد ما سبق أنْ ذكرناه أن الصحاب أصيبوا بالذهول من كثرة الغنائم والفيء، وإذا كان ابن الخطاب العدوي لم يصدق أبا هريرة عندما أحضر خمسمائة ألف درهم وقال له: (أنت ناعس) فكم إبتهش[٣]. عندما آلت إليه وإلى صحابه ثروات الأكاسرة، بل ما مدى بهرهم[٤]. إذ وجدوها ملقاة تحت أقدامهم!

٥ ــ لم يكن مستغرباً أن يقوم سعد بن أبي وقاص ببناء قصره (العقيق) فقد كان قائد الفتوحات التي درت هذه الدخول الوفيرة.

٦ ــ ذكرنا فيما سبق أن حصة الفارس في غنائم حنين كانت اثنتي عشر من الإبل وفي هذا الفتح الميمون ارتفع نصيب الفارس إلى اثني عشر ألف دينار أي أن دخل الفارس تضاعف إلى ما يقرب من ألف ضعف وهو أمر يدير الرؤوس.

---

(٢) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، **معسه:** دلكه دلكاً شديداً.
(٣) في **المعجم الوسيط** ابتهش: فرح وابتهج.
(٤) في **مختار الصحاح البهر**، تتابع النفس.

٧ ـ أن القائد سعداً أجاز لنفسه أن يحتل الغزاة مساكن المواطنين (أهل البلاد) (وأنزل العيالات في الدور فأقاموا بها حتى ارتحل منهم من ارتحل عنها) ومن لم يرتحل ظل قابعاً فيها ممتلكاً إياها بحق الفتح والغزو ولا يوجد في (النصوص) ما يحل لهم ذلك ـ واغتصاب الفاتحين لدور الموطوءة بلادهم بسنابك الخيل ـ من الأمور التي لم يتناولها المؤرخون المحدثون بل نراهم يغطرشون عليها[٥].

وليس ذلك وحده بل هناك العديد مما تعمدوا تجاهله والتجاوز عنه لأسباب لا تخفى مما يدعونا إلى الإلحاح على فتح ملف تلك الفتوحات المباركة ورصد حركتها رصداً دقيقاً وتقويم ما حدث تقويماً أميناً بعيداً عن العواطف الفجة والإنحياز الذي يعمي البصيرة.

* * *

بعد ذلك نذكر بعض الوقائع التي تضيء الجانب الذي نتناوله بالدرس في هذه الفصلة والتي جاء مجمله في الفقرة المطولة التي استعرناها من باحث معاصر:

١ ـ قال أبو يوسف: حدثني بعض أشياخنا قال: سمعت ميمون بن مهران يحدث أن عمر بن الخطاب (رض) كان يجني من العراق كل سنة: مائة ألف ألف[٦]. أي جباية العراق وحده: مائة مليون درهم.

٢ ـ حدثنا عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن معقل حدثني عبد الملك بن أبي حرة عن أبيه قال: أصفى

(٥) في **القاموس المحيط** الفيروزآبادي، **التغطرش:** التعامي عن الحق.
(٦) **كتاب الخراج**، لقاضي القضاة أبي يوسف ص ١٢٤، مصدر سابق.

عمر بن الخطاب (رض) هذا السواد عشرة أصناف: أصفى من قتل في الحرب ومن هرب... وكل أرض لكسرى وكل أرض لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله... وكان خراج ما أصفى سبعة آلاف ألف(٧).

غلة أرض الصوافي في العراق سبعة ملايين وفي رواية أخرى أربعة ملايين في العام الواحد.

والصوافي جمع الصافية ـ هي الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها وماتوا ولا وارث لها وقال الأزهري يقال للضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته: الصوافي(٨). والصافية بخلاف الصفيّ وهو ما يختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة، والخبر نفسه يحمل المقصود فيه من الصفايا.

٣ ـ سبق أن ذكرنا أن عمرو بن العاص كان يجبي من مصر أربعة عشر مليون دينار ـ ضريبة الرؤوس بخلاف خراج الأرض ـ ويخبرنا الأخباريون أن هذا القدر استصغره الخليفة الثالث عثمان فعزل ابن العاص واستصفى من خلفه على ولايتها مبلغاً أكبر بداهة بطرق لا تخفى، فواجه عثمان عَمْراً بذلك فرد أن ذلك كان على حساب الرعية والأرض.

عن يزيد بن حبيب قال: جنى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفا ألف وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أربعة آلاف ألف فقال عثمان لعمرو: إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها قال: ذاك

(٧) **الاستخراج لأحكام الخراج**، لابن رجب الحنبلي، تصحيح عبد الله الصديق ص ١٠٧، الطبعة الأولى ١٩٨٢، دار الحداثة: بيروت، لبنان.
(٨) **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، للشيخ أحمد الشرباصي، ص ٢٦٠، مصدر سابق.

أنكم أعجفتم أولادها[٩]. وواضح أن الرقمين اللذين أوردهما البلاذري في الفتوح شديد التواضع بالنسبة للرقم الأول.

ولا ندري كيف يضاعف عبد الله بن سعد بن أبي السرح قيمة الخراج والجزية إلاّ إذا كان قد استعمل أساليب شديدة القساوة ولعل في تعليق عمرو (أعجفتم أولادها) خير دليل على ذلك وكان يتوجب على الخليفة (عثمان) أن يسأله كيف فعل ذلك ولكن فيما يبدو أن كل ما كان يهمه الرقم!

٤ ــ صعصعة بن صوحان العبدي هو القائد لعمر بن الخطاب (رض) قسم المال الذي بعث إليه أبو موسى وكان ألف ألف درهم وفضلت منه فضلة فاختلفوا عليه حيث يضعها... الخ[١٠].

قدوم أبي موسى بهذا المليون هو دليل الثبوت على ما سبق أن قلناه: إن هذه الغنائم الأسطورية حيّرت الصحبة وأدهشتهم بل وأذهلتهم.

٥ ــ عن موسى بن يزيد قال: حمل أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب (رض) ألف ألف، فقال عمر بكم قدمت؟ قال: بألف ألف قال فأعظم ذلك عمر وقال: هل تدري ما تقول؟ قال: نعم، قدمت بمائة ألف ومائة ألف حتى عشر مرات فقال عمر: إن كنت صادقاً ليأتين الراعي نصيبه باليمن ودمه في وجهه[١١].

هنا نجد عمراً لا يصدق أن إحدى الولايات التي وطئوها برماحهم وسنابك الخيول تغل مليون درهم في السنة وعقدت

---

(٩) **فتوح البلدان** الأول، ص ٢٥٣.
(١٠) **الاستيعاب في معرفة الصحاب** لابن عبد البر، المجلد الثاني ص ١٧١٧، مصدر سابق.
(١١) **كتاب الخراج** لقاضي القضاة أبي يوسف ص ٥٠، مصدر سابق.

الدهشة لسانه واعتقد أن أبا موسى لا يدري ما يقول! وهي عبارة عميقة الدلالة وحتى بعد أن أكد له أبو موسى الخبر وعد المليون على أصابعه (مائة ألف عشر مرات) لم يصدقه (إن كنت صادقاً عجز الخبر يوضح خطة ابن الخطاب في منح أبناء الجزيرة العربية الأعطيات دون أن يسألوها بل تصلهم في مستقر دورهم. وما هي إلاّ ناتج عرق (العلوج) في تلك الولايات.

٦ ــ وخبر آخر يقطع بصحة ما قلناه: دهشه الصحاب وتحيّرهم من كثرة الأموال التي صُبّت عليهم صباً بصورة ما كانت تخطر على بالهم (عن أبي هريرة قال: قدمتُ من البحرين بخمسمائة ألف درهم فأتيت عمر بن الخطاب (رض) ممسياً فقلت: يا أمير المؤمنين إقبض هذا المال قال: كم هو؟ قلت: خمسمائة ألف درهم قال: تدري كم خمسمائة ألف؟ قلت: نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات، قال: أنت ناعس اذهب الليلة فبتّ حتى تصبح لما أصبحت أتيته فقلت: اقبض هذا المال قال: وكم هو؟ قلت: خمسمائة ألف درهم قال: أمن طيب هو؟ قلت: لا أعلم إلاّ ذلك. فقال عمر (رض) أيها الناس إنه قد جاء مال كثير فإن شئتم أن نكيل لكم كيّلنا وإن شئتم نعد لكم عددنا[١٢].

هذا الخبر على قصره النسبي مشحون بالدلالات:

أ ــ إن الخليفة لم يصدق أن يأتي له أحد عماله بخمسمائة ألف درهم من إحدى الولايات الموطوءة وهذا يشي بالحالة المالية المتواضعة التي كانوا عليها حتى إن رأس الدولة يستكثر مثل هذا المبلغ.

(١٢) **كتاب الخراج** لأبي يوسف ص ٤٩، مصدر سابق، وكتاب فتوح البلدان» للبلاذري، القسم الأول، ص ٥٥، مصدر سابق.

ب ــ أنه يجابه العامل (الوالي) بأنه لا يدري ما يقول وأنه ناعس أي يحلم وما يقوله مجرد حلم ويطلب منه أن يستكمل منامه.

جـ ــ أنه يدلنا على الأفق المعرفي إذ يتهم الخليفة جابيه بأنه لا يدري كم هو العدد خمسمائة ألف.

د ــ أن عمراً بعد أن استوثق من صحة العدد صاح في الناس (أيها الناس قد جاءنا مال كثير) يبشرهم أن فتوحاتهم درت دروراً وفيراً.

هـ ــ أنه من كثرة الأموال التي إنهالت عليهم من كل حدب وصوب كانوا يوزعونها بطريق الكيل (فإن شئتم أن نكيل لكم كيلاً).

ز ــ إن ابن الخطاب يسأل إن كان هذا المال طيباً؟

فهو يعرف أنه منتوج كدح وكد العلوج وحصيلة عملهم من طلوع الشمس إلى مغيبها وسوف نرى بعد سطور أن عمراً نفسه شهد واقعة تعذيب العلوج لاستصفاء أموالهم، فكيف يكون طيباً؟

حـ ــ إن أبا هريرة الذي أحضر هذا المال كان في أول أمره يلازم محمداً على شبع بطنه أصبح أميراً على البحرين زمن عمر ثم بلغه عنه أنه اشترى أفراساً بألف وستمائة دينار فاستدعاه وسأله عن ذلك وأغلظ له في الكلام وقال له: استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين فردّ أبو هريرة: كانت لنا أفراس تنتج وعطايا تلاحقت، والذي لا شك فيه أن مثله لا يجهل أن عطايا (هدايا) الأمراء غلول (روى

إبراهيم الحربي في كتاب الهدايا عن ابن عباس (رض) أن النبي (ص) قال: هدايا الأمراء غلول)[١٣].

ولم يقتنع عمر برد أبي هريرة ولم يوافقه على أنه من حقه شرعاً أن يمد يده لـ(عطايا تلاحقت) لأنه يعلم أن تلك العطايا لا تُنفح للأمير (الوالي/ العامل) من أجل سواد عينيه إنما رهبة أو رغبة من منصبه، لهذا شاطره (قاسمه أي أخذ نصف) ماله ومما يلفت النظر أن أبا هريرة لم يكن الأوحد الذي فعل معه ذلك بل طبق الجزاء نفسه الصارم على عدد من أعلام الصحابة منهم:

أبو موسى الأشعري حين عزله عن البصرة وسعد بن أبي وقاص حين عزله عن العراق، وهذه مسألة مشهورة في كتب السِّير والتواريخ والفقه (فلهذا شاطر عمر بن الخطاب (رض) من عماله من كان له فضل ودين ولا يُتّهم بخيانة وإنما شاطرهم لما كانوا خُصوا به لأجل الولاية من محاباة وغيرها)[١٤]، وهو دفاع مسيخ[١٥]. من جانب الحراني لأنه كيف يتأتى لمن له فضل ودين ومن لا يتهم بخيانة أن يستأثر لنفسه ما خص به من محاباة وغيرها من أجل الولاية؟

وواصل أبو هريرة سيْره في طريق الثراء والعز والبلهنية

---

(١٣) **السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية** لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، الطبعة ٢، ١٣٩٩هـ. نشره قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.

(١٤) صفحة ٢٣ من المصدر السابق.

(١٥) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، **مُسخ** الطعام: قلت حلاوته أو لم يكن له طعم وتقول العامة في مصر: ماسخ.

فاكتسى الخز والبس الكتان وابتنى (هو الآخر) قصراً في العقيق ليليق بسكنى بُسرة بنت غزوان أخت الأمير عتبة بن غزوان بعد أن كان أجيراً لديهم، وكان هو لا يُخفي ذلك بل يصرح به علانية ويشكر الله على أن نقله من طبقة الخدم إلى مصاف الأمراء (روى مضارب بن حزن: أنه بينما أسير تحت الليل إذا رجل يكبّر فألحقه بعيرى فقلت: من هذا؟ قال: أبو هريرة، قلت: ما هذا التكبير؟ قال: شكر، قلت: على مه؟ قال: كنت أجيراً لبُسرة بن غزوان بن عتبة (نوبة ركوبة) رجلي وجعام بطني.

وكانوا إذا ركبوا سقت بهم وإذا نزلوا خدمتهم، فزوجنيها الله فهي امرأتي)[١٦].

٧ ـــ... ثم إن خالداً مضى إلى قرية أسفل الفرات يقال لها بانقيا وفيها مسلحة لكسرى في حصن لهم فحاصرهم وافتتح الحصن وقتل من فيه من الرجال وسبى نساءهم وذراريهم وأخذ ما كان فيه من المتاع والسلاح وأحرق الحصن وهدمه فلما رأى ذلك أهل القرية طلبوا الصلح منه على أداء الجزية فكان من ولي الصلح عنهم هانئ بن جابر الطائي فصالحه عنهم على ثمانين ألف درهم[١٧].

مصدر هذا الخبر لا يشكك في مصداقيته أحد لعلو قدر واضعه وهو قاضي القضاة وصاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة. وهو يوضح

---

(١٦) **سير أعلام النبلاء**، ص ٤٤٠، ج٢ نقلاً من كتاب **أبو هريرة راوية الإسلام** لمحمد عجاج الخطيب، العدد ٢٣ من سلسلة أعلام العرب، الطبعة الأولى، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣ إصدار المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد، مصر.

(١٧) **كتاب الخراج** لقاضي القضاة أبي يوسف ص ١٥٧، مصدر سابق.

لنا ما فعله خالد ومن كان معه من الصحاب بحصن بانقيا. حصار ثم افتتاح ثم قتل جميع من فيه من الرجال وسبي النسوان والذرية ونهب ما فيه(١٨). ولم يكتفوا بذلك بل أحرقوا الحصن وما تبقى قائماً من بعد الحريق سووه بالأرض ولا ندري كيف تدخل هذه الأفعال تحت باب هداية أهل البلاد الموطوءة إلى عبادة الله؟

وكان من الطبيعي أن يركب الرعب أهل القرية بعد أن رأوا: القتل والسبي والتحريق والهدم وأن يبادروا إلى الصلح وإلى دفع الجزية التي قهروا عليها وهي ثمانون ألف درهم ــ وإذا كانت قرية واحدة دفعت هذا المبلغ الجسيم فكم كان مجموع ما تحصّل عليه خالد عندما مر مروره المبارك على مئات القرى في العراق والشام؟

٨ ــ ثم إن خالداً رجع إلى النجف فاستبطن بطن النجف وأخذ الأدلاء من أهل الحيرة حتى انتهى إلى عين التمر وبها مرابطة لكسرى فحاصرهم حتى استنزلهم فقتلهم وسبى نساءهم وذراريهم وأخذ ما كان في الحصن من المتاع والسلاح والدواب وأحرق الحصن وخرّبه فقتل دهقان عين التمر وكان رجلاً من العرب وسبى نساءه وذراريه وأهل بيته وأعطاه أهل عين التمر الجزية كما أعطاه أهل الحيرة وغيرهم من أهل القرى(١٩).

وهكذا استمرت رحلة القتل والسبي والتحريق والهدم حتى سطح الأرض واستصفاء الأموال بأنواعها حتى لم يبق أمامها شيء!

٩ ــ... وقُتل رستم ــ قائد الفرس ــ وقع عليه عدل كان على بغل فقتله وكان الذي طرح عليه العدل هلال بن علفة وصعد على

(١٨) في **المعجم الوسيط، نهب** الشيء: أخذه قهراً.
(١٩) **كتاب الخراج** لقاضي القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة ص ١٥٧، الطبعة الخامسة، ١٣٩٦هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها، مصر.

سريره فصاح: قتلت رستم ورب الكعبة إليّ إليّ وقيل: قتله زهير بن عبد شمس... وقتل منهم مقتلة عظيمة وانكتفوا مدبرين وجمعت الأموال والأسلاب وبيع سلب رستم فبلغ سهم الرجل لكل فارس أربعة عشر ألفاً وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة ورضخ لعيال الشهداء من صلب الفيء وضخ للنسوان من صلب الفيء...[٢٠].

إذا قارنا نصيب الفارس والراجل في كل من حُنين والقادسية لوجدنا فرقاً مذهلاً ولكن من الذي حضر القادسية وحاز تلك الغنائم الجزيلة (وكان بالقادسية من أصحاب رسول الله (ص) من أهل بدر سبعون رجلاً ومن أهل بيعة الرضوان ومن شهد الفتح (= فتح مكة) مائة وعشرون ومن أصحاب رسول الله (ص) مائة)[٢١]. وهاص الصحاب من الغنائم[٢٢]، حتى أعطوا (رضخوا) للنسوان والعيال مع أن العرف الذي عاشوا غالبية عمرهم في جنباته كان يحرّم على الاثنين أي شيء من الغنيمة لأنهم لم يرفعوا سيفاً ولم يركبوا فرساً ولكن الكثرة الكاثرة للمغانم دفعتهم إلى التغاضي عن التقاليد الصوارم، ومن شدة فرح عمر بن الخطاب بمقدار الأموال التي درتها القادسية نفح الذين بشّروه بها نفحات تعد بمقياس ذلك الزمن السعيد ثروة (وأوفد سعد «بن أبي وقاص» إلى عمر وفداً فأجازهم عمر ثمانين ديناراً وثمانية دينار)[٢٣]. وحتى يتأكد القارئ أنها كذلك (ثروة بمقياس تلك الأيام) نذكره أن علي بن أبي طالب كان ينبّش (يفتش) عن قميص بثلاثة دراهم.

(٢٠) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني ص ١٤٥.
(٢١) المصدر نفسه.
(٢٢) في **المعجم الوسيط**، **هاص** من الشيء أخذ منه بكثرة.
(٢٣) **تاريخ اليعقوبي** الصفحة نفسها من المصدر نفسه.

١٠ ــ بعد نهاوند فلما قسم السائب الغنائم بين من حضر القتال وفرغ من حمل السفطين (أحدهما من تاج النخارجان ــ أحد قواد كسرى وهو من الذهب المكلل بالجوهر الثمين والآخر به الحلي ــ في خرجين على ناقته وقدم بهما إلى عمر بن الخطاب (رض) فاشتراهما عمر بن الحارث بعطاء المقاتلة والذرية جميعاً ثم حملهما إلى الحيرة فباع بفضل كثير واعتقد بذلك أموالاً بالعراق وكان أول قرشي اعتقد بالعراق[٢٤].

وجمعت الغنائم بعد فتح المدائن فأصاب الفارس إثنا عشر ألف درهم وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل وكانوا ستين ألفاً[٢٥].

وهذا الخبر يدلنا على أن الخطة التي رسمها محمد وهي حث الأصحاب على اقتناء الخيل سواء بالقول (معقود بنواصيها الخير) أو بـ (التنفيل) وهي إعطاء الفارس وحده ضعف نصيب الراجل، فقد رأينا أن خيول الغزاة في وقعة واحدة، بلغت ستين ألف فارس وحصة الفارس من المغانم وصلت إلى اثنتي عشر ألف درهم.

١١ ــ وننهي هذه الجولة السريعة مع الأمثلة على ضخامة الأموال التي كسحت من البلاد المغزوة بإطلالة عجلى للغاية عما حدث في مصر[٢٦].

(فوضع على كل حالم دينارين جزية إلاّ أن يكون فقيراً وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطيّ زيت

---

(٢٤) **الأخبار الطوال**، لأبي حنيفة الدينوري، ص ١٣٨، مصدر سابق.
(٢٥) **الكامل في التاريخ** الجزء ٢ صفحة ٥١٨.
(٢٦) في رأينا أن فتح العرب لمصر لم يكتب، من قبل المؤرخين المحدثين حتى الآن كتابة موضوعية ناقدة وخاصة في الناحية المالية وما عومل به (العلوج) من قبل الفاتحين العرب.

وقسطيّ عسل وقسطيّ خل رزقاً للمسلمين تجمع في «دار الرزق» وتقسم فيهم. وأحصى المسلمون فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام، أو عدل الجبّة الصوف ثوباً قبطياً وكتب عليهم بذلك كتاباً وشرط لهم إذا وفّوا بذلك الأتباع نساؤهم وأبناؤهم وألا يسبوا وأن تقر أموالهم وكنوزهم في أيديهم فكتب (عمرو بن العاص) بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه)[٢٧].

أي أن العلج يدفع دينارين ضريبة رأس (جزية) ودينارين عن كل فدان، ثم يطعم العربي الفاتح زيتاً وعسلا وخلاّ ويكسوه وينعله، كل ذلك رزقاً للعربي الفاتح!

فإذا لم يفعل العلج ذلك أو قصّر في واحد منه فماذا يكون جزاؤه؟

تُسبى حريمه (زوجته وبناته) وذريته (أولاده، بناته، أحفاده) ويباعون في سوق النخاسة وتصفى أمواله كلها وتنزع من يديه!

وهذا هو الحال مع كل العلوج في البلاد المغلوبة لا في مصر وحدها، وينتصب سؤال: ما هو الذنب الذي ارتكبه أولئك العلوج؟

وبعد فترة ارتأى الفاتحون تعديل الصلح بالزيادة:

(عن يزيد بن أبي حبيب أن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والخل والعسل على دينارين دينارين فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه)[٢٨]. فكيف لا يرضون بهذا الحل ولا يحبونه بل

(٢٧) **فتوح البلدان** ج الأول، للبلاذري، ص ٢٥٢، مصدر سابق.
(٢٨) المصدر نفسه ص ٢٥٤.

ويتدلهون في حبه وهم يعلمون أن أدنى مخالفة له ستؤدي إلى سبي الأهل وانتزاع الأموال. ولقد عبّر كبير العلوج عن حالتهم تمام التعبير في قبولهم شروط الفاتحين كافة (لأننا فرش لا منعة لنا)[٢٩]. ومتى امتنع الفرش عن الوطء والدياسة؟

ولذلك ونتيجة لهذه الثروات ذات الأرقام الفلكية كانت العطايا تصل للعرب والأعراب والأعاريب وهم مستريحون هانئون في مضاربهم (حدثني حزام بن هاشم الكعبي عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حين ينزل بقديد فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيّب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل ذلك حتى توفي... وما من مولود ذكراً أو أنثى إلاّ ألحق في مئة وجريبين في كل شهر)[٣٠]. في الوقت الذي يشقى فيه (العلوج) في الصيف والشتاء طوال النهار ليدفعوا للفاتحين ما فرضوه عليهم عنوة واقتداراً.

والذي لا يماري فيه أحد أن محمداً كان يتمتع بنظرة مستقبلية رائعة (عن مكحول قال: قال رسول الله (ص) جعل رزق هذه الأمة في سنابك خيلها وأزجّة رماحها)[٣١].

* * *

تلك كانت لقطات سريعة عن الأموال بأنواعها كافة التي غنمها الصحاب من البلاد التي فتحوها ويند عن بحثنا إحصاؤها كما أن كاهلنا ينوء لو حاولنا مجرد محاولة حصرها ولكن كما ذكرنا هذه الأمثلة لتدعيم مدار البحث الذي نتناوله وهو هنا العامل

(٢٩) **فتوح البلدان** ج الأول، للبلاذري، ص ٢٥٢.
(٣٠) المصدر نفسه ص ٥٥٢.
(٣١) **كتاب الخراج** ليحيى بن آدم القرشي، ص ٧٦ ــ ٧٧ **والسنابك** ج: سنبك: طرف الحافر والأزجّة ج: زج بضم الزاي وهو النصل.

الرابع في ثراء الصحاب ثراءً لم يحلموا به قط في أي يوم من حياتهم بقي شطر آخر من جانب يشكل ثروة لأنه يقوّم بالمال ويباع ويشترى ويوهب ومن جانب آخر يحقق متعة لمقتنيه ونعني به الجواري أو السبايا.

١ ــ بدأ السبي مبكراً في عهد ابن أبي قحافة الخليفة الأول (فكان أول سبيّ ومال جزية ورد إلى أبي بكر (رض) الذي بعثه خالد بن الوليد إلاّ ما أتاه من مال البحرين)[٣٢]. ولا شك أن السبيّ الأول كان متواضعاً ثم أخذ يتضاعف حتى إن بعض الصحاب تسرى بما يقرب من عشرين سُريّة كما أسلفنا.

٢ ــ وسبى خالد في مخرجه من الحيرة إلى أن انتهى إلى دمشق ألف رأس وقال بعض من روى لنا ــ سبي من مخرجه إلى الحيرة إلى أن انتهى إلى دمشق خمسة آلاف رأس وكان ما بعث من الحيرة مما أفاء الله من السبيّ والجزية خمسة آلاف[٣٣].

٣ ــ ولكن عدد السبايا وصلت ذروته في جلولاء (وأصاب المسلمين يوم جلولاء غنيمة لم يغنموا مثلها قط وسبوا سبياً كثيراً من بنات أحرار فارس)[٣٤]. ومن سبي جلولاء خرج عدد وفير من أولاد الصحابة والتابعين نبغ كثير منهم في العديد من العلوم إذ امتزج الدم العربي بالدم الفارسي كما أن الفارسيات كن آنذاك على قدر وفير من الحضارة والرقي فترقين بأولادهن وعلمنهم الكثير من أساليب المدنية التي كانت العربيات يفتقرن إليها.

وأصاب كل واحد من الفوارس بعد موقعة جلولاء تسعة آلاف

(٣٢) **كتاب الخراج** لأبي يوسف ص ١٥٩، مصدر سابق.
(٣٣) **المصدر نفسه** والصفحة نفسها.
(٣٤) **الأخبار الطوال** للدينوري ص ١٢٩، مصدر سابق.

درهم من الدواب، وكانت القيمة ثلاثين ألف ألف درهم ـ أي ثلاثين مليون درهم ـ وبعث سعد بن أبي وقاص بالأخماس إلى الخليفة عمر (رض)[٣٥]. والفارس الذي احتاز من الغنائم اثني عشر ألف درهم إذا لم تقع في نصيبه جارية فإنه يشتري بجزء يسير مما تحصل عليه جاريه أو اثنتين فقد كان عدد السبي في جلولاء كثيراً من بنات فارس الحرات بصورة لم يسبق لها مثيل، وإنه لتحول عجيب فالعربي الذي كان يفتخر إذا قابل كسرى ولو مقابلة عابرة يظل أحفاده يتيهون بها على غيرهم إذا بهذا الأعرابي البدوي يمتلك ويشتري بنات الأكاسرة والمرازبه والدهاقين والأساورة... الخ.

وجلولاء مدينة في طريق خراسان كانت فوق النهر الذي تسير فيه السفن من يعقوبا إلى باجرا ـ وحدثت الواقعة بها سنة ١٦هـ ـ هكذا عرفها ياقوت في (معجم البلدان).

٤ ـ عن الشعبي أنه قال: أخذ المسلمون يوم المدائن جواري من جواري كسرى جيء بهن من الآفاق فكن يصنعن له فكانت أمي إحداهن[٣٦]. والشعبي مثل لما ذكرناه عن الثمرة اليانعة التي نتجت عن تلقيح الدم العربي بالدم الفارسي وعن تثقيف الفارسيات لأولادهن وتحضيرهن بما كانت تعجز عنه بنات الجزيرة من عربيات وأعرابيات، فالشعبي هو أحد أعلام الحديث وهو مثل لثمرة تلاقح الدمين الفارسي والعربي ويوجد غيره بالعشرات في مجالات كافة الثقافة والفكر، ولعلها إحدى الحسنات القليلة للفتوحات.

* * *

(٣٥) **الكامل في التاريخ**، الجزء الثاني ص ٥١٨.
(٣٦) **فتوح البلدان** للبلاذري نشره د. صلاح الدين المنجد، القسم الأول ص ٣٢٣، مصدر سابق.

بعد هذا العرض السريع ــ على طوله نسبياً ــ في السبب الرابع من مكونات ثروة الصحاب الكثيرة ــ الضخمة وخاصة أولئك الذين تبوأوا من الهرم الاجتماعي أعلى قمة فيه، نقول إنه من غير الطبيعي أن يظل الصحاب يعيشون مثلما كانوا يعيشون ومحمد بين أظهرهم وأنه من المستحيل أن هذه الأموال الوفيرة التي دخلت جيوبهم وخزائنهم عنوة ألا تحدث تغييرات جذرية في مسلكهم وطرائق معيشتهم دورهم وملابسهم وطعامهم وركائبهم بل وطريقة حديثهم ومفردات كلامهم ومعاملاتهم بعضهم بعضاً ومع غيرهم.

إن تغيراً أكيداً هزّ أركان مجتمع الصحابة وزلزله زلزالاً شديداً فالذين كانوا إخواناً متحابين متآلفي القلوب تحولوا إلى أعداء ألدّاء وشهروا السيوف في وجوه بعضهم البعض وقتلوا وسمّوا أصحابهم وتعدى البغي إلى الذراري والأطفال الأبرياء... الخ. وكان هذا أمراً محتوماً أملته التغيرات المادية التي ضربت ذلك المجتمع ضرباً وجيعاً مؤثراً.

إن الذين كتبوا عن (الفتنة الكبرى) لم يلتفتوا إلى هذا الشق المهم. والعجب يتولانا كيف أنهم لم يفطنوا إليه ــ فعلى سبيل المثال ــ نكرر أننا لا نؤرخ للصحاب ــ الزبير وطلحة بعد أن تضلعا من المال وشبعا منه تطلعت نفساهما إلى السلطة والرئاسة والحكم فنازعا الأمر أهله وبعد أن بايعا أبا الحسنين علي بن أبي طالب خليفة وأعطياه صفقة أيمانهما نكلا عنها وحنثا بها وحارباه وهو الخليفة الشرعي ولم يقدما مبرراً واحداً شرعياً أو غير شرعي يسوّغ لهما الخروج على علي بن أبي طالب ومحاربته ــ وأغرب ما يقال دفاعاً عنهما أنهما كانا يطالبان علياً بتسليم قتلة عثمان الذي قتل مظلوماً مع أن موقفهما من التحريض على عثمان معروف ــ ودافع

التطلع إلى مسك مقاليد الحكم بعد احتياز الثروة الأسطورية لم ينل حظه من تقليب الرأي، فهل نقول في مختتم هذا الفصل أن خيرات البلاد المفتوحة كانت نقمة على الصحاب لا نعمة إذ لولاها لما تقاتلوا ولظلوا في محبة وإخاء مثلما كانوا في الأيام الخوالي وهم يربطون الأحجار على بطونهم ولا يجدون سوى الأسودين: التمر والماء.

أم أن الله جلّ جلاله لم يشأ أن تذهب دماء وأبشار وأموال ونسوان وذراري أهل البلاد المفتوحة ــ هدراً فأوقع بين الصحاب (الفتنة الكبرى) التي ما زالت آثارها باقية حتى الآن.

* * *

بعد أن تمّ قشع خيرات البلاد الموطوءة أو أغلبها وحتى يستمر نهر الثروات جارياً لا يتوقف ولا يفيض كان التركيز على تحصيل ضريبة الرؤوس وضريبة الأرض باختلاف ضروبها، ومن ثم تمّ اللجوء إلى أساليب لا تقرها (النصوص) فضلاً عن العدل المطلق الذي تعارف عليه البشر في كل مكان وزمان:

١ ــ... ومرّ عمر راجعاً إلى المدينة فمرّ على قوم قد أقيموا يُعذبون في الخراج فقال عمر: دعوهم ولا تعذبوهم، فإنني سمعت رسول الله (ص) يقول: إن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله في الآخرة يوم القيامة فخلى سبيلهم(٣٧). ويورد باحث معاصر هذا الخبر ويصف لنا طريقه التعذيب البشعة (يُصبّ على رؤوسهم الزيت وهم معرّضون لحرارة الشمس المحرقة) وأن تعذيبهم كان

(٣٧) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني، ص ١٤٧.

لعجزهم من أداء الجزية لا الخراج وأن جوابهم أنهم (لا يجدون)... وأن تعذيبهم يستمر حتى يؤدّها ثم حكى منع عمر من تعذيبهم[٣٨]. هذه مرة رآها عمر وهو في طريقه إلى المدينة فكيف له أن يراقب أطراف الأمبراطورية الوسيعة التي فتحت في عهده!

٢ ــ ورأينا فيما سبق أن عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر وعيّن بدلاً منه عبد الله بن سعد بن أبي السرح لأنه لاحظ ضعف الخراج فما كان من الأخير إلاّ أن شمّر عن ساعديه فضاعف الخراج ــ وأن الخليفة الثالث سخر بعدها من عمرو وقال له: إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها، قال: ذاك أنكم أعجفتم أولادها[٣٩]. وهي عبارة عميقة الدلالة تؤكد الأساليب العنيفة في جباية الضرائب المتنوعة التي ألزم بها أهل البلاد المفتوحة إذ كيف يضاعف ابن أبي السرح الحصيلة في مدة قصيرة بطرق مشروعة؟.

٣ ــ واستمر الحال على المنوال عينه حتى زمن علي بن أبي طالب ــ طبعاً دون علمه لأنه لا يرضى بذلك ولكنه وصل إلى مسامعه فأمر على الفور ــ لا على التراخي بالتحقيق فيه فتبين للجنة التي أرسلها لتقصّي حقيقة الأمر صحة ذلك وأعلن رئيسها علانية في مسجد قومه أن ما يجري في (السواد) هو الشر بعينه: (... وشكا أهل السواد إلى علي (رض) بعث مائة فارس فيهم ثعلبة بن يزيد الحماني فلما

(٣٨) **النظام المالي في الإسلام** تأليف عبد الخالق النواوي د. في الشريعة والقانون ص ١٦٦، الطبعة الثانية ١٩٧٣، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ولكنه لم يورد المصدر الذي استقى منه الخبر.
(٣٩) **فتوح البلدان** للبلاذري، الجزء الأول، ص ٢٥٣، مصدر سابق.

رجع ثعلبة قال في مسجد بني حمان: لله على علي أن لا أرجع إلى السواد مما رأى فيه من الشر)[٤٠].

العبارة التي قالها ثعلبة تؤكد أنه رأى في (السواد) أي في الأرض التي يزرعها ويكدح فيها العلوج شراً كثيراً أي تعذيباً شديداً وسوء معاملة لا تقرها (النصوص) التي ادعى الغزاة أنهم دخلوا البلاد لنشرها وتطبيقها وأقسم بالله ألا يرجع لـ (السواد) وكان ذلك في مسجد قومه: (بني حمان) حتى يأمن على نفسه. ونحن نضيف من استقراء سيرة أبي الحسنين أنه لا يقر ذلك (الشر) وأنه لا بد عمل على استئصاله. ولكن الخبر يؤكد أن التعذيب دام منذ الفتح الميمون حتى زمن علي.

٤ ـ ولكن ما هو الحكم في من يتخلف من أهل البلاد عن أداء ما عليه من ضرائب مفروضة؟

بداية نذكر أنه في رأي أبي يوسف قاضي القضاة وصاحب أبي حنيفة أن الجزية بمنزلة مال الخراج وأنها تسمى أحياناً (خراج الرأس) ويفتي الصاحب أنه (لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ولا يحمل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدّوا ما عليهم ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية)[٤١].

وسبق أن أوردنا الحديث الذي رواه عمر عن محمد فيمن يعذبون ـ ولكن هذا الحديث الذي يحمل العدل المطلق وحكم

---

(٤٠) **كتاب الخراج** تأليف يحيى بن آدم القرشي المتوفى سنة ٢٠٣هـ صححه الشيخ أحمد شاكر ١٣٠٩/ ١٣٧٧هـ ص ٤٥، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ ـ المطبعة السلفية ومكتبتها.

(٤١) **كتاب الخراج**، لأبي يوسف، ص ١٣٣، مصدر سابق.

الشرع كليهما قد تنوسي في سبيل تحصيل أكبر قدر من المال من أهل البلاد الموطوءة ليظل فيضان الثروات متدفقاً لينعم الصحب بها بل راعى الغنم في باديته!

* * *

الصحابة
وتملك القطاعات

هذا العنوان غريب على بصر القارئ لم يتعوده بل لم يسمع به وغريب عن مفهومه للصحبة، والعلة في ذلك أن الكتابات التفخيميّة تطمس هذا الجانب من حياتهم تخفيه ترميه في مثلث الظلام والتهميش والتعتيم مع أن السلف ذكروه في كتبهم، بل إن أحدهم وهو يحيى بن آدم القرشي من فقهاء القرن الثاني الهجري (توفي سنة ٢٠٣هـ) في كتابه «الخراج» أفرد فصلاً خاصاً بعنوان (القطائع) ولم يكن هو الفريد في ذلك بل أوردها: (أخبار الاقطاعات) العديد من مصنفي تلك الكتب التي تلقتها الأمة بالتجلة والقبول وهي أخبار موثقة كل واحد منها له سنده وسلسلة رواته. ومن هنا فإن أعضاء فرقة التمجيد لا يستطيعون أن يطعنوا فيها، ومن المؤسف أن الذين كتبوا عن الصحاب سواء كمجموعة أو فرادى تعاموا عن هذا الأمر وأغفلوه وهذا يسم كتاباتهم بالهوى والتحيز وطلاق الموضوعية ومفاصلة الروح العلمية ويضعها في خانة المحررات الإنشائية الخطابية ويجعلها أقرب إلى قصائد المديح منها إلى البحوث العلمية والدراسات الرصينة ولا عجب في ذلك فأحد أعلام الذين كتبوا عن بعض الصحاب شاعر مُغلق له عدة دواوين

وإن اختلف النقاد في القيمة الفنية لشعره ونحن لا نذكر أسماء أولئك المداحين لأننا لا نرمي إلى التجريح أو التعييب، وجانب احتياز الثروات الضخام وتملك القطائع أو الإقطاعات من قبل بعض كبار الصحاب لم يكن هو الجانب الوحيد الذي أغفله التمجيديون بل جوانب عديدة ذكرنا بعضاً منها فيما تقدم من فصول وسنورد شطرها الآخر فيما نستقبل من فصول.

ومن هنا تأتي مصداقية دعوتنا: ضرورة كتابة التاريخ العربي الإسلامي كتابة أخرى غير الكتابة التي سادت منذ قرون والتي استمرت حتى زمننا الراهن والتي انزلق إليها كتّاب كبار طاوعهم ضميرهم الفكري أن يمروا عبر بوابتها ويعوموا في بحرها، والذي يثير الدهشة أن بعض هؤلاء بدأ مستنيراً وعقلانياً وليبرالياً ودبّج محررات تفصح عن قدر كبير من التفتح والطليعية ولكنه سرعان ما تراجع ونكص على عقبيه، وهي ظاهرة لا بد أن يتصدى لها أحد الدارسين ليحللها ويكشف عن العوامل الكوامن خلفها وعن الدوافع التي حثتهم على ذلك.

واحتياز الصحاب للإقطاعات وتملكهم لها كان أمراً محتوماً لا فكاك منه بعد نكف خيرات البلاد الموطوءة[١]. ونكش خزائنها وقصورها ودورها[٢]. بل إن ذلك الإقطاع كان جزءاً من خطة السيطرة على بلاد الفتح المبارك والهيمنة عليها لأن الصحاب اعتبروا أنفسهم منذ الوهلة الأولى هم أصحاب أرض السواد جميعها دون منازع ولم يتركوا لنا فرصة للظن أو التخمين أو الترجيح بل صرحوا علانية: نحن ملاك تلك الأرضين دون أهلها بل دون غيرهم من المسلمين حتى من (أهل البلاء) أي الذين

(١) في **المعجم الوسيط**، **نكف** البئر: نزحها.
(٢) في **القاموس المحيط** للفيروزأبادي، **نكش الشيء**: أخرج ما فيه.

شاركوا في الفتوحات وأبلوا فيها ولا (أهل الأيام) الذين شهدوا أي حاربوا في بعض الأيام (المعارك) مثل يوم القادسية أو يوم جلولاء أو يوم المدائن (لا يعني هذا أن أياً من هذه المعارك انتهت في يوم فمعنى يوم كذا أي معركة كذا وإن استغرقت عدة أيام) ولا (أهل الطاعة) الذي يدينون بالولاء لرؤساء قبائلهم ولا (القراء) أي الذين جمعوا بين حفظ القرآن والقتال (هم نواة فرقة الخوارج) وسنورد فيما بعد تلك الأقوال التي تقطع بذلك وتسد الطريق على أي مكابر، وهي المرة الأولى في التاريخ التي تعتبر جماعة من البشر مهما بلغ سموها وعلو منزلتها هي المالكة وحدها للأراضي التي تغزوها جيوش دولتها، وبلغ الإصرار من جانب الصحاب أنهم كانوا يفسخون بيع وشراء أي جزء من تلك الأراضي لأن البيع والشراء لم يتم عن طريقهم ومن ثم يغدو باطلاً لأن التصرف صدر ممن لا يملكه.

روى الشعبي قال: اشترى عتبة بن فرقد أرضاً على شط الفرات فذكر ذلك لعمر بن الخطاب (رض) فقال ممن اشتريتها؟ قال: من أربابها، فلما اجتمع المهاجرون والأنصار عند عمر (رض) قال: هؤلاء أهلها فهل اشتريت منهم شيئاً؟ قال: لا قال: فاردد على من اشتريتها من وخذ مالك[٣]. هذا الخبر وثيق لأنه تواتر في عدد من المصادر ذات الرتبة العالية التي تناولت مسائل (الأموال والخراج) إذن لا مطعن عليه وفيه نجد أن الخليفة الثاني فسخ عقد عتبة بن فرقد بحضور الصحاب (المهاجرون والأنصار) لأنهم (أهلها) أي أصحابها وملاكها هم متكئون في أثرب/ المدينة على فرشهم ويتملكون الأراضي التي انداست بسنابك الخيول في العراق

(٣) كتاب **الاستخراج لأحكام الخراج**، للإمام الحافظ أبي الفرج بن رجب الحنبلي، تصحيح عبد الله الصديق ص ٧٨ الطبعة الأولى ١٩٨٢م، دار الحداثة، بيروت والخبر أورده يحيى بن آدم في **الخراج** وأبو عبيد في **الأموال**.

وفارس والشام ومصر وغيرها ولا يحق التعامل فيها إلاّ بمشيئتهم أو تصديقهم. وهذا الذي فعله الأصحاب مخالف لتعليم محمد لهم ولتعاليمه الصارمة كحد السيف إليهم: أنه ليس لهم إلاّ ما يصالحهم عليه أهل البلد المفتوح (قال رسول (ص): لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم فيصالحونكم على صلح فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم)[٤].

هذا حديث أوضح من الشمس في رابعة النهار: ليس للصحبة إلاّ مقدار الصلح أما غير ذلك (فإنه لا يصلح لهم) أي لا يجوز ولا يحل. وبداهة فإن الأهالي لم يصالحوا الفاتحين على تملك الأرض نفسها ولا يعقل أن يصالحوهم على ذلك، فكيف أفتى ابن الخطاب بأن أرض السواد ملك للمهاجرين والأنصار (نخبة الصحاب) ألم يسمع بهذا الحديث وعلى فرض عدم سماعه من محمد لاستحالة سماع كل صحابي كل أحاديث محمد أفلم يسمعه واحد من الذين عرض عليهم فسخ عقد عتبة بن فرقد فيقف ويقول له: لا يا عمر إن هذا مخالف لأحاديث محمد!

ألا ينسحب هذا الحديث على ما نُهب من القصور والدور والكنوز والخزائن؟

ألا ينطبق على سكنى بيوت أهالي البلاد المفتوحة بدلاً منهم؟ وهناك معطى ـــ في الحديث ـــ في غاية الثمانة وهو قوله (فيتقونكم بأموالهم) فالخوف تارة يسمى التقوى[٥]، أي يخافونكم فيفتدون أنفسهم وأبناءهم بأموال يصالحونكم عليها!

(٤) أخرجه أبو داوود في **سننه**، أورده الحافظ أبو الفرج الحنبلي، في كتابه **الاستخراج لأحكام الخراج**، ص ٦٩، مصدر سابق.
(٥) **المفرات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني (كتاب الواو).

وتغير الوضع المادي ذلك التغير الكبير لا بد أن يطول أحوال الصحبة كافةً دون حصر وكان من المستحيل أن يظلوا يعيشون بالصورة الساذجة التي كانوا عليها:

يقضون الحاجة في الخلاء لأن خيامهم وبيوتهم ليست فيها دورات مياه ولباسهم نسوة ورجالاً هو رداء وإزار دون ملابس داخلية وطعامهم بسيط جشب (غليظ) بلا أدم... الخ.

إذن كان امتلاك الضياع أمراً مقضياً إثر تلك الطفرة وبعد أن غدت الصحبة هي المتربعة على ذروة الهرم الاجتماعي والراكبة على سنامه والمتحكمة في القرارات السياسية والاقتصادية:

١ ــ عن عروة عن أبيه: أن أبا بكر (رض) أقطع الزبير ما بين الجرف إلى قناة[٦]. أي أن الاقطاع بدأ مبكراً منذ الخليفة الأول الذي بدأت في عهده الفتوحات ولكن هذا الإقطاع ليس في أرض السواد بل في منطقة الحجاز إنما يشي بأن الصحابة وخاصة القرشيين المهاجرين هم النخبة التي من حقها تملك الإقطاعات إذ لم نسمع عن أبي بكر ولا غيره من باقي الخلفاء أن أقطع واحداً من عامة المسلمين شبراً في الأرض.

٢ ــ حدثنا الحسن (البصري): قال: سمعت عن عبد الله بن الحسن يقول: إن علياً (رض) سأل عمر بن الخطاب فأقطعه ينبع[٧]. وهذا حديث (عائلي) راويه أحد أحفاد علي وهنا نجد عمراً يقطع علياً «ينبع» ويعرفه الفيروزأبادي بأنه «حصن له عيون ونخيل وزروع بطريق حاج مصر»[٨] ولهذا الخبر رواية أخرى عن

(٦) يحيى بن آدم في **الخراج** ص ٧٣، أبو يوسف والبلاذري أورداه.
(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٨) **القاموس المحيط** فصل النون والعين.

حفيد آخر لأبي الحسن وهو جعفر بن محمد وإليه تنسب فرقة الجعفرية الاثني عشرية ومن العلماء الأجلاء مما يعطى لروايته ثقلاً أكيداً (عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه قال: اقطع عمر بن الخطاب (رض) علياً ينبع فأضاف إليها غيرها)[٩]. وفي رواية جعفر الصادق زيادة لم ترد في الخبر الأول: (فأضاف إليها غيرها) أي أنه لم يكتف بينبع بل زاد عليها. وعلاوة على اختصاص أهل القمة بالخيرات الحسان واستئثارهم بها فإن ما عمله ابن الخطاب يدخل في باب سياسة استرضاء (بني هاشم) وكان أبو الحسن زعيمهم حتى يطفئ النار التي تورى في حواني أضلاعهم لأن الخلافة ــ خلافة محمد ــ للمرة الثانية تطير منهم، ويصيدها فرع هزيل.

وهكذا دخل علي في زمرة أصحاب الإقطاعات بعد أن كان يبيت كالاً من عمل يده وهذا الخبر يؤيد ما قاله ــ فيما رأينا ــ شيخ الإسلام ابن تيمية أن علياً ترك لأولاده (البنين والبنات) وكانوا كثيرين ما جعلهم من أغنى أقرانهم وأضاف «الحراني»: أن هذا أمر يعرفه الناس.

٣ ــ عن موسى بن طلحة قــال: أقطع عمر (رض) خمسة من أصحــاب النبي (ص) سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وخباب وأسامة بن زيد قال وأراه قال الزبير: فأما أسامة فباع أرضه[١٠]. وسعد والزبير قرشيان مهاجران ومن مجلس العشرة وفيما بعد من لجنة الشورى (الستة) والزبير وسعد وخباب وأسامة مكيون وعبد الله بن مسعود من السابقين في الإسلام أي كلهم من النخبة إذن مكنهم وضعهم الميتاتاريخي من تسنم الذروة ــ ذروة

(٩) كتاب **فتوح البلدان**، للبلاذري، تحقيق د. صلاح الدين المنجد. القسم الأول ص ١٤، مصدر سابق.
(١٠) **الخراج** ليحيى بن آدم ص ٧٤، مصدر سابق.

الهرم ــ وتلقى منائح الخليفة وهي الإقطاعيات، وسبق أن ذكرنا أن عبد الله بن مسعود كان لا يجد قوت يومه حتى اضطرت زوجته إلى الإنفاق عليه وعلى عيالهما من بند الصدقة (= الزكاة)، وخباب كان مولى وقيناً وأسامة مولى بن مولى وذكرنا وصفه (أسود أفطس) وسعد كان عندما يخرج في سرية لا يجد هو ورفقته سوى شوك الغضاة يتبلغون به.

٤ ــ عن عمر (رض) أنه كتب إلى سعد (بن أبي وقاص) يقطع سعيد بن زيد (رض) عنهم أرضاً فأقطعه أرضاً لبني النفيل(١١). وبقية الخبر أن أصحاب الأرض ثاروا وهاجوا وماجوا فاضطر عمر إلى إعادة أرضهم إليهم ولكن سعيداً لم ييأس فلما تولّى عثمان سعى لديه حتى يقطعه إقطاعية أخرى:

(وكان عثمان بن عفان قد أقطع سعيد بن زيد بن نفيل أرضاً بالكوفة فنزلها وسكنها إلى أن مات وسكنها من بعده من بنيه الأسود بن سعيد وكان له أربعة بنين: عبد الله وعبد الرحمان وزيد والأسود كلهم أعقب وأنجب)(١٢). وسعيد بن زيد قرشي قديم الإسلام مهاجر ومن مجلس العشرة المبشرين بالجنة واحتاز بعد ذلك الأموال والأرضين فتفرغ للعناية بها ولإنجاب الذرية الكثيرة حتى بلغ خلفه نيفاً وثلاثين ولداً وهذا يفسر انصرافه عن المساهمة في الأعمال والقضايا العامة مما أدى إلى خمول ذكره في كتب السيّر والتواريخ.

٥ ــ وجاء عثمان فسار في طريق سلفه الصالح عمر بن الخطاب في نفح الصحاب النخبة الاقطاعيات: (حدّثني إبراهيم بن

---

(١١) كتاب **الاستخراج** لأبي فرج الحنبلي ص ١١٠ سابق.
(١٢) **الاستيعاب** لابن عبد البر المجلد الثاني، ص ٦١٨، مصدر سابق.

المهاجر عن موسى بن طلحة قال: أقطع عثمان بن عفان لعبد الله بن مسعود (رض) في النهر ولعمّار بن ياسر: استينيا وأقطع خباباً صنعاء وأقطع سعد بن مالك قرية هرمزان قال: فكل جار قال فكان عبد الله بن مسعود وسعيد يعطيان أرضهما بالثلث والربع)[١٣].

والخبر ذاته أورده الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه (الاستخراج) ص ١٠٩ وذكر له روايات عديدة مما يقطع بتوثيقه وارتفاع الطعون عنه ونلاحظ في هذا الخبر أن الإقطاع يتم بقرى بأكملها مثل إقطاع عمار: إستينيا وهي قرية بالكوفة وسعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص: قرية هرمزان وخَبّاب بن الأرَتّ قرية صنعاء. وبداهة أن إقطاع القرية يعني بما عليها من «علوج» وهو ذات نظام القنانة الذي عرفته أوروبا في العصور الوسطى، ولا حاجة بنا إلى ذكر حالة ابن مسعود وخباب وعمار وسعد بن مالك في بدء الأمر فقد عرفها القارئ.

والذي يظهر جلياً من هذا الخبر وسابقه أن الخليفة (ولى الأمر) مطلق اليد في المالية العامة فله أن يقطع من يشاء ما يشاء ويحرم من شاء دون رقيب أو حسيب وهذا هو ما يسميه البعض (العهد الذهبي) ويعملون بكل جهدهم على إعادته.

٦ ــ عن هشام بن عروة قال: خرج عمر يقطع الناس وخرج معه الزبير فجعل عمر يقطع حتى مرّ (بالعقيق) فقال: أين المستقطعون؟ منذ اليوم ما وددت بقطعة أجود منها فقال الزبير أقطعنيها فأقطعه إياها)[١٤].

هذا الخبر على قصره تفضل علينا بأكثر من مُعطى على قدرٍ

---

(١٣) **الخراج** لأبي يوسف ص ٦٧، مصدر سابق ذكره.
(١٤) كتاب **فتوح البلدان** للبلاذري، ص ١٢، مصدر سابق.

وفير من الأهمية ومن إضاءة جوانب معتمة في مجتمع الصحابة منها:

أ ــ أن ولي الأمر أو الحاكم أو الخليفة أو رأس الدولة من حقه أن يعطي ما يشاء ويمنح من يشاء ويقطع من الأرضين ما يعنّ له اقطاعاً دون الرجوع إلى قانون أو استشارة مجلس وهذه هي الفترة التي ينعتونها (بالذهبية) ويحلمون بعودتها ويعملون على إعادتها.

أما نحن فننظر إليها في ظروفها التاريخية وموجباتها الزمنية ونرى أن ابن الخطاب العدوي ربما لم يخطئ بمقاييس عصره، ولكن أن تظل أفعاله ومن سبقه قدوة وأسوة ويجب تطبيقها في كل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها فلا. وعلى الذين يعدون تلك الحقبة بأنها المثل الأعلى ألاّ يُسقطوا في تقويمهم لها الفارق الزمني بين ما كان صالحاً في القرن السابع الميلادي وبين ما يصلح للقرن الحادي والعشرين ومن هنا يجيء قولنا إن دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان دعوى تحتاج إلى إعادة نظر.

ب ــ أنه كان هناك مستقطعون من الصحبة بدليل سؤال عمر: أين المستقطعون؟ أي الذين يرغبون في تملك الإقطاعات.

جـ ــ أن «العقيق» كما ذكرنا آنفاً منتجع النخبة فقد وصفها عمر بـ (ما مررت بقطعة أجود منها) وهناك أكثر من واحد من كبار الصحبة تملك في «العقيق» منهم سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة.

د ــ إن عمراً أقطع جزءاً من «العقيق» للزبير بن العوام أضيف إلى ثروته الطائلة.

٧ ــ وحدثنا أبو حنيفة (رض) عمن حدثه قال: كان لعبد الله بن مسعود أرض خراج وكان لخباب أرض خراج وكان للحسين (وفي رواية للحسن) بن علي أرض خراج وغيرهم من الصحابة (رض)[١٥].

راوي هذا الأثر هو الإمام الأعظم أبو حنيفة شيخ المذهب الفقهي المعروف مما يعطيه ثقلاً فقد اشتهر بالصدق والصلاح والأمانة... الخ. وهو يؤكد الأخبار السوابق ولكنه ينفحنا بملمح في غاية النفاسة هو قوله (وغيرهم من الصحابة) ودلالة ذلك أن الأسماء التي أوردها كانت على سبيل المثال وأنه أمر شائع (امتلاك الاقطاعيات) وسط الصحابة الذروة والذروة فحسب إذ لم نسمع أن صحابياً من النوع (السُك) منحه الخليفة (الثاني أو الثالث) ذراعاً واحداً[١٦].

ويعلل قاضي القضاة أبو يوسف إقطاع الخلفاء للقمة من الأصحاب فقط بقوله: (إنما أقطعوا من رأوا أنه له غناء في الإسلام ونكاية للعدو ورأوا أن الأفضل ما فعلوا)[١٧]. وفضلاً عن أن «الصاحب» أتى بعبارات فضاضة غير منضبطة لأنها تنطبق على الكثيرين من الصحاب ولكن لا ابن الخطاب ولا ابن عفان أقطعاهم شبراً ولكن هذا هو منهج فقه التبرير الذي من هذه العبارة

(١٥) **كتاب الخراج** لأبي يوسف ص ٦٨، مصدر سابق.
(١٦) **السُك** بضم السين في **المعجم الوسيط:** السُك من الطرق المنسد والبئر الضيق الحفر وجحر العقرب وتقول العامة في مصر فلان (سَكّهْ) بفتح السين وتشديد الكاف أو ــ (أي كلام) ــ أي لا وزن له. ا. هـ.
(١٧) **الخراج**، ص ٦٨ مصدر سابق.

سيبين لنا أنه بدأ مبكراً للغاية فهنا نجد قاضي القضاة يسوّغ عمل عمر ومن بعده عثمان باختصاص بعض أهل الذروة بالقطائع الجزيلة. ولسائل أن يسأل أبا يوسف كم واحد من الأنصار ممن كان له غناء في الإسلام ونكاية للعدو منذ الفجر أي منذ البواكير الأولى لزمن محمد؟ فلماذا طوّش عنهم الخليفتان الثاني والثالث[١٨]؟.

* * *

تلك كانت مجرد أمثلة ــ على إقطاعيات الصحبة أو على الصحب ذوي الإقطاعات والذين هم كثير حسب تعبير أبي حنيفة، ولكن أليس في إقطاع الخليفتين عمر وعثمان لعدد من صفوة الصحاب ولتملكهم هؤلاء الأخيرين لتلك القطائع مخالفة لحديث محمد الذي لا نظن أن الصحاب وخاصة من لازموه لم يسمعوه (.. سمعت عبد الله يقول: قال رسول الله (ص) لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا)[١٩].

أم أنهم سمعوه وحفظوه وأعرضوا عنه وعن أمثاله جرياً على مذهب من يفتي بأن أحاديث الزهد والتزهيد... هي رغيبة وليست ملزمة أي من رغب أن يأخذ بها فعل ومن تجاوزها والتفت عنها فلا تثريب عليه ولكن أليسوا هم أولى المسلمين بالعمل بأحاديث محمد رغيبة كانت أو فريضة!

* * *

وإذا كان قاضي القضاة أحد فقهاء التبرير الكبار وأحد رواد

(١٨) في **المعجم الوسيط**، **طوّش** فلان: مطل غريمه والعامة في مصر تقول **طنْش** ــ بالنون. ا. هـ.
(١٩) رواه الترمذي وحسّنه أي قال عنه إنه حسن، نقلاً عن **الخراج** للقرشي، ص ٧٦، مصدر سابق.

(فقه تسويغ أعمال الحكام وأولياء الأمر والسلاطين... الخ) فلقد جاء من بعده فقيه رغم أنه لم ينجُ من تهمة التسويغ والتبرير (مثل تبريره لولاية العهد دون اعتبار لرأي الرعية) لم يطاوعه ضميره الديني وأمانته العلمية أن يبرر الإقطاع. ذلك الفقيه هو أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ) وقرر أنه باطل لأنه افتئات على حقوق بيت المال أي إهدار للمال العام (.. مَنْ مِنْ أقسامه أن يستقطعه مدة حياته ثم لعقبه وورثته بعد موته، فهذا إقطاع باطل لأنه خرج بهذا الإقطاع من حقوق بيت المال إلى الأملاك الموروثة)[٢٠].

وإقطاعات الصحاب كانت من هذا النوع لأن أعقابهم توارثوها من بعدهم إذن هي باطلة كما انتهى إليه الماوردي.

فما الذي دعا عمراً وعثمان إلى الإقدام عليها؟

عدة عوامل سياسة لا شك أنها دفعتهما إلى ذلك ولكن لا مشاحة في أنه لولا التطورات الاقتصادية المفاجئة التي طالت مجتمعهما وباقي الأصحاب لما كان في مسيورهما أن يفعلا، فالتغيرات وخاصة المادية هي التي تؤدي بطريق الحتم واللزوم إلى تغيير السلوكيات بل وإلى تغيير الأفكار والمعتقدات، مهما تحصن أفراد المجتمع وراء سياج (النصوص) لأن العوامل المادية أقوى منها بكثير.

---

(٢٠) **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** للماوردي ص ١٩٦، الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، مصر.

أ. في حياة محمد

لم تتغير نظرة الصحاب للغنائم في الغزوات والسرايا والبعوث التي كان يقودها أو يسيّرها محمد عن نظرتهم السابق لها أيام كانت قبائلهم تشن الغارات بعضها على البعض والتي كان من أهم أهدافها انتهاب ما تصل إليه أيديهم حتى ولو كان قليل القيمة وكان طبيعياً ثبات تلك النظرة واستحالة تغييرها في زمن يسير لأن الغالبية العظمى من الصحبة عاشت نسبة كبيرة من حياتها في ظل شريعة النهب والسلب، وفي السِفْر الأول (محمد والصحابة) فصل (التنفيل) أوردنا شطراً مما يسلط الضوء الكاشف على هذه الخاصية التي لازمت الصحاب وما قام به محمد من جهود خارقة لطاقات البشر في تقويمها والطرق التي سلكها لمعالجتها والآلات التي استعملها من أجل ذلك.

إن هذه العادة بدأت مبكرة في غزوة بدر الكبرى ـــ أولى وأحسم المعارك ـــ ولكنها تواصلت وفي كل مرة كان محمد يحزن لارتكاب أصحابه تلك الأفعال ويبدأ في المداواة مرة باللين ومرة بكلام فيه حزم وصرامة:

١ ــ عن عبادة بن الصامت قال: لما هزم العدو يوم بدر وأتبعتهم طائفة يقتلونهم وأحدقت طائفة برسول الله (ص) واستولت طائفة على العسكر والنهب فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم وقالوا: لنا النفل بحسن طلبنا للعدو وبنا نفاهم وهزمهم وقال الذين أحدقوا برسول الله (ص) والله ما أنتم بأحق به منا نحن أحدقنا برسول الله (ص) لا ينال العدو منه غرة: وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: والله ما أنتم أحق منا نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا فأنزل الله تعالى ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ فقسمه رسول الله (ص) بالسوية)[1].

الروح نفسها ومفردات معجم العرف السابق عينها الذي يسود في الغارات الأولى (قبل الإسلام): العسكر النهب، الاستيلاء، النفل... الخ.

وكنا قرأنا في موضع سابق في شأن هذه الواقعة تصريحاً لأحد الصحاب الأكابر بأن أخلاقهم ساءت عند التنازع والتخاصم على غنائم بدر، وهذا التخاصم لا يخلو منها كتاب تفسير.

٢ ــ عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان بدر قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمّى (الكثيفة) فأتيت به رسول الله (ص) وقد قتل أخي عُمير قبل ذلك فقال لي رسول الله (ص): اذهب به فألقه في القبض فرجعت وبي ما لا يعلمه إلاّ الله من قتل أخي وأخذ سلبي فما جاوزت إلاّ قريباً حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله (ص): اذهب فخذ سيفك[2]. سعد بن أبي

(١) **أسباب النزول** لأبي الحسن الواحدي النيسابوري ٤٦٨هـ، ص ١٥٦، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي بمصر، وكذلك النزول للسيوطي، ص ٨٥، طبعة ١٣٨٢هـ، مكتبة التحرير بالقاهرة.

(٢) رواه أحمد في **مسنده** وابن أبي شيبه في **مصنفه** والحاكم في **المستدرك**، نقلاً عن =

وقاص أو سعد بن مالك هو بطل القادسية والذي كسح أموالاً أسطورية من الأمبراطورية الساسانية والذي بنى قصراً في «العقيق» ضاحية النخبة في أثرب/ المدينة حزن لحرمانه من سيف قتل صاحبه لأنه عاش شطراً وسيعاً من عمره في ظل عرف يقرر (من قتل قتيلاً فله سلبه). فلما تجاوز محمد عن هذا العرف لمصلحة المجموع ركب سعداً من الهم والغم (ما لا يعلمه إلاّ الله)، ولكن السماء تدخلت فأعادت إليه سلبه كما فضت الاشتباك على الغنائم بين الأصحاب.

ومما هو جدير بالذكر أن قاعدة إعطاء سلب القتيل لقاتله أعادها مرة أخرى محمد وأعلن الأخذ بها وفعلت فعل السحر في نفوس الصحبة إذ رأينا أحدهم يقتل عشرين في عركة هوازن/ حُنين ويستولي على أسلابهم.

(حدث عن أنس (رض) أن أبا طلحة (رض) استلب وحده عشرين رجلاً أي قتلهم وأخذ أسلابهم)[٣]. وأورده المقريزي بالصيغة الآتية (وكان أبو طلحة قد قتل عشرين رجلاً فأعطاه سلبهم)[٤].

لقد أدرك محمد بثاقب نظره أن تلك القاعدة، قد ترسخت جذورها في نفوس صحابته وأن محوها سوف يثبط هممهم ويفلّ

= كتاب **الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار** للحافظ أبي بكر الهمذاني، ص ٥٤٨/ ٥٨٤هـ، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي ص ٣٢٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، دار الوعي، حلب، والواقعة نفسها أوردها السيوطي في **أسباب النزول** مصدر سابق.

(٣) **إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون** الشهير بـ **السيرة الحلبية** الجزء الثالث ص ٧١، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(٤) **إمتاع في الإسماع** للمقريزي ج ١ ص ٣٠٥، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨٤م دار الأنصار بمصر.

عزائمهم ويبرد حماستهم فأرجعها إلى مكانها وأذاع ذلك فابتهش الصحاب وبرئوا من الإحباط والاكتئاب الذي ضرب نفوسهم إثر إلغائها من قبل محمد وتفانوا في قتل العدو للحصول على سلبهم ولعل في واقعة الصحابي الذي قتل عشرين في غزوة واحدة خير دليل على ذلك.

٣ ـ لم تنقطع تجاوزات الصحاب في سبيل الحصول على الأسلاب والغنائم والأموال وأقدم البعض على فعل عظيم استفظعه محمد أيما استفظاع وهو قتل من ينطق بالشهادتين وهما شارة الدخول في الإسلام وهوية التابعية لدولة قريش التي أقامها في أثرب:

(مرداس بن نهيك الغزاري، فيه نزلت ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ كان يرعى غنماً له فهجمت عليه سرية... فيها أسامة بن زيد وأميرها سلمة بن الأكوع فلقيه أسامة وقال: السلام عليكم أنا مؤمن فحسب أسامة أنه ألقى إليه السلام متعوذاً فقتله فأنزل الله عزّ وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ وكان رسول الله (ص) يحب أسامة ويحب أن يثني الناس عليه خيراً إذا بعثه بعثاً... وكان مع ذلك يسأل عنه فلما قتل هذا المسلم مرداساً لم تكتم السرية ذلك عن رسول الله (ص) فلما أعلنوه بذلك رفع رسول الله (ص) رأسه إلى أسامة فقال له: كيف أنت ولا إله إلاّ الله فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً فقال رسول الله (ص): هلاّ شققت عن قلبه فنظرت إليه فأنزل الله هذه الآية وأخبر أنه إنما قتله من أجل عرش الدنيا: غنيمته)(٥). وأضاف أن الحديث ورد في تفسير السدي وتفسير ابن جريج عن عكرمة وفي تفسير عن قتادة وقاله غيرهم أيضاً، الذي أقدم على هذه

---

(٥) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٣ ص ١٣٨٧، مصدر سابق.

الفعلة هو (الحِب بن الحِب) أسامة بن زيد الذي كان محمد يحبه ويحب أباه ويدنيهما منه الأمر الذي أحزنه وجعله يعاتب أسامة عتاباً شديداً حتى حلف (ألاّ يقاتل رجلاً يقول: لا إله إلاّ الله)، وأدلة ثبوت الخبر بهذه الصورة متوافرة فضلاً عن وروده في (الاستيعاب) فقد أخذه كل من السدي وابن جريج في تفسيرهما للآية ولو أن الواحدي في (أسباب النزول) ينسب قتل الرجل إلى المقداد بن الأسود وهو أيضاً من مشاهير الصحابة[٦]. والمؤلم في الخبر أن الرجل كان يرعى (غنيمته) أي لم يكن محارباً وأنه ألقى عليهم السلام وأعلن إسلامه ونطق بالشهادتين وأن ما معه (غنيمته) لا تساوي سفح دمه وإزهاق روحه وكان أولى بأسامة أو المقداد أن يعرضا عليه الإسلام ويرغّباه في اعتناقه لو كان مشركاً أو كافراً وحتى لو رفض لتركاه في حاله لأنه (لا إكراه في الدين) ولكنها النشأة الأولى والعرف السائد!

٤ ـ وتكررت الواقعة نفسها مع رجل آخر يدعى عامر بن الأضبط وتولى تصفيته هذه المرة محلمٍ بن جِثامة: (عامر بن الأضبط الأشجعي هو الذي قتلته سرية رسول الله (ص) يظنونه متعوذاً وقيل في سبب قتله ما روى القعقاع بن عبد الله عن أبي عبد الله قال: بعثنا رسول الله (ص) في سرية فمر بنا عامر بن الأضبط فحيا بتحية الإسلام قال: ففزعنا منه فحمل عليه محلم بن جثامة فقتله وسلبه بعيراً ووطباً من لبن وشيئاً من متاع فلما دفعنا إلى رسول الله (ص) أخبرناه فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾[٧].

---

(٦) **أسباب النزول**، الواحدي ص ١١٥، مصدر سابق.
(٧) **أسد الغابةِ** ص ١١٧ المجلد ٣، مصدر سابق، وكذلك **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٢ ص ٧٨٥، مصدر سابق.

ويورد ابن الأثير الجزري الواقعة عينها عندما يسرد سيرة (محلم بن جثامة) ويؤكد أن قتيله هو (عامر بن الأضبط) ويضيف أن (ابن جثامة توفي في حياة النبي (ص) فدفنوه فلفظته الأرض مرة بعد أخرى فأمر به فألقي بين جبلين وجعل عليه حجارة وقال رسول الله (ص) إن الأرض لتقبل من هو شر منه ولكن الله أراد أن يريكم آية في قتل المؤمن)[٨]. وكان محمد فور وصول الخبر إليه قد عنف محلماً تعنيفاً شديداً، لأنه لم يعبأ بإسلام الرجل واستولى على بعيره ومتاعه وقيل إنه أقدم على قتله لشيء كان بينهما فيما سبق.

٥ ــ أمر آخر أثار ثائرة محمد وأفزعه إيما إفزاع وهو قتل الذراري والنسوان، وهو ما لم يكن يحدث في الفترة السابقة التي يسمونها (الجاهلية!) باعتبار أن هؤلاء وأولئك لا يمتشقون السلاح ولا يشتركون في المعارك: (حدثني مرفع بن صيفي أخبرني جدي رباح بن الربيع أخي حنظلة الكاتب أنه كان مع رسول الله (ص) في غزاة على مقدمة خالد بن الوليد، فمر رباح وأصحابه على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا عليها يتعجبون منها فجاء رسول الله (ص) على ناقته فلما جاء انفرجوا عن المرأة فوقف عليها رسول الله (ص) فنظر إليها فقال: أكانت هذه تقاتل؟! ألم تكن في وجوب القوم؟ ثم قال لرجل إلحق خالداً فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً (أي أجيراً)[٩].

---

(٨) **أسد الغابةِ**، المجلد ٥، ص ٧٧.

(٩) أورده الإمام محمد حسن الشيباني، تلميذ أبي حنيفة في كتابه **السير الكبير** شرح الإمام السرحني، الجزء الأول ص ١٨٢، تحقيق مصطفى زيد وتعليق الشيخ محمد أبو زهرة، كما أورده الإمام أبو الفداء ابن كثير في **السيرة النبوية** ٧٠١/ ٧٧٤هـ، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ص ٦٣٩ طبعه ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٥م دار احياء الكتب العربية بمصر، كما ذكره تقي الدين المقريزي في **إمتاع الاسماع بما للنبي، (ص) من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع** تحقيق محمد النميسي ومراجعة =

وهذا الحديث أورده أبو داوود في سننه وهو أحد الصحاح الستة وذكر ابن كثير أن النسائي وابن ماجه أخرجاه وهما أيضاً من أصحاب الصحاح الستة وبذلك فلا مطعن عليه وفيه أن بعض الصحاب وقف على المرأة يتعجب لأنه لا عهد له بقتل النساء والمخالف لكل التقاليد. وأن محمداً سأل سؤالاً استنكارياً (أكانت هذه تقاتل؟) مما يقطع بأن المستقر عرفاً أن النسوان لا تقتل لأنهن لا يقاتلن. (عن الأسود بن سريح قال: كنت مع رسول الله (ص) في غزاة فأصاب الناس ظفراً حتى قتلوا الذرية فقال رسول الله (ص): ألا لا تقتلن ذرية ألا لا تقتلن ذرية[١٠]. أخرج هذا الحديث ابن ماجه وأحمد ابن حنبل والدارمي والطبراني مما يبعد عنه أي شك وجاء فيه (فأصاب الناس ظفراً حتى قتلوا الذرية..) أي أن النصر على العدو أدار رؤوس الصحاب حتى خرجوا عن العرف المقر بل عن الأعراف كافة فقتلوا الذراري الذين لا حول لهم ولا قوة ولا ذنب عليهم فيما جرى ولا طاقة لهم بالدفاع عن أنفسهم حتى إن محمداً ارتاع لذلك وكرر نهيه مرتين وبصورة حاسمة جازمة (ألا لا تقتلن ذرية) وبصيغة التوكيد حتى يكفوا عن هذا العمل والذي لا مبرر له لا من الشرع ولا من المروءة ولا من الأخلاق، والذي لا شك فيه أن محمداً حزن لذلك، وهذا العمل المستشنع يعطينا فكرة عن مدى معاناة محمد في مراودة الصحاب وكبح جماحهم وتنقية نفوسهم مما علق بها من النشأة الأولى.

= محمد جميل غازي ج١، ص ٣٠٣، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م نشر دار الأنصار.

(١٠) أخرجه ابن ماجة في كتاب **الجهاد** والدارمي في كتاب **السير** باب النهي عن قتل النساء الصبيان وأخرجه الإمام أحمد في **مسنده** والطبراني في **الكبير والأوسط**، كذلك أورده المقريزي في **إمتاع الاسماع** الجزء الأول، ص ٣٠١، مصدر سابق

٦ ــ بعد غزوة حنين/ هوازن قسم محمد غنائمها الوفيرة بطريقة تنم عن سعة الأفق وبُعد النظر والحكمة وحسن السياسة وخص (المؤلفة قلوبهم) سواء من قريش أو من غيرها من القبائل بحظ كبير منها ونال المهاجرون منها منالاً فغضب الأنصار لحرمانهم من هذه الأموال الجزيلة (وكثرت القالة حتى قال قائلهم لقي رسول الله (ص) قومه أما حين القتال فنحن أصحابه وأما حين القسم فقومه وعشيرته ووددنا أنّا نعلم ممن كان هذا، إن كان هذا من الله صبرنا وإن كان هذا من رأي رسول الله (ص) استعتبناه)[١١].

لم يكن غضب الأنصار للهزيمة التي لحقت بالمسلمين في أول الأمر والتي وصفها أبو سفيان أنها لن تنتهي بهم إلاّ عند سيف البحر، ولا لأنهم وغيرهم من الصحبة عرضوا محمداً لمحنة قاسية ولا أنهم فروا عنه إلاّ بضعة أشخاص ولولا شجاعة محمد النادرة لتغير تاريخ المنطقة بالكلية إنما لأن محمداً ترضى رقيقي الإيمان وحديثي عهد بالإسلام وآخرين ليدخلوا دينه الذي هو دينهم بـ (لعاعة) من الدنيا حسب قوله. إذن المال والنهمة إليه هما اللذان حركاهم ودفعاهم إلى إطلاق مقولات ما كان يصح التلفظ بها مثل: إن محمداً عند القتال يعتبرهم أصحابه وينساهم عند قسمة الغنيمة وذاك طعن في محمد لا يجمل بل لا يليق فغضب محمد من قالتهم ومن موقفهم فجمعهم (فأتاهم رسول الله (ص) والغضب يعرف في وجهه...)[١٢]. وخطب فيهم وببلاغته الرفيعة أوضح لهم خطأهم وأنه ما كان يجوز لهم أن يقفوا هذا الموقف ولا أن يتفوهوا بتلك العبارات الفلوت فأفاق الصحاب الأنصار على الحقيقة المذهلة وهي أن فترة تلمذتهم لمحمد ومعاشرته إياهم أو

(١١) كتاب **المغازي** للواقدي، الجزء ٣ ص ٩٥٦، مصدر سابق.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٥٧.

معاشرتهم إياه وكل (النصوص) التي سمعوها منه لم تمحُ من نفوسهم آثار الحقبة الأولى التي كانوا عليها قبل اعتناقهم الديانة التي بشرهم بها وأن حب المال ما زال مغروساً في أعماق نفوسهم مكيناً في شعورهم ولا شعورهم وأن نظرتهم إلى ناتج الغزوات والمعارك والسرايا... هي هي النظرة نفسها إلى نواتج غارات السلب والنهب السابقة على الإسلام ومن ثم فقد كان من البديهي أن تُحدثنا كتب السير (فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم)[١٣].و«الروض الآنف» للسهيلي على هامش «السيرة النبوية» الجزء الرابع ص ١٥٧ وكذا «الشرح الكبير» على هامش «المغني» للمقدسي الجزء الأول ص ٢٦٥ والخبر لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب السيّر والتاريخ وكيف لا يفعلون وقد كان الدليل ساطعاً والبرهان واضحاً أمام أعينهم خاصة وأن جُلّ الأنصار ــ ولا نقول كلهم ــ كان على درجة متميزة من الثراء والملاءة = أصحاب أُطُم وحيطان وبساتين ونخل وزراعات... ولو فعلته الصحبة المهاجرة لكان لها عذرها...

ولا تعليل لموقف الأوس والخزرج المعيب وأقوالهم الشرود إلاّ لأن الإنسان ابن بيئته وإفراز مجتمعه ومن الصعب أن تتبدل أخلاقه وعوائده في بضع سنين، مهما بلغت قوة (النصوص).

وهذا الملمح عينه هو الذي يمكن أن نقدمه كأحد العوامل الفاعلة للفتنة الغشوم التي انفجرت بين الصحاب والتي حيّرت معتنقي النظرة الطوباوية الرومانطيقية الذين يغفلون تأثير البيئة وإكراهات المجتمع في تكوين الشخص وتحديد خطوات سيره مهما تمّ شحنه بمؤثرات روحية.

---

(١٣) المصدر السابق ص ٩٥٨.

٧ ــ كان الحرص على السلب همّ الصحاب المقيم وشغلهم الكبير في المعارك وإذا أفلت من أحدهم حزن وركبه الاكتئاب:

(... فقال سعد بن أبي وقاص... ثم ضربته (أبا سعد بن أبي طلحة، في وقعة أحد حتى قتلته ثم أخذت أسلبه درعه فنهض إلى سبيع بن عبد عوف ونفر منه فمنعوني سلبه وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين: درع فضفاضة ومغفر وسيف جيد ولكنه حيل بيني وبينه)[١٤].

هذه الواقعة حدثت إبان عركة أحد التي كانت من أشد الغزوات على المسلمين وفيها لقوا هزيمة نكراء لأن القرشيين اعتبروها غزاة ثأرية انتقموا فيها مما لحق بهم في «بدر الكبرى» ولم يصرف أوار القتال ابن مالك عن التطلع إلى سلب قتيله الذي وصفه بأنه (أجود سلب) وسوف نرى بعد قليل أن هذه النهمة (الرغبة والولع) في الغنائم والأسلاب... الخ كانت هي السبب الرئيسي في الانكسار الموجع.

٨ ــ ولم يكن ابن أبي وقاص هو الوحيد في الحرص على استلاب قتيله بل كان ذلك ديدن أغلب الأصحاب: (وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي يحضر فرساً له أبلق يريد رسول الله (ص) وعليه لأمة كاملة... مشى إليه الحارث بن الصمّة فتضاربا ساعة بسيفين ثم يضرب الحارث رجله وكانت الدرع مشمرة فبرك وذفف عليه وأخذ الحارث يومئذٍ درعاً جيدة وسيفاً جيداً ولم يسمع يومئذٍ بأحد سلب غيره)[١٥].

وهذه أيضاً حدثت والقتال يوم أحد مشتعلاً على آخره ــ ولعل

(١٤) **كتاب المغازي** للواقدي ص ٢٢٧، الجزء ١، مصدر سابق.
(١٥) المصدر السابق، والجزء نفسه ص ٢٥٢.

ما أقبل به المكيون من متاع وثقل وسلاح لملاقاة الصحاب هو الذي جعل الصحبة منهومين إلى احتيازه وتملكه خاصة وأنهم كانوا حديثي عهد بالنزوح (الهجرة) إلى أثرب وقد تركوا خلفهم أموالهم فأرادوا أن يعوضوها.

٩ ــ المؤرخون المحدثون بكل جرأة على الحق الثابت في كتب التراث يرجعون هزيمة الصحبة في غزاة أحد إلى مخالفة الرماة لتعليمات محمد الصوارم في عدم مغادرة موقعهم وانتهاز خالد بن الوليد الفرصة والولوج من الثغر الذي كان عليه الرماة فحاقت الهزيمة بالصحبة وهذا تعليل كليل يتفق والنظرة التبجيلية التي يسير عليها أولئك المؤرخون كما أنه يحمل في ذاته دلائل فسولته وبراهين بطلانه: إذ ما الذي جعل الرماة يتخلون عن أمكنتهم؟

على حد قول فرقة التفخيم: لأنهم رأوا إخوانهم طفقوا يأخذون غنائم المشركين الذين انهزموا (في بدء المعركة) فرغبوا أن يكون لهم نصيب منها. إذن مبادرة الصحب في انتهاب الغنائم وانشغالهم بذلك عن مواصلة العراك حتى يستأصلوا شأفة عدوهم وينتصروا عليه هو الذي حثّ الرامين على ترك موقعهم الحساس. وبلفظ آخر أنه لولا اهتمام الصحبة المقاتلين ــ من غير الرامين بـ (تكويش) الغنائم والكف عن المقاتلة، لما أقدم الرماة على ما فعلوه ــ إذن هؤلاء لم يكونوا البادئين بالانصراف عن المهمة الرئيسية في المعركة والانشغال بالمهمة الثانوية ــ إن كانت تعتبر مهمة ــ وهي جمع المغانم، ولعلنا بذلك قد أفلحنا في تفنيد ذلك التعليل الفطير والدالع الحمق (غاية في الحمق)، الذي تطرحه جوقة التبجيل.

* * *

إن هزيمة الصحاب في أُحُد لها أسباب كثيرة منها: أن القرشيين المكيين خرجوا يطالبون ثـأر انكسارهم المدوي يوم بدر وخسرانهم الكبير وفقدهم للصفوة من كبرائهم وهم الذين نعتهم أمية بن أبي الصلت نعتاً بليغاً في قصيدته المعروفة، في حين أن المسلمين خرجوا لملاقاتهم بروح المنتشي بخمرة الانتصار كما أنهم اعتمدوا على كثرة عددهم (النسبية) عنها في غزوة بدر في حين أنهم في المعركة الأولى اعتمدوا على عاطفتهم وشحنتهم الروحية وتحرقهم إلى الانتقام من الذين عذبوهم واضطهدوهم واضطروهم إضطراراً إلى النزوح (الهجرة) إلى أثرب تاركين موطنهم وديارهم وأموالهم وبقية أهلهم... ولذلك وصفهم أحد المكيين بـ (البلايا تحمل المنايا)! وترسب في نفوس النازحين (المهاجرين) أن عبء الدفاع أساساً يقع على الأوس والخزرج (الأنصار) لأن البلد بلدهم ومن ثم ما إن ظهرت فواتح النصر في الأفق حتى انصرفوا إلى (التهليب)[١٦]. وجمع أكبر قدر ممكن من المغانم، ولذا فإن لائحة القتلى وأصحاب (الجراحات) تضم نسبة كبيرة من أسماء الأنصار، وفي تقديرنا أن المكيين قد سربوا باقتدار الأخبار والإشاعات بأنهم خرجوا للمعركة ومعهم الشيء الكثير من المتاع والثقل والكراع (السلاح) والعبدان... الخ، حتى يوجهوا إليه أنظار النازحين (المهاجرين) ويغدو في بؤرة اهتمامهم وأنهم في بدء القتال تظاهروا بالفرار وتركوه وراءهم بصورة تلفت الأبصار ليتوجه إليه الصحبة وينشغلوا به وهم (قرشيو مدينة القداسة) أعرف الناس بدخائل نفوس النازحين (المهاجرين) وما تنطوي عليه من تطلع إلى الاستحواذ على ما جلبوه معهم وانطلت الحيلة على الصحاب الشرقيين إلى الثقل والمتاع والكراع والرقيق.

(١٦) في **القاموس المحيط، هلبه:** نتف هلببه وهلبهم بلسانه: هجاهم وشتمهم.

إن المرء يتولاه العجب للصورة التي رسمتها كتب السير عما دار في أُحُد ويتساءل هل أولئك الصحبة كانوا في معركة ثأرية أم جاءوا لنزهة ولا ندري كيف أن فرقة التفخيم والتعظيم قرأت كل تلك الصور الصارخة وتجاوزتها وحصرت الهزيمة في سبب يتيم هو تخلي الرامين عن الموقع الذي أوصاهم محمد بعدم تركه لأي سبب من الأسباب، ونكتفي باللوحة الناطقة التي رسمها ببراعة الواقدي ليدرك القارئ حقيقة ما دار في أُحُد وكيف أن (التبجيليين) يطرحون وراء ظهورهم الحد الأدنى من الأمانة العلمية والمسؤولية الفكرية عندما ينهجون هذا النهج.

... لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهزمين... فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر ووقعوا ينتهبون العسكر... قال بعض الرماة لبعض: لِمَ تقيمون ها هنا في غير شيء؟ وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم فادخلوا معسكر المشركين فاغتنموا مع إخوانكم... وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون... بينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم.

قال نسطاس مولى صفوان بن أمية وكان أسلم فحسن إسلامه:... ودنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا ساعة ثم إذا أصحابنا (المشركين) منهزمون فدخل أصحاب محمد عسكرنا ونحن (العبيد) في الرحال فأحدقوا بنا وكنت فيمن أسروا ونهبوا العسكر أقبح النهاب حتى إن رجلاً منهم قال: أين مال صفوان بن أمية فقلت ما حمل إلاّ النفقة هي في الرجل فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العُبيّة خمسين ومائة مثقال وقد ولّى أصحابنا وأينا منهم وإتحاش النساء (أي نفرن) فهن في حجرهن سِلْمَ لمن أرادهن وصار النهب في أيدي الرجال... وأنا أنظر إليهم متأبطي قسيّهم

وجعابهم كل رجل منهم في يديه أو حضنه شيء. فلما دخلت خيلنا دخلت على قوم غارين (= غافلين) آمنين فوضعوا فيهم السيوف فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً وتفرق المسلمون في كل وجه وتركوا ما انتهبوا وأجلوا عن عسكرنا فرجعنا متاعنا بعد فما فقدنا منه شيئاً وخلّوا أسرانا ووجدنا الذهب في المعرك.. وعن عمر بن الحكم قال: ما علمنا أحداً من أصحاب رسول الله (ص) أغاروا على النهب فأخذوا ما أخذوا من الذهب بقي معه من ذلك شيء رجع به حيث غشينا المشركون واختلطوا إلاّ رجلين:

أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح جاء بمنطقة وجدها في العسكر فيها خمسون ديناراً فشدّها على حقويه من تحت ثيابه وجاء عبّاد بن بشر بصرّة فيها ثلاثة عشر مثقالاً ألقاها في جيب قميصه وعليه قميص والدرع فوقها قد حزّم وسطه فأتيا بذلك رسول الله (ص) بأُحُد فلم يخمّسه ونفلهما إياه)[١٧].

وصف الواقدي وصفاً دقيقاً أفعال الصحبة (ونهبوا العسكر أقبح نهاب) وسأل أحد النهابين عن مال صفوان بن أمية (والسائل لا بد أن يكون من القرشيين النازحين (المهاجرين) الذين يعرفون أموال (صفوان) فلما أجابه الرجل بأنه لم يحمل (صفوان) إلاّ نفقته وهي في الرَحْل (فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العُبِيّة خمسين ومائة مثقال) (... وأنا أنظر إليهم متأبطي قسّيهم وجعابهم كل رجل منهم في يديه أو حُضنه شيء...). (... أغاروا على النهب فأخذوا ما أخذوا من الذهب) وحتى لا تضيع الغنيمة: أحدهم (... شدّها على حقويه من تحت ثيابه!).. أما الآخر فقد (ألقاها في جيب قميصه وعليه قميص والدرع فوقها قد حزّم وسطه...)!

(١٧) **كتاب المغازي** للواقدي، ج ١، ص ٢٢٩، مصدر سابق.

فهل هذا هو السلوك الطبيعي لمحارب في شدة استعار القتال في معركة انتقامية أم هو سلوك منهوم للمال؟ وما تعليل أن الصحبة تأبطوا أسلحتهم وملأوا أحضانهم وأيديهم من الغنائم وأغاروا على النهب وأخذوا ما أخذوا من الذهب؟ هل هذا هو سلوك المجاهد الذي يحارب لإعلاء كلمة الله؟

أم هل هو مسلك المحارب (العادي) في معركة ثأرية انتقامية؟

أو هو تصرف الشَرِق، النهم إلى المال والغنائم؟

وهل يصح بعد هذا أن يقال إن الرماة هم وحدهم كانوا سبب الاندحار؟

أم أن الذي يقرر ذلك يغدو كمن قرأ من القصة أسطرها الأخيرة أو من المسرحية فصلها الخاتم؟

ولنستميح القارئ عذراً لو أمللناه فكررنا أن التاريخ الإسلامي يُكتب في أيامنا المعاصرة كتابة تفتقر إلى الموضوعية والأمانة العلمية.

٩ ـــ إذا كان أبو طلحة قد قتل عشرين في غزاة هوازن (حُنين) واستمتع بأسلابهم فإن هناك من الصحبة من أوغل في سفك دماء أعداء دين محمد ودولته فقتل مائة منفرداً بخلاف الذي شارك مع غيره في ذبحه واغتياله وبداهة أنه ما دام قد تفرد بإزهاق روح مائة فإن له بحسب القاعدة أسلابهم جميعها.

قال محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنى بالشعر فقلت له: يا أخي تتغنى بالشعر وقد أبدلك الله به ما هو خير منه ـــ القرآن؟ قال: أتخاف عليَّ أن أموت على فراشي وقد تفردت بقتل مائة سوى من شاركت

فيه[١٨]. وقد وثق ابن تيمية هذا الخبر في كتابه (منهاج السنّة النبوية): (فالبراء بن مالك أخو أنس قتل مائة مبارزة، غير من شورك في دمه[١٩]. ولم يكن من الطبيعي أن يجندل مالك مائة من أعداء ديانة محمد ودولته ولا تكافئه السماء مكافأة سنية وتمنحه وساماً رفيعاً وهو الاستجابة لحلفه أو يمينه أي إذا أقسم على الله أبره: (عن أنس بن مالك أن النبي (ص) قال: رب أشعث أغبر لا يؤبه لو أقسم على الله عزَّ وجل لأبره منهم البراء بن مالك)[٢٠].

١٠ ــ وفي بعض الأحيان يعجب بالسلب صحابي غير الصحابي الذي تولى القتل فلا يتورع عن أخذه السلب وهو يوقن أنه ليس من حقه ولكنها النهمة إلى المال والاستحواذ عليه:

(عن أنس بن مالك قال: قال أبو قتادة يا رسول الله قتلت رجلاً على جبل العاتق وعليه درع فأجهضت منه، فقال رجل أنا أخذتها فأرضه عنها وأعطنيها، وكان النبي (ص) لا يُسأل شيئاً إلاّ أعطاه أو سكت فسكت (ص) فقال عمر بن الخطاب (رض) والله لا يفيئها الله على أسد من أسد فيعطيكها (وفي رواية) لا والله لا يفيء الله على أسد من أسد، ويعطيكها) فضحك رسول الله (ص) وقال: صدق عمر)[٢١].

هذا الحديث بهذه المثابة حملته إلينا العوالي السامقات من

(١٨) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ١، ص ٢٥٣، مصدر سابق.
(١٩) **منهاج السنة النبوية** ابن تيمية ج ٤ ص ١٦٦، مصدر سابق.
(٢٠) **أسد الغابةِ** المجلد ١، ص ٢٠٦، مصدر سابق.
(٢١) أورده ابن حيان في **الصحيح**، والحاكم النيسابوري في **المستدرك** وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في **التلخيص**. كذلك جاء في **السنن الكبرى** للبيهقي، وفي **موطأ** مالك وفي **صحيح البخاري** وفي **صحيح مسلم** وفي **صحيح الترمذي**، **وسنن ابن ماجة** وفي **المعجم الكبير** للطباني نقلاً عن **جمع الجوامع** للسيوطي ص ١٨٩٩ عدد ١٥، ج ٤.

كتب السنّة ومن ثم فلا يجرؤ مخلوق على تجريحه، وأخرجه الربيع في مسنده غير أنه ذكر أن الذي اعترض على الرجل (المقتنص سلب غيره) هو ابن أبي قحافة لا ابن الخطاب[٢٢].

١١ ــ وتطالعنا كتب السيرة بمواقف عجيبة للصحاب من المال:

(عن يزيد بن أحرم قال: سمعت علياً (رض) يقول: مات رجل من أهل الصُفّة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله (ص) كَيْتان، صلّوا على صاحبكم)[٢٣].

أهل الصُفّة كانوا مجموعة من معدمي النازحين (المهاجرين) لا يجدون ما يقتاتون به وملابسهم أسمال بالية ولا بيوت عندهم بل ولا مأوى لهم فوضعهم محمد في ناحية من المسجد سميت الصُفّة وبها سموا (أهل الصُفّة):

(وأهل الصُفّة كانوا أضياف الإسلام في مسجده (ص) وهي موضع مظلل من المسجد)[٢٤].

وكثيراً ما ثارت في ذهني هذه الأسئلة:

لماذا لم تتم المؤاخاة بينهم وبين الأنصار كما تمت بين عبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع وكثيرين غيرهما هل مشروع المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين لم يحقق النتيجة التي كان محمد يرجوها؟

(٢٢) **مسند الربيع**، الجزء الثاني، ص ٢٠، مصدر سابق.
(٢٣) **مسند الإمام أحمد** ورواه الطباني في **الكبير** ورجاله ثقات، والخطيب في **تاريخ بغداد**، وجاء في **مجمع الزوائد** نقلاً عن جمع الجوامع للسيوطي عدد ٤، ج ٣ ص ٣٩٤، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م.
(٢٤) **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، فصل الصاد، باب الفاء.

أَلفقر هؤلاء المدقع وإملاقهم المفرط دور في الحيلولة بينهم وبين المؤاخاة؟ أم كان عددهم وفيراً حتى إن مؤاخاتهم تحدث خللاً في المجتمع الأثربي؟ أو لأن المؤاخاة استحالت لأنهم عزّاب وليس في المنظور القريب أن يتزوجوا، في حين أن الأنصار: كان لكل واحد منهم زوجة نضرة أو أكثر؟

أم هل بقاؤهم بتلك الصورة وبجوار حجرات محمد كان أمراً ضرورياً تحتمه دواعي الأمن سواء الداخلي ــ وهو الأهم ــ أو الخارجي؟ أياً كان الأمر فالثابت من الحديث أن محمداً تأفف من (صُفّتيّ) نسبة إلى الصفة يكتنز دينارين ومن مظاهر تأففه أنه لم يصلِّ عليه صلاة الجنازة وهي شرف كبير لأي صاحب ومرحمة واضحة، وأمر صحابته بالصلاة عليه.

١٢ ــ روى أبو داوود والأشرم بإسنادهما عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: اشتركنا أنا وسعد وعمار يوم بدر فلم أجيء أنا وعمار بشيء وجاء سعد بأسيرين[٢٥]. عندما قرأت هذا الخبر لأول مرة توقفت عنده كثيراً:

شركة في غنائم المعركة... كيف؟ حقيقة أن الشركاء الثلاثة قرشيون فأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص قرشيان بالنسب وعمار قرشي بالولاء إذ هو مولى لبني مخزوم (ومولى القوم منهم) ــ والقرشيون تجرى في عروقهم التجارة مع الدماء ــ ولكن أن تصل إلى هذا الحد!...

فماذا كان يحدث لو أن أحد هؤلاء الشركاء وجد نفسه أمام صحابي يستغيثه لينقذه من القتل (على يد مشرك) أو من الأسر

(٢٥) **المغني** لابن قدامة، المجلد ٥ ص ٢٧٦ دار الغد العربي، مصدر سابق.

وفي الوقت نفسه سمع صوت أحد الشركاء يستحثه على الإجهاز على واحد من العدو للظفر بسلبه الثمين؟

لو أن أحد الشركاء قُتل في المعركة هل سيقاسمه شريكاه في الجزاء الأخروي وهو التمتع بالحور العين قاصرات الطرف الكواعب الأتراب اللاتي لم يطمثهن إنس من قبل ولا جان وفي سائر لذائذ الجنة أم أن الشركة قاصرة على اقتسام الحصيلة الدنيوية وهل في هذه الحالة سيسلمان حصته في السلب والأسلاب إلى ورثته أم يضمانها إلى (المغانم) لتقسم على كل من شارك في القتال؟

عقد الشركة هذا أهو أقرب إلى الجهاد لإعلاء كلمة الله أم هو أشبه بالمضاربة (الاسترزاق)؟

وأخيراً هذا الخبر شديد الإضاءة وبالغ الدلالة: ألا يفسر لنا ما وقع فيما بعد من الصحبة خاصة عندما وطئت خيولهم المبروكة البلاد التي ابتليت بغزوهم[٢٦].

١٣ ــ وتتساوى النساء مع الرجال في التطلع إلى امتلاك المال واحتيازه:

(... ثم إن خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية وهي امرأة عثمان، قالت يا رسول الله: أعطني إن فتح الله عليك الطائف حليّ بادية ابنة غيلان أو حليّ الفارعة بنت عقيل وكانتا من أحلى نساء ثقيف)[٢٧].

ويورد ابن عبد البر في «الاستيعاب» ردّ محمد عليها (وإن كان

(٢٦) **بلا** الشيء بلواً وبلاً: جرّبه واختبره وفي القرآن الكريم ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ سورة محمد الآية ٣١، **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية الجزء الثاني، حرف الباء، فقرة بلوى.
(٢٧) **السيرة النبوية** لابن هشام ج الرابع، ص ١٥٠، مصدر سابق.

لم يؤذن لي في ثقيف يا خولة؟)[٢٨]. وأكد الرفض ابن الأثير الجزري في «الأسد»[٢٩].

ومع ذلك فإن هذه الصاحبة لم تيأس فوسطت عمر بن الخطاب لمحمد (فأقبل إلى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله أما أذن لك في ثقيف؟ قال: لا)[٣٠].

وهذا يقطع بإلحاح خولة في الحصول على حليّ بادية أو الفارعة مما يقطع بأن النهمة للمال لم تقتصر على الرجال من الصحبة، وكان جديراً بخولة ألا تفعل!؟ (فهي التي وهبت نفسها للنبي (ص) في قول بعضهم[٣١]. كما أنها (كانت امرأة صالحة)[٣٢]. وأكثر من هذا فهي من رواة الحديث (روى عنها سعد بن أبي وقاص عن النبي (ص) في التعوذ بكلمات الله في السفر)[٣٣]. وبعد ذلك روى عنها كل من سعيد بن المسيّب وعمر بن عبد العزيز وغيرهما، أي أنها كانت على درجة متميزة من الصلاح ومعرفة الأحاديث وحفظها، ولكن كل هذا لا صلة له بحب المال الذي ترسب في أعماق كثير من الصحاب والصواحب ومن المؤلم أنها كانت زوجة عثمان بن مظعون الجمحيّ القرشيّ وكان من فضلاء الصحابة ومن صلحائهم بشهادة محمد

(٢٨) **الاستيعاب**، المجلد الرابع ص ١٨٣٢، مصدر سابق.
(٢٩) **أسد الغابةِ** لعز الدين بن الأثير الجزري المجلد السابق، كتاب النساء ص ٩٤ كما أورده، ابن حجر في **الإصابة** ٤/ ٢٨٤ وأخرجه الطبراني، نقلاً عن هامش ص ٩٤ من **أسد الغابةِ**.
(٣٠) **الاستيعاب** المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٣١) **الاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها، **وأسد الغابةِ**، المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٣٢) **الاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها، **وأسد الغابةِ**، المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٣٣) **الاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها **وأسد الغابةِ**، المجلد نفسه والصفحة نفسها.

نفسه[٣٤]. حتى أنه لما مات (انكبّ عليه رسول الله (ص) فرفع رأسه فكأنهم رأوا أثر البكاء في عينيه ثم حنى عليه الثانية ثم رفع رأسه فرأوه يبكي ثم حنى عليه الثالثة ثم رفع رأسه وله شهيق فعرفوا أنه يبكي فبكى القوم)[٣٥].

هذا الزوج الصالح الذي أدمى موته فؤاد محمد ودفعه للبكاء لم تؤثر عشرته الطيبة في خولة ولم يرفع من نفسها شهوة جمع المال لأن الطبع غلاّب.

وإذا كانت كل من بادية ــ التي تزوجها فيما بعد عبد الرحمن بن عوف كما رأينا ــ والفارعة من أحلى نساء ثقيف ومن بيوتها الرفيعة التي اشتهرت بالغنى والعز والبُلهنية فلا بد أن حليّ كل منهما غالي الثمن مرتفع القيمة وافر المقدار... وهو ما دفع خولة إلى طلبه من محمد لأنها لا شك تعلم تماماً بنفاسته وثمانته. كما أنها من جانب آخر تعرف جيداً أن محمداً بالغ الكرم عريض الجود لا يرد سائلاً خائباً ولولا أنه (لم يؤذن له في ثقيف) لنفحه إياها، نخلص من ذلك إلى تساوي الذكور والإناث من الصحبة في (تكويش) الثروة مرة بالقتل وأخرى بالشراكة وثالثة بالسؤال!

١٤ ــ وكان عباس بن مرداس السلمي من «المؤلّفة قلوبهم» وممن حسن إسلامهم ولما أعطى رسول الله (ص) «المؤلفة قلوبهم» من سَبْي حُنين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة مائة من الإبل ونقص طائفة من المائة قال:

أتجعــل نهبي ونهب العُبيــد بيــن عيــينة والأقـــــرع
فما كان حصن ولا حــابس يفوقــان مرداس في مجمع

(٣٤) أسد الغابةِ، المجلد الثالث ص ٦٠٠ والاستيعاب، المجلد الثالث ص ١٠٥٤.
(٣٥) الاستيعاب، المجلد نفسه ص ١٠٥٥.

فقال رسول الله (ص) اذهبوا فاقطعوا عني لسانه فأعطوه حتى رضي وكان شاعراً محسناً[٣٦].

وعلاوة على حسن إسلامه فقد كان ممن حرم الخمر على نفسه قبل الإسلام وروى حديث المغفرة (مغفرة الله لأمة محمد) وذلك يوم الحج الأكبر (عرفة) ـ أي أنه حجّ مع محمد، حجة الوداع.

ورغم كل تلك المناقب لم يفارقه حب المال، كشأن الآخربن فتسخّط على محمد لأنه أعطاه نصيباً يقل عن أنصباء أقرانه مثل الأقرع وعيينة مع أنه كما افتخر في الأبيات السوابق بأبيه مرداس وأنه كان رأساً في المجامع أي كان ميسوراً وبالتالي فعباس ابنه كذلك لم يكن في ضُر أو حاجة ماسة تدعوه إلى أن يلحف على محمد في طلب النفل أي الزيادة، وحتى يخفي نهمته للمال ادعى أن نفحه حصة أخفض من أضرابه تزرى بقدره وكالعادة لم يجد محمد بداً من مداواته فطلب أن يقطعوا لسانه حتى يكفّ عن الإلحاح فأعطوه حتى رضي!!!

١٥ ـ حدثت هذه الواقعة في سرية أبي سلمة بن عبد الأسد على رأس خمسة وثلاثين شهراً من النزوح (الهجرة) في المحرم إلى بني أسد (إلى قطن جبل ناحية فيد فيه ماء لبني أسد بن خزيمة... فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة... قد أصابوا إبلاً وشاءً... فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة: اقتسموا غنائمكم فأعطى أبو سلمة: الطائي الدليل رضاه من المغنم ثم أخرج صفياً لرسول الله (ص) عبداً ثم أخرج الخمس ثم قسم ما بقي بين أصحابه فعرفوا سهمانهم ثم أقبلوا بالنعم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة...

(٣٦) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، المجلد الثاني، ص ٨١٨ **وأسد الغابةِ** لابن الأثير، المجلد الثالث، ص ١٦٨.

فلما أخطأنا الطريق... (= في العودة) استأجرنا رجلاً من العرب دليلاً يدلنا على الطريق فقال: أنا أهجم بكم على نعم فما تجعلون لي منه؟ قالوا: الخمس قال: فدلهم على النعم وأخذ الخمس)[٣٧].

الصحاب هنا في سرية يقودها أبو سلمة عبد الأسد القرشيّ عندما انتهوا إلى قطن سبقتهم الأخبار إلى بني أسد فهربوا منهم فلم يجدوا إلاّ سرحاً فأغاروا عليه فضموه ثم قسم أبو سلمة السرية إلى ثلاث فرق فأصابوا إبلاً وشاء ولم يلقوا كيداً وقفلوا راجعين بعد أن اقتسموا ما غنموه بعد تجنيب النصيب الشرعي وصفيّ الرسول[٣٨]. وأغراهم الدليل على الهجوم على نعم أخرى مقابل جعل أو نصيب له وبدلاً من أن يردوا عليه بأن ديننا يمنعنا من ذلك وتعاليم محمد تحظره علينا فضلاً عن أنه يخالف الخطة التي رسمها لنا قائدنا أو أننا قنعنا بما غنمناه من بني أسد... الخ لم يقولوا شيئاً من ذلك بل وافقوا على الفور وأسرعوا إلى الهجوم على النعم واستولوا عليها وأعطوا من دلهم عليها خمسها.

هذه الواقعة تقطع بأن احتياز أكبر كم من الغنائم كان هدفاً رئيساً لدى الأصحاب وهو ذات ما كان يحدث قبل دعوة محمد الذي تعب من محاولات تغيير تلك الطباع وتبديل تلك العادات المتمكنة حتى من السابقين في اعتناق الإسلام فقائد هذه السرية هو أبو سلمة قرشي قديم الإسلام فقد أسلم بعد عشرة أنفس وهاجر الهجرتين (إلى الحبشة ثم إلى أثرب) وشهد بدراً ثم أُحُداً حيث أصابه جرح مات منه فيما بعد. وهو ابن عمة محمد وأخوه من الرضاع من بني مخزوم (ريحانة قريش) وهم بطن اشتهر بالغنى

(٣٧) **كتاب المغازي**، للواقدي الجزء الأول، ص ٣٤٠ وما بعدها، مصدر سابق.
(٣٨) كان رئيس القبيلة يختص بالصفيّ.

والعز واستخلفه محمد (جعله نائباً له) على المدينة في السنة الثانية من الهجرة (النزوح) عندما خرج إلى (غزاة العشيرة)(٣٩).

مناقب جليلة حازها هذا الصاحب ولكن ما إن أخبره الدليل أن هناك (غنيمات) يمكن (السطو) عليها(٤٠). حتى هرول إليها ولم يفكر في (النصوص) لمعرفة مدى اتساق عمله أو تنافره معها وهي عماد الدين الذي هو من أقدم دعاته ولا تعليل لذلك إلاّ غلبة العُرف القديم على النفوس التي عاشت في ظله الشطر الأكبر من عمرها.

وكم كان حزن محمد العميق وألمه الدفين ولقد حاول بكل طاقته أن يهذّب سلوك الصحاب ويرتقي به ليغدو متناغماً مع التعاليم التي كان يبشر بها محاولات تقطع بتفانيه وإخلاصه.

* * *

خمسة عشر نموذجاً مستخرجة من بطون كتب التراث الرفيعة المقام والعالية الدرجة ليس من بينها واحد مغمور في قدره أو مطعوناً في مصداقيته وغيرها عشرات بل مئات يستحيل على فرد واحد استقصاؤها، نماذج تصور مواقف الصحبة تجاه المال، ومحمد بين ظهرانيهم.

فكيف بدت تلك المواقف بعد حياته؟

هذا ما سوف نعرض له في الفاصلة القادمة.

* * *

(٣٩) **أسد الغابةِ**، المجلد السادس ص ١٥٣ **والاسيتعاب**، المجلد الثالث ص ٦٤٠ والرابع ص ١٦٨٢.
(٤٠) **السطو**: القهر بالبطش **مختار الصحاح** لمحمد بن أبي بكر الرازي، ترتيب محمود خاطر طبعة ١٩٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

قام محمد بثورة ناجحة أطاحت بـ (ملأ قريش) السلطة الحاكمة في مكة (مدينة القداسة) وبتغيير الخريطة الاجتماعية وقد وجد فيها (المستضعفون) ملاذاً ولذا كانوا من أوائل من انضموا إليها وناصروها وقدموا في سبيلها أرواحهم وأبشارهم وساهم فيها بقدر ملحوظ التجار المتوسطون مثل أبي بكر وعثمان وطلحة والزبير وممن يمكن أن نطلق عليهم (المثقفين المستنيرين) نسبة لزمانهم ـ منهم عمر بن الخطاب ومصعب بن عمير الذي ضحّى بموقعه الطبقي وعاش عيشة قاسية ثم استشهد في غزاة أُحُد دفاعاً عنها. خلاصة القول إن جنود الثورة هم: اليسار الثوري المتمثل في الأرقاء والمستضعفين والمهمشين والموالي... الخ وطليعة المثقفين الثوريين الذين كان يؤرقهم فساد الأوضاع الاجتماعية والعقيدية التي سادت في مكة آنذاك.

استهدف محمد من ثورته إعادة بناء الإنسان العربي وكنتيجة محتومة ترتيب أوضاع المجتمع في الجزيرة العربية كلها. وهنا كان من البديهي من منظوره أن يبدأ بمكة فالمجتمع الحجازي ومنه إلى سائر أنحاء الجزيرة، لكنه لما صُدم بمقاومة الملأ المكي العنيدة الغبية

فكّر في النزوح إلى أثرب/ المدينة لتصبح قاعدة الثورة وموئلاً له ولأتباعه حيث يأمنون فيها على أنفسهم وطموحهم ومنها يدبرون أمورهم ويخططون لمشروعهم الثوري وكان الاختيار موفقاً غاية التوفيق إثر إخفاق فكرة النزوح إلى الطائف، لأنهم وجدوا في يثرب أنصاراً أقوياء يمتلكون السلاح والقوة والمنعة وكذلك. وهو الأهم الاستجابة نظراً لاحتكاكهم باليهود الأمر الذي أمدهم بمُعْطَيين على درجة كبيرة من الخطر:

أولهما: الاستنارة العقلية نسبة إلى غيرهم من القبائل.

والأخر: التحرر من ربقة التبعية (الولاء) لليهود أو على أقل تقدير الشعور بالدونية إزاءهم لأنهم (أهل كتاب) وكانوا يفخرون على اليثاربة (الأوس والخزرج) بذلك.

وهكذا انتقل مركز الثورة إلى يثرب التي حقق محمد فيها بصورة مدهشة بل مذهلة ما لم يستطع أن يحققه في بلده ومنها سيطر على الجزيرة العربية بأسرها وأصبح حسب تعبير الأعشى (سيد الناس وديان العرب) وهو وصف بالغ الدلالة لأن الديان في لغة العرب: الحاكم والسائس والقاضي والحاسب(٤١). وأصل الدين الطاعة ودان الناس لملكهم أي أطاعوه(٤٢).

هكذا كان فهم المعاصرين، لوضعية محمد بعد أن أفلحت ثورته وفلج (ظفر) على كل أعدائه أنه أصبح سيد الجزيرة العربية بلا منازع وبعد أن ترسخت أقدامه أعطى الإشارة لنقل الثورة إلى خارج الحدود ــ وكان النجاح حليف هذه الخطوة أيضاً ــ وابتدأ

---

(٤١) **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، فصل الدال باب النون.
(٤٢) **كتاب الفروق** لأبي هلال العسكري (٤٠٠هـ) تحقيق د. أحمد سليم الحمصي، ص ٣٤٣ الطبعة الأولى ١٩٩٤ ــ ١٤١٥هـ، جروس برس/ طرابلس ــ لبنان.

الثوار يجنون الثمار اليانعة ومثل ما حدث ويحدث في جميع الثورات: يجيء حظ الثوار الحقيقيين منها قليلاً وينال معظمها غيرهم وهذا ما نراه واضحاً فقد ماتت سُمَيّة (أم عمار بن ياسر) أول شهيدة في الثورة وقتل مصعب بن عمير واستشهد في سبيلها بعدما عاش على الكفاف ولحقه عثمان بن مظعون الذي وصفه محمد بـ (سلفنا الصالح) ودعا أن يلحق به ابنه إبراهيم وابنته زينب عندما توفيا. هؤلاء وغيرهم الذين صنعوا الثور بدمائهم وأبشارهم لم يذوقوا لا حتاً ولا فتوتاً منها بل ضبّع يده على الكعكة(٤٣).

والتهمها الذين تخلفوا عن بدر وانهزموا يوم أُحُد وغابوا عن بيعة الرضوان وفروا في غزاة هوازن والمؤلفة قلوبهم والذين ركبوا آخر عربة من قطار الثورة وهو يتأهب لدخول محطة الوصول ــ وشاركهم ولو إلى حد ما ــ المثقفون المستنيرون الذين انخرطوا في صفوفها من منظور ثقافي لا من منظور اجتماعي أو طبقي، وليس معنى ذلك أن الجنود الأوفياء في كتيبة الثورة الذين جندلوا أعداءها بالعشرات في كل المواطن فاحتازوا كراهية الطرفين (الأعداء والأصدقاء) مثل أبي الحسنين أو الذين قدموا الكثير من التضحية والصبر مثل خَبّاب بن الأرَتّ لم ينالوا من ثمرات النصر الشهية شيئاً فهذا وضع تأباه طبائع الأمور والسوابق من الثورات على ثورة محمد ولواحقها إنما جاء نصيبهم مهزولاً أعجف إذا قيس بحصة الأولين في حين تذبذب موقف المستيسرين لأن هذا هو شأن البرجوازية المتوسطة دائماً.

لذا رأينا ــ وكل ما نورده الآن على سبيل المثال ــ عمر بن الخطاب يتراوح موقفه بين الحث على عدم المغالاة في المهور وهو

---

(٤٣) في **المعجم الوسيط**، **ضبّع** يده: مدها إليّ.

مطلب هام كثيراً ما ألح عليه محمد قائد الثورة في مضمار تحقيق العدالة الاجتماعية وبين دفع أربعين ألف (درهم أو دينار) مهراً للشريفة الحسيبة النسيبة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وهي صبية في سن حفيداته، ورأينا ابنه عبد الله بن عمر يتسرى بجارية رومية يمتع بها نفسه ويشتري عدداً من الإماء يلبسهن الحرير ويحليهن بالذهب وأخريات لغسل رجليه وكلهن لزوم النَعمة (بفتح النون) والغضارة والبُلهنية والرفاغية... الخ، ثم يتذكر في لحظة صفوَ معيشة مفجر الثورة محمد فيبيع الجارية الرومية ويعتق عدداً من عُبدانه وجواريه... وهكذا.

وفي نهاية الشوط تولى مقاليد الثورة وجني محصولاتها الوفيرة حزب المتمولين والموسرين أقل الثوار غناء وأضعفهم ناصراً لها وأخفضهم تضحية في سبيلها وإن قدموا أموالاً لمناصرتها.

والصور التي نعرضها بعد قليل تؤكد أن هذا الحزب بعد أن جمع في يديه أزِّمة السلطة واستأثر لنفسه بها عمل جاهداً على تسخير الثروة التي أتاحتها له مقاعد الحكم في ضم عدد من الصحب لصفة لتحقيق أهدافه وهذا الحزب هو «البيت الأموي» بالتحديد والذي كان يمثل اليمين ــ يمين ثورة محمد ــ في حين أن البيت الهاشمي «وعلى رأسه علي كان يمثل يسار الثورة وبداهة انضم إليه نفر من الصحبة كانوا من المستضعفين أو الأرقـــاء أو الموالي على رأسهم عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود... وهؤلاء كان انضمامهم للثورة من منظور اجتماعي لأنهم كانوا من المحرومين العطاش والمهمشين قبل الثورة. وانتصار حزب اليمين لم يأت مصادفة بل كان حتمية تاريخية لأن الظروف التي استجدت بعد الثورة كانت متوائمة مع أفكاره وتطلعاته وانتهازيته بينما اليساريون متمسكون بمبادئ الثورة وقيمها التي أصبحت تتناقض

بل تتصادم مع المستجدات التي طرأت، ومثل كل ثورة في التاريخ تولد عن ثورة محمد (نقيضها) الذي أتى على الأخضر واليابس من ظهرانيتها ومثلها العليا.

وكان من اللازم أن يتولى هذا (النقيض) رجاله الذين يتلاءمون معه ويتناغمون مع المستحدثات التي فرضته، ولا يفهم من هذا أن ثورة محمد قضي عليها تماماً لأنها بالاختلاف مع عدد من الثورات لم تقم على سواعد الرجال فحسب فتندثر بموتهم إنما كان لها سند قوي موازٍ هو (النصوص) وهي: القرآن وأحاديث محمد وسنّته العملية وسيرته هذه بقيت دون مساس.

خاصة وأن اليمين كان يقدسها أيضاً إما من باب السياسة أو لأن رموزه شاركت بأدوار متباينة في صنع شطر هام منها وهو المتمثل في سيرة محمد مفجر الثورة، فهي بكل المقاييس شخصيات ميتاتاريخية أي معجونة بالتاريخ والقداسة معاً ولا ينال من ذلك أنها وظّفت تلك الصفة لصالحها توظيفاً بالغ المهارة شديد الحنكة وربحت من ورائه أرباحاً وفيرة إنْ في مجال السلطة أو في مضمار الثورة.

وإذ إننا ــ كما كررنا ــ لسنا بصدد تأريخ، فإننا نكتفي بشخصيتين من حزب اليمين وبأمثلة معدودة مما وقع منهما لنستكمل للقارئ صورة مواقف الصحبة من المال بعد محمد، هاتان الشخصيتان هما عثمان بن عفّان ومعاوية.

عثمان بن عفان

تسنّم عثمان ذروة السلطة (منصب الخلافة) بتدبير من حزب المتمولين وفيما سبق صرح عبد الرحمان بن عوف بذلك لأن اختيار علي كان سيحطم خططهم وسيبخّر أحلامهم في المزيد من القوة والمال فضلاً عن أنه منافٍ لحركة ومسار عجلة التاريخ وللطوارئ من المستجدات التي داهمت المجتمع كله، بيد أن ابن عفان شعر بالنار تحت الرماد وبالغضب يتأجج في صدور كثير من الصحبة وخاصة السابقين الأولين منهم وعلى وجه أخص الذين تعرضوا للتعذيب والاضطهاد والامتهان والذين عاشوا دهراً محرومين مسحوقين ومرجع الأُوار الذي طفق يتلظّى في حنايا صدورهم أمران:

أن عمر بن الخطاب منعهم من الإنسياح في أرجاء الأمبراطورية التي يعتبرونها إرثاً لهم لأنه لولا تضحياتهم الأولى لما قامت لدولة قريش قائمة ولما ترسّخ دين محمد وشعشع في كل تلك البقاع وهو (= الدين) الراية التي استظلت بها دولة قريش وهي تطأ بأرجلها الغليظة البلاد المفتوحة متذرعة بأنها جاءت لنشره بين سكانها لتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وقبع الصحاب في يثرب يتحرقون شوقاً لتملك أجزاء من البلاد ويتلمّظون لاحتياز ضياعها ويتحلب ريقهم إلى تذوق خيراتها الحسان وكانت سياسة ابن الخطاب في تلك الخصوصية غير موفقة على الإطلاق على عكس ما عُهد فيه لأن حبس الصحابة في أثرب فضلاً عن أنه لا يوجد في (النصوص) ما يسانده فإنه سَنّ به سنّة أن إرادة الحاكم فوق النصوص ورغم النصوص وأن ما يراه حسناً فهو حسن وما يراه سيئاً فهو سيئ وهي السنّة التي جرى

عليها العمل بعده لدى الخلفاء والسلاطين والوزراء والولاة حتى الآن ونحن نقترب من الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري ــ والحق الذي لا بد أن يقال هو أن عمراً رغم اشتهاره بالعدل وتفقد أحوال الرعية مراقبة عماله فإن له مواقف تنم عن (تسلطية) صارخة بخلاف هذا الموقف مثل: منعه الصحبة من الزواج من كتابيات وأمر من تزوج منهم بواحدة منهن بتطليقها فوراً ومثل أمره بتغريب نصر بن سيّار لأنه كان جميلاً قسيماً افتتنت به نسوة أثرب/ المدينة وتدلّهن في حبه وتمنين أن يواقعهن وقلن في ذلك أبياتاً من الشعر مع أن نصراً لا ذنب له إذ لم ينسب إليه أنه تجاوب مع (المتمنيات) ومثل ضربه (صُبيغ) على أم رأسه بالعراجين ثلاث مرات حتى دميت وصاح به إن أردت قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً وكل جريرة صُبيغ أنه كان يسأل عن (متشابه القرآن).

وليس في القرآن نفسه ولا في أحاديث محمد ما يبيح لعمر أن ينزل بِصُبيغ عقوبة أشد وأقسى من عقوبة الزاني (غير المحصن) حتى قيل إن دِرّة عمر أهيب من سيوف من جاء بعده من الحكام[٤٤]. هذا المسلك (التسلطي) من عمر هو الذي كرّس النزعة التسلطية لمن جاء بعده من الحكام حتى أيامنا هذه وغدا من وقتها أن من حق وليّ الأمر أن يقرر ما يشاء متخطياً في ذلك (النصوص) إنْ في حروفها أو روحها. حقيقة أن عمراً حقق قدراً من عدالة اجتماعية نعم به المحكومون في زمنه وكانت يده عفيفة فلم تمتد إلى (بيت مال المسلمين) إنما شابت الكثير من ممارساته نزعة تسلطية واضحة، إذا أراد أمراً أمضاه لا يقبل معارضة لا من (نص) ولا من شخص وتبدّى ذلك في نوازل عديدة منها على سبيل المثال انعقاد نيته على

(٤٤) **الدِرّة** بكسر الدال عصاة قصيرة كان يمسكها ابن الخطاب يوجع بها ظهر من يرى منه مخالفة يستوي في ذلك الصغير والكبير.

تبرئة المغيرة بن شعبة من تهمة الزنا التي شهد عليه فيها شهود عدول بينهم من تمتع بلقب (الصحبة) فإذا بعمر يحمّر عينيه (كناية عن التخويف) للشاهد الرابع فيتلجلج لسانه وبذلك انضرب بل انكسر نصاب الشهادة فأفلت المغيرة من الحد لأن عمراً أراد ألاّ يرجم واحداً من صحابة محمد باعتباره زانياً، والأدلة على عدم التوفيق في مسألة حبس عمر للصحبة وتحديد إقامتهم جبراً في أثرب عديدة:

١ ــ أنه زرع في المدينة/ أثرب قنابل حارقة سريعة الاشتعال ما إن واتتها الفرصة حتى انفجرت في عهد عثمان إذ كان من أشد المحرضين على الخروج عليه عدد من الصحاب الذين عقلهم ابن الخطاب عن الخروج من أثرب المدينة(٤٥).

٢ ــ لو انساح الصحاب في أرجاء الأمبراطورية لأبلغوا عمراً بوقائع التعذيب لدفع الخراج والجزية والتي شاهد إحداها وهو راجع من الشام كما ذكرنا والتي كانت علة حدوث الفتن (الثورات) في عدد من البلدان.

٣ ــ ولأخطروه بسيرة عماله (ولاته) مع رعيتهم في أقاليم أمبراطوريته كافة ولا يقال دفعاً لذلك أن عمراً كان يرسل من يفتش على أولئك الولاة أو أنه كان يجمعهم في كل موسم (= الحج) يسألهم ويسائلهم. لأن التفتيش المفاجئ أو غير المفاجئ بخلاف المراقبة الدائمة التي لا تغفل عينها عن الوالي لحظة واحدة كما أنه من غير المعقول أن يبلغه عماله عن أخطائهم ولقد أدرك عمر تلك الحقائق بعد فوات الأوان ولذلك طفق يتحسر مؤخراً ويصرح: إني

(٤٥) في **المعجم الوسيط عقل** فلاناً عن حاجته حبسه عنها.

أعلم أن للناس حوائج تُقطع دوني، أما عمالهم فلا يرفعونها إليَّ وأما هم فلا يصلون إليَّ ا. هـ. ولو كان صحبه الذين حجر عليهم النزوح وأبقاهم في أثرب/ المدينة هناك بين (الناس) لرفعوا تلك الحوائج إليه!

٤ ــ لو ذهب أولئك الصحاب إلى البلاد المداسة المركوبة مثل فارس وأفغانستان وأذربيجان وما وراء النهر لأدّى ذلك إلى تعريبها وبذلك أضاع ابن الخطاب فرصة لم تعوض!

٥ ــ حبس الصحبة في زمن عمر ثم إفلاتهم في عهد عثمان ومحاولتهم تعويض حرمانهم في الفترة الأولى والممارسات التي نجمت عن ذلك من الأسباب التي أدت إلى حدوث ما سُمي (الفتنة الكبرى) التي جرت إلى (يوم الدر) أي مقتل عثمان.

لأن (أهل الأيام) و(القرّاء) و(رؤساء القبائل) نقموا على الصحبة خاصة الذين أنعم عليهم ابن عفان إنعامات جزيلة ما كانوا فيه من رفاغية وبُلهنية في حين أنهم يوقنون أن بأسيافهم هم فتحت أجزاء الأمبراطورية ووطئت وركبت وديست... الخ ولو ترك عمر الصحبة يشاركون في الفتوحات ويتقدمون جيوشها لابتلع (أهل الأيام) و(القراء) و(رؤساء القبائل) ألسنتهم وبارت حجتهم خاصة وأن الصحاب كما ذكرنا كانوا يتمتعون بصفة (الميتاتاريخية) = القدسانية والسابقة في الإسلام فإذا نعموا بعدها بالثمرات اليانعة وخضموا من الكعكة شطرها الشهي كان ذلك كفاءً لما قدموه فيها بخلاف الهالة التي تحيط بهم.

* * *

أما **الأمر الآخر** فهو: تأويلات كثيرة قيلت لاختيار عبد الرحمن بن عوف عثمان خليفة وتركه علياً وذلك في لجنة الستة

التي أوكل إليها عمر اختيار خليفة بعد اغتياله على يد أبي لؤلؤة المجوسيّ (وهي مؤامرة لم يُقْدم أحد من المؤرخين على عمل حضرية علمية بشأنها ليظهر الأيدي الخفية فيها ونحن لا نبرئ اليمين من الضلوع فيها بل وتدبيرها) وتشكّلت اللجنة ممن بقي من مجلس العشرة المبشرين بالجنة وهو المجلس الذي حلّ محل (ملأ مكة) والذي كان مجلس شورى محمد، وأشد التأويلات سذاجة أن ابن عوف اشترط على أبي الحسين أن يعمل (بكتاب الله وسنّة رسوله وأن يسير على نهج (سيرة) الشيخين (أبي بكر وعمر) فوافق ابن أبي طالب على العمل بالقرآن والسنّة ورفض السير على نهج الخليفتين الأول والثاني لأن له نهجه واجتهاده الخاصّين به بعكس عثمان الذي وافق على ما اشترطه عليه ابن عوف. ووجه السذاجة في هذا التأويل أن اليمين الذي يمثله عبد الرحمان كانت مصالحة تتعارض تماماً مع سيرة عمر وسنته ونهجه ولا شك أنه تنفس الصعداء لإزاحة أبي عبد الله (عمر) من طريقه فكيف يأتي برجل آخر يجدد سيرته ويتابع خطاه ويمشي على نهجه ويحيى سنّته.

إن ثورة محمد خضعت لقانون الثورات الذي لا تفلت منه أي ثورة والذي يتلخص حكمه في هذه الخصوصية أنه عندما تنجح الثورة وتؤتى ثمارها المرجوة لا يمسك بقرنيها الجنود الأوفياء الذين كانوا سند مفرجها بل الذين انضموا إليها بسبب حسابات خاصة بهم، وتوليهم مقاليد أمورها، بعد رحيل القائد وظهور ملامح الفوز والانتصار وبدوّ تباشير الثمار مرجعه إلى أن الثورة في تلك المرحلة ــ مرحلة النجاح والغلبة والظفر... الخ ــ تحمل جنين (نقيضها) فما إن تضعه حتى يتقدم أولئك الحسّابون لقيادته وتوجيهه فهم ــ بانتهازيتهم ــ أقدر كوادر الثورة على الإمساك بالمقود.

إذن القول بأن اختيار عبد الرحمان بن عوف لابن عفان

لمنصب الإمامة العظمى مرده أنه التزم بالسير على سنّة ابن أبي قحافة وابن الخطاب غير صحيح لأن ابن عوف يعرف قبل غيره أن عثمان لن يفعل فلا طبقته ولا سنه ولا سيرته (تأريخه السابق) تؤهله لأن يتابع خُطى (الشيخين) وأنه إذا كان في اللجنة من هو مؤهل له فهو أبو الحسنين دون سواه، هذا ما يعلمه يقيناً ابن عوف وباقي أعضاء اللجنة ــ أن اختياره لعثمان كان أمراً مقضياً حسب قانون الثورات ــ وأول شيء عمله عثمان بعد تربعه على كرسي الخلافة هو أنه عفا عن عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان الذي نسب إليه تحريض أبي لؤلؤة أو على الأقل الاشتراك في مؤامرة قتل عمر بأن قام عثمان باسترضاء (القاباذان بن الهرمزان) ودفع له دية أبيه وتحملها من ماله الخاص ــ مع أن علياً وعدداً من الصحابة (اليسار) كان من رأيهم إنزال حكم (النصوص) بقتل عبيد الله بن عمر ولكن اليمين رأى خلاف ذلك (كيف يقتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟) سوف تتضاعف الأزمة ويتعقد الموقف ووجود عبيد الله حياً لا خطر فيه ويكفي أن عمراً أزيح من الطريق الذي غدا مفتوحاً على آخره ليحقق اليمين مصالحه التي كان يخطط لها منذ أن ركب قطار الثورة ويحسب لها حساباته منذ الخطوة الأولى.

وهكذا بعد أقل من خمسة عشر عاماً من وفاة محمد قائد الثورة امتطى اليمين ظهرها وأمسك بيديه الاثنتين بزمامها ليدفع بها في (شارع) مصالحه وهو نجاح مذهل بكل المقاييس لأن خمسة عشر عاماً ليست بالمدة الطويلة ــ بل تعتبر في عمر الثورات كطرفة عين.

فالأمر الآخر أو السبب (الثاني) للنار المستعرة في قلوب الصحاب إذن هو إندحار جماعة (الحرس القديم) الأوفياء لثورة محمد وانتصار اليمين وتوليه السلطة باختيار ابن عفان خليفة

والسلطة تعني الجاه والثروة والنفوذ... الخ. وأمر آخر أدركوه وهو حتمية تقلص هيبة أو مكانة (أيأة) الصحابة[٤٦].

وتحلق حول عثمان أوباش (أخلاط) من اليمين (والطلقاء) و(اللعناء) و(الطرداء) طريدي محمد الــذين أمر بتغريبهم من يثرب كراهية لهم من أمثال الحكم بن أبي العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السرح وأبي سفيان ومعاوية والوليد بن عقبة وعمرو بن العاص الذي أوجد لابن عفان مخرجاً من تبعة قتل عبيد الله بن عمر بقوله: (يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث (= قتل الهرمزان) كان وليس لك سلطان على المسلمين!!! أي أن الحاكم الذي يأتي لا يكون مسؤولاً عن الجرائم التي سبقت زمنه وبذلك يفلت مرتكبوها لأن الحاكم الأول مات إبان حدوثها والحاكم الجديد أو الآخر أو الثاني تولّى المسؤولية بعدها وهو منطق عجيب لا يتفتق عنه إلاّ ذهن داهية مثل أبي العاص ــ ومع ذلك نلفاه بعد حين يرفع المنطق المعكوس في وجه أبي الحسنين ويشارك في حربه لأنه لا يريد أن يقدم قتلة عثمان للقصاص مع أن قتل عثمان تمّ ولم يكن لعلي آنذاك سلطان على المسلمين حسب ميزان عمرو نفسه ولكنها الانتهازية التي تستحل أن تستعمل المنطق ونقيضه ما دام كل منهما يحقق لها مصالحها كل في وقته!

هذه عينة من أفكار أيأة المستشارين التي التفت حول ابن عفان والتي زحزحت هيئة الصحابة التي استمرت متماسكة مترابطة حتى اغتيال عمر.

وسبق أن قلنا إن أبا سفيان دخل على ابن عفان وقال له تلقفها تلقف الكرة واجعل أوتادها بني أمية ولا أدري ما جنة ولا نار،

(٤٦) في **القاموس المحيط**، **الأيأة** هي الهياء لفظاً ومعنى.

صحيح أن عثمان أخرجه من مجلسه ساعتها ولكنه اكتفى بذلك وعاود بعد ذلك الاجتماع به واستشارته. ومعاوية وعمرو بن العاص أمرهما معروف.

* * *

الحكم بن أبي العاص

أما الحكم بن أبي العاص بن أمية عم عثمان فقد كان (عاراً في الإسلام وكان مؤذياً لرسول الله (ص) بمكة يشتمه ويسمعه ما يكره فلما كان فتح مكة أظهر الإسلام خوفاً من القتل فلم يحسُن إسلامه وكان مغموصاً (مطعوناً) عليه في دينه[٤٧]. ولما قدم المدينة كان يؤذي محمداً ويتجسس عليه في حجراته وهو بين نسوانه فلعنه ولم يجد بداً من طرده من المدينة فظل في منفاه بقية حياة محمد وخلافة أبي بكر وعمر (فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) فرده وولده فكان ذلك مما أنكر عليه)[٤٨]. وكان هذا (الوزغة)[٤٩]. كما كان يسميه محمد (أعظم الناس شؤماً على عثمان فإنهم جعلوا إدخاله المدينة وبعد إطراد النبي إياه وبعد امتناع أبي بكر وعمر من ذلك من أكبر الحجج على عثمان (رض))[٥٠].

ولعنة محمد عليه أمر ثابت تواترت به الأحاديث وإن حاول بنوه وأحفاده وهم الذين أسسوا الخلافة المروانية نسبة إلى ابنه مروان

---

(٤٧) **كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم**، لتقي الدين المقريزي، تحقيق د. حسين مؤنس ص ٤٧، مصدر سابق.
(٤٨) **أنساب الأشراف** للبلاذري، الجزء الأول ص ١٥٠و١٥١، مصدر سابق.
(٤٩) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، **سام أبرص** للذكر والأنثى والجمع أوزاع.
(٥٠) **كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم** ص ٤٦، مصدر سابق.

التي تولت بعد الخلافة السفيانية وكلها تشكل خلافة بني أمية ــ أن يشوشوا عليها(٥١).

وقد قالت عائشة (رض) لمروان بن الحكم: أشهد أن رسول الله (ص) لعن أباك وأنت في صلبه(٥٢). وهناك رواية أخرى لهذا الحديث لعبد الله بن عمرو بن العاص مما يجعلها بعيدة عن أي مطعن لعلو مكانة عبد الله في الرواية ولصلته وصلة أبيه بـ (البيت الأموي) (عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله (ص) يدخل عليكم رجل لعين وكنت تركت عَمْراً (يعني والده عمرو بن العاص) يلبس ثيابه ليقبل إلى رسول الله (ص) فلم أزل مشفقاً أن يكون أول من يدخل، فدخل الحكم بن أبي العاص)(٥٣).

وحتى عندما كان يعيش في مكة قبل النزوح إلى يثرب كان صعلوكاً (قليل المال جداً في قومه)(٥٤).

ويصف لنا اليعقوبي حال هذا الصعلوك الوزغة عندما أعاده عثمان من منفاه ودخل المدينة ثم هيئته فور خروجه من عند الخليفة (وقال بعضهم رأيت الحكم بن أبي العاص يوم قدوم المدينة عليه فزر خلق وهو يسوق تيساً حتى دخل دار عثمان والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه ثم خرج وعليه جبة خز وطيلسان)(٥٥). ويقال عن الثوب تفزر إذا تقطع وبلي، وثوب خلق

---

(٥١) **التشويش:** التخطيط وقد تشوش عليه الأمر، **مختار الصحاح** للرازي.
(٥٢) **كتاب التنازع** ص ٤٦، مصدر سابق، وكذلك **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري، المجلد ٢ ص ٣٨.
(٥٣) **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ١، ص ٣٦٠.
(٥٤) **جمهرة أنساب العرب**، لأبي محمد بن حزم الأندلسي ص ٨٠، مصدر سابق.
(٥٥) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني، ص ١٦٤، مصدر سابق.

أي بالٍ يستوي فيه المذكر والمؤنث[٥٦].

وبعد قليل نرى أن هذا الحكم ثم ابنه مروان أصبحا في الصدارة ومن خاصة مستشاري الخليفة الثالث وسرعان ما انقلبا إلى الأثرياء الأماثل. ولكن الحكم كان فاتر الهمة ومثل أضرابه لم يكن له نشاط بعد جمع المال سوى التناكح والإنسال والإنجاب ولذلك كان متوقعاً أن يكون غزير الذرية (وولد الحكم بن أبي العاص أحداً وعشرين رجلاً ونسوة)[٥٧].

وتدفقت الأموال في يديه ويدي ابنه مروان من عطايا ابن عفان من بيت المال فقد روى ابن الأثير في الكامل (وحُمِل خمس أفريقية إلى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار فوضعها عنه عثمان)[٥٨].

أما اليعقوبي فيقول: (وروى بعضهم أن عثمان زوج ابنته من مروان بن الحكم وأمر له بخمس هذا المال (الذي أحضره عبد الله سعد بن أبي السرح من أفريقيا)[٥٩]. ولكن ما مقدار ذلك المال؟ (... وكثرت الغنائم وبلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف)[٦٠]. وتتساوى الروايتان (رواية ابن الأثير ورواية اليعقوبي) في المحصلة النهائية وهي أن عثمان نفح صهره خمس غنائم أفريقية.

ولم يكن مروان بن الحكم هو الصهر الوحيد الذي تمرغ في نعماء مصاهرة عثمان فقد (زوج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد

---

(٥٦) **مختار الصحاح** للرازي.
(٥٧) **كتاب نسب قريش**، للمصعب الزبيري، ص ١٥٩، مصدر سابق.
(٥٨) نقلاً عن كتاب **عثمان بن عفان**، لد. محمد حسين هيكل، ص ٧٥، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر.
(٥٩) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد ٢، ص ١٦٦، مصدر سابق.
(٦٠) **المصدر نفسه**، ص ١٦٥.

بن أسيد وأمر له بستمائة ألف درهم وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة)[٦١].

وعبد الله بن عامر هذا هو عامل (والي) البصرة لعثمان الذي عزل أبا موسى الأشعري الصحابي المعروف وولاه بدلاً منه وكان وقتها ابن خمس وعشرين سنة، ولعل السبب في عزله وتولية ابن عامر بدلاً منه لا يحتاج إلى بيان إذ لو كان الأشعري هو الوالي لما طاوع ابن عفان في هذه النفحة الجزيلة التي تفضل بها على صهره من بيت مال المسلمين!

وقبل أن ننتقل إلى شخص آخر من أيأة مستشاري الخليفة الثالث التي حلّت محل الصحبة الذين كان يستشيرهم الشيخان، نذكر أننا لاحظنا في سيرة ابن عفان أنه سار على النهج نفسه الذي سنّه عمر وأوردناه فيما سلف وهو: أن وليّ الأمر يمضي ما يراه متجاوزاً (النصوص) فقد خالف عثمان أمر محمد في تغريب الوزغة الصعلوك الحكم واستمرار النفي طوال حياة محمد وزمن ابن أبي قحافة وخلافة ابن الخطاب وإعطاء أصهاره الأموال الجزيلة من بيت المال متخطياً الأحكام القطعية في ذلك بخلاف المخالفات الأخرى التي سوف نلم بها إلماماً سريعاً.

كل ما في الأمر أن العدويّ ابن الخطاب كان يتخطى النصوص في أمور غير مالية (لا داعي لأن نكررها) والأمويّ ابن عفان كان يخترقها في مسائل مالية وهذا ما جعلها تدوي دوياً هائلاً إنْ وقت حدوثها أو بعد ذلك، ولعل نشأة كل من الخليفتين هي التي دفعت كلاً منهما إلى الدائرة المخالفة فابن الخطاب من بني عديّ وهم فرع مهزول في قريش لم يعرف عنه الثراء فلم يخاطر بكسر (النصوص)

---

(٦١) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد ٢، ص ١٦٨، مصدر سابق.

في نطاق المال حتى لا يقال إنه بحكم نشأته ورهطه كان شَرِقاً إلى المال في حين أن تخطيات ابن عفان سليل بني أمية سادة قريش في الغنى وقعت في هذا النطاق لانتفاء مظنة وجود ظمأ لديه للمال.

لذلك عندما دافع عثمان عن تصرفاته المالية كان أول ما قاله إنه منذ البداية وفي حياة محمد كان شخصاً سخياً بماله لا يضن به على مصرف أو أُحُد وكان أولى به آنذاك أن يكون ضنيناً به، فهل بعد أن كبر سنه ورقّ عظمه واقترب من لقاء ربه يغدو بخيلاً وشحيحاً على أقاربه!

وما يقال رداً على ذلك أنه في بدء الأمر كان يسخو من ماله الخاص أما الآن فهو (يبعزق) من (بيت المال) الذي ائتمنه عليه الله والمسلمون.

٢ ــ عبد الله بن سعد بن أبي السرح

عبد الله بن سعد بن أبي السرح من بني عامر بن لؤي من قريش الظواهر أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، أسلم قبل الفتح ونزح (هاجر) إلى يثرب وأدناه محمد لقرشيته ولإخوته لعثمان ونظراً لمعرفته بالكتابة فقد أدرجه ضمن كتاب الوحي ولكن لسبب لم تفصح عنه كتب السيرة ارتد مشركاً وعاد أدراجه إلى مدينة القداسة ولم يكتف بذلك بل ادعى ادعاء أفصح عن نفسية غاية في الفجور والدناءة وسوء الطوية (إذ قال لقريش في مكة (إني كنت أصرف محمد حيث أريد كان يملي علي (عزيز حكيم) فأقول أو (عليم حكيم) فيقول: نعم كل صواب)[٦٢].

وقال الواقدي: وأول من كتب له (محمد) من قريش عبد الله

(٦٢) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري المجلد الثالث، ص ٢٥٩، **والاستيعاب** المجلد الثالث، ص ٩١٨.

بن سعد بن أبي سرح ثم ارتد ورجع إلى مكة وقال لقريش: أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد وكان يملّ عليه (الظالمين) فيكتب (الكافرين) ويملّ عليه (سميع عليم) فيكتب (غفور رحيم) وأشباه ذلك. فأنزل الله ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ سورة الأنعام ٩٣)(٦٣).

وهالت هذه الفرية محمداً فأهدر دمه وفي فتح مكة أمر بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة ففر إلى عثمان فغيبه عنده، وما كان له أن يفعل وقد سمع أمر محمد بقتله فحتى إن لم يقتله لآصرة الأخوة في الرضاعة فلم يكن من أن يؤويه عنده. ثم (أتى به رسول الله (ص) بعدما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له فصمت رسول الله (ص) طويلاً ثم قال: نعم، فلما انصرف عثمان قال رسول الله (ص) لمن حوله ما صمت إلاّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه، فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت يا رسول الله؟ فقال: إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين(٦٤).

وهذا الحديث يقطع بأن محمداً كان راغباً في إراقة دمه حتى آخر لحظة ولكن الصحاب لم يفهموا معنى صمته الطويل عندما استأمن له أخوه عثمان ــ وكان من البديهي أن يسلم عبد الله بعد ذلك ــ ولكن محمداً لم يأبه له ولا لإسلامه، ولم يلتفت إليه

(٦٣) كتاب **فتوح البلدان** تأليف يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري، القسم الأول، ص ٥٨٢، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، د. ت. ن. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٦٤) أخرجه أبو داود في **سننه** في باب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، وأورده ابن الأثير في **أسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها، وكذا ابن عبد البر في **الاستيعاب** المجلد نفسه والصفحة نفسها.

ولذلك صمتت كتب السيرة عن ذكره.

وإذا كان قد اشترك في غزو مصر مع عمرو بن العاص فإنه من المعلوم أن جيوش الفتح كانت تضم أوزاع القبائل وأوشاب (أخلاط) العرب حتى الذين ارتدوا في عهد ابن أبي قحافة.

إذن مساهمته في وطء مصر لا يعطيه ميزة أو أفضلية وإلاّ لكانت لعبد الرحمان بن ملجم عليه لعنة الله والناس أجمعين، قاتل على ميزة وأفضلية لأنه أيضاً اشترك في غزو مصر وكان شيخ القرّاء فيها لأنه تتلمذ في قراءة القرآن على يدي زيد بن ثابت عندما أوفده محمد إلى اليمن فضلاً عن أن الملعون ابن ملجم لم يكن محمد قد أهدر دمه وأمر بقتله ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة، أي في قلب البيت الحرام مما يقطع بشدة الجرم.

وعندما كان ابن عوف يشاور الصحابة فيمن يتولى الخلافة بعد طعن عمر، أشار عمار بن ياسر عليه بتولية علي وكان ذلك بحضور ابن أبي السرح الذي رفض اختيار عمار لعلي وطلب من ابن عوف تولية عثمان فما كان من عمار إلاّ أن شتمه ولا بد أنه ذكره بماضيه الأسود، وحفظ عثمان هذا الجميل لعبد الله بن أبي السرح. فعينه في سنة ٢٥هـ والياً لمصر وعزل عمرو بن العاص عنها حتى يتمتع ابن أبي السرح بخيراتها وعرض عثمان على ابن العاص أن يظل على قيادة الجند فسخر عمرو من هذا العرض وقال: أنا إذن كماسك البقرة بقرينها وآخر يحلبها! وهذا تعبير شديد البلاغة يصور مصر كبقرة حلوب وصاحب الجند يمسك بقرنيها وواليها وصاحب خراجها يحلبها فيرتوي ويتضلع من حليبها ولبانها ثم يرسل ما يفيض إلى الخليفة ليوزعه على النخبة القابعة في أثرب/ المدينة حتى إذا اكتفت أرسل الباقي إلى الرعيان في البوادي ولا

زال هناك من يقول إن هؤلاء الأماثل خرجوا من جزيرتهم ليخرجوا أهالي البلاد التي غزوها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد مع أن هؤلاء الأخيرين لم يشتكوا لهم: لا من حكامهم ولا من أديانهم!

وكان عزل عبد الله بن عمرو سبب غضبه على عثمان ولذا كان أحد المنتقدين لعثمان وسياسته في المؤتمر الذي انعقد في مسجد محمد لمحاسبة الخليفة في بدء الفتنة.

وشمر ابن سرح عن ساعديه ليثبت لولي نعمته أنه عند حسن ظنه فاشتد في حلب البقرة وأجهد ضروعها (واجتبى عبد الله مصر اثني عشر ألف ألف دينار فقال عثمان لعمرو: درت اللقاح: قال عمرو: ذاك إن يتم بضر الفصلان)[٦٥].

وسر عثمان من حصيلة الخراج والجزية التي استخلصها أخوه في الرضاعة من مصر فأغزاه أفريقية ــ عسى أن يأتي منها هي الأخرى در وفير وعطاء جزيل ــ وفعلاً صح ما توقعه ابن عفان (... وكثرت الغنائم وبلغت ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف)[٦٦].

وفي رواية أخرى أنها كانت ثلاثمائة قنطار من الذهب الخالص، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف وكافأ ابن عفان أخاه فأعطاه خمس ما يستحقه بيت المال من الفيء الذي يبلغ بدوره الخمس أي أن عبد الله بن سعد ابن أبي السرح تحصل بمفرده على اثني عشر قنطاراً من الذهب الخالص الإبريز!

وبداهة أنه لا يوجد في (النصوص) نص واحد يجيز لعثمان أن

(٦٥) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني، ص ١٦٤، مصدر سابق.
(٦٦) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني، ص ١٦٥، مصدر سابق.

ينفل أخاه هذا القدر الجسيم من غنائم أفريقيا ولكننا فيما سبق ذكرنا أن عثمان نفح مروان بن الحكم خمس غنائم أفريقية فكيف يمكن الجمع بين الخبرين؟ يقول الإخباريون أن الفتح تمّ مرتين أو على مرحلتين في الأولى نفل مروان والأخرى ابن أبي السرح. وهذه الروايات حملها الطبرسي وابن الأثير، وهي واردة في كل المصادر التي تناولت أحداث الفتنة الكبرى إذ إن من أهم المآخذ التي حسبت على الخليفة الثالث، المنائح الجزيلة التي نفحها لأقاربه وأصهاره وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود ومروان.

وليس عجيباً على مثل هذه الشخصية الانتهازية أن تتخلى عن اليد التي امتدت إليها بالمعروف وانتشلتها من وهدة المجافاة والمفاصلة والترك والإغفال ووضعتها في الصدارة وأغدقت عليها أطنان الذهب فكما قلنا إن منيحة عثمان الجزيلة العريضة لابن أبي السرح كانت إحدى العوامل الفاعلة المؤثرة في الخروج على عثمان والشغب عليه وكان الوفاء يحتم على عبد الله أن يحضر على رأس جيش لُجب لإنقاذ أخيه من أيدي الثوار ولكن كيف يترك العز والبُلهنية والرفاغية التي يغوص في أعماق بحارها ويزج بنفسه في أتون فتنة لا يعلم مداها إلاّ الله، بل إن الثور عندما انتزعوا منه مصر، لم يقاوم وتركها لهم لقمة سائغة وأخذ ثقله وحريمه وأطنان ذهبه واختار مدينة جميلة ينعم فيها بذلك كله قيل إنها الرملة وقيل إنها عسقلان وكلاهما في حمى طليق مثله هو معاوية بن أبي سفيان حاكم الشام دون مدافع أو منازع، وفعل ذلك كله (فاراً من الفتنة) حسب تعبير الكامل في التاريخ[٦٧].

(٦٧) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري، المجلد ٣، ص ٢٦٠، مصدر سابق، **والاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٣، ص ٩٢٠.

وحتى لما دارت رحى الحرب في صفين بين علي ومعاوية لم يشترك فيها مؤثراً الخلود إلى المتعة والراحة والتلذذ بثمرات حصته من غنائم أفريقية(٦٨) الأسطورية التي لا بد أنها أتاحت له عيشة خيالية ما كان يحلم بها وهو في مكة يفتري على محمد أنه يصرفه كما يريد!

هذا وصف موجز لثاني الشخصيات التي اصطفاها عثمان من دون صحابة محمد وخصها برعايته ومنائحه الجزيلة، الأمر الذي ضاعف من تأجج الثأر في صدور الصحبة (الحرس القديم).

٣ ـــ مروان بن الحكم

ابن عم عثمان وهو أقوى المحيطين به تأثيراً عليه وأشدهم هيمنة عليه وكان شؤماً عليه أورده مورد التهلكة وعلاقته به ونفحات عثمان له ثم سلوكياته (مروان) وتصرفاته من أهم أسباب الفتنة (الثورة) على الخليفة التي انتهت بمصرعه الدامي وهي أول فتنة (ثورة) مسلحة في الإسلام. ومن الغريب أنه على الرغم من حدوث عشرات بل مئات الفتن (الثورات) في تاريخ الإسلام فهي الوحيدة التي ظلت آثارها باقية حتى الآن وشقت عصا الإسلام والمسلمين وشرذمت الأخيرين وفتنتهم إلى فرق أشهرها السنة والشيعة والخوارج وهي باقية حتى اليوم.

فمن هو الرجل الذي كانت له اليد الطولي في إضرام جحيم الفتنة بين المسلمين وصدعهم إلى فرقاء متنافرين. ليس معنى ذلك أن مروان وأفاعيله هي السبب الوحيد ولا حتى الرئيس فهناك العشرات من البواعث التي فجّرت ذلك الخروج (الفتنة أو الثورة)

(٦٨) **أسد الغابةِ**، المجلد نفسه والصفحة نفسها **والاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها.

ولكن الذي تجمع عليه كتب السير والأخبار أن وجود مروان بن الحكم واستيلاءه على أذنى عثمان وإيثار الأخير له بالعطايا الجزيلة والإنصات له وخطايا مروان شكلت نسبة ملحوظة بين الدوافع على الثورة على الخليفة الثالث واغتياله المأساوي الذي لا يستحقه فرغم كل ما نسب إليه فقد كان حيياً جم الحياء شيخاً شديد السخاء، محباً لأهله وعطوفاً على رهطه وهي من شيم النبلاء من الرجال في ذلك الزمان وغيره من الأزمان. ــ مرة أخرى من هو مروان؟

كان رجلاً لا فقه له ولا يعرف بالزهد ولا برواية الآثار ولا بصحبة ولا ببعد همة(٦٩).

وكان قصيراً أحمر (أبيض لا تشوبه سمرة)(٧٠). اختلف في تاريخ مولده قيل ولد في العام الهجري الثاني وقيل يوم أحد ويوم الخندق ــ كما اختلف في مكان الميلاد فقيل بمكة وقيل بالطائف ــ ولكن الثابت أنه لا صحبة له (خرج إلى الطائف طفلاً لا يعقل لما نفى النبي (ص) أباه الحكم)(٧١).

فلما ردّ عثمان عمه الحكم قدمَ ومعه ولده المدينة/ يثرب وتوفى أبوه فاستكتبه عثمان وكتب له فاستولى عليه (يعني على الخليفة) إلى أن قتل عثمان(٧٢). ويؤكد هذه الحقيقة اليعقوبي بقوله: (وكان الغالب عليه (يعني عثمان) مروان بن الحكم بن أبي العاص وأبو سفيان بن حرب)(٧٣). ونلاحظ أن اليعقوبي قدّمه على أبي سفيان

---

(٦٩) **كتاب التنازع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم** للمقريزي ص ٤٧، مصدر سابق.
(٧٠) **مروج الذهب** للمسعودي، ج ٢، ص ٦٨، مصدر سابق.
(٧١) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري ص ١٤٤ من المجلد الخامس، مصدر سابق.
(٧٢) **الاستيعاب** لابن عبد البر ص ١٣٨٨، المجلد ٣، مصدر سابق.
(٧٣) **تاريخ اليعقوبي**، ج ٢، ص ١٧٣.

رغم سنه ومنزلته فقد كان وقتها (شيخ قريش) وسيد بني أمية ــ الأمر الذي يقطع بعظم تأثير مروان على عثمان ــ كاتب معاصر وهو يميني النزعة وأستاذ للتاريخ الإسلامي ــ يصف مروان بما يلي: (وقد قربه عثمان وأنعم عليه هو وآله حيث كان معروفاً عن عثمان عطفه على ذوي قرباه لصلة الرحم، وضمه لحاشيته فعيّنه أحد كتابه ثم ما زال يرقى حتى صار بمثابة أمين سر دولته ورئيس ديوانه)[٧٤]. موحد الدولة العربية[٧٥]. وهذا الباحث يعطي مثلاً نموذجياً (للكتابة التبجيلية التعظيمية التفخيمية) التي تنهج منهجاً بعيداً عن الموضوعية فهو على سبيل المثال عندما يتكلم عن الحكم (والد مروان) لعين محمد وطريده يخفي الحقائق الدامغة التي ذكرتها كل كتب السير والتواريخ التي تناقض منهج التعظيم أو يضبب عليها (يعتم عليها) أو يشكك في رواياتها دون تقديم أدلة التشكيك وهذا المسلك يفقد كتابات هذا الباحث وأقرانه كل قيمة علمية. ا. هـ. ولا يزال السؤال حائراً كيف خلى عثمان بين مروان وبين أذنيه يصب فيهما ما يشاء ويترك مشورة المشيخة من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار... الخ. وكان أعيانهم يدركون مدى خطورة موقع مروان في مجلس شورى عثمان فقد كان علي بن أبي طالب يقول له: مكافحه أي وجهاً لوجه (ويلك وويل أمة محمد منك ومن بنيك)[٧٦]. وكان محمد بن الحنفية وهو ابن لعلي بن أبي طالب من غير فاطمة الزهراء بنت محمد يسترجع عندما تولى مروان ثم ابنه عبد الملك الخلافة ويقول: (تسلط الطلقاء

---

(٧٤) **عبد الملك بن مروان.**

(٧٥) بقلم ضياء الدين الريس، العدد ١٠ من سلسلة (أعلام العرب) الطبعة الأولى ١٩٦٢، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة.

(٧٦) **أسد الغابةِ** لابن الأثير، المجلد الخامس، ص ١٤٥، مصدر سابق.

ولعناء رسول الله (ص) على سائر الناس)[٧٧].

ومما يكشف عن سوء طويته أنه تزوج عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص أحد أعداء محمد الألداء فلما ظفر به في أحد أمر به فقتل صبراً[٧٨]. أي أنه لم يجد سوى بنت عدو محمد اللدود ليبني بها.

وعندما حاول أن يدافع عن عثمان (يوم الدار) لزق على قفاه وهرب هو وغيره من بني أمية[٧٩]. وسمى (مضروب القفا) وأصبح صاحب لقب مركب (خيط باطل/ مضروب القفا) فجمع بين سخريتين.

ولم تفارقه دناءته وفسولة طبعه فرغم أن معاوية أحسن إليه وولاه المدينة/ أثرب وأجزل له العطاء فإنه كان يتآمر عليه في الخفاء أو بمعنى أدق كان يحرض عليه عمرو بن عثمان بن عفان ليخرج (يثور) عليه فسمعته رملة بنت معاوية زوج عمرو بن عثمان فأبلغت أباها فأرسل إليه معاوية رسالة شديدة اللهجة ذكره فيها بما قاله محمد بشأن أبيه الحكم[٨٠].

سبق أن قلنا إن عبد الرحمان بن عوف صاحب الجميل على عثمان لأنه رتب الأمور ومهد الطرق حتى ولاه الخلافة ورأينا تصريح ابن عوف بذلك ولا شك أن مروان سمع به فأراد أن يكافئ ابن عوف على صنيعه لأنه في نهاية المطاف تنسب البلهنية التي يتمرغ فيها مروان إليه ولما كان قد توفي فقد عين ابنه مصعب

---

(٧٧) **كتاب التنازع والتخاصم** للمقريزي ص ٤٩، مصدر سابق، وكان يسمى **خيط باطل أسد الغابةِ** المجلد والصفحة نفسيهما **والاستيعاب** الصفحة والمجلد نفسيهما.
(٧٨) **جمهرة أنساب العرب**، لأبي محمد حزم الأندلسي، ص ١١٠، مصدر سابق،
(٧٩) **مروج الذهب** الجزء الأول، ص ٥٥٢.
(٨٠) **كتاب نسب قريش** لأبي عبد الله المصعب الزبيري، ص ١١٠، مصدر سبق ذكره.

ابن عبد الرحمان على شرطة المدينة وكان هذا أحد الجبابرة الغلاظ القساة فعل الأفاعيل في أهل أثرب/ المدينة (شد بهم وجلدهم وهدم الدور ففزع الناس من ذلك فشكوه لمروان).

ولكنه لم يحرك ساكناً فإن أمر (الرعية) لا يعنيه في شيء كل همه أن يعيش في رفاهية بالأموال التي أغدقها عليه ابن عفان ــ ولم يكن أحد ــ ولا هو نفسه ــ يعتقد أن يتولى الخلافة وكاد أن يبايع عبد الله بن الزبير لولا أن أحد مستشاريه زبره ونهمه (زجره) وقال: كيف تفعل ذلك وأنت كبير قريش ــ وكان أقرب الناس لا يتصور أن يكون ملزوق القفا خليفة المسلمين، وكان له أخ شاعر حسن الشعر عندما سمع توليه الخلافة قال مستهزئاً:

فــوالله ما أدري وإنـــي ســـائل لحليلة (مضروب القفا) كيف تصنع
لحي الله قوماً أمروا (خيط باطل) على النـــاس يعطي ما يشاء ويمنع

وواصل رحلة الخسة والنذالة حتى وهو خليفة ولأنها طباع مركوزة في جبلته فلا تفارقه، ذلك أنه بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان تولى بعده ابن له يسمى معاوية على اسم جده ولكنه توفى بعد أقل من شهر ونصف وتم الإتفاق بين آل سفيان وآل مروان وهما فرعا بني أمية على أن يتولاها مروان ومن بعده خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان شاباً وقت أن توفى أخوه (معاوية) ولكن بعد أن تولى مروان غلب عليه طبعه الفاسد فعزم على التحلل من عهده وأن يجعلها في إبنيه عبد الملك ثم عبد العزيز فأخذ يرتب لذلك: تزوج من أم خالد أرملة يزيد بن معاوية وهي بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس[٨١]. ويقال لها أيضاً أم

(٨١) **جمهرة أنساب العرب**، ص ٧٧، مصدر سابق، **وكتاب نسب قريش** لأبي عبد الله المصعب الزبيري، ص ١٢٨، مصدر سابق.

هاشم وذلك ليحقر من شأن خالد ويهون من قدره ويهزل من مكانته ولم يكتف بذلك فقد كان كلما لقي خالداً سبه وشتمه ووصفه بالحمق وهي صفة شنيعة إذ كيف يتولى الخلافة أحمق مأفون مع أنه كان شاعراً وعلى قدر من العلم ــ وصبر عليه خالد إلى أن قال له أمام جمع كبير من أعيان الشام (يا بن رطبة الاست) ليسقطه من أعين الناس. (فرجع إلى أمه فأخبرها فقالت له أمه: لا يعرف منك ذلك واسكت فإني أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها: هل قال لك خالد شيئاً؟ فقالت: وخالد يقول فيك شيئاً! إن خالداً أشد لك إعظاماً من أن يقول فيك شيئاً، فصدقها ثم مكثت أياماً ثم إن مروان نام عندها، فغطته بالوسادة حتى قتلته)[٨٢].

لفظة السباب التي جابه بها مروان خالداً تدل على حقارة لا متناهية ودناءة بالغة فمهما بلغت سفالة المرء فهو لا يذكر عضو التأنيث لزوجته على مسمع من الناس[٨٣].

والزوجة هنا هي أم خالد أو أم هاشم تنتسب إلى عبد شمس أي من فرع عالٍ من قريش وكانت زوجة خليفة وهو يزيد بن معاوية أي كانت ملكة ــ فكيف يجرؤ ابن الوزغة ــ مضروب القفا، خيط باطل أن يطعنها هذه الطعنة النجلاء أمام عِلْيَة أهل

---

(٨٢) **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٥ ص ٦١١ طبعة ١٩٦٣، دار المعارف بمصر.

(٨٣) هذا المسلك وأمثاله مما سبق وما يلحق يدلنا على أن أولئك القوم كانوا على درجة فظيعة من البداوة والجفاوة والبعد عن الحضارة وإذا كان هذا المروان وهو خليفة ومن بني أمية الذين كانوا من ذؤابة قريش العليا سمح لنفسه بأن يتفوه بهذه الجملة فكيف يكون حال الواحد من عامة قريش دعك من غيرها من القبائل والأعراب والأعاريب في البادية!

ومما يؤسف له أن المقادير شاءت أن يحكم هؤلاء البدو دولاً ذات حضارات عريقة مثل مصر والشام والعراق وفارس!

الشام فقررت التخلص منه خاصة وأنه نكث عهده بتولية خالد بعده الخلافة وعهد بها إلى ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز ونفذت خطة قتله بالصورة التي أوردها الطبري والبعض يرى أنها دست السم له وقد ذكر تلك الواقعة الجم الوفير من المصادر بصورة تبلغ الإجماع منها:

(تاريخ اليعقوبي) ـ المجلد/ ٢ ص ٣٥٧ ـ (مروج المذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي ـ الجزء/ ٢ ص ٦٩ ـ (كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) لتقي الدين المقريزي ص ٤٨ (أُسد الغابةِ) لابن الأثير الجزري المجلد الخامس ص ١٤٥ ـ (الاستيعاب) لابن عبد البر ـ المجلد/ ٣ ـ ص ١٣٨٩ ـ بخلاف الطبري[٨٤]. ولهذا يعد مروان من (قتلى النساء)[٨٥] ومما يؤكد ما

(٨٤) على الرغم من ثبوت هذه الواقعة في أمهات كتب السير والتواريخ وقد ذكرنا بعضاً منها، حتى يمكن أن يقال إن هناك إجماعاً على صحتها نرى د. ضياء الدين الريس في كتابه الذي سلف الإلماع إليه **عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية**، ينتهي إلى أنها تهمة كاذبة أو فرية أو خرافة ص ٦٥، وذلك بعد إيراد بعض المماحكات والفرضيات ضارباً عرض الحائط بتلك المصادر وذلك الإجماع أو شبه الإجماع لأنه مثل سائر أفراد جوقة التبجيل والتعظيم يستهول أن يقول خليفة المسلمين تلك العبارة النابية المنحطة ويستفظع أن تتولى (سيدة شريفة من بيت عبد شمس) ص ٦٣ بتدبير وتنفيذ مؤامرة قتل زوجها، كأنما أولئك الناس من طينة غير طينة بني آدم وليت لهم أهواء وغرائز وعواطف... الخ. ويحاول أن يحسن من صورة الملزوق على قفاه مروان فيذكر أنه تابعي ومن رواة الحديث، أما التابعي فهو من رأى واحداً من صحابة محمد أو حدثه أو جلس إليه وليست هذه ميزة ما لم تساندها أفعاله القويمة أما رواية الحديث فقد سبق أن ذكرنا أن هناك صحابياً (وليس تابعياً فحسب) حملت بعض الصحاح له أكثر من رواية ومع ذلك فعل الأفاعيل بشهادة المصادر الموثوقة وهو بسر بن أرطأة فهل محت روايته للأحاديث أفعاله تلك؟

ولعل هذا المثل يؤكد ما كررناه أن كتابة التاريخ العربي الإسلامي المعاصرة، للأسف الشديد كتابة منحازة يشوبها الهوى وتمليها العاطفة الجامحة.

(٨٥) **أسد الغابةِ** لعز الدين بن الأثير الجزري، المجلد ٥، ص ١٤٥، **والاستيعاب في معرفة الصحاب،** لابن عبد البر، المجلد ٣، ص ١٣٨٩.

قاله المقريزي عنه أنه لم يكن بعيد الهمة فقد انحصر همه في التزاوج والإنسال مثل والده الحكم الوَزَعة (ومن شابه أباه فما ظلم) ذلك أن له (من الولد أحد عشر ذكراً وثلاث بنات)(٨٦)!

* * *

تلك كانت صورة سريعة لثالث الشخصيات التي أحاطت بابن عفان ولأكبر مستشاريه والذي فوّض إليه أموره، وسلم إليه قياده حتى كان أحد الأسباب الفاعلة في اغتياله بصورة بشعة ومن أجله ترك مشورة أكابر صحبة محمد بل عندما كان بعضهم يحاول أن ينصحه يُعرض عنه أو يزبره أو يأمر بعقابه حسب مكانة الصحابي ورهطه الخ... وبلغ نفوذ مروان على عثمان حدا لا يُصدق إذ أراد أن يسوّيه بأبي الحسنين عليّ بن أبي طالب ــ ذلك أنه عندما نفى عثمان الصحابي أبا ذر من أثرب/ المدينة ذهب علي ليشيّعه فاعترض مروان بحجة أن الخليفة (عثمان) حظر ذلك فما كان من عليّ إلا حمل عليه بالسوط وضرب بين أذني راحلته وقال: تنحّ، نحاك الله إلى النار فشكاه مروان إلى عثمان فقال له: أَقِدْ مروان... ولم لا يشتمك إذا شتمته فوالله ما أنت عندي بأفضل منه فغضب عليّ وقال له: أإليّ تقول هذا القول وبمروان تعدلني(٨٧) الخ...!! وهي واقعة بالغة الدلالة وتصور إلى أي حد هيمن مروان على عثمان وملك عليه حواسه حتى أصبح يفضله على أبي الحسن!

* * *

(٨٦) **مروج الذهب**، للمسعودي، الجزء ٢، ص ٦٩، مصدر سابق.
(٨٧) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، للمسعودي، ج ١، ص ٥٥٠ و٥٥١، مصدر سابق.

وكان أول ما بدأ به عثمان أن زوجه ابنته أم أبان الكبرى وتزوجت بنت عثمان مروان بن الحكم وهي التي شبب (تغزل) بها عبد الرحمن بن الحكم فقال:

فواكبداً من غير جوع ولا ظمأ   وواكبداً من حُب أم أبان(٨٨)

وذكر أبو محمد بن حزم الأندلسي زواج مروان من أم أبان وعقبه منها(٨٩).

ومن مواقف عثمان من الأموال أنه أعطى مروان خمس غنائم أفريقية وقد سبق أن ذكرنا ذلك ــ ويورد لنا الطبري في كتابه (تاريخ الأمم والملوك) أن عثمان بن عفان نفح مروان فدك مخالفاً بذلك سنة محمد وأبي بكر وعمر وملخصها (كانت (فدك) لمحمد يأكل منها وينفق ويعود على فقراء بني هاشم... وسألته إياها فاطمة فأبى فلما ولى أبو بكر عمل فيها بعمل محمد ثم من بعده عمر فلما ولى عثمان أقطعها لمروان فجعل ثلثها لعبد الملك وثلثها لعبد العزيز... فلما ولى عمر بن عبد العزيز ردها إلى ما كانت عليه في عهد محمد وأبي بكر وعمر)(٩٠).

ونحن لا نأخذ بهذه الرواية ونرجح الروايات الأخرى التي تقول إن معاوية بن أبي سفيان ــ لا عثمان بن عفان ــ هو الذي منحها لمروان لأنها أوثق من رواية الطبري ــ كما سوف نوضحه في الفقرة التالية التي نخصصها لمعاوية، ولا يعني هذا تهزيلاً (من الهزال) من شأن الطبري فهو مؤرخ له قدره وكتابه (تاريخ الأمم

(٨٨) كتاب **نسب قريس** للمصعب الزبيري، ص ١١٢ و١٦١، مصدر سابق.
(٨٩) **جمهرة أنساب العرب** لأبي محمد ابن حزم الأندلسي، ص ٨٧، مصدر سابق.
(٩٠) الطبري.

والملوك) من أهم مصادر التاريخ العربي الإسلامي(٩١).

وأياً كان الجدل حول «فدك»: هل الذي أقطعها مروان هو عثمان أم معاوية فإن الثابت أن عثمان نفح مروان خمس غنائم إفريقية الذي بلغ مئات الألوف من الدنانير وإزاء القطع بثبوت هذه الرواية وإجماع المصادر على صدقها وصحتها فإن فرقه أخرى تتبري للدفاع عنهم بحسبان أنهم معصومون من الأخطاء والخطايا وأنهم فوق البشر هذه الفرقة هي (فرقة التسويغ) التي تتكون من (فقهاء التبرير) ومهمتها أن تجد لأولئك المبرر أو المسوغ لما قارفوه من أفعال إما بلّي أعناق النصوص أو بـ (مَتْحِها)(٩٢). أو بتأويلها تأويلاً شاذاً يبتر النص عن سياقه أو تحميلها ما لا تتسع له طاقتها.

ويأتي في مقدمة «جوقة التسويغ»/ القاضي أبو بكر العربي من فقهاء القرن السادس الهجري (٤٦٨/ ٥٤٣هـ) فهو يدافع عن ابن عفان بقوله: (وأما إعطاؤه خمس إفريقية فلم يصح، على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس وينفذ فيه

(٩١) هناك باحث آخر من (جوقة التبجيل) ولو أنه أكثر توازناً من د. ضياء الدين الريس يرفض رواية الطبري، ويفضل عليها رواية ابن عبد ربه في (العقد الفريد) ولو أننا فعلنا ذلك أو استندنا في ذكر أي خبر إلى **العقد الفريد** أو **الأغاني** أوأحد كتب **الأمالي** ولو مرة فريدة رغم تقديرنا لها في مجالها، لا نبرى إلينا فلحاس من إياهم في **القاموس المحيط** للفيروزآبادى/ **الفلحاس:** السمج. ا. هـ. والعامة في مصر تقول: فلحوس، معترضاً أننا نعتمد في دراستنا إلى كتب (التسالي) و«النوادر» و(الحكي) ولكن عندهم (الغاية تبرر الوسيلة) ينافسون ميكيافللي في (الأمير) بيد أن ذلك الباحث لو بذل قليلاً من الجهد لوجد الرواية نفسها في **فتوح البلدان** للبلاذري ولأغناه ذلك عن الاستناد إلى كتاب أدب وهو يكتب في مجال التاريخ، ذلك الباحث هو فضيلة الشيخ صادق إبراهيم عرجون في كتابه **عثمان بن عفان** ص ١٣٤ وما بعدها، الطبعة الأولى ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، جماعة الأزهر للنشر والتأليف دار التوزيع والطباعة والنشر، القاهرة.

(٩٢) **مَتَحَ:** نزع وصرع وقلع وقطع وضرب، من **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

ما أداه إليه اجتهاده، وإنْ أعطاه لواحد...)[٩٣]. ولم يبين لنا القاضي كيف أن الرواية لم تصح وما سنده في الحكم على عدم صحتها ـ ونسأل هل رأى مالك أولى بالاتباع مما عمله محمد والشيخان وهل حدث أن أحدهم أعطى الخمس أو حتى خمس/ الخمس لفرد واحد وهل هذا يتفق وروح الإسلام؟

ويزيد محقق الكتاب محب الدين الخطيب الطين بلة فيقول:

(ثبت في السنة تنفيل أهل الغناء والبأس في الجهاد كما فعل النبي (ص) في مكافأة سلمة بن الأكوع في إغارة عبد الرحمن الغزاري على سرح النبي (ص))[٩٤].

فهل كان مروان من أهل الغناء والبأس في الجهاد؟

طبعاً لم يكن. إذن فما هو سند عثمان في نفحة الخمس؟

أما إذا كان يقصد عبد الله بن سعد بن أبي السرح:

فهل كان سلمة بن الأكوع أخا محمد في الرضاعة؟

وهل تصح مقارنة سلمة المجاهد الشجاع الذي كان يعرّض حياته لأفدح الأخطار بسعد بن عبد الله بن السرح المفتري على محمد كذباً وبهتاناً حتى إنه أهدر دمه ـ وأين هو بأسه في الجهاد وقد ضبط مختبئاً من العدو في إبّان استعار العركة فلما سئل عن ذلك أجاب أنه يخشى الإغتيال لأن قائد المعسكر المعادي وعد

---

(٩٣) **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ص)** تأليف القاضي أبي بكر بن العربي (٤٦٨/ ٥٤٣هـ) تحقيق محيى الدين الخطيب (١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ) ص ١٠١، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ، المكتبة السلفية بمصر.

(٩٤) المصدر نفسه، هامش الصفحة نفسها.

بمنح مكافأة سنية لمن يأتيه برأس سعد!

ألم يقرأ محب الدين الخطيب هذه الواقعة أم أنه قرأها وغطرش عليها؟

وهل هذه هي الأمانة العلمية لمن ينادون بـ (السلفية)؟

وهل ما دفعه محمد إلى سلمة يقاس بما نفحه عثمان لأخيه سعد أو لصهره مروان؟

أم هو الدفاع إن بالحق أو بالباطل عن أفعالهم وممارساتهم لأنه لا يخطئون؟

* * *

وثالث أفراد (جوقة التسويغ) أو (فقهاء التبرير) هو المحب الطبري، أبو جعفر أحمد وهو من علماء القرن السابع الهجري ولا نشك أنه اطلع على (العواصم) لابن العربي لأنه يسير على نهجه في ذكر التهم المنسوبة إلى عثمان ثم يقوم بتبريرها ولو أنه في تسويغه يأتي بجديد ومختلف عما أورده ابن العربي ـ (وأما طعنهم على عثمان أنه وهب خمس إفريقية من مروان بن الحكم فهو غلط منهم وإنما المشهور في القضية أن عثمان كان جهّز ابن أبي السرح أميراً على آلاف الجند وحضر القتال بإفريقية، فلما غنم المسلمون أخرج ابن أبي السرح الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها إلى عثمان وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والمواشي مما يشق حمله إلى المدينة فاشتراها مروان منه بمائة ألف درهم نقد أكثرها وبقيت منها بقية ووصل إلى عثمان مبشراً بفتح أفريقية، وكانت قلوب المسلمين مشغولة خائفة أن يصيب المسلمون من أمر إفريقيا نكبة فوهب له عثمان ما بقي عليه جزاء بشارته وللإمام أن

يصل المبشرين من بيت المال بما رأى على قدر البشارة)[٩٥].

وهذا النص يستنفر أو يستفز أكثر من تعليق ويثير عدة أسئلة:

بادئ بدء حكاية وجود مروان على أرض معركة أفريقية مشكوك فيها لأن الثابت أن مروان لم يغادر منطقة الحجاز إلاّ إلى الشام بعد مصرع عثمان بزمن.

إذا كان ما بقي من الخمس الأثاث والمواشي مما يمكن بيعه (لأن مروان اشتراه بقصد بيعه) فلماذا لم يفعل عبد الله بن سعد ذلك و(بيت مال المسلمين) أولى بالربح الناتج ولماذا خص عبد الله بن سعد زوج ابنة أخيه من الرضاعة بهذه الصفقة الرابحة؟ هل لتربع مروان على كرسي رئيس ديوان كُتّاب الخليفة أثر في الفوز بها؟ وهل يجيز الإسلام الإتجار بالنفوذ والتربح بالوظيفة؟

وكيف يسمح المحب الطبري وهو العالم النِحْرير والفقيه الخرّيت بأن يفتى بحلية ذلك؟ ألم يسمع حديث محمد في هذه الخصوصية وخاصة حديث ابن اللُتبية؟ وإذا كان من حق الإمام أن ينفح المبشرين فهل يجوز له بميزان الإسلام أن ينفح مُبشراً واحداً مئات الألوف من الدنانير مع وجود شبهة قوية وهو أن هذا المُبشر هو (١) ابن عمه (٢) صهره (٣) كبير كتابه!

ولعل هذا المثل يؤكد لفكرة التي سطرناها سابقاً وهي أنهم لم يعرفوا نظرية (المال العام) حتى مقولة (بيت المال) مختلفة عنها، وأنه مثل ما كان (شيخ القبيلة) مطلق اليد في الغنائم التي تنتج عن غارات النهب والسلب ــ قبل الإسلام ــ فإن (الخليفة) أيضاً حر في

(٩٥) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** لأبي جعفر بن محمد، المحب الطبري، ص ٥٥٧، مصدر سابق.

الغنائم التي ابتزت من البلاد المقهورة الموطوءة رغم (النصوص) والقواعد التي قعّدها محمد والضوابط الصوارم التي وضعها، لأن العرف القديم عتّم عليها وغطاها فتوارت وعادت له هيمنته وسيطرته ــ ثم تجيء (فرق التسويغ) فيما بعد وتبرر للخلفاء أعمالهم التي تخطت (النصوص) وقفزت عليها وتجاوزتها ولا بأس من أن ينبّشوا في حنايا (سيرة محمد) وزواياها عن واقعة لها ظروفها الخاصة ليستخلصوا منها حكماً أو قاعدة تبريرية حتى ولو كان المثل المضروب بعيداً عن الواقعة الأصلية بعد السماء عن الأرض مثل مكافأة محمد لسلمة بن الأكوع سالفة الذكر.

٤ ــ الوليد بن عقبة بن أبي معيط

أي رابع رجال عثمان ــ الذين التفوا حوله وشكّلوا بطانته وليجته وخاصته فهو: الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخو عثمان لأمه... أسلم يوم الفتح.. أخذته أمه إلى محمد ليمسح على رأسه ويباركه ــ كباقي الفتيان ــ ولما كان محمد عبقرياً شديد الفراسة فقد رفض[٩٦]. ويبرر المسوّغون رفض محمد المسح على رأس الوليد وتطويبه وتبريكه (الدعاء له بالبركة) بأنه كان على رأسه خُلوق (طيب) ــ ولكن الذي نرجحه أن الفتى أولاً كان من بني أمية المنازعين التقليديين لبني هاشم ولا بد أن محمداً تفرس في ملامح وجهه فاستشف منها ما يقطع بأنه سيغدو حرباً على الإسلام والهاشميين وقد صدقت فراسته إذ أساء الوليد للإسلام أبلغ إساءة وكاد للهاشميين أيّما كيد ــ وفيما بعد أخبر محمد (أنه ــ الوليد من أهل النار)[٩٧].

(٩٦) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، المجلد الرابع، ص ١٥٥ وكذلك **أسد الغابةِ** الجزء ٥، ص ٤٥١.
(٩٧) **مروج الذهب**، للمسعودي، الجزء ١، ص ٥٤٥.

وقبل إسلامه يوم الفتح كان يناصب دين محمد العداء فمن ذلك أن (الحارث بن أبي وجرة يقال وجرة بن أبي عمرو بن أمية أسره سعد بن أبي وقاص (في معركة بدر الكبرى) فقدم في فدائه الوليد بن عقبة فافتداه بأربعة آلاف درهم)(٩٨).

لقد أفزعه أن يقع الحارث بن وجرة أسيراً في يد محمد فسارع إلى بذل المال في فدائه أو ربما خشى أن يتأثر الحارث بشخصيته الآسرة فيتبعه على دينه وهي كارثة بمنظور الوليد.

وهناك موقف آخر أشد إبانة وأكثر دلالة على عدائه لمحمد ودينه ذلك أن أم كلثوم بنت عقبة (أخته) أسلمت بمكة قديماً وصلّت القبلتين وبايعت محمداً وقيل إنها هاجرت ماشية على رجليها إلى أثرب ولكن الأصح أنها لحقت به (بمحمد) في الحديبية إثر توقيعه الصلح أو العهد مع قريش وكان من بنوده أن من يجيء إليه من قريش يرده فأقبل أخواها الوليد وعمارة يطالبان محمداً بتسليمها وفقاً لذلك الشرط فتشكّت أم كلثوم إلى محمد وصحبه: كيف تعود إلى المشركين لكي يفتنوها عن دينها؟ فرفض محمد إرجاعها وقرأ عليها وعليهما آية من القرآن حظرت عليه ذلك وهي العاشرة من سورة الممتحنة(٩٩).

وبخلاف المصادر التي ذكرناها فإن القصة يكاد لا يخلو منها واحد من كتب التفسير مما يقطع بصحتها، إذن عزّ على الوليد أن تدخل أخته ديانة محمد وتلتحق بركبه وتصير من أتباعه فاصطحب أخاه عمارة وقدما على محمد طالبين بردها نفاذاً للعهد

---

(٩٨) **أنساب الأشراف**، للبلاذري، الجزء الأول، ص ٣٠١، مصدر سابق.

(٩٩) **أسد الغابةِ**، كتاب النساء المجلد السابع ص ٣٨٦ **والاستيعاب**، المجلد الرابع، ص ١٩٥٣، **وأسباب النزول** للسيوطي، ص ١٦٨، وكتاب **نسب قريش** للمصعب الزبيري، ص ٢٦٦.

الذي أُبرم بينه وبين قريش وكالعادة عندما تتأزم الأمور تتدخل السماء وتنهي المشكل ومن ثم أخبرهما محمد بعدم الاستجابة لرغبتهما مبلغاً إياهما أن تلك هي إرادة السماء فرجعا يجران ذيول الخيبة وأتت بركة السماء طرحها الطيب إذ أصبحت أم كلثوم من خيرة الصواحب حتى إن أربع من مشاهير الصحبة تعاقبوا على نكاحها هم على التوالي:

زيد بن حارثة ثم الزبير بن العوام ثم عبد الرحمن بن عوف ثم عمرو بن العاص(١٠٠). فهي بهذه المثابة تعد من ذوات الأربع أزواج وهو أمر مألوف بل شائع بين الصواحب آنذاك وهذا سندركه تفصيلاً في باب (الصحابة والنكاح).

* * *

وظل الوليد على شركه حتى يوم فتح مكة فأسلم كبقية (الطلقاء) ونزولاً على سياسته الرشيدة في محاولة ترويض خصومه السابقين حتى من يتوسم فيهم الإصرار على العناد فقد أوكل محمد إلى الوليد وظيفة (مصدق) أي جابي زكاة لعل ذلك ينزع ما في صدره من غل نحوه والهواشم والإسلام، فأرسله إلى بني (المصطلق) ليأخذ منهم صدقات أموالهم فعاد بأكذوبة فاضحة وهي أنهم ارتدوا ومن ثم امتنعوا عن إيتاء الزكاة بل وأنهم هموا بقتله لولا أنه أفلت منهم، وغضب محمد إذ كان لا يثيره شيء قدر الردة عن ديانته إذ هي إشارة خلع رداء التابعية لدولة قريش التي أنشأها في أثرب فأعد حملة لتأديبهم لولا أن وصلت الأخبار إلى (بني المصطلق) فأسرعوا بإنفاذ رسل إلى محمد أفهموه أن كل ما فاه به الوليد محض اختلاق وافتراء وأنهم ما زالوا على إسلامهم

---

(١٠٠) **الاستيعاب**، المجلد الرابع، ص ١٩٥٤ **وأسد الغابةِ**، المجلد السابع، ص ٣٨٦.

وخضوعهم لدولته وأن زكواتهم رهن إشارته وطوع أمره وصدّقت السماء المصطلقين وتلا محمد الآية السادسة من سورة الحجرات ﴿... إن جاءكم فاسق بنبأ...﴾ وبذلك حاز الوليد على لقب (الفاسق)(١٠١).

هذه الواقعة وقد أوردتها تلك المصادر ذات الرتبة العالية والمقام الرفيع لا سبيل للتشكيك فيها بل نستطيع أن نقول إن كتب التفسير المعتبرة جميعها تنص عليها.

ولكن رغم ثبوتها بهذه الصور المكينة فإن واحداً من (جوقة التعظيم) هو: محب الدين الخطيب بمنتهى الجرأة على الحق يماري في صحتها!!! لماذا؟ لأن كلاّ من أبي بكر وعمر بن الخطاب استعمل الوليد في بعض العمالات وكيف يفعلان ذلك وقد وسمه الله بالفاسق! هذه واحدة.

أما الأخرى فهي أن رواية الواقعة موقوفة على مجاهد أو قتادة أو ابن أبي ليلى... ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار في مدة مائة سنة أو أكثر مرت بين أيامهم وزمن نزول الآية(١٠٢).

أما استخدام ابن أبي قحافة وابن الخطاب للوليد في بعض العمالات فلا يسقط عنه لقب (الفاسق) الذي نفحته إياه السماء لأنه لا يشترط فيمن يتولى العِمالة لمسلم أن يكون مسلماً عدلاً أو

(١٠١) **الاستيعاب** المجلد الرابع، ص ١٥٥٢/ ١٥٥٣، **وأسد الغابةِ**، المجلد ٥، ص ٤٥٢، **أسباب النزول**، للواحدي النيسابوري ص ٢٦١ **أسباب النزول** للسيوطي، **ومفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** للرازي، المجلد الرابع عشر، ص ٣٦٩، الطبعة ١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، **تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن** ص ٦٣١، طبعة دار الشعب.

(١٠٢) **ذو النورين عثمان بن عفان** (رض) لمحب الدين الخطيب ص ٤٠، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ المكتبة السلفية بمصر.

غير عدل فقد استعمل محمدٌ عبدَ الله بن أبي أريقط وكان مشركاً دليلاً له عندما نزح (هاجر) من مكة إلى أثرب لاتخاذها قاعدة لثورته بعد عناد صناديد القرشيين وغباء طواغيت الطائفيين، وكذا ثبت أن عمر بن الخطاب كان يشغّل غلاماً نصرانياً في بعض أعماله ومن ثم فمن باب أولى يكون توظيف المسلم الفاسق جائزاً ولكن لا يعني ذلك بالضرورة إسقاط صفة الفسوق عنه خاصة إذا كانت منحة سماوية! هذا ردنا على الأولى.

أما الأخرى فإنه لم يسبق أحد أ. ابن الخطيب في توهين وتهزيل روايات قتادة ومجاهد وابن أبي ليلى خاصة في هذه النازلة.

وكيف أخذ بها الأئمة الأعلام من أصحاب كتب أسباب النزول والتفسير على مر العصور ولم يبينوا زيفها ثم يجيء أ. محب الدين بعد ثلاثة عشر قرناً ويستدل على فسادها أو حتى ضعفها؟

وإذا كان مجاهد أو قتادة أو ابن أبي ليلى لم يذكرها أحد منهم رواة الأخبار في المائة سنة التي فصلت ما بين حدوث النازلة وروايتهم لها فمرجع ذلك لاستفاضتها وشهرتها وصحتها وثبوتها من عدة طرق وهذا كله يغني عن المسند في عرفهم وهذا أمر يعلمه من عنده مسكة من علم الحديث.

والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي بواحـد منها وهو ما فعله الإمام الحصفكي الحنفي ــ محمد بن علي بن محمد الحصن المعروف بـ (علاء الدين الحصكفي) الحنفي فعندما جمع (مسند الإمام الأعظم أبي حنيفة) شيخ الأحناف ورأس مذهبهم حذف الأسانيد إلى أبي حنيفة لأنها أحاديث صحيحة لها روايات أخرى غير رواية الإمام الأعظم ومن ثم فلا حاجة فيها لذكر السند ــ وهذا عين ما كان قد

فعله مجاهد وأبو قتادة وابن أبي ليلى فلم يذكروا السند لأن وصف الفاسق الذي ورد بتلك الآية ينطبق على الوليد باستفاضة الروايات وإجماعها على ذلك ومن ثم فلم ير واحد منهم حاجة إلى ذكر السند.

ولا أدري كيف فات ذلك ابن الخطيب أم أنه كان يعلمه ولكنه (غطرش) عليه انتصاراً لوجهة نظره وهذا مسلك على كلا الوجهين يجافي أمانة العلم!

وإذا كنا نضمّر (من المضمور) روايات من هم في قامة قتادة ومجاهد وابن أبي ليلى وأضرابهم فكم يتبقى من الأحاديث؟؟

ألم يفطن أ. ابن الخطيب ــ سامحه الله ــ أنه بذلك المسلك يعطي فرصة ذهبية وسلاحاً باتراً لأعداء أو قل خصوم السنة ومنكريها والمشككين فيها؟.

ألإلى هذا الحد يصل الأمر بأعضاء (فرقة التبجيل والتعظيم) وإلى هذا المدى تبلغ بهم العاطفة الفجة؟ كل ذلك لأنهم لا يريدون أن يقتنعوا بحقيقة بسيطة هي أن الصحابة بشر ومن بني آدم بنص الحديث (كل بني آدم خطّاء) ومحمد نفسه أخبر عدة مرات أن منهم من سوف يغيّر ويبدّل وأنه عندما يلقاه في العالم الآخر سيقول له سحقاً.

* * *

وكعادة عثمان في التمكين لأقاربه الأدنين والإنعام عليهم والإحسان لهم وإعانتهم وفتح المسالك لهم لاحتياز المال والنشب (الثروة العقارية) والوصول إلى الغنى واليسار والجدة، ائتلف ذلك مع (النصوص) أو اختلف عزل سعد بن أبي وقاص بطل القادسية

وأحد المبشرين العشرة بالجنة الخ... وعين بدله أخاه من أمه (الفاسق) بشهادة السماء: الوليد بن عقبة ــ وكان لهذا العمل الذي لا يُقدم عليه سوى عثمان بمشورة مروان الذي قلنا إنه كان بمثابة رئيس كُتّاب دولته صدى عميق لدى النخبة من الصحاب.

(لما قدم (الوليد) الكوفة أميراً أتاه عبد الله بن مسعود وقال له: ما جاء بك؟ قال: جئت أميراً قال ابن مسعود: ما أدري أصلحت بعد أم فسد الناس)(١٠٣).

وسؤال ابن مسعود بيّن لا حاجة به إلى تفسير إذ يؤكد فساد الوليد إلا إذا كان قد صلح بعد العهد به فاسداً ممعناً في الفساد أم أن الناس هم الذين فسدوا فلا يليق بهم إلا أمير فاسد مثلهم.

ووافقه على رأيه الصحابي سعد بن مالك.

كان يشرب مع ندمانه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح فلما أذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح فصلى بهم أربعاً وقال: أتريدون أن أزيدكم ــ فقال له من خلفه في الصف الأول: ما تزيد لا زادك الله من الخير وقيل إنه قال في سجوده وقد أطال: إشرب واسقني ــ وقال له عتّاب ابن غيلان الثقفي(١٠٤): والله لا أعجب إلا من بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً.

---

(١٠٣) **الاستيعاب**، المجلد الرابع ص ١٥٥٤، مصدر سابق.

(١٠٤) أخو بادية أو بادنة بنت غيلان الثقفي الحسناء التي تزوجها عبد الرحمان بن عوف وأبوها غيلان كان من أصحاب الزوجات العشر في ما قبل الإسلام أي أن عتّاباً هذا من أعيان ثقيف ومن هنا جاءت جرأته في مواجهة الخِمّير الفاسق الوليد ومجابهته بما قال له.

وخطب الناس... فحصبوه بحصاة المسجد فدخل يترنح وتمثل بأبيات لتأبط شراً: ولست بعيداً عن مدام (من أسماء الخمر) وقينة...[١٠٥] وفي أفعال الوليد يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه — أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم — أأزيدكم... ثملاً وما يدري[١٠٦]

وواقعة صلاة الوليد بالناس في العداوة أي الصبح وهو سكران أربع ركعات ومعلوم أنها ركعتان فقط ثم التفاته إليهم وسؤاله إياهم فيما إذا كانوا يرغبون في أن يزيدهم فيها ــ استهزاء بالركن الأول من أركان الإسلام ــ بعد الشهادتين واستخفافاً بأهم الفرائض وعمود الدين ــ أمر ذائع مشهور رددته غالبية كتب السير والتواريخ:

ولّى عثمان الوليد الكوفة مكان سعد وصلّى بالناس الغداة وهو سكران ثم تهوّع في المحراب والتفت إلى من خلفه فقال أزيدكم...[١٠٧]

وقد ذكر الخبر ابن الأثير الجزري في (الأسد) وزاد في روايته أن (ممن شهد تلك الصلاة عبد الله بن مسعود الصحابي وأنه رد على الفاسق الخمير عندما سأل من خلفه: أأزيدكم بقوله ما زلنا في زيادة معك منذ اليوم)[١٠٨].

كما أورده ابن عبد البر في (الاستيعاب) وأضاف أن هذا الأثر

(١٠٥) **تأبط شراً** من صعاليك العرب وشعرائهم وكان من البديهي أن يتمثل الفاسق شرّيب الراح بشعره.
(١٠٦) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، للمسعودي، الجزء الأول، ص ٥٤٦.
(١٠٧) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء ٢ ص ١٦٥، مصدر سابق، **وكتاب نسب قريش** للمصعب الزبيري، ص ١٣٨، مصدر سابق.
(١٠٨) **أسد الغابةِ**، المجلد الخامس، ص ٤٥١، مصدر سابق.

ومشهور من روايات الثقات من نقل أهل الحديث وأهل الأخبار[١٠٩]. والمصعب الزبيري أورده وكذا الشعر الذي قاله الحطيئة فيه وما قاله غيره فيه أيضاً[١١٠]. وقال المسعودي في «المروج»: (وأشاعوا في الكوفة فعله وظهر فسقه ومداومته شرب الخمر)[١١١].

ثم وصلت الأخبار إلى عثمان وكان عسيراً على نفسه أن يقبلها ولكن شاهدين عدلين شهدا عنده وبمحضر جمع من الصحبة بشربِهِ بنتَ الحانِ وفي البداية أعرض عنهما بل إنه دفع في صدرهما وقال لهم تنحيا عني ــ (فخرجا من عنده وأتيا علي بن أبي طالب (رض) وأخبراه بالقصة فأتى عثمان وقال له: دفعت الشهود وأبطلت الحدود، فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أن تبعث إلى صاحبك فتحضره فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى علي فقال علي لابنه الحسن: قم يا بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه)[١١٢]. وقيل إن الذي جلده هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ــ أربعين سوطاً[١١٣].

ثم ولاّه عثمان الكوفة وعزل عنها سعداً... فلما قدم قال له سعد: والله ما أدري: أكِسْت (من الكيْس وهو العقل) بعدنا أم

(١٠٩) **الاستيعاب**، المجلد الرابع ص ١٥٥٥، مصدر سابق.
(١١٠) **كتاب نسب قريش**، للمصعب الزبيري، ص ١٣٨، مصدر سابق.
(١١١) **مروج الذهب ومعادن** الجوهر للمسعودي، الجزء الأول، ص ٥٤٦، مصدر سابق.
(١١٢) المصدر والصفحة نفسيهما.
(١١٣) **الاستيعاب** لابن عبد البر.

حمقنا بعدك؟ فقال له الوليد: لا تجزعنّ أبا إسحاق فإنما هو المُلك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون قال سعد: أراكم والله ستجعلونها مُلكاً[١١٤]. حوار سعد بن مالك أو سعد بن أبي وقاص مع الفاسق الوليد يتضح من ثناياه أنه ترك الوليد وهو يخب ويضع في حماقاته فمتى غدا كيساً أهلاً للإمارة أم أنهم هم الذين حمقوا (صاروا حمقى) بعد أن فارقوا الفاسق؟ إذن هناك إثنان من نخبة الصحاب يشهدان للوليد بالحُمق والإفن (نقص العقل) وبالتالي عدم الصلاحية للولاية والإمارة ولكن عثمان له نظرة أخرى لأنها تمر عبر القرابة والصلة الحميمة.

كذا فإن ردّ الفاسق على ابن مالك يشي بنظرة عثمان وبطانته لأمور الحكم (فإنما هو المُلك... يتغداه قوم ويتعشاه آخرون) فهو مُلك ومائدة شهية يتغدون عليها ويتعشون ــ حتى إن سعداً لاحظ ذاك في رد الفاسق فعقّب: (أراكم والله ستجعلونها مُلكاً).

وكان عديم الفقه لا يعلم من أمر دينه شيئاً حتى ألف باء العبادات التي يفترض في المسلم العادي أو العامي معرفتها، كان الوليد يجهلها ولعل المثل الذي نسوقه يؤكد هذه الحقيقة ويثبتها (فإن الوليد بن عقبة أتاهم جماعة من الصحاب فقال: هذا العيد فكيف تأمرونني أن أفعل فقالوا لابن مسعود علّمه... فعلّمه)[١١٥].

وعجيب أمر عثمان كيف يجرؤ على تعيين رجل يجهل كيفية

---

(١١٤) **أسد الغابةِ** المجلد ٥، ص ٤٥١ **والاستيعاب**، ص ١٥٥٤، وأورد البلاذري عبارة سعد: «إما أن تكون كِسْت بعدي أو أكون قد حمقت بعدك» **فتوح البلدان**، ص ٣٤٣ مصدر سابق.

(١١٥) كتاب **المبسوط**، لشمس الدين السرخسي، وهو من أبرز كتب الفقه الحنفي، المجلد الأول، ج ٢، ص ٣٨ طبعة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦ م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

صلاة العيد والياً ووالياً علام؟ على مِصرٍ كالكوفة يضم نخبة من خيار صحاب محمد وأعيان التابعين!

* * *

ولّى عثمان الوليد الفاسق الكوفة ولم يكن من المتوقع بعد أن دمغه القرآن بالفسق وبعد أن شهد له إثنان من أعيان الصحابة بالحُمق والأفن أن تكون سيرته فيها محمودة بل إن (له أخباراً فيها نكار وشناعةً تقطع على سوء حاله وقبح فعاله)[١١٦].

ومن أبرز خطاياه إدمانه بنت الحان وله مجلس خمر كل ليلة يتعاطاها فيه مع ندمانه ومغنيه ــ وفوق أن شرب الخمر من الكبائر وتوعّد محمد مدمنها بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة فإن صدور هذا الفعل من واحد من الصحبة الذين ينظر إليهم المسلمون خلال هالة من القدسانية شكل بذاته حدثاً سرعان ما دوّى بين عامة الناس وكان له صدى بالغ البشاعة واستفز مشاعرهم وأخذوا يتهامسون: كيف يفعل والينا هذا وهو من الصحبة الأكارم؟

واستفاضت أخبار الشرّيب الخِمّير وأصبحت حديث المجالس العامة والخاصة.

وكان الأصمعي وأبو عبيدة وابن الكلبي وغيرهم يقولون: كان الوليد فاسقاً شِرّيب خمر... أخباره في شرب الخمر ومنادمته أبا زبيدا الطائي مشهورة[١١٧]. وكان أبو زبيد الطائي شاعراً نصرانياً على صلة حميمة بالخِمّير الوليد فما إن أطعمه ابن عفان الكوفة حتى استدعاه ليكون أحد ندمانه ومسامريه في ليالي الأنس يشرب السلافة صريفية مرة ومشعشعة مرة ويمزّها (يمصها) من الإبريق آناً

---

(١١٦) **الاستيعاب**، المجلد الرابع، ص ١٥٥٤.
(١١٧) المصدر نفسه والمجلد والصفحة نفسيهما.

ومن القدح آناً[١١٨] منتشياً بأشعار أبي زبيد في الخمريات والغزل ثم مترنحاً في النهاية.

وحدثت بين أبي الحسنين والوليد مجادلة ووجه الوليد لعليّ كلمة غير مناسبة وكان عقيل بن أبي طالب حاضراً ـــ وهو أحد النسّابين (العارفين بالنسب) فقال له: (إنك لتتكلم يا ابن أبي معيط كأنك لا تدري من أنت، وأنت علج من أهل صفورية وهي قرية بين عكاء واللجون من أعمال الأردن من بلاد طبرية. ا هـ.، وكان ذكر أن أباه كان يهودياً)[١١٩].

وموقف عليّ وأهل بيته من الوليد زاد من لهيب النار التي تعتمل في صدره نحو بني هاشم جميعاً وقد عبّر عن ذلك في العديد من قصائده منها:

بني هاشـــم إنا وإن كان بيـــننا كصدع الصفا لا يرأب الدهر شاعبه[١٢٠]

ولذلك حرّض معاوية على قتال عليّ بلسانه وشعره من ذلك:

بني هاشـــم كيف التعـــاقد بيننا وعنـــد عليّ ســـيفه وحرائبه[١٢١]

كما ذكر ابن الأثير في (الأسد) أن الوليد الفاسق (كان يحرّض معاوية بكتبه وشعره)[١٢٢].

(١١٨) **السلافة:** الخمر **والصريفية** غير الممزوجة **والمشعشعة** الممزوجة **والقدح** الكأس من كتاب **نظام الغريب في اللغة** تأليف عيسى بن إبراهيم الربعي الوحاظي الحِميّري. تحقيق محمد بن علي الأكوح الحوالي، الباب الثلاثون في أسماء الخمر، ص ٩٤/ ٩٥ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار المأمون للتراث، بيروت.
(١١٩) **مروج الذهب**، للمسعودي ج الأول، ص ٥٤٦، مصدر سابق.
(١٢٠) **كتاب نسب قريش**، للمصعب الزبيري، ص ١٣٨، مصدر سابق.
(١٢١) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، ص ١٥٥٧، مصدر سابق.
(١٢٢) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري، ج ٥، ص ٤٥٣، مصدر سابق.

ثم عود إلى إقامة الحد على الوليد يعد ثبوت شربه الخمر بشهادة الشاهدين (فلما قدم الوليد قال عثمان: من يضربه؟ فأحجم الناس لقرابته وكان أخاً لعثمان، فقام عليّ فضربه)(١٢٣). والذي شهد على الفاسق بشرب المدامة هما: أبو زينب زهير بن عوف بن الحارث بن كثير وجندب بن زهير الأزدي(١٢٤).

ومع ثبوت شرب الوليد الخمر ومنادمته أبا زيد الشاعر التغلبي النصراني واستفاضة أخبار منادمته الفاسق واحتسائه السلافة: صريفية ومشعشعة وإقامة الحد عليه بشهادة شاهدين ارتضاهما أبو الحسنين وعثمان وجمع من الأصحاب وإقامة الحد عليه فإن واحداً من (جوقة التعظيم) هو الشيخ صادق عرجون ينفيها ويلتقط بعض العبارات من رواية الطبري لها ليخرج منها بأنه كانت بين الشاهدين والفاسق ضغائن وأن عثمان أقام الحد إسكاتاً للألسنة والأقاويل وقال لأخيه: (نقيم الحدود ويبؤ شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخي) وهكذا يستحيل على الوليد شرب الخمر(١٢٥).

إذن في سبيل تبرئة الوليد من شرب الخمر يقوم هذا الباحث:

١ ــ يغمض أو غض بصره عن المصادر العديدة التي أثبتت الواقعة.

٢ ــ بأن يضرب عرض الحائط بما أثبتته المصادر عن شهود الصاحبي عبد الله بن مسعود لصلاة الفاسق وهو سكران ــ صلاة الغداة أربعاً وقوله أزيدكم وتعليق ابن مسعود عليه

---

(١٢٣) **تاريخ اليعقوبي**، الثاني ص ١٦٥، مصدر سابق.
(١٢٤) **جمهرة أنساب العرب** لأبي محمد بن حزم الأندلسي، ص ٣٧٨ وقد ذكر الأول منهما أما المسعودي فقد ذكر الاثنين، مروج الذهب، الأول ص ٥٤٦.
(١٢٥) **عثمان بن عفان** بقلم الشيخ صادق إبراهيم عرجون، من ص ١٠٩ حتى ١١٦، مصدر سابق.

في ذلك ــ وكذلك رد ابن غيلان الثقفي عليه.

٣ ــ يرمي علي وجمع من الصحابة بالغفلة إذ أنهم لم يفرقوا بين شاهد الزور وشاهد العدل لأنهم أصروا على حدّ الوليد بموجب شاهديّ زور.

٤ ــ بنسبة الظلم إلى عثمان لأنه عرف وتيقن أن الشاهدين شهدا زوراً وبهتاناً ومع ذلك أمر بإقامة الحد على أقرب الناس إليه ــ أخيه من أمه ــ الوليد.

٥ ــ تغاضى الباحث عن الكتب (الرسائل) التي كتبها: جرير بن عبد الله وعديّ بن حاتم وحذيفة بن اليمان والأشعث بن قيس (وكلهم من الصحابة) إلى عثمان والتي ما إن قرأها حتى عزل الوليد وولّى سعد بن العاص مكانه[١٢٦]. فهل هؤلاء النفر وكلهم من الصحبة افتروا على الوليد ونسبوا إليه ما لم يفعله وشهدوا عليه زوراً وقالوا في حقه بهتاناً؟

٦ ــ ومن الطريف أن الشيخ عرجون اعتمد هذه المرة على رواية الطبري وقد رأينا قبل قليل أنه التفت عن رواية الطبري وأخذ برواية ابن عبد ربه في (العقد الفريد) وهو من كتب الأدب. أي أن الرواية التي تتفق مع هواه يتبناها ويعتقد صدقها ويذر ما عداها وهي خَلة[١٢٧] لا يتصف بها العلماء، بل أنه يأخذ بما فيها حتى ولو كان مخالفاً للمنطق ولطبائع الأمور مثل أن الوليد نحّى شيئاً فأدخله تحت

(١٢٦) **تاريخ اليعقوبي،** ج ١، ص ١٦٥، مصدر سابق.

(١٢٧) **الخلة** الخصلة، بالفتح والجمع الخِلال والخلات، **شرح الفصيح في اللغة** لأبي منصور، ابن الجبّان دراسة وتحقيق د. عبد الجبار جعفر القزاز، ص ٢٤٥، الطبعة الأولى، سلسلة خزانة التراث، دار آفاق عربية، بغداد.

السرير ــ وذلك عندما اقتحموا عليه مخدعه (فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره فإذا طبق عليه تفاريق عنب) ص ١١٤ فهل يعقل أن الوليد يخفي طبقاً عليه عنب وما السبب؟ وما الذي يدعوه لذلك؟ ولكنه الهوى والعاطفة البطالة (البيّنة البطالة أي الواضحة العطالة عن السواء).

ومما يؤسف له أن الكتابات التبجيلية هي الرائجة والنافقة[١٢٨]. في حين أن الكتابات النقدية الموضوعية مصرومة أو بائرة[١٢٩].

* * *

وكان من البديهي أن ينصرف الوليد الفاسق الخمّير إلى الملاهي (ثم جلس في صحن المسجد وأتى بساحر يدعى بطروي من الكوفة فاجتمع عليه الناس فجعل يدخل في دبر الناقة ويخرج من فيها ويعمل أعاجيب فرآه جندب بن كعب الأزدي فخرج إلى بعض الصياقلة فأخذ منه سيفاً ثم أقبل في الزحام وقد ستر السيف حتى ضرب عنقه ثم قال له: إحي نفسك إن كنت صادقاً! فأخذه الوليد فأراد أن يضرب عنقه فقام قوم من الأزد فقالوا لا تقتل والله صاحبنا فصيّره في الحبس[١٣٠].

وهذه الواقعة مشهورة رددتها عدة من كتب السير والتواريخ فأبو محمد بن حزم الأندلسي عندما يذكر جندب بن كعب بن عبد الله يقول عنه: (الذي تلقبه الشيعة «جندب الخير» وينسبون إليه أنه قتل الساحر بين يديّ الوليد بن عقبة)[١٣١].

---

(١٢٨) **النَفاق** بفتح النون مع التشديد والفاء أن يكثر طلاب الشيء ويدفعون فيه الثمن الغالي، **شرح الفصيح في اللغة**، لابن الجبّان ص ١٦٨، مصدر سابق.
(١٢٩) **البائرة** أي الكاسدة، **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، مصدر سابق.
(١٣٠) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد ٢ ص ١٦٥، مصدر سابق.
(١٣١) **جمهرة أنساب العرب**، لأبي محمد بن حزم الأندلسي، ص ٣٧٩، مصدر سابق.

ولم يكتف الوليد بتسلية نفسه بل شملت التسلية أهل بيته (فلما أصابوا المدائن وجدوا فيلاً، اشتراه رجل من أهل الحيرة فكان عنده يريه الناس ويطوف به القرى فأرادت امرأة الوليد بن عقبة النظر إليه فأتى به ووقف على باب المسجد فجعلت تنظر إليه ووهبت لصاحبه شيئاً وصرفته)[١٣٢]. وهكذا عاش الوليد المأفون في الكوفة: لهو بالنهار وشراب وغناء بالليل وماذا كان ينتظر المحكومون ممن نفحته السماء لقب فاسق!

* * *

وحتى عندما عزله عثمان من الكوفة عيّنه مصدقاً على (صدقات كلب وبلقين)[١٣٣]. حتى يأخذ ثُمنها بنص الآية/ ٦٠ من سورة التوبة ــ ولعل ما يثير العجب كيف يعيّن عثمان الوليد مصدقاً مع أنه لمناسبة هذه العمالة ذاتها وصفته السماء بالفسوق ولما تضلّع الوليد من خراج الكوفة ومن صدقات كلب وبلقين آن له أن يشتري الضياع يتملك الأراضي والمياه (عن مشايخ من كتاب الرقة قالوا: كانت عين الرومية وماؤها للوليد بن عقبة بن أبي معيط فأعطاها أبا زيد الطائي)[١٣٤]. وأبو زيد هذا هو الشاعر الذي كان يشارك الفاسق في احتساء الخندريس[١٣٥] في ليالي الأنس والطرب في الكوفة ــ وأخيراً انتهى به المطاف إلى الرقة احتاز فيها منزلاً أنيقاً قضى فيه أيامه (وخرج الوليد من الكوفة يرتاد منزلاً حتى

(١٣٢) **فتوح البلدان**، للبلاذري ص ٣٥٣، مصدر سابق.
(١٣٣) **تاريخ اليعقوبي** الجزء ٢، ص ٢٣٥، مصدر سابق.
(١٣٤) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ص ٢١٤، مصدر سابق.
(١٣٥) من أسماء الخمر **(نظام الغريب في اللغة)** لعيسى بن إبراهيم الحميري، ص ٩٤، مصدر سابق.

أتى الرقة فنزلها فأعجبته فنزل على البليخ ــ نهر بالرقة، وقال: منك المحشر فمات بها)[١٣٦].

* * *

وبالوليد نختم هذه الجولة والتي إن بدت طويلة فإنها في نظرنا لم توفّ الموضوع حقه من الحفر والتنقيب حول (أيأة) مستشاري عثمان الذين حملهم على رقاب المسلمين والبؤساء مواطني البلاد المقهورة بحد السيف العربي ونفحهم من مال الله ومال المسلمين منائح طويلة عريضة ثقيلة ــ عرضناها ونحن ما زلنا في باب «مواقف الصحبة من المال».

ولكنها ليست نهاية الشوط الذي قطعه عثمان في هذا المضمار فقد بقيت منه فضلة قدر الندغة[١٣٧] وهي على صغرها لا تكتمل الصور إلاّ بها.

بعد هذه الاستطرادة نعود إلى موقف عثمان من المال العام الذي استأمنه الله ثم الناس عليه، ويورد لنا المحب الطبري نتفاً من تلك الأمور: (منها أن الحكم بن العاص لما ردّه (أي عثمان) من الطائف إلى المدينة وقد كان طرده النبي (ص) وصله من بيت المال بمائة ألف درهم، وجعل لابنه الحارث سوق المدينة يأخذ منها عشور ما يُباع فيها، ومنها أنه وهب لمروان خُمس أفريقية ومنها أن سعيد بن خالد بن أمية بن أبي العاص بن أمية قدم عليه فوصله بثلثمائة ألف درهم ومنها ما رواه أبو موسى قال:

كنت إذا أتيت عمر بالمال والحلية من الذهب والفضة لم يلبث

(١٣٦) **كتاب نسب قريش**، للمصعب الزبيري، ص ١٤٠، مصدر سابق.
(١٣٧) **الندغة:** البياض في آخر الظفر.

أن يقسّمه بين المسلمين حتى لا يبقى منه شيء فلما ولى عثمان أتيت به فكان يبعث به إلى نسائه وبناته ــ فلما رأيت ذلك أرسلت دمعي وبكيت فقال لي: ما يبكيك؟ فذكرت له صنيعه وصنيع عمر فقال: رحم الله عمراً كان حسنة وأنا حسنة ولكل ما اكتسبت قال أبو موسى: إن عمراً كان ينزع الدرهم الفرد من الصبي من أولاده فيرده في مال الله ويقسّمه بين المسلمين فأراك قد أعطيت إحدى بناتك مجمراً (وعاءً للبخور) مكللاً بالياقوت وأعطيت الأخرى دُرتّين لا يعرف كم قيمتهما فقال: إن عمراً عمل برأيه ولا يألو عن الخير وأنا أعمل برأيي ولا آلو عن الخير ــ وقد أوصاني الله تعالى بذوي قرباي وأنا مستوصٍ بهم أبرّهم.

ومنها أنه أنفق أكثر بيت المال في ضياعه ودوره التي اتخذها لنفسه ولأولاده وكان عبد الله بن أرقم ومعيقيب على بيت المال في زمان عمر فلما رأيا ذلك إستعفيا فعزلهما وولاه زيد بن ثابت وجعل المفاتيح بيده فقال له يوماً وقد فضل في بيت المال فضله ــ فقال خذها فهي لك فأخذها زيد فكانت أكثر من مائة ألف درهم)[١٣٨].

هذه صورة ناطقة ــ أو لوحة بالألوان الطبيعية عن موقف عثمان من المال ومن المال العام بالذات وعثمان واحد من أعمدة الفترة الذهبية التي ينادي البعض بإعادتها بل يعمل على ذلك باعتبار أنها (الحقبة الحلم) التي لم تر البشرية في تاريخها الطويل ولن ترى مثلها!

ولعل القارئ لفت نظره عدة مسائل نكتفي ببعضها:

١ ــ أن عثمان يسوق (النصوص) لتبرير فعله وذلك بقوله:

(١٣٨) **الرياض النضرة**، المحب الطبري، ص ٥٤٩، مصدر سابق.

(وقد أوصاني الله تعالى بذوي قرباي) فهل أوصاه أن يبرهم من (المال العام) أم من ماله الخاص!

٢ ــ أن راوي الحديث هو أبو موسى الأشعري وهو من أعيان الصحابة ولا إرب له في التشنيع على عثمان أو التشهير به، بل العكس هو الصحيح.

٣ ــ برر عثمان عزله لعبد الله بن أرقم ومعيقيب بسبب كبرهما في السن ولم يشر إلى اعتراضهما على تصرفاته في أموال بيت مال المسلمين!

٤ ــ أن زيد بن ثابت الذي ولاّه عثمان على بيت المال بعد عزلهما وجعل المفاتيح بيده وقال له يوماً ــ وقد فضل في بيت المال فضلة ــ خذها فهي لك فأخذها زيد فكانت أكثر من مائة ألف درهم! زيد هذا هو الذي رأس اللجنة التي كتبت المصحف الذي سمى بـ (مصحف عثمان) أو المصحف الأم وأحرق ما عداه من المصاحف.

* * *

ونقل ابن تيمية عن معارضي عثمان قولهم: (وولّى مروان أمره وألقى إليه أموره ودفع إليه خاتمه فحدث من ذلك قتل عثمان وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتى إنه دفع إلى أربعة من قريش زوّجهم بناته أربعمائة ألف دينار ودفع إلى مروان ألف ألف دينار)[١٣٩].

وقد يقال إن عثمان لا يحاج بأقوال خصومه أو معارضيه خاصة وأن كيد الخصوم معروف ليس في حاجة إلى بيان ولكن إذا تأيدت

(١٣٩) **منهاج السنة النبوية**، لابن تيمية الحرّاني، الجزء ٣، ص ١٧٣.

هذه الوقائع من عدة مصادر ترجحت وانتفت عنها صفة التلفيق وكيد المعاندين:

وروى بعضهم أن عثمان زوج ابنته من مروان بن الحكم وأمر له بخُمس هذا المال (غنائم إفريقية)[١٤٠] ولم يكن مروان هو الصهر الوحيد الذي نفحه عثمان بسخاء من بيت مال الله والمسلمين بل هنـــاك ثلاثة غيره كما رأينا فيما سلف وهذا هو ثانيهم (زوّج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد وأمر له بستمائة ألف درهم وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها له من بيت مال البصرة)[١٤١]. وعبد الله بن عامر هذا كان حدثاً عندما ولاّه ابن عفان البصرة وكان عليها الصحابي الشهير أبو موسى الأشعري فقعره (استأصله من جذوره) منها وعلاوة على صغر سن ابن عامر فقد كان ابن خال الخليفة الثالث (وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولاّها عبد الله بن عامر بن كريز، وكان ابن خال عثمان وكان حدث السن)[١٤٢]. ولعل هذا هو السبب في تولية عثمان إياه البصرة، ولا شك أن التولية نفسها تحمل في طياتها كل معاني الحبوة والعطاء لأن الولاية تعني التصرف في المال حسب ما يراه الوالي وسبق أن قلنا إن ابن عفان جمع لأخيه من الرضاع عبد الله بن سعد بن أبي سرح الولاية وجباية الخراج على مصر (ويقال إن عبد الله بن سعد كان على خراج مصر من قبل عثمان فجرى بينه وبين عمرو بن العاص كلام فكتب عبد الله يشكو عمراً فعزله وجمع العملين لعبد الله بن سعد)[١٤٣]. والذي لا شك فيه أن

(١٤٠) **تاريخ اليعقوبي**، ج ٢، ص ١٦٦.
(١٤١) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص ١٦٨.
(١٤٢) **الأخبار الطوال**، لأبي حنيفة الدينوري، ص ١٣٩، مصدر سابق.
(١٤٣) **فتوح البلدان**، للبلاذري، الطبعة الأولى، ص ٢٦٢، مصدر سابق.

الكلام الذي جرى بين ابن أبي السرح وابن العاص كان بشأن سلوكيات الأول سواء في طريقة استصفاء الخراج والجزية من (علوج) مصر أو في التصرف فيهما تصرف المالك في ملكه الخاص وكان من البديهي أن ينتصر ابن عفان لعبد الله ويعزل عمراً لكي يصبح الأخوان من الرضاعة مطلقي اليد فيما تدره البقرة الحلوب ــ مصر.

* * *

إن الصور التي نقرأها عن بعزقة عثمان لأموال بيت مال الله والمسلمين تصيب المرء بالدوار وينتصب سؤال كيف تصرف ابن عفان تلك التصرفات وهو قد عاشر محمداً ما ينيف عن عشرين عاماً وتزوج ابنتيه وكيف أبصر بعيني رأسه حساسية عمر المفرطة تجاه (المال العام)؟

فلم تقتصر نفحات الخليفة الثالث من بيت مال الله والمسلمين لا من ماله الخاص ــ على أصهاره وأقاربه الأدنين والأبعدين بل تعداهم إلى خوله وخدمه وأبناء شركائه في التجارة!

فعلى سبيل المثال لا الحصر:

أ ــ كان له مولى يسمى (حمران) أرسله عثمان لتقصي ما قيل عن الوليد بن عقبة واليه على الكوفة والذي أوردنا طرفاً من سيرته الزكية قبل قليل فحباه الوليد برشوة جزيلة جعلته يشهد له زوراً بحسن الفعال وحميد السيرة ولكن هيهات ــ فإن أفاعيل السكّير شعشعت واستفاضت وشهد بها عدد من خيار الصحبة وتابعيهم، فعرف ابن عفان أن مولاه حمران خان الأمانة التي حمّله إيّاها وخفر بالثقة التي وضعها فيه، إنما بدلاً من أن يوقّع عليه العقاب

الذي يستحقه إذا به يأمر بنفيه من أثرب/ المدينة فاختار حمران سكنى البصرة.

(وسأل عثمان أن يقطعه داراً... وقال لابن عام (عامله عليها): إعطه داراً مثل بعض دورك فأقطعه دورك فأقطعه داره التي بالبصرة)[١٤٤].

وهكذا لا يكتفي ابن عفان بأن يبعزق المال العام على الأقارب والأصهار بل على العُبدان والموالي حتى الذين خانوه واستحلوا الرشوة وأكلوها ـ ليكافئهم ويعطي أحدهم داراً مماثلة لدار الوالي (المحافظ)!

ب ـ قال أبو القيظان: أقطع عثمان بن عفان: العباس ربيعة بن الحارث داراً بالبصرة وأعطاه مائة ألف)[١٤٥].

بداية نلاحظ أن إقطاع عثمان العباس الدار والعطاء الوفير تم في البصرة حيث كان الوالي عليها ابن خاله الحدث الغر عبد الله بن عامر بن كريز بعد أن شلح الصحابي المعروف أبا موسى الأشعري من الولاية[١٤٦]. وأوضحنا العلة في ذلك (شلح أبي موسى) ولا داعي لإعادته.

عندما قرأت الخبر تولاني العجب:

لِمَ نفح الخليفة الثالث العباس بن ربيعة تلك النفحة الجزيلة بوجهيها العيني (الدار) والنقدي (مائة ألف.. درهم أو دينار) وهو ليس من آل أبي معيط (رهط عثمان) ولا من بني أمية (أرومة)؟

---

(١٤٤) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ص ٤٣٢، مصدر سابق.
(١٤٥) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ص ٤٤٢، مصدر سابق.
(١٤٦) في **المعجم الوسيط**، **شلحه**: عرّاه.

بل هو هاشمي مطّلبي وابن عم محمد ـــ ولو كان لهذا اعتبار لكان هناك من هو أولى من العباس من ربيعة مثل عليّ بن أبي طالب!

أخذت أبحث وأنقب عن السبب الدافع لابن عفان لتلك المنائح السخية... وأخيراً عثرت عليه فقد (كان ربيعة بن الحارث والد العباس الممنوح) شرك عثمان بن عفان في التجارة)[١٤٧].

صنيع جيد أن يبرّ المرء أبناء خلانه وأخدانه وأصدقائه ويصلهم ويكرمهم بتكرمات جزيلة أو هزيلة حسب وسعه المالي ولكن يشترط أن يتم ذلك من ماله الخاص... ولا من بيت مال الله والمسلمين وهذا يقطع بأن عثمان بن عفان كان يتصرف في المال بعقلية شيخ القبيلة وذلك في تقديرنا أمر طبيعي لأن مرور ربع قرن على نظام الخلافة لم يكن كافياً لتطوير مفهوم أولئك الناس للمال العام ونقل مفهومهم له من البداوة للحضارة أو من المجتمع القبلي إلى المجتمع (المدني) ولا ينتصب دفعاً لما نطرحه أن عمر بن الخطاب كان حريصاً على ما في بيت مال الله والمسلمين فالرد عليه يوجز في أمرين:

١ ـــ حساسية ابن الخطاب العدويّ نحو التمول لأنه من فرع ضامر شاحب نحيف (بني عديّ) فلو تضلع من ذلك المال لقيل ذلك أمر منتظر وماذا كان يتوقع المسلمون وقد أمسك بزمام إمامتهم العظمى رجل قب[١٤٨] من تلافيف بطون قريش الميطاء (ما انخفض من أرض ونحوها).

٢ ـــ إن تحرج عمر من مد يده إلى المال العام دافعه ديني وهو

(١٤٧) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري، المجلد ٢، ص ٢١٠، مصدر سابق.
(١٤٨) **القب** من الناس: رئيسهم وسيدهم، **المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية**.

شدة الخوف من دخول النار ـ نار الجحيم والتلظى بأهوالها وليس باعثه حضارياً يفرق بين ما هو مملوك للدولة وما هو مملوك لرأسها والدليل السريع على ذلك أن ابن الخطاب العدويّ عندما كان يأتيه بشير يبشره بفتح إحدى البلاد وقهرها ووطئها بسنابك خيولهم الميمونة ويصف له كنوزها وخيراتها كان يجزل له العطاء (من بيت المال) تماماً مثل ما كان يفعل سيد القبيلة، وليس كذلك يفعل رئيس الدولة في المجتمع المدني الذي يعرف أن أي درهم يخرج من الخزانة العامة يتعين أن يكون له مصرف محدد. نرجع بعد هذه الاستطرادة إلى سياقة الكلام فنقول إن عثمان بن عفان كان يبعثر المال العام كما يحلو له وفي ذهنه صورة زعيم القبيلة وهذا أمر محتوم لأن ابن عفان عاش ما يزيد على ثلثي عمره وهو في ظل النظام القبلي بل إن التقاليد القبلية كانت سائدة في كثير من المناحي حتى زمن خلافته ونؤكد أنها استمرت كذلك حتى مشارف ختام القرن الثاني الهجري ـ بداية الحضارة العربية الإسلامية.

بيد أن الذي يؤخذ على عثمان أنه آثر على أقربائه وأصهاره ورهطه وحشمه وبطانته من دون المسلمين بل إنه حملهم على كواهلهم وكواهل أهالي البلاد المغزوة.

ويلخص لنا اليعقوبي أعمال عثمان في هذه الخصوصية في جملة موجزة بليغة:

وقالوا آثر الغرباء وحمى الحمى وبني الدار واتخذ الضياع والأموال بـ (مال الله والمسلمين)(١٤٩).

(١٤٩) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص ١٧٤، مصدر سابق.

هذه بعض مواقف عثمان من الأموال ــ وكان من البديهي أن تؤجج النار في صدور الجم الغفير من الصحاب وكان عرفاؤهم[١٥٠].

في ذلك أولئك النفر الذين عُذبوا واضطهدوا وشُرّدوا في بداية الدعوة المحمدية وسدّدوا فواتير الحساب العسير الجائر من دمائهم وأبشارهم الخ...

وهالهم أن يسبح في بحر الرفاغية والعز والبُلهنية: اللعناء والطرداء والطلقاء والمؤلفة قلوبهم وأبناؤهم وأن يبنوا الدور ويشيدوا القصور ويتمتعوا بالجواري الروميات (بنات بني الأصفر) والفارسيات والأزربيات الخ... ويتفننوا في ضروب المآكل والمشارب التي تطبخها لهم الجواري الخ.. وهم ينظرون إليهم ولا يجدون سوى أصابعهم المجلة (المتقرحة من العمل) يمصونها في حين أنهم عُمُد الدين وجرثومة (أصل) الدولة.

* * *

أدرك عثمان ذلك فحاول استرضاءهم فأخذ يقطع عدداً من الصحبة الإقطاعات الوسيعة التي تصل في بعض الأحيان إلى قرية كاملة (نحن نرجح: بما عليها من العلوج). وكان من البديهي أن يبدأ بأولئك الذين ألمعنا لهم:

١ ــ عن موسى بن طلحة قال: أقطع عثمان عبد الله بن مسعود أرضاً بالنهرين وأقطع عمار بن ياسر استينيا وأقطع خباب

---

(١٥٠) **العريف:** القيّم بأمر القوم. **مختصر العين**، لأبي بكر الزبيدي، ج ١، ص ٣٤٠، تحقيق د. مهدي الفرطوسي، الطبعة الأولى ١٩٩١، سلسلة خزانة التراث، دار الشؤون الثقافية العربية، آفاق عربية، بغداد، العراق.

من الإرت صنعاء وأقطع سعداً قرية هرمز[١٥١].

٢ ــ عن الشعبي قال: اقطع عثمان بن عفان طلحة بن عبيد الله النشاستج وأقطع أسامة بن زيد أرضاً باعها[١٥٢].

٣ ــ عن موسى بن طلحة أن عثمان قد أقطع خمسة نفر من أصحاب النبي (ص) منهم: عبد الله بن مسعود وسعد بن مالك الزهري والزبير بن العوام وخَبّاب بن الأرَتّ وأسامة بن زيد[١٥٣].

حدثنا شريك بن عبد الله عن جابر عن عامر قال: لم يقطع رسول الله (ص) الأرضين ولا أبو بكر ولا عمر وأول من أقطعها وباعها عثمان[١٥٤]. وأورد القرشي رواية أخرى لهذا الأثر (حدثنا إسرائيل عن جابر قال: سألت عامراً من أول من أقطع الأرضين؟ قال: عثمان ولم يقطعها أبو بكر ولا عمر ولا عليّ)[١٥٥]. ولسنا في حاجة إلى القول إن عثمان عمد إلى الأرض فأقطعها للصحبة ليمتص من بواطن نفوسهم الغضب الذي كان يستعر من تصرفاته مع أقربائه وحاشيته.

وفعل بذلك ما لم يفعله محمد وأبو بكر وعمر وهذا يؤيد ما قلناه إن (كلمة الأمير) أو ما يراه الخليفة هو النافذ رغم النصوص والسوابق وأن ذلك بدأ منذ الفترة التي يطلق عليها البعض (الفترة

(١٥١) **فتوح البلدان**، للبلاذري، القسم الأول ص ٣٣٥، مصدر سابق، وكتاب **الخراج** لأبي يوسف ص ٦٧، مصدر سابق، وذلك كتاب **الاستخراج لأحكام الخراج** لأبي فرج الحنبلي، ص ١٠٩، مصدر سابق.
(١٥٢) **فتوح البلدان**، المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(١٥٣) **فتوح البلدان**، المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(١٥٤) **الخراج**، للقرشي ص ٧٥.
(١٥٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الذهبية) أو (الزمن الحلم) الذي لم يتكرر في تاريخ البشرية القديم والوسيط والحديث في الشرق والغرب في الجنوب والشمال!

وسبق أن أوضحنا فتوى الفقهاء في هذا النوع من الإقطاع أنه غير جائز للإمام أن يفعله، ولكن جميع هذه الاعتبارات تخطاها ابن عفان وأقطع عدداً من الصحاب ومن جانبه لم يمانع هذا النفر من اقتناء الضياع واحتياز الاقطاعات التي يصل بعضها إلى زمام قرية كاملة ولا يراجعون أنفسهم ويسألونها:

كيف نقبل ذلك ولم يفعله محمد وأبو بكر وعمر؟

وهرولوا إلى تملك ما أفاء به عليهم عثمان وتمتعوا في جنبات ضياعهم وأراضيهم بحياة لم تكن تخطر لهم على بال بل ولم تكن تراودهم في أحلامهم!

وكان هذا أحد أبرز إشتعال الفتنة ضد ابن عفان لأن عامة المسلمين وغيرهم نظروا فإذا بهذه الشخصيات الميتاتاريخية تغرق في حنايا النعيم وسبق أن أوردنا اعتراف بعضهم بذلك منهم خَبّاب بن الأرَتّ.

وأصبح الناس يتسآلون: هل هؤلاء هم الذين كانوا يربطون الأحجار على بطونهم من الجوع وكيف يحيون بهذه الطريقة المترفة وسائر المسلمين يعانون من شظف العيش وأين هو مبدأ المساواة بين الناس كأنهم أسنان المشط لا يفرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

* * *

ومن هنا فإن لنا رأياً نطرحه على القارئ ونرجو ألا يتسرع في الحكم عليه بل أن يتمعن فيه ويتدبره وهو أن الذي حوّل الخلافة

إلى ملك هو عثمان وجاء معاوية فأكمل المسيرة.

فالذي ينحّي هيئة الشورى الميتاتاريخية ويستبدل بها اللُعناء والطُرداء والطُلَقاء والفُساق والذي يعيّن أقاربه الأدنين الحمقى المأفونين الأحداث في الولايات والعمالات ويقلع منها الأكفاء الكيّسين والذي يبعزق المال العام يميناً وشمالاً على الأقارب والأصهار والحاشية والخُشداشين والموالي والذي يُقطع الإقطاعات ويبني الدور والقصور ويحمي الحمى ويمنح بناته وزوجاته التحف الذهبية الغالية الثمن كل ذلك من مال اله ومال المسلمين الخ...

الذي يفعل ذلك هو ملك بكل المقاييس وليس خليفة.

فأبو بكر وعمر كانا خليفتين ــ وحاول أبو الحسن أن يعيدها خلافة ولكنه كان يسبح ضد التيار فلم يفلح.

والحق أن عثمان عندما انقلب إلى ملك خاصة في الشطر الخاتم من عهده استجاب لمتطلبات عصره فالغنائم الأسطورية التي تدفقت على أثرب خاصة والحجاز عامة والتغيرات الاجتماعية التي ضربت المجتمع بعد وصول تلك الثروات ذات الأرقام الفلكية بما فيها الجواري من كل جنس ولون وسن والغلمان الذين وصفوا بـ «اللؤلؤ المنثور» والاختلاط بالشعوب المقهورة المغلوبة على أمورها بحد السيف العربي، والاطلاع على أحوالها وطرق معاشها وملابسها وألوان طعومها وشرابها ومساكنها الخ...

كل هذا كان من المحتم أن يحول الحكم من خلافة ساذجة بسيطة إلى ملكية والخليفة إلى ملك ولا يهم بقاء الاسم القديم فهذا لخلبسة[١٥٦]. الرعية أو العامة أو الدهماء أو السواد الأعظم كما

(١٥٦) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، **خلبسة** فتن قلبه وذهب به.

كانوا يطلقون على المحكومين الذين أوقعتهم أقدارهم التعسة تحت سلطانهم!

وللأسف فإننا نطالع التاريخ العربي الإسلامي بعيون مغمضة وعقول مخدّرة وقلوب مبنَّجة(١٥٧).

فلقد قرأنا عشرات المرات العبارة التي صرح بها عثمان عندما طلب منه الثوار أن يتنحى عن الخلافة: (كيف أخلع قميصاً ألبسنيه الله) أي أتانيه الله والله هو الذي يؤتى الملك وهذا بنص القرآن ﴿وأتاه الله الملك﴾(١٥٨). أما الخلافة فإنها تُمنح من المحكومين (الرعية الدهماء/ السواد الأعظم/ العامة) بالبيعة.

إذن عثمان بتصرفاته وسلوكياته وقراراته... وأخيراً بتصريحه للثوار كان يعدُّ نفسه ملكاً فالله هو الذي أتاه الملك وألبسه قميصه فكيف يحق للسوقة أن تنزعه منه!

وليس مهماً أنه لم يغيّر لقبه من خليفة إلى ملك.

كما أننا نمر على النصوص التي نقرأها مر الكرام دون تدبر وبغير تمحيص ولا تدقيق فقد أوردنا قبل قليل ما رواه الصحابي المشهور أبو موسى الأشعري من أنه كان إذا أتى عمر بن الخطاب بالمال والحلية من الذهب والفضة لم يلبث أن يقسمه بين المسلمين حين لا يبقى منه شيء فلما ولى عثمان إذا أتى به فكان يبعث به إلى نسائه وبناته (فلما رأيت ذلك أرسلت دمعي وبكيت فقال: ما يبكيك؟ فذكرت له صنيعه وصنيع عمر فقال (أي عثمان): رحم الله عمراً كان حسنة وأنا حسنة) واستمر الأشعري يقارن بينه وبين

(١٥٧) في **المعجم الكبير** لمجمع اللغة العربية، ج ٢، حرف الباء، **بنّج** الطبيب المريض: خدّره **والبنج:** فارسية معربة وتعني نباتاً ثماره تحتوي على حبوب مخدرة.
(١٥٨) **سورة البقرة** الآية ٢٥٠.

عمر (فقال (أي عثمان): إن عمراً عمل برأيه ولا يألو عن الخير وأنا أعمل برأي ولو آلو عن الخير).

هذا نص بالغ الدلالة من المفيد ونحن نكشف عن (ملوكية) عثمان أن نفككه لنستقطر ما يتأتى لنا خلاله من دلالات:

عثمان هنا يعترف أن طريقته خالفت طريقه عمر بن الخطاب ــ هذا بالإضافة إلى شهادة صحابي في مكانة أبي موسى الأشعري، وكيفية عمر في التصرف في المال العام أو مال الله والمسلمين سار فيها على سنة محمد ونهج أبي بكر ــ إذن بمفهوم المخالفة أي طريقة أخرى تأتي مضادة لها لا تتفق لا مع القرآن ولا مع السنة العملية أو القولية لمحمد وإذ لا مشاحة في أن منهجية عمر (خليفية) إذن ونتيجة لذلك فإن سلوكيات عثمان ليست (خليفية) بل (ملوكية) ونمضي مع النص فعثمان صرح بأن عمراً كان حسنة أنه حسنة ولكنه لم يقل أن حسنته مماثلة لحسنة عمر ومن المحال أن نتوقع من عثمان أن ينعت فعاله بغير ذلك.

كما أنه لم يلتزم الدقة وهو يرد على الأشعري بأنه إذ يعمل برأيه لا يألو عن الخير(١٥٩)!

فأي خير ينتج عن حبائه نساءه (زوجاته وجواريه) وبناته التحف الذهبية التي لا تقدر بثمن وأصهاره بمئات الألوف من الدنانير.

ولم يكن الدمع الذي أرسله أبو موسى ونشيجه(١٦٠).

(١٥٩) **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، للمحب الطبري، ص ٥٤٩، مصدر سابق.
(١٦٠) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، **نشج** الباكي نشيجاً: غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

عندما عاين صنيع عثمان لأنه آثر أهله بالذهب والمال فحسب بل في الأساس لأنه أدرك في تلك اللحظة أن عثمان تحول من خليفة إلى ملك يفعل فعل الملوك ويتصرف تصرفاتهم.

ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه نص آخر وإن لم يصدر من عثمان نفسه وإنما جاء على لسان واحد من أيأة مستشاريه هو أخوه الوليد بن عقبة في الحوار الذي دار بينه وبين الصحابي المرموق سعد بن مالك أو ابن أبي وقاص فقد قال: (لا تجزعنّ أبا إسحق فإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون) هذه العبارة لم تكشف عن وجهة نظر الوليد وحده وإنما هي أفصحت عن رأي عثمان وسائر بطانته أو كما يقال بلغة العصر (مطبخ السياسة) والوليد أحد رجال ابن عفان المقربين ويستحيل أن يغدو في ذلك معبراً عن تصوره الذاتي لدولة عثمان كما أن تعليق سعد بن مالك فوق دلالته على لماحيته وسرعة بديهته فإنه يقطع بقناعة الصحب بتحويل ابن عفان الخلافة إلى مُلك لأن هؤلاء لم يكونوا بالقطع يغمضون عيونهم عن تصرفات وتوجهات عثمان ومن ثم فإن تعليقه على عبارة الوليد لم يكن من باب (كلمة هو قائلها) أو رمية من غير رام أو عبارة عارض بل هو رد محسوب ودقيق قاله بعد روية وإمعان (أراكم والله ستجعلونها مُلكاً) ولم يكن هذا رأيه وحده بل رأى سائر الصحاب وما ينطق به الواقع.

وهل يمكن أن يقال إن تلفظ الوليد أخي عثمان وأحد خاصته وبطانته بعبارة (المُلك) جاء اعتباطاً بل إن التحليل النفسي يؤكد أن فلتات اللسان تكشف عن المخبوء في الأعماق أكثر مما تفعل الكلمات التي تُنطق عن روية.

ولعل ما يفيد مبحثنا أن نرجع إلى معاجم اللغة وكتبها لنقرأ

تعريفها لـ (الملِك) بكسر اللام و(المُلك) بضم الميم:

١ ــ مِلْك: يفيد الأمر وسعة المقدرة ومُلْك: استفاضة الملِك (بكسر الميم) وسعة المقدور لمن له السياسة والتدبير[١٦١]. وقول أبي هلال يفيد الحكم لأنهم هكذا كان يطلقون على الحكم.

٢ ــ المَلِك: اسم لكل من يملك السياسة إما في نفسه وذلك بالتمكين من زمام قواه وصرفها عن هواها وإما في غيره... وهو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور ذلك يختص بسياسة الناطقين ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء... والمُلْك: ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم[١٦٢].

٣ ــ وفي بصيرة في (ملك) يقول مجد الدين الفيروزآبادي (والمُلْك ضربان: ملك هو التملك والتولي وملك هو القوة على ذلك تولّى لو لم يتولَ فمن الأول قوله تعالى: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ الآية ٣٤ من سورة النمل ــ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا﴾ الآية ٢٠ من سورة المائدة ــ فجعل النبوة مخصوصة والمُلك فيهم عاماً، فإن معنى المُلك ها هنا هو القوة التي يترشح للسياسة... وقال بعضهم: المَلِك اسم لكل من يملك السياسة...)[١٦٣].

---

(١٦١) **كتاب الفروق**، لأبي هلال العسكري ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ مصدر سابق.
(١٦٢) **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني، ص ٤٧٢، مصدر سابق.
(١٦٣) **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، لمجد الدين الفيروزآبادي، ت. ٨١٧هـ/ ١٩٦٩م، ص ٥٢٠ من ج. ٤ تحقيق أ. محمد علي النجار، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بمصر.

٤ ــ يقال له ملكوت العراق وهو الملك والعز فهو ملك ومليك[١٦٤].

٥ ــ ملكه يملكه احتواه قادراً على الاستبداد به والمُلك بضم الميم يعني العظمة والسلطان... والمملكة عز الملك وسلطانه...[١٦٥].

٦ ــ ويقال ملك الناس ملكاً: كان له التصرف فيهم بالأمر والنهي والسيادة عليهم وكان منهم الطاعة له الوصف مَلِك ومَليك المَلك: ذو السلطان والسيدة على فريق من الناس والمليك: والمَلِك الواسع السلطان[١٦٦].

إن الصفات التي أوردتها كتب المعاجم والمفردات عن الملك نجد أنها متوافرة في عثمان فهو صاحب الأمر (الحكم) وسيع المقدرة مع استفاضة في دائرة الملك (الإمبراطورية العربية) مع التمكين من زمام القوة والتصرف في الجمهور أمراً ونهياً الخ...

والذي يماري في أن عثمان كان يتمتع بذلك كله وأكثر منه يجنح إلى المغالطة الواضحة وهنا يتقدم فِلْحاس[١٦٧] معترضاً أن ابن الخطاب كان يحوز ذلك فلماذا صنفناه «خليفة» في حين أطلقنا على عثمان لقب (ملك)؟ والرد لا يحتاج إلى كبير عناء فإذا كان عمر قد حاز ذلك جميعه فإنه وبالأخص في دائرة المال العام ــ أو مال الله والمسلمين لم يكن يتصرف فيه حسب هواه وعاطفته ووفق إرادته ورهن مشيئته كالملوك ولكن في حدود ما رسمته أو

---

(١٦٤) **مختار الصحاح** للرازي.
(١٦٥) **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.
(١٦٦) **معجم القرآن الكريم**، إعداد مجمع اللغة العربية، الجزء الثاني، مادة م. ل. ك. الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(١٦٧) سبق شرحها، المصدر نفسه.

قننته (النصوص) أما عثمان فقد نظر إلى ذلك المال نظرته إلى ماله الخاص ومن ثم طفق يبعثره ذات اليمين وذات الشمال كما يحلو له، ويخص به الأدنين إليه من الأقارب والأصهار والحاشية دون أقل اعتبار لـ (النصوص) وعلى حساب مصالح الرعية وبتعبير آخر دون التفات للأضرار التي تحيق بالمحكومين الذين شاءت المقادير أن يتحكم فيهم من وراء ذلك ـــ وهذا المعنى هو الذي أشارت إليه على وجه الخصوص الآية الرابعة والثلاثون من سورة النمل.

هذا هو الفرق بين الخليفة والملك وإن شئت قلت بين عمر وعثمان ـــ ولا يغيّر من صورة عثمان التبريرات والتسويغات والاعتذارات التي طرحها من قديم (فقهاء التبرير) وتقدمها حديثاً (جوقة التعظيم) ـــ إذ أنك منذ أول وهلة وأنت تطالعها تدرك أنها دالعة (حمقاء) فاترة تشم فيها رائحة الضمير العلمي وهو يحترق.

وهناك اعتراض آخر وهو ما سبق أن قلناه أن عثمان كان يتصرف بعقلية شيخ القبيلة فهل هو شيخ قبيلة أو ملك؟

في الحق أن الفرق درجي (من الدرجة) لا نوعي (من النوع) إذ أن حدود سلطان شيخ القبيلة أو زعيمها أو سيدها لا يتعدى (حِمْى القبيلة) مكاناً وأفرادها موضوعاً في حين أن الملك رقعة سلطانة أوسع بما لا يقاس كما أن موضوع أمره ونهيه أوفر عدداً فعثمان إذ اتسع مكان سلطته وزاد تعداد رعيته[١٦٨] ولكن عقلية شيخ القبيلة لم تزايله فهو شيخ قبيلة في صورة ملك ولا غرابة في ذلك فكثير ممن يحمل لقب سلطان أو ملك أو أمير الخ.. في أيامنا ما هو في الحقيقة إلا شيخ قبيلة ـــ مظهره ـــ تصرفاته ـــ سلوكياته ـــ

(١٦٨) في قواميس اللغة **الرعية** هي الماشية.

نواهيه ــ أوامره حتى المفردات المعجمية التي يتداولها هو أو يوجهها إليه المقربون منه هي مفردات شيخ القبيلة. بل إن هناك من قال منذ قرون أن عثمان ومن أتى بعده من (ملوك) بني (أمية) وبني (العباس) لم تكن فيهم أحلام[١٦٩] أهل الجاهلية[١٧٠] ولم تردعهم كوابح (ضوابط) الإسلام!

حقيقة لم تنسب إلى عثمان على الإطلاق وقائع التصفيات الجسدية للخصوم أو سائر الممارسات الجانحة الأخرى في مجال الحكم والسياسة كالتي حدثت بين معاوية الأموي والمنصور العباسي وغيرهما من (ملوك) التاريخ الإسلامي، ولكن الأمر الذي لا ينتطح فيه عنزان كما يقول المثل أن ابن عفان هو أول حاكم في هذا التاريخ تصرف في المال العام أو مال الله والمسلمين حسب مشيئته دون التفات إلى (النصوص) واعتباره ماله الخاص، لا فرق بين المالين.

وهذه سمة من أهم سمات الملوك وإذا كان القارئ وخاصة ذاك الذي تأثر أو أجريت له عملية (غسيل مخ) من جراء كتابات (فقهاء التبرير) قديماً و(جوقة التبجيل) حديثاً ــ يستهول أن نصف ابن عفان بـ (الملك) وهذا ما نصر عليه، فلا أقل من أن يوافقنا على أنه فتح باب (الملوكية) لمن أتى بعده من الحاكمين على الأقل في نطاق النظرة تجاه المال العام إذ كان الواحد منهم لا بد أن يحدث نفسه: إذا كان عثمان ــ وهو من هو ــ فعل ذلك، فلا تثريب علينا إذا اتخذناه أسوة وسرنا على طريقه واتبعنا منهجه، وبذلك ساعد عثمان إلى حد كبير على تحويل مسيرة التاريخ العربي الإسلامي.

---

(١٦٩) **أحلام** جمع حِلْم ومعناه الرؤية والتؤدة والتبصر والمراجعة.. الخ.

(١٧٠) سبق أن سجلنا اعتراضنا على توصيف الفترة السابقة على الإسلام بالجاهلية وقلنا إنها تسمية أيديولوجية وليست معرفية!

وهذا الخبر الذي أورده الطبري يؤكد ما نذهب إليه أن عثمان حول الخلافة إلى ملكية وعند الذين تدفعهم العاطفة الدينية الفجة إلى استهوال ذلك: النزول بالرأي إلى أنه مهد الطريق إلى ذلك:... حدثني عبد الله بن مسعدة بن حكمة الفزاري من آل بدر(١٧١).

قال انتقل معاوية من بعض كور الشام إلى بعض عمله فنزل منزلاً بالشام فبسط له على ظهر إجار (سطح) مشرف على الطريق فأذن لي فقعدت معه فمرت القطرات والرحائل والجواري والخيول فقال يا ابن مسعدة رحم الله أبا بكر! لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر أو قال: ابن حنتمة فأرادته الدنيا ولم يردها، فأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه، وأما نحن فتمرغنا فيها، ثم كأنه ندم فقال: والله إنه لملك آتانا الله إياه(١٧٢).

هذه شهادة واحد من أهم رجال عثمان يقرر أن عثمان أصاب من الدنيا وأصابت منه وهذا شأن الملوك ونظراً لأنه (عثمان) بدأ مسيرة الملوكية أو فتح بابها الملكي فقد تسنى لمعاوية ومن جاء بعده من ملوك الإسلام (وإن تسموا خلفاء) أن يتمرغوا في الدنيا بل ويغرقوا فيها حتى آذانهم!

ولو أننا نقرر أن التغيرات المتعددة التي ضربت ذلك المجتمع كانت عاملاً مؤثراً في ذلك التحويل (من الخليفية إلى الملوكية)

---

(١٧١) كان من خاصة معاوية ووليجته وحدث بينه وبين الصحابي أبو قتادة (فارس محمد) حوار عنيف في حضرة معاوية أورده البلاذري في أنساب الأشراف، ج الأول، ص ٣٤٩.

(١٧٢) **تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك**، لأبي جعفر بن جرير الطبري، الجزء الخامس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٣٤ (حودث سنة ٦٠هـ) طبعة ١٩٦٣، دار المعارف بمصر.

ولعل المحاولة التي قام بها أبو الحسنين علي بن أبي طالب خير شاهد على ذلك.

فرغم شخصيته المتميزة ومسلكه النقي أخفق في إعادة (الخليفية).

لكن الذين يقرأون التاريخ العربي الإسلامي قراءة غيبية ويفسرونه تفسيراً ميتافيزيقاً لا ماورائياً أن هذا التحول كان تحقيقاً لنص ينسبونه إلى محمد.

هو الحديث الذي يقول فيه محمد إن الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثم تغدو ملكاً عضوضاً ــ ولما كان مجموع خلافتي أبي بكر وعمر وزمن عثمان وخلافة علي ينقص ستة أشهر عن الثلاثين التي وردت في الحديث فإنهم يكملونها بستة أشهر يقولون إنها خلافة الحسن بن علي.

مع أن الستة أشهر المذكورة لم يكن الحسن فيها خليفة إذ لم تكن له شوكة الحاكم وسطوته وهيبته ومن ثم فإن المؤرخين لا يذكرونه بين الحكام ــ في حين أنهم يذكرون خلافة عبد الله بن الزبير لأنه بالفعل كان حاكماً وله سلطة وسلطان على عدة أقاليم حتى انتهى بتلك النهاية المأساوية على يد طاغية بني أمية ــ فضلاً عن أن هذا الحديث وأمثاله التي تنحو منحاه تنبعث رائحة الوضع فيها ولا تخطئها حاسة الشم البصيرة ولا يحتاج المرء إلى كبير ذكاء ليدرك على التوائها من وضع خصوم معاوية خاصة وبني أمية عامة.

وليس هذا دفاعاً عنهم فنحن لا ندافع عن أحد ولا نبرر فعال أحد لأننا نحرص في كتاباتنا على الموضوعية والحيدة العلمية

وننحي عن أنفسنا العواطف وعلى الأخص الفجة التي هي العدو الألد لأي كتابة موضوعية.

كل ذلك مرجعه إلى عدم قناعتهم بأن العوامل المادية هي التي تحرك عجلة التاريخ في الأساس ــ مع وجود عوامل مساعدة ولكنها تأتي في المرتبة التالية.

٢. معاوية بن أبي سفيان

من المتفق عليه بين جميع المصادر أنه أسلم يوم الفتح ــ فتح مكة[١٧٣] ولكنه كان يقول إنه (أسلم عام القضية وأنه لقي رسول الله (ص) مسلماً وكتم إسلامه من أبيه وأمه)[١٧٤].

إنما الإجماع منعقد على أنه من المؤلفة قلوبهم **(قال أبو عمر: معاوية وأبوه من المؤلفة قلوبهم)**[١٧٥] وقد أعطاه محمد من غنائم هوازن مائة بعير وأربعين أوقية[١٧٦]. وكما قلنا فيما سبق أن كل ثورة تتمخض عن نقيضها ومن يمسك بزمام مقوده هم الذين ركبوا العربة الأخيرة من قطار الثورة والإنتهازيون الخ.. فلذلك نجد أن هذا الطليق المؤلف قلبه أصبح (أميراً بالشام عشرين سنة وخليفة مثل ذلك)[١٧٧] والذين يشهدون في تحليل الوقائع التاريخية وتفسيرها بأحكام قانون الثورات لا يرون في ذلك عجباً فهم على

(١٧٣) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري، الخامس، ص ٢٠٩، **الاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٣، ص ١٤١٦، **أنساب الأشراف** للبلاذري، الأول، ص ٥١٩.

(١٧٤) **أسد الغابةِ**، الصفحة نفسها من المجلد نفسه **والاستيعاب** المجلد نفسه والصفحة نفسها **وكتاب نسب قريش** للمصعب الزبيري، ص ١٢٤.

(١٧٥) **الاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها **وأسد الغابةِ** المجلد نفسه والصفحة نفسها.

(١٧٦) هذا الخبر أوردته غالبية كتب السيرة.

(١٧٧) **الاستيعاب** المجلد نفسه والصفحة نفسها.

قناعة تامة أن قواعده الثابتة تسري على كل الثورات، أما الذين يفسرون وقائع التاريخ بالغيبات والماورائيات فيضربون كفاً بكف ويصيحون مندهشين أو يندهشون صائحين:

كيف يتمرغ الطليق ابن هند آكلة الأكباد في النعيم ويحكم مدة أربعين عاماً متوالية والذين قاموا بالثورة مع مفجّرها وقائدها يُضربون بالسياط ويُغربون ويُنفون؟ بل إن هذا الطليق بلغت به الجرأة أن يسخر بـ (الحرس القديم) الذي دفع الثمن غالياً حتى تحققت ثورة محمد (قال معاوية لأسامة بن زيد: رحم الله أم أيمن كأني أرى ساقيها وكأنهما ساقا نعامة، فقال أسامة: كانت والله خيراً من هند وأكرم؟ فقال وأكرم أيضاً نعم: قال الله عز وجل: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ سورة الحجرات ٤٩/ ١٣)[١٧٨]. أم أيمن التي سخر منها الطليق وذكر ساقيها بما لا يليق[١٧٩]، هي مولاة محمد وحاضنته (وكان رسول الله (ص) يقول: أم أيمن أمي بعد أمي وكان يزورها في بيتها)[١٨٠].

وكان يزورها من بعده أبو بكر وعمر في بيتها.

أما هند التي ورد ذكرها على لسان أسامة (ابن أم أيمن) فهي أم معاوية التي استأجرت وحشياً فقتل حمزة عم محمد وأحد جنود ثورته الأوفياء ــ غدراً وغيلة ــ دون أن يجرؤ على مواجهته ــ ولم تكتف بذلك بل بقرت بطنه وأكلت ــ أو حاولت ــ أكل كبده ومن ثم اشتهرت بلقب (آكلة الأكباد)!

(١٧٨) **أنساب الأشراف**، للبلاذري، الأول، ص ٤٧٥.
(١٧٩) سبق أن قلنا إن أولئك كانوا بدواً جفاة لم تلحقهم حضارة من أي نوع وإلاّ فهل مما يناسب منصب الخلافة، أن يذكر الطليق ساقي امرأة حتى ولو من العامة فما بالكم إن كانت مولاة قائد الثورة التي يسبح هو في بحار ثمارها الشهية!
(١٨٠) **أسد الغابةِ**، كتاب النساء، المجلد السابق، ص ٣٠٣.

وكان من المنتظر أيضاً أن يجمع معاوية حوله من كادوا لمحمد وحاربوه وناوأوه أو أو أبناءَهم وأن يستبعد الأعوان المخلصين لقائد الثورة وكذا أبناءهم ولعل الخبر الذي أورده البلاذري في (الأنساب) يصور لنا تلك الحقيقة بدقة مذهلة:

دخل أبو قتادة بن ربعي على معاوية (رض) وعليه رداء عدني وعند معاوية عبد الله بن مسعدة...، فسقط رداء أبي قتادة على عبد الله، فنفضه عنه بغضب، فقال: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: عبد الله بن مسعدة قال: أنا والله دفعت حضن أبي هذا بالرمح يوم أغار على سرح المدينة، فسكت عبد الله(١٨١). وحتى يدرك القارئ معالم الصورة الموحية، إدراكاً جيداً نذكر له أن مسعدة الفزاري أبا عبد الله (نديم الطليق معاوية) أغار على سرح (ماشية) لمحمد في المدينة/ أثرب فأسرع خلفه أبو قتادة الأنصاري وقتله واستخلص منه وممن معه السرح (عن أبي قتادة قال: أدركني رسول الله (ص) يوم ذي قرد فنظر إليّ فقال: اللهم بارك في شعره وبشره، وقال: أفلح وجهك، قلت: ووجهك يا رسول الله قال: قتلت مسعدة؟ قلت نعم...(١٨٢).

وكان من المحتم أن تنقلب الصورة فيتحول ابن سارق الماشية عدو قائد الثورة جليساً ومسامراً للطليق الذي جنى قطوفها الدانية. ويتأفف من الثوب الغليظ الذي يرتديه أحد أنصار القائد الأوفياء وهكذا انتهت الثورة المجيدة إلى أيدي هؤلاء الإنتهازيين أما الجنود المخلصون فيشربون العلقم ويأكلون الحصرم ولذلك لم يكن غريباً أن الطليق معاوية عندما زار المدينة بعد أن غدا خليفة جاءه الأنصار

---

(١٨١) **أنساب الأشراف**، للبلاذري، الأول ص ٩٤٣.
(١٨٢) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، المجلد ٤، ص ١٧٣١.

ــ وقود الثورة المحمدية ــ يشكون إليه ما يلقون فسألهم مستهزئاً أو استهزأ متسائلاً:

أتذكرون ما قاله محمد لكم؟ قالوا: نعم، قال: ستجدون بعدي أثرة فاصبروا فرد عليهم مستخفاً بهم: إذن اصبروا!

ولسنا بصدد التأريخ لمعاوية ولكننا قدمنا هذه الصورة بإيجاز شديد لنكشف عن جانب بالغ الأهمية من جوانب ثورة محمد، أغفله كثير ممن كتب عنها، وهي أنها كغيرها من الثورات طالتها أحكام قانون الثورات وأنها في نهاية الشوط آلت إلى من لم يشارك قائدها المقدام في الإصطلاء بنيرانها والاكتواء بسعيرها وهذا القانون يؤكد لنا أن هؤلاء لا يتولون قيادتها بل يفعل ذلك الأولون (غير المشاركين) ولا يكتفي هؤلاء بذلك بل ينكِّلون بـ (الحرس القديم): ينفونه ويشردونه ويسخرون من سيرته ويتأففون من هيئته التي غدت زرية بعدما حرمه نهازو الفرص من شطر ولو ضئيلاً من حصادها اليانع.

* * *

ونذكّر أننا بصدد سرد «مواقف الصحابة من المال».

وموقف معاوية من المال يقدم لنا لوحة بالغة الغرابة والتعقيد معاً ولكن دائماً وربما بطريق الحتم واللزوم أنّ مما يساعد على تجلية صورة المترجم له الذاتية ذكر طرف من سيرته الأولى خاصة فيما يتعلق بالجانب الذي يجري بحثه لأن هذا يعطي أضواء كاشفة على نفسيته الأمر الذي يساعد على تحليل البواعث التي دفعته إلى إتيان الأفعال التي مارسها فيما بعد.

ونكتفي هنا بذكر خبرين أوردتهما الكتب المعتمدة، وأهميتهما

تكمن في أنهما صدرا من محمد القائد المحنك شديد الخبرة بتقويم الرجال:

أ ــ حديث فاطمة بنت قيس أنها كانت في فترة العدة فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال لها: تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم... فإذا حللت فأذنيني... ثم استشارته فيمن تقدم لخطبتها فاستعرضهم ثم قال: وأما معاوية فصعلوك لا مال له...[١٨٣].

في هذا الحديث الصحيح الموثق الذي ورد بعدد من دواوين السنة وصف محمد معاوية بأنه (صعلوك لا مال له) ــ وكنت أتساءل كيف يكون معاوية صعلوكاً وقد صار أحد بناة الإمبراطورية العربية الإسلامية بلا جدال؟ ولكن بإعادة قراءة الحديث مرات كثيرة تبينت أن محمداً قرن صعلكة معاوية بانعدام المال أي أن صعلكته مردها افتقاره إلى المال لا إلى صفات أو ملكات أو قدرات أخرى ــ ومن ثم فسوف نرى أن المال أو بمعنى أدق امتيازه شكّل لدى ابن أبي سفيان عدة غائرة في أعماق نفسه سوف تكون لها ــ كما سنرى بعد قليل ــ تجليات متباينة ندرك إثر مطالعتنا للأخبار التي نوردها مدى فعالية تلك العقدة في تحريك البواعث الدافعة لمعاوية للقيام بتلك الأفعال.

ب ــ عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله (ص) فتواريت خلف باب قال: فجاءني فحطاني حطأه (دفع بكفه بين كتفيه) وقال: اذهب فادع لي معاوية

(١٨٣) **الجامع الصحيح**، مسند الإمام الربيع بن حبيب الإزدي البصري، الجزء الثاني ص ٣٤، مصدر سابق.
منهاج السنّة النبوية، لابن تيمية، الجزء الثالث، ص ٣٦، مصدر سابق.

قال: فجئت فقلت: هو يأكل ثم قال: اذهب فادع لي معاوية قال: فجئت فقلت: هو يأكل فقال: لا أشبع الله بطنه(١٨٤). وقد أورد البلاذري زيادة في الخبر جاءت على لسان معاوية نفسه فكان معاوية يقول: لحقني دعوة رسول الله (ص) وكان يأكل في كل يوم مرات أكلاً كثيراً(١٨٥). إذا ربطنا هذا الحديث بالحديث الآخر الذي موجزه أن هند بنت عتبة (أم معاوية) ذهبت إلى محمد واشتكت إليه شح زوجها أبي سفيان عليها وعلى أولادها فسمح لها أن تأخذ من ماله ما يكفيهم (هي والأولاد) بالمعروف.

أتاح لنا ذلك الفرصة أن نقرر أن معاوية في صباه كان لا يجد في بيت أبيه الكز البخيل شبع بطنه وكان محمد يعلم بذلك بحكم خلطته بأتباعه ومعايشته لهم واندماجه في مجتمعهم وعدم تعاليه ــ رغم سموه ــ عليهم ــ ثم جاءت دعوته على معاوية فأكدت هذه الخلة عنده.

إذن في صباه وشبابه الباكر اجتمعت فيه الحاجة إلى المال والنهم للطعام والإحساس الدائم بالجوع فطبع هذا الثالوث معاوية بطابع (الصعلكة) حسب توصيف محمد وموضعه حيال المال موضعاً لا نظير له.

كما سيظهر عندما نستعرض مواقفه إزاء المال وهي مواقف متشابكة معقدة اختلطت فيها الصعلكة مع النهم والحاجة

(١٨٤) **أسد الغابةِ**، ابن الأثير، المجلد الخامس، ص ٢١٠، **الاستيعاب**، لابن عبد البر، المجلد الثالث، ص ١٤٢١، وذكر ابن عبد البر أن الحديث ورد في **مسند داود** الطيالسي **وأنساب الأشراف**، للبلاذري، الجزء الأول، ص ٥٣٢.

(١٨٥) **أنساب الأشراف**، الجزء الأول، الصفحة نفسها، والعامة، في مصر تقول عن من شاكلة معاوية في هذه الخصوصية، (الجوعة مكسورة في بطنه). ا. هـ.

إلى الاقتناء والاحتياز مع الاضطرار للبذل وإطعام الآخرين إما شراءً لضمائرهم أو اتقاءً لشرهم أو جلباً لنفعهم أو ثمناً لسكوتهم أو حبساً لألسنتهم الطويلة داخل أفواههم أو تملقاً واسترضاءً لهم...

* * *

لكي يصير المال العام نهباً مستباحاً لمعاوية يفعل فيه ما يشاء دون رقيب أو حسيب سماه «مال الله» ولكن لماذا؟ لأنه ظل الله على الأرض ومن ثم يغدو المال طوع مشيئته ــ لأنه مال الله ــ وإقدام معاوية على تغيير الاسم من (مال المسلمين) إلى (مال الله) أفزع الصحابي الزاهد أبا ذر الغفاري فانتصب لمعاوية يعارضه ويناوئه:

نقل الطبري ــ ٥/ ٦٦ ــ: أتى أبو ذر معاوية فقال ما يدعوك إلى أن تسمي (مال المسلمين) (مال الله)، قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال مال الله والخلق خلقه والأمر أمره، قال أبو ذر: فلا تقله؟ قال معاوية: وأني لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين[١٨٦].

حوار على قدر غير قليل بين واحد من (الحرس القديم) توفى محمد قائد الثورة وهو عنه راض وبين طليق ركب قطار الثورة قبل لحظة الوصول ببرهة يسيرة بيد أنه غدا أميراً وخليفة (ملكاً) أربعين عاماً وأبو ذر مات وليس لديه كفن وواضح أن معاوية بعبارته الأخيرة قد ألوى[١٨٧]. ولكنم جندب بن جنادة أو أبا ذر كان يقظاً

(١٨٦) **العواصم من القواصم** للقاضي أبي بكر العربي ص ٧٤ هامش رقم ٢، مصدر سابق.
(١٨٧) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، ألوى بكلامه: خالف به عن جهته.

فظل يلاحق ابن سفيان ويهاجم كل تصرف مالي يرى فيه جنوحاً حتى ضاق معاوية به ذرعاً فأرسله إلى عثمان وهذا نفاه إلى الربذة فمات فيها شريداً طريداً غريباً مع أنه كان من أحب جنود الثورة إلى قائدها، وبقي الطليق ابن أبي سفيان الذي كثيراً ما ألب على محمد وحاربه باللسان والسنان والرجال ظل أميراً على الشام ينعم بخيرات الثورة!

وانطلاقاً من العقدة القديمة بدأ ابن آكلة الأكباد يتمول من (مال المسلمين) ويتضلع ويرزم نفسه رزوماً[١٨٨]. فأخذ يبني الدور والقصور وكان من البديهي أن يبدأ بالبلد الذي شهده صعلوكاً لا مال له حسبما وصفه محمد، في إثرب/ المدينة (حويطب بن عبد العزي القرشي العامري كان من مسلمة الفتح وهو أحد المؤلفة قلوبهم... أعطى من غنائم حنين مائة بعير وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار فاستشرف لذلك النساء فقال لهم معاوية: وما أربعون ألف دينار لرجل له خمسة من العيال)[١٨٩].

في هذا الخبر البائع والمشتري من الطلقاء من مسلمة الفتح ومع ذلك جرت الأموال في أيديهم دافقة في حين أن الأنصار ــ كتيبة الثورة المظفرة ــ كانوا يشتكون الفاقة ــ فهذا يبني داراً بأربعين ألف دينار والآخر يشتريها منه ويقول في تعليل ذلك إن حويطباً كان له خمسة من الأولاد وهو تعليل فطير إذ كم من الأنصار والمهاجرين (من غير قريش) ومن غير أولئك وهؤلاء من القبائل كان يعول مثل هذا العدد من العيال فلِمَ لمْ يعطه معاوية عُشر هذا المبلغ؟

(١٨٨) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، رزم رزوماً: تثبت على الأرض ومن معانيها الجمع، رزم شيئاً أي جمعه.
(١٨٩) **الاستيعاب**، المجلد ١ ص ٣٩٩. وكتاب **نسب قريش**، ص ٤٢٦.

ولو أن حويطباً طلب ضعف هذا الثمن لأوفاه إياه معاوية لأن العقدة الدفينة في أغوار نفسه من عهد الصعلكة كانت تحثه حثاً على اقتناء دار فخيمة في البلد الذي شهده مليطاً من المال.

* * *

وثنيّ معاوية بمدينة القداسة بمكة ومعلوم أن أقدم وأشرف دار بها هي «دار الندوة» التي بناها قصيّ بن كلاب ثم أوصى بها بعد وفاته إلى ابنه عبد الدار لينطِقَه[١٩٠] وليرفع من ذكره لأنه كان على قدر من الخمول وعدم النباهة وعلى هذه الدار الشريفة بل أشرف دور بكه طراً وقعت عين ابن أبي سفيان لتكون في حوزته وفي متناول يده (أما دار الندوة فلم تزل لعبد الدار حتى باعها عكرمة بن عامر ــ بن عبد الدار من معاوية بن أبي سفيان فجعلها داراً للإمارة)[١٩١] ولكن الأزرقي في أخبار مكة يورد خبر شراء معاوية لـ (دار الندوة) بصورة مختلفة (قال: حج معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة فاشترى دار الندوة من أبي الرهين (الصحيح ابن الرهين) العبدري بمائة ألف درهم)[١٩٢].

وعبدري نسبة إلى عبد الدار كما يقال عبشمي نسبة إلى عبد شمس... والأزرقي أورد كنية البائع لمعاوية (أبي الرهين) ولم يورد اسمه فهل هو عكرمة الذي أورده البلاذري في الأنساب أم غيره ــ لم أستطع أن أتحقق لأن الأزرقي لم يذكر الاسم.

---

(١٩٠) في **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي ــ **النُطُق** هي التي تشد بها الأوساط، والمنتطق العزيز.
(١٩١) **أنساب الأشراف**، ج ١ للبلاذري، ص ٥٣ مرجع سابق.
(١٩٢) **أخبار مكة**، ج ١، ص ٢٦٩، لأبي الوليد الأزرقي تحقيق رشدي الصالح، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الأندلس، بيروت.

المهم أن الأزرقي لم ينقل إلينا أن ابن أبي سفيان خصصها للإمارة أي لتكون مقراً لها ــ مما يعطي احتمالاً بأنه اشتراها لسكناه ــ وسواء أكان هذا أم ذلك فإنها تعد في حيازته ورهن إشارته وهكذا أصبح الطفل الذي كان لا يجد شبع بطنه في بيت أبيه لبخله وشحه لا لفقره فقد كان أبو سفيان من أثرياء قريش ــ هذا الطفل تدور الأيام ويتملك أميز دار في بلد القداسة.

وهكذا نفّس معاوية عن عقده الدفينة سواء أيام الجوع بكه أو زمن الصعلكة في إثرب/ المدينة وتملك في الأولى أعرق وأشرف دورها وفي الأخرى داراً منيفة باذخة!

* * *

اعتلى معاوية سدة الحكم بعد فتنة غشوم وحرب أهلية طاحنة وكان من البديهي أن يخلّف ذلك له أعداء ألداء من كل اتجاه ولذلك سعى لتثبيت ملكه بأن يصطنع له رجالاً يؤازرونه يشتريهم بالمال بمختلف أنواعه ــ والنشب بسائر ضروبه(١٩٣).

١ ــ وكانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص طعمة شرطها له يوم بايع، ونسخ الشرط: هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص أعطاه أهلها فهم له حياته ولا تنقص طاعته شرطاً(١٩٤). هكذا أصبحت مصر ذات الحضارة العريقة التي تضرب في أعماق التاريخ لمدة خمسة آلاف سنة (آنذاك) ألعوبة بين هذين العربيين

(١٩٣) **المال:** الصامت والماشية، **النشب:** العقارات، **كتاب الفروق** لأبي هلال العسكري، ص ١٩٢، مصدر سابق، **والعقار** في الاصطلاح القانوني يشمل الأرض والمبنى ولكن الزبيدي يذهب إلى أن العقار هو الضيعة، **مختصر العين** لأبي بكر الزبيدي الأشبيلي، الجزء الأول، ص ١٣١، مصدر سابق.
(١٩٤) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، صفحة ٢٢١.

يعطيها أحدهما طعمة هي وأهلها للآخر ولا زال هناك بيننا من يفرّق بين الفتح العربي وبين غيره من الفتوحات التي سبقته أو تلته ويشيد به ويصيح في جرأة بالغة أن أولئك الأعراب جاؤوا لنشر الإسلام، وهل تبيح الديانة الإسلامية لخليفة المسلمين أن يعطي لأحد قواده بلداً بأكمله بما في ذلك (أهلها) طعمة هنية ولقمة سائغة.

واستولى بموجب الشرط عمرو بن العاص على مصر وأهلها واعتبرها عزبة(١٩٥). لذلك جمع عمرو تلالاً من الأموال بل جبالاً ما كانت تخطر على باله لا هو ولا واحد من قبيلته (ولما حضرت عمرو الوفاة قال لابنه: إني قد دخلت في أمور لا أدري ما حجتي عند الله فيها ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته فقال: يا ليته كان بعراً يا ليتني مت قبل هذا)(١٩٦). لقد لفت نظري أن الواحد منهم يفعل في حياته الأفاعيل ولا يستيقظ ضميره إلا بعد أن يغرغر وتصل روحه إلى حلقومه!

وقرن الشرط بين استمتاع ابن العاص بمصر وبين لزومه طاعة سيده (الذي نفحه مصر) معاوية الأمر الذي لا يدع مجالاً لأدنى شك في أن ابن أبي سفيان اشترى ولاء عمرو مقابل الضيعة التي تسمى مصر(١٩٧).

وتمسك عمرو بالشرط تمسكاً حرفياً صارماً لدرجة أن ابن أبي سفيان في أحد الأعوام قصرت يداه عن الوفاء بعدد من الالتزامات

---

(١٩٥) **المعجم الوسيط العزبة:** مزرعة فيها قصر المالك أو داره تحيط به بيوت الفلاحين وهي محدثة.
(١٩٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(١٩٧) **الضيعة:** العقار والجمع ضياع... قال الأزهري: الضيعة عند الحاضرة: النخل والكرم والأرض، **مختار الصحاح** للرازي، مصدر سابق.

الملقاة على عاتقه فاستعان بابن العاص ليرفده ببعض در البقرة الحلوب (مصر) ولكن ابن العاص رفض طلبه وذكره بالشرط:

قالوا: وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر قد قبضها بالشرط الذي اشترطه على معاوية: «أما بعد، فإن سؤال أهل الحجاز وزوّار أهل العراق قد كثر عليّ، وليس عندي فضل من أعطيات الجنود، فأعني بخراج مصر هذه السنة».

فكتب إليه عمرو:

معاوي أن تدرك نفس شحيحة فمـــا ورثتني مصر لا أمي ولا أبي
وما نلتها عفواً ولكن شـــرطتها وقد دارت الحرب العوان على قطب
ولولا دفاعي الأشعري وصحبه لالقيتهـــا ترغـــو كراغية الســـقب

فلما رجع الجواب إلى معاوية تذمم، فلم يعاودوه في شيء من أمرها.

في الهامش: السقب: ولد الناقة ساعة تضعه أمه[١٩٨]. واختزنها معاوية في نفسه ولم يفوتها لابن العاص إذ ما إن علم بوفاة الأخير حتى استصفى ماله (فكان أول من استصفى مال عامل)[١٩٩]. وهذا الخبر الذي أورده اليعقوبي في تاريخه يبين لنا كنه العلاقة التي تربط الواحد منهم بالآخر علاقة مصالح لا أثر فيها للوفاء أو العواطف النبيلة أو المشاعر السامية وهذا أمر طبيعي بل بديهي لأن أولئك الأقوام لم تعرف عنهم حضارة ترقى نفوسهم فاتسمت تصرفاتهم بالغلظة والجفاوة والبداوة وعزيت (بعدت) عن الرقة والرفاهة واللطافة وتحكمت فيهم المصلحة الشخصية والمنفعة الذاتية الحالة، الآنية العاجلة.

---

(١٩٨) **الأخبار الطوال**، للدينوري ص ٢٢٢، مصدر سابق.
(١٩٩) **تاريخ اليعقوبي**.

لقد نسي ابن أبي سفيان كل ما قدمه له عمرو بن العاص من خدمات جليلة لولاها لتعذر أو تعسر عليه أن يصير إمام المسلمين، وفي مقدمتها خدعته للصحابي الطيب مخموم القلب[٢٠٠] يوم التحكيم بينه وبين عليّ بن أبي طالب وسوف ترى فيما يجيء من أخبار بعد قليل أن عمراً لم يكن الأخير وإن كان الأول فيمن تعرض لاستصفاء معاوية لماله، الأمر الذي يقطع بأن معاوية كانت مصالحه الحارقة هي التي تقيم علاقته بعماله (ولاته) أو المحيطين به دون أن تدخلها ذرة من العاطفة وبذلك يكون قد سبق مكيافيللي بقرون في تقرير هذه القاعدة التي سطرها في كتابه (الأمير)[٢٠١].

ونؤكد أن اتباع معاوية لهذه السياسة التي لا صلة لها بمبادئ الأخلاق هو السر في نجاحه واستمراره حاكماً لمدة أربعين عاماً ما بين إمارة وخلافة (الاسم الظاهر للملكية) وأيلولة الإمامة العظمى إليه وانتزاعها من يد أبي الحسنين رغم ملكاته وقدراته التي لا يماري فيها أحد ولكنه ارتفع بنفسه وبسابقته في الإسلام وبصلاته العديدة بقائد الثورة محمد (القرابة القريبة والمصاهرة) وبشخصيته الميتاتاريخية الباهرة أن يجاري ابن أبي سفيان في انتهازيته وميكافيلليته، ولو أنه فعل عشر معشار ما فعله ابن هند في هذا المضمار لصار إمام المسلمين جميعهم ولكنه ضحّى به في سبيل التمسك بمبادئه وفي تقديرنا أنه فاز فوزاً عظيماً إذ أن المكانة التي حظى بها علي في قلوب المسلمين (سُنّة وشيعة) وما زال يحظى بها تفوق المنصب الذي كان سيفوز به لو أنه استعمل الأساليب الانتهازية التي مارسها ابن أبي سفيان أو حتى ربعها.

(٢٠٠) **قلب مخموم:** نقي من الغل والحسد، **مختار الصحاح** للرازي.

(٢٠١) ويكون معاوية أيضاً سبق الأمبراطورية البريطانية في شعارها التي كانت ترفعه: ليس لنا أعداء ولا أصدقاء ولكن لنا مصالح. ا. هـ.

٢ ــ فلما تولّى معاوية بن أبي سفيان نزعها (فدك) من ورثة الرسول (ص) ووهبها لمروان بن الحكم ثم وهبها مروان لولديه عبد الملك وعبد العزيز فلما تولّى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله يأمره برد فداك إلى ولد فاطمة عليها السلام فأصبحت في يدهم مدة خلافة عمر...[٢٠٢].

وكثير من المؤرخين يؤكد إقطاع معاوية (فدك) لمروان بن الحكم وإعطاءه طعمة سائغة وأكلة شهية وفي سنه ثمان وأربعين قبض معاوية فدك من مروان بن الحكم وقد كان وهبها له قبل ذلك فاستردها[٢٠٣].

وأورد البلاذري في (فتوح البلدان) أول خطبة لعمر بن عبد العزيز عندما صار خليفة وقد جاء فيها ثم معاوية أقطعها (فدك) مروان بن الحكم فوهبها مروان لأبي (عبد العزيز) ولعمي (عبد الملك)...[٢٠٤].

وذكر المقريزي الواقعة في (النزاع) بصورة لا يرقى إليها أي شك (فلما ولى معاوية الخلافة أقطعها مروان بن الحكم فوهبها مروان ابنيه)[٢٠٥]، (وفدك) من قرى خيبر وكانت من المراكز اليهودية شمال الحجاز[٢٠٦]، وهي واحة خصيبة بينها وبين يثرب ثلاثة ليال وتمتاز بكثرة النخل وصارت فيئاً لمحمد في السنة السابعة

---

(٢٠٢) **معجم البلدان**، ٦/ ٣٤٣، **الخراج** للقرشي ٤١ **والخراج** لأبي يوسف ص ١٥، نقلاً عن **عمر بن عبد العزيز** تأليف حمزة النشرتي وآخرين، د. ت. د. ن.
(٢٠٣) **مروج الذهب**، للمسعودي، ج ٢، ص ١٩.
(٢٠٤) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ص ٣٧، مصدر سابق.
(٢٠٥) **كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم** تأليف تقي الدين المقريزي، ص ٤٨، سابق.
(٢٠٦) **أطلس تاريخ الإسلام** د. حسين مونس، ص ١٠٣، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م دار الزهراء للأعلام، القاهرة.

للهجرة (النزوح) وانطبقت عليها الآية السابعة من سورة الحشر ومن ثم غدت خالصة لمحمد ينفق منها على أهله والفقراء من المسلمين وأهل السبيل... ولذا لما توفى ذهبت ابنته فاطمة إلى ابن أبي قحافة لما تولى الخلافة تطلبها منه ميراثاً فرفض محتجاً بحديث آحاد ولم أستطع حتى الآن أن أفهم كيف غلب أبا بكر هذا الحديث على آية الميراث واستبعد أن يقول محمد نحن معشر الأنبياء لا نورث وقد جاء في القرآن (وورث سليمان داوود)[٢٠٧] ــ وهي نص صريح على وراثة سليمان لداوود النبي ــ وكيف لم تحتج فاطمة على أبي بكر بهذه الآية؟.

ويربط الأحداث بعضها ببعض يمكن أن نستخلص أن ابن أبي قحافة قد ردّ على فاطمة بنت محمد موقفها أي معارضتها اختياره خليفة وترك زوجها عليّ وهو في رأيها ورأي (اليسار الإسلامي) آنذاك أنه أولى بها ــ ولا يقل دلالة على ذلك من أن علياً لم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاتها ــ ولو امتد بها العمر لانتزعت الخلافة من ابن أبي قحافة وسلمتها لعليّ فقد أوردت بعض كتب السير والتواريخ أن اجتماعات هامة كانت تعقد في بيتها وأن عمر بن الخطاب همّ بحرق البيت بمن فيه ولكن أبا بكر زبره عن الإقدام على هذا العمل النزق الفلوت.

وهنا تبرز علامة استفهام كبيرة (وكم في التاريخ العربي الإسلامي من علامات استفهام لم يجرؤ أحد حتى الآن على الاقتراب منها بالإجابة عليها. ا. هـ.) وهي: الموت المفاجئ والمبكر لفاطمة ابنة قائد الثورة وزعيمة المعارضة ــ لقد توفيت ولم تبلغ الثلاثين ولم يُعهد في بني هاشم الموت المبكر بل طول العمر النسبي!

---

(٢٠٧) **سورة النمل**، الآية ١٦.

وهل موت فاطمة بتلك الصورة المفاجئة كان هو الحل الأكثر دهاء والبديل لاقتراح ابن الخطاب بتحريق بيتها بمن يجتمع فيه؟

كل هذه أسئلة نأسف أن نقول إنها مجرد افتراضيات لأن المصادر التي بين أيدينا لا تمدنا بالمعلومات الكافية التي كان من الممكن أن نصل من خلالها إلى اليقين ونشير في هذه الخصوصية إلى أن معظم المؤلفات التي تناولت مثل هذه النقاط شديدة الحساسية قد اختفى بصورة أو بأخرى والدوافع طبعاً معروفة.

المهم أن كل تلك مجرد فروض يعوزها البرهان ـ ولكن الأمر المؤكد أن حزب المعارضة وهو «اليسار الإسلامي» الذي كان يرفع شعار (عليّ أولى بالخلافة) قد انكسر وأصيب بضربة قاتلة من جراء وفاة فاطمة بنت محمد لأسباب كثيرة:

أولها أنها ابنة قائد الثورة وهي نفسها تتمتع بشخصية متياتاريخية من الرتبة العالية فضلاً عن أنها قد ورثت من أبيها القائد الفذ خصالاً كانت المعارضة في أشد العوز إليها منها قوة الشكيمة والصلابة وعدم المهادنة والبلاغة وذلاقة اللسان والأخيرتان كانتا على قدرٍ وفيرٍ من الأهمية في مجتمع أميّ كانت المشافهة فيه هي الطريقة المثلى للإعلام والاتصال والحشد والتجييش إذن بكل المقاييس فإن وفاة فاطمة بنت محمد والتي نستطيع أن نقول إنها كانت (نائبته) في قيادة الثورة شكّلت نقطة حاسمة بل شديدة الحسم في مسيرة حركة المعارضة التي حمل لواءها (اليسار الإسلامي) ولقد كان التخطيط ثم التنفيذ لإزاحة فاطمة من الطريق من أبلغ الأدلة على أن (اليمين) كان تام اليقظة وأثبت أنه في سبيل تحقيق مصالحه كان على استعداد للقيام بأي عمل و(لسحق) أي

رأس تعترض طريقه حتى ولو كانت رأس ابنة قائد الثورة وأحب خلق الله إليه كما صرح بذلك مراراً.

بعد هذه الاستطرادة ونعود فنقول أن إقطاع معاوية مروان بن الحكم (فدك) دوافعه معروفة فقد كان الأخير كبير كتّاب عثمان، وعليّ الخليفة الجديد إما أن يثبّت (العمال) الولاة في مناصبهم أو يعزلهم ويستبدل بهم آخرون وتثبيت معاوية على الشام لا بد أنه كان موضع جدل بين عثمان وكبير مستشاريه ولا بد أن ابن الحكم زكّى ابن أبي سفيان، كذلك كان مروان والياً لمعاوية على المدينة فيما بعد فضلاً عن أن الاثنين من أروم واحد.

وهناك خبر كما رأينا ذكر أن معاوية استردها من مروان ولكن ينقصه ما جاء في العديد من المصادر أن عمر بن عبد العزيز ردَّ (فدك) إلى ما كانت عليه فبقاء (فدك) في يد ذرية مروان حتى زمن عمر بن عبد العزيز ينقض خبر استرداد معاوية لها.

وهنا ملحظ شديد الأهمية وهو أن عمر بن العزيز قد كتب إلى عامله بالمدينة برد (فدك) إلى ولد فاطمة وأنها ظلت بأيديهم طوال مدة حكمه، إذ مضى ذلك أن عمر رأى أن (فدك) ميراث لفاطمة من أبيها محمد وأنه لم يأخذ بحديث الآحاد الذي رفعه أبو بكر في وجه الوارثة فاطمة (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) ليبرر منعه إياها من تملك (فدك) بالميراث والذي قلنا إنه رد منه على معارضة فاطمة لتوليه الخلافة كما نضيف أنه رأى أنه وضع يد فاطمة على الواحة أو القرية الخصبة سوف يشد من عضد المعارضة لأن المال على طول التاريخ من أهم الأسلحة إذ به يُشترى السلاح ويُجند الرجال الخ...

الخلاصة أن عمر بن عبد العزيز انتهى إلى أن (فدك) ميراث من

محمد لفاطمة وبذلك خطّأ ابن أبي قحافة فيما ذهب إليه وعمر كان على قدر وفير من العلم وكان يحيط نفسه بكوكبة من الفقهاء لا يقدم على عمل جليل إلاّ واستشارهم نذكر منهم:

عروة بن الزبير وأبو بكر بن عبد الرحمان والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عبد الله بن عمر وغيرهم رجلهم من أثرب/ المدينة فعمر بن عبد العزيز وهؤلاء الفقهاء لو صح عندهم حديث عدم وراثة الأنبياء لوقف حائلاً دون رد (فدك) إلى ورثة فاطمة بنت محمد الأمر الذي يؤكد أن ابن أبي قحافة حجن(٢٠٨) «بفدك» على ابنة قائد الثورة بدافع سياسي بحت ولما كان من المستحيل عليه إظهاره (هذا الدافع السياسي) طلاه بدهان ديني ليسوّغه ويبرره.

ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه منذ الوهلة الأولى هو أن خليفة آخر كان على قدر من العلم وكان عصره يعج بالفقهاء قرر دفع (فدك) إلى ولد فاطمة:

ولما كانت سنة عشر ومائتين أمر أمير المؤمنين المأمون عبد الله بن هارون الرشيد فدفعها إلى ولد فاطمة وكتب بذلك إلى قثم (ق ث م) بن جعفر عامله على المدينة: أما بعد فإن أمير المؤمنين... وقد كان رسول الله (ص) أعطى فاطمة بنت رسول الله (ص) فدك وتصدق بها عليها وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله (ص)... فرأى أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها ويسلمها إليهم تقرباً إلى الله تعالى بإقامة حقه وعدله وإلى رسول الله (ص) بتنفيذ أمره وصدقته (٢٠٩) فكلمات المأمون بن الرشيد

(٢٠٨) في **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي **حجن** به: ضن به.
(٢٠٩) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ص ٣٨، مصدر سابق.

العباسي واضحة لا لبس فيها:

١ ــ محمد أعطى فدك لابنته فاطمة وتصدق عليها.

٢ ــ كان ذلك أمراً ظاهراً ومعروفاً.

٣ ــ لا اختلاف فيه بين آل محمد.

٤ ــ أنه يردها إلى ورثة فاطمة تقرباً إلى الله بإقامة حقه وعدله أي أن حرمان فاطمة منه كان باطلاً وظلماً.

٥ ــ أن الرد تقرب إلى محمد لأنه تنفيذ لأمره وصدقته ــ والمفهوم ــ مفهوم المخالفة أن نزع يد فاطمة عن (فدك) كان مخالفة لأمر محمد ــ وإذا كان المأمون قد جهل حديث الآحاد الذي رفعه أبو بكر ليسوّغ حبس حق فاطمة عنها فكيف يقبل العقل أن يجهله الفقهاء الأكابر الذين كانوا في عصره ولا يقولون له: على رسلك يا أمير المؤمنين ــ كيف تورّث ذرية فاطمة فدك وهناك حديث صحيح!!! يمنع ذلك وأن أبا بكر محق في حرمانه فاطمة منها؟

نذكر من أولئك الفقهاء والمحدّثين ــ أحمد بن حنبل والطيالسيين أبا داوود وأبا الوليد/ هشام بن عبد الملك وأبا حبيب الباهلي، ويحيى القطّان، وعبد الرحمان بن مهدي واسماعيل بن عُليّة وغيرهم ــ بل إن فيهم من يعتبر من جهابذة الحديث وصيارفته ولم تنقص بعضم الشجاعة ليقف في وجه الخليفة إذا رأى أنه ركب شططاً في الدين ــ فقد تصدى ابن جنبل لهم في مسألة خلق القرآن وتعرض لمحنة قاسية.

* * *

إذن الخبر اليقين أن معاوية قدم (فدك) لابن الحكم منحة خالصة

مع أنها إرث لفاطمة وذريتها من بعدها ـ وقد فعل ذلك حتى يشد أزر نفسه بهؤلاء الأنصار الذين لا سبيل لضمان ولائهم إلاّ بالعطاء الوفير.

٣ ـ كان زياد بن أبيه من أخاص شيعة علي وقد أظهر كفاءة نادرة في إدارة الإقليم الذي ولاّه عليه ولفت ذلك نظرة معاوية الداهية فما زال به بالترغيب والترهيب حتى ضمه إلى صفوفه حتى وصل الأمر بزياد إلى أنه كان يجمع الناس بالكوفة بباب قصره ويحرضهم على لعن عليّ فمن أبى ذلك عرضه على السيف[٢١٠] وكان زياد من جبابرة التاريخ الإسلامي ولذا لما اتصلت ولايته بأهل المدينة اجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله (ص) وصخبوا إلى الله ولاذوا بقبر الرسول ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف[٢١١].

ومن الطرق التي استماله بها معاوية أنه نسبه إلى أبيه أبي سفيان وأحضر خماراً ديوثاً شهد بأنه أحضر سمية لأبي سفيان في خمارته وأرخى الستر عليهما فوقع عليها فولدت زياداً.[٢١٢].

وهكذا لا يتورع معاوية في سبيل الاحتفاظ بملكه وتقويته أن يفعل أي شيء ولو إظهار أبيه وبمظهر الزاني السكّير الذي لا يتورع عن الوقوع على أقذر الجواري فقد وصف أبو مريم الخمار سميّة أم زياد بأنها ذات (ذَفَرَ وقَذَر).

والذي يهمنا في المجال الذي نبحثه أن معاوية كما أطعم عمرو بن العاص مصر وأهلها ومروان بن الحكم (فدك) (المملوكة ميراثاً

(٢١٠) **مروج الذهب**، للمسعودي، ج ٢، ص ٢٠.
(٢١١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٢١٢) المصدر نفسه، ص ٦.

لفاطمة بنت محمد) أطعم ابن سمية الذَفِرة القَذرة زياداً الطاغية (العراقين) (والحجاز) (ثم جمع لزياد الحجاز مع العراقين)[٢١٣]. و(العراقان) هما البصرة والكوفة.

وكان من البديهي أن يتحول (العراقان) والحجاز إلى ضيعة أو عزبة[٢١٤] لزياد بن سمية فيُقطع منها ما يشاء إلى من يشاء (وقال القحذمي: نهر البنات بنات زياد، أقطع كل بنت ستين جريباً)[٢١٥]. والجريب يصل إلى عشرة آلاف ذراع[٢١٦] أي أن كل بنت ستمائة ألف ذراع ــ والله أعلم بعددهن ــ ولم يكتف ولد الزنا بذلك فقد كان يوزع الإقطاعات يميناً وشمالاً (المسمارية قطيعة مسمار مولى زياد وله بالكوفة شيعة)[٢١٧].

وأعجب لدورة التاريخ: يتحكم ابن الزانية الذَفِرة القَذِرة في بلاد شهدت حضارة من أعرق الحضارات التي عرفها التاريخ!

ويقوم بالتصرف فيها كأنها ميراثه من تلك البغّى ذات الفم الأبخر والإبطين النتنين كما وصفها الديوث أبو مريم!

وحتى الآن ما زلنا نقرأ أن أولئك الأعراب جاؤوا من باديتهم لتحرير وتمدين شعوب البلاد التي وطؤوها بسنابك خيولهم المباركة مع أن تلك الشعوب كانت ذات حضارة لم يصلوا إليها حتى الآن! وحتى يغطي ابن سمية على نسبه الوضيع أخذ يتشبه بملوك الفرس ذوي الثقافة الرفيعة والحضارة الباذخة التي داسوا عليها

---

(٢١٣) المصدر السابق ص ٢٠.
(٢١٤) سبق لنا شرحهما.
(٢١٥) **فتوح البلدان**، للبلاذري ص ٤٤٧، مصدر سابق.
(٢١٦) **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، للشيخ الشرباصي، حرف الجيم، مصدر سابق.
(٢١٧) **الفتوح البلدان**، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

بأرجلهم وسووا مبانيها بسطح الأرض وخربوا قصورها وأخذوا ما فيها من تحف لم يكونوا يعرفون قيمتها فمزقوها وحطموها.

حدثني المدائني عن مسلمة بن محارب قال:

كان زياد بن أبي سفيان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالاً لما كانت الفرس تفعله(٢١٨).

هذا الخبر صريح النص والدلالة معاً على أن أولئك العرب حتى الثلث الأخير من القرن الهجري الأول لم يكونوا يعرفون تلك الأمور التي تعتبر من الأوليات في حين أن البلاد التي قهروها بسيوفهم عرفتها وطبقتها منذ ألوف السنين!

* * *

ونكتفي بهؤلاء الثلاثة: عمرو وابن الحكم وابن سمية كأمثلة على حِباء معاوية لولاته وعماله الأموال بضروبها كافة بغير حساب حتى يضمن ولاءهم ويستبقي إخلاصهم دون التفات إلى ما إذا كانت تلك المنائح تأتلف مع (النصوص) أم تختلف.

* * *

بعد هذا ننتقل إلى مجال آخر استعمل فيه معاوية المال لتحويل خصومه وشانئيه إلى أنصار وأعوان أو على الأقل سل السخيمة من صدورهم وتحييدهم وتجلّى ذلك في صراعه مع عليّ ويُرجع كثير من المحللين تخاذل عدد وفير من جنود عليّ والانشقاقات التي حدثت في صفوف جيشه إلى منائح معاوية الجزيلة بل إن هناك من يؤكد وجود طابور خامس في كل من البصرة والكوفة (العراقَين) كان يعمل لحساب معاوية الذي كان يرفده بسخاء ولسنا بصدد

(٢١٨) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ص ٥٦٩، مصدر سابق.

كتابة تاريخ كما أكدنا مراراً عديدة ولكننا بصدد بحث (مواقف الصحابة من المال) وكيف أن المال أدار رؤوسهم مانحين وممنوحين باستثناء عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليدين ــ وكيف أنه (المال) جعلهم يُعرضون عن (النصوص) ولا يأبهون بها سواء في النفح أو التلقي بل إن بعضهم صرح بذلك علانية وألحّ على معاوية أن يشتري منه دينه مقابل (عرض من الدنيا) كما فعل مع غيره من الصحابة!

هذه الوقائع التي سردناها تجعلنا محقين في أن نسأل سؤالاً ربما لم يُطرح من قبل:

هل كانت صحبة أولئك (الغالبية العظمى) لمحمد كانت تحمل أدنى قدر من التوهج والإخلاص وهل كانت من أجل الديانة والعقيدة أم كانت من أجل الدولة التي بدأت ملامحها تظهر وأنهم كانوا على درجة عالية من استشراف المستقبل؟

أي هل كانت الاعتبارات العملية والدوافع النفعية والبواعث المصلحية هي العلة في الإنخراط في جيش محمد؟

نحن لا نريد أن نفرض وجهة نظرنا في الرد على هذه الأسئلة على القارئ ونترك له ــ وخاصة بعد مطالعة الوقائع القوادم ــ حرية الإجابة ونبدأ بـ:

١ ــ عقيل بن أبي طالب

أخ شقيق لعليّ أمهما (فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وهي من المهاجرات المبايعات أم جميع ولد أبي طالب)[٢١٩] وكان أعلم قريش بالنسب وبأيامها ولكنه كان مبغضاً إليهم لأنه كان يعد

(٢١٩) **جمهرة أنساب العرب** لأبي محمد بن حزم الأندلسي، ص ١٤، مصدر سابق.

مساويهم[٢٢٠] وأجمعت المصادر على أنه كان يتمتع بملكات عقلية عالية فقد كان سريع الجواب المسكت للخصم سريع البديهة وأحضر الناس مراجعة في القول وأبلغهم في ذلك ــ ولكنه في مجال الأخلاقيات لم يكن على هذا المستوى فقد كان يجبه الناس بمثالبهم ومعايبهم حتى قبيلة قريش لم تنجُ من ذلك. روي أنه وفد على معاوية وكان الضحاك بن قيش من أخلص رجاله حتى إنه كان يجلسه معه على السرير (ثم أذن لعقيل فدخل عليه فقال: يا معاوية من هذا الذي معك؟ قال: الضحاك بن قيس فقال: الحمد لله الذي رفع الخسيسة وتم النقيصة هذا الذي كان يخصي بَهْمنا (البَهْم بفتح فسكون، واحدها: بهيمة وهي أولاد الضان والمعز والبقر) بالأبطح لقد كان بخصائها رقيقاً فقال الضحاك: إني عالم بمحاسن قريش وإن عقيلاً عالم بمساويها)[٢٢١] من أجل هذه المصادفات اللامبررة كان عقيل مكروهاً في قومه ورماه بعضهم بالحمق.

ولكن السقطة الأخلاقية الكبيرة في حياته هي مفارقته لأخيه الشقيق أبي الحسنين ومسيره إلى معاوية بالشام من أجل المال ذلك أن ديناً لزمه فقدم على عليّ بالكوفة وطلب منه قضاءه ولكنّ علياً اعتذر وطلب منه الانتظار حتى يأتيه عطاؤه (كواحد من المسلمين) فسأله كم يبلغ؟ فأجابه أربعة آلاف وكان الدين أربعين ألفا درهم فطلب عقيل أن يدفعه له من بيت المال فاستفظع أبو الحسن ذلك فقال له: أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتمنوني عليها؟ فتركه وقدم على معاوية الذي وجدها فرصة سانحة ليضم شقيق عدوه

---

(٢٢٠) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري، المجلد، ١ ص ٦٤، مصدر سابق. **والاستيعاب** لابن عبد البر، المجلد ٣.

(٢٢١) **أسد الغابةِ**، المجلد الرابع، ص ٦٥، مصدر سابق.

الألد إلى صفه وليضمن سكوته وليتقي شر لسانه الذرب الحديد.

وأمر له معاوية بخمسين ألف درهم فأخذها ورجع[٢٢٢]. والداهية معاوية لم يدفع لعقيل الخمسين ألف درهم من ماله الخاص بل من مال الله والمسلمين كما أنه لم يدفعها إليه من أجل سواد عينيه ولكن ليستعمله بوقاً له وليظهر للبعيد والقريب أنه أبر بقريش قبيلته من عدوه عليّ (وفد على معاوية عقيل ابن أبي طالب منتجعاً وزائراً فرحب به معاوية وسُر بوروده لاختياره إياه على أخيه وأوسعه حلماً واحتمالاً فقال له كيف تركت علياً يا أبا يزيد (كنية عقيل)؟

قال تركته على ما يحب الله ورسوله وأتيتك على ما يكره الله ورسوله فقال له معاوية: لولا أنك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك أبا يزيد جواباً تألم منه ــ ثم أحب معاوية أن يقطع كلامه مخالفة أن يأتي بشيء يخفضه فوثب عن مجلسه وأمر له بنزل وحمل إليه مالاً عظيماً فلما كان من غد جلس وأرسل إليه فأتاه فقال له: يا أبا يزيد كيف تركت علياً أخاك؟ قال: تركته خيراً لنفسه منك، وأنت خير لي منه[٢٢٣]. وقد أضاف ابن عبد البر زيادةً ذات مغزى عميق وهي (وأنت خير لي في دنياي وقد أثرت دنياي والله تعالى اسأل خاتمة الخير)[٢٢٤].

وقد استفزت هذه الفعلة معسكر عليّ وكان لها فيه دويٌّ شديدٌ ودعت أحد شيعة عليّ المخلصين وهو صعصعة بن صوحان العبدي إلى أن يكتب لعقيل:

---

(٢٢٢) المصدر نفسه والمجلد والصفحة نفسيهما.

(٢٢٣) **مروج الذهب**، للمسعودي، ج ٢، ص ٢٨، مصدر سابق، **وأسد الغابةِ**، المجلد الرابع ص ٦٤، **الاستيعاب**، المجلد الثالث، ص ١٠٧٩.

(٢٢٤) المصدر نفسه.

(ولئن نزعت به نفسك إلى معاوية طلباً لماله إنك لذو علم بجميع خصاله)[٢٢٥]. وخصال معاوية معروفة ومشهورة لا تحتاج إلى واحد في رتبة عقيل دراية بأحوال عرب الحجاز عامة وقريش خاصة ليعلمها.

٢ ــ ٣ الحتات بن يزيد وجارية بن قدامة والأحنف بن قيس

إذا كان عقيل بن أبي طالب اعترف صراحة أنه عندما انحاز إلى معاوية آثر دنياه على دينه فإن صحابياً آخر يخبرنا أن معاوية اشترى دين كل من جارية بن قدامة والأحنف بن قيس ثم طلب منه صراحة أن يشتري منه دينه ــ الحتات هذا صحابي وفد على محمدٍ مع وفد تميم وفيه أعيان تميم عطارد بن حاجب والأقرع بن حابس وغيرهما فأسلموا وآخى بينه وبين معاوية[٢٢٦].

أما جارية بن قدامة التميمي السعدي فهو من الصحابة الذين نزلوا البصرة روى عنه أهل المدينة وأهل البصرة و(كان من أصحاب عليّ في حروبه وهو الذي حاصر عبد الله الحضرمي في دار شبيل ثم حاصر عليه وكان معاوية بعث ابن الحضرمي ليأخذ البصرة)[٢٢٧] والأحنف بن قيس رغم أنه لم ير محمداً لكنه معدود في الصحابة لأنه أسلم على عهده ودعا إلى حين وفد عليه وفد قبيلته عندما ذكروه له وكان من العقلاء وذوي الذكاء والدهو (الدهاء)[٢٢٨] وقد خذّل عن عائشة والزبير وطلحة وكان ذلك التخذيل بداهة في صالح عليّ.

---

(٢٢٥) **مروج الذهب** للمسعودي، ج ٢، ص ٢٩، مصدر سابق.
(٢٢٦) **أسد الغابةِ** لابن الأثير الجزري، المجلد الأول، ص ٤٥٤، مصدر سابق.
(٢٢٧) **الاستيعاب**، المجلد ١، ص ٢٢٧، **أسد الغابةِ**، المجلد الأول، ص ٣١٤.
(٢٢٨) **الاستيعاب**، المجلد الثاني، ص ٧١٦.

بعد هذه الفرشة اللازمة لكي يدرك القارئ مضمون الخبر ومغزاه نورده كما رواه ابن عبد البر في (الاستيعاب) عن أيوب قال: غزا الحتات المجاشعي وجارية بن قدامة والأحنف فرجع الحتات لمعاوية وقال: فضلت على محرّقا (جارية) ومخذّلا (الأحنف) قال: اشتريت منهما دينهما قال: فاشتر مني ديني، قال نصر: يعني بالمحرّق جارية بن قدامة لأنه كان أحرق دار الإمارة بالبصرة، وبالمخذّل: الأحنف لأنه كان خذّل عن عائشة والزبير وطلحة يوم الجمل[٢٢٩]. هذا الخبر أبطاله أربعة كلهم من الصحابة وهو من الأخبار الناطقة بذاتها على موقف الصحاب من المال وكيف أنهم لم يصمدوا حياله وتركوا (النصوص) وراءهم ظهرياً حتى مبادئ الأخلاق الأولية مثل الوفاء.

فجارية والأحنف أغراهما المال فتحولا من صف عليّ إلى صف معاوية والحتات يرى أن جُعلهما قد فاق جُعله ومكافأتهما فلجت مكافأته فيحتج لدى معاوية الذي يرد عليه بصراحة: إنه دفع ذلك المال لهما لقاء دينهما الذي باعاه لي مقابل عرض من الدنيا ـــ وبدلاً من أن يتعوذ الصحابي الحتات المجاشعي من ذلك إذا به يعرض دينه على معاوية ليبتاعه منه لقاء حفنة من الدراهم أو الدنانير، ولكن المحرّك الأصلي لكل هذه البشاعات هو معاوية الذي في سبيل احتفاظه بـ (سريره) سرير المُلك لا يجد غضاضة في إفساد الصحبة وتخريب ضمائرهم وشراء ذممهم ولا يملك المرء عندما يطالع هذه الصورة وأمثالها من أن يقرر أن التاريخ لم ير لها مثيلاً وأن محمداً كم كان صادقاً عندما أخبرهم أن منهم من سوف يغيّر ويبدّل حتى إذا رآه في الدار الآخرة تبرأ منه وقال له: سُحقاً!

---

(٢٢٩) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، المجلد ١، ص ٤١٣، مصدر سابق.

٤ ــ عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب

رابعهم هذا يصيب المرء بالحيرة والدهش معاً[٢٣٠] لأن كل الدلائل كانت تشير أنه من المستحيل أن يبيع دينه ولو مقابل مليار دينار ولا أن يتحوّل من أخلص الأعوان إلى أشدهم خيانة وفي أشد الأوقات حروجة وأكثرها دقة في ميدان الحرب ولا يكتفي بنفسه بل يجرّ وراءه الآلاف يحولهم إلى معسكر العدو ليصيروا جنوداً تحت راية من كانوا يحاربونه أمس وأنصاراً لمن كانوا يقاتلونه البارحة.

إحدى الصور الفريدة التي لا تجدها إلا في سيّر هؤلاء الصحاب الذين لم يمنعهم أي وازع من ضمير من الإنفلات من وصايا محمد وتعليمه إياهم هو عبيد الله بن عباس، كان أصغر سناً من عبد الله وقد رأى النبي (ص)[٢٣١]. ولذلك فهو يعد من الصحابة وبذهب صاحب (الأسد) وصاحب (الاستيعاب) إلى أنه سمع أحاديث من محمد وحفظ عنه[٢٣٢] فهو قرشي هاشمي ابن عم لمحمد وابن عم عليّ بن أبي طالب ومن ثم كان من الطبيعي أن ينضم إليه وكان من البديهي أن يضع فيه ثقته ومن ثم فقد استعمله على اليمن[٢٣٣] وجعله أميراً على موسم الحج في السنوات ٣٦ و٣٧ و٣٨هـ ولو أنه في الأخيرة حدثت بينه وبين أمير معاوية على الحج مخاشنة.

وسبق أن قلنا إن الصحابي بُسر بن أرطأة ذاك الذي فعل

---

(٢٣٠) الفرق بينهما أن **الحيرة** تكون خافية **والدهش** على ظهور، انظر تفصيل ذلك في **كتاب الفروق** لأبي هلال العسكري، ص ٢٦٨، مصدر سابق.
(٢٣١) كتاب **نسب قريش** للمصعب الزبيري، ص ٢٧، مصدر سابق.
(٢٣٢) **أسد الغابةِ**، المجلد ٣ ص ٥٢٤، **والاستيعاب**، المجلد ٣ ص ١٠٠٩.
(٢٣٣) **الاستيعاب**، المجلد نفسه والصفحة نفسها.

الأفاعيل ذبح ولديّ عبيد الله وهما في حجر أمهما لأن عبيد الله هرب وتركهما ولكن أبا الحسنين وكان كبير القلب سامحه وغفر له جبنه وفراره وستر عاره بل وأخذ له بثأره إذ أرسل من أدّب ابن أرطأة السفاح.

وبعد أن قتل عبد الرحمان بن ملجم عليه لعنة الله والناس أجمعين علياً وآلت قيادة الشيعة إلى ابنه الأكبر الحسن استمر عبيد الله بن العباس على ولائه ولكن الداهية ابن أبي سفيان أدرك مغزى انشقاق أخيه الأكبر عبد الله عن علي وأخذ أموال بيت المال معه بل قيل إنه كنسه ورشّه وهذا ما سنذكره بعد قليل وأدرك أن بني العباس بن عبد المطلب ـــ لديهم شهوة إلى المال وميل إلى احتيازه وتوقان إلى جمعه ـــ فوضع عينه على عبيد الله لأن من شابه أخاه فما ظلم أو بمعنى آخر فإن الأخ لا بد أن يكون مثيلاً ونظيراً لأخيه وظل يتحين الفرصة الملائمة حتى يوقع عبيد الله في حبائله عن طريق المال.

كان عبيد الله من شدة إخلاصه لقضية ابن عمه علي ـــ بعد مقتله ـــ من رأيه ألا يهادن ابنه الحسن معاوية وأن يستمر في عراكه معه وأنه بذلك يكمّل رسالة أبيه بل إنه أبدى استعداده لأن يكون قائداً لجيوشه (فيلد مارشال) وكان من البديهي أن يُسر خاطر الحسن بذلك (ووجه بعبيد الله بن العباس في اثني عشر ألفاً لقتال معاوية ومعه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وأمر عبيد الله أن يعمل بأمر قيس بن سعد ورأيه فسار إلى ناحية الجزيرة... والتقى العسكران فوجه معاوية إلى قيس بن سعد يبذل له ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف فأرسل إليه بالمال وقال له: تخدعني عن ديني! فيقال: إنه أرسل إلى عبيد الله بن عباس وجعل له ألف ألف درهم فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه وأقام قيس على

محاربته[٢٣٤] عندما تطالع هذا الخبر بم تصف هذا الصحابي الهاشمي القرشي ابن عم محمد؟

صورة بشعة مستبشعة تدير الرأس من الحيرة والاضطراب والاندهاش...

وأي وصف ينطبق على هذا العبيد: النذالة أم الخيانة أم الجبن أم الفسولة أو موت الضمير؟ أم هي كلها مجتمعة: رجل يتحمّس لقضية ابن عمه فيأتمنه على جيشه ويوليه قيادته فيتصل به عدوه فيشتريه ولا يكتفي بأن ينضم إليه هو بمفرده بل أخذ معه ثلثي الجيش وينقلب محارباً لابن عمه وساعياً لقتله.

هل رأى القارئ صورة تقارب ــ ولا نقول تماثل ــ هذه الصورة؟ ومن الطبيعي أن يتجاهل المؤرخون المحدثون هذه الواقعة وأمثالها وما لا يتفق مع الصورة التبجيلية التي يتعين أن ترسم لهؤلاء الصحاب! وهم يبررون هذا التجاوز بتسويغات متنوعة:

مرة أن الواقعة لم ترد في مصدر آخر وأخرى أنها جاءت بصيغة (التمريض)[٢٣٥] أو أنها لم ترد في مصدر آخر، أو أن مؤلف الكتاب الذي حمل الخبر: رافضي أو معتزلي الخ... بيد أنه لو كان الخبر يهرول في طريق التفخيم، تراهم يلتفون عن هذه التعلات، ويتلقفونه بسرور وغبطة ويبروزنه في أظهر مكان.

ونعود إلى سياق الحديث:

عبيد الله بعد أن خان الحسن وانحاز إلى معاوية وساق معه ثلثي جيش الحسن وقبض المليون درهم استيقظ ضميره ــ بعد فوات

(٢٣٤) **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الثاني، ص ٢١٤.
(٢٣٥) في **المعجم الوسيط**، لمجمع اللغة العربية، **ريح مريضة:** ضعيفة الهروب، **وشمس مريضة:** غير منجلية أو صافية.

الأوان ــ وأدرك مدى الخيانة التي ارتكبها في حق الدين والأخلاق والأروم فأخذ يسخو بهذا المال علّ ضميره يكف عن الوخز والتبكيت[٢٣٦] وكان سخياً وجواداً[٢٣٧]. ولفت نظر أخيه عبد الله فنهاه (وكان ينحر كل يوم جزوراً فنهاه أخوه عبد الله فلم ينته ونحر كل يوم جزورين)[٢٣٨] إذ يبدو أن نقر ضميره له قد تضاعف.

ورُوي أن عبد الله بن صفوان بن أمية مر يوماً بدار عبد الله بن عباس بمكة فرأى جماعة من طالبي الفقه ومر بدار عبيد الله بن عباس فرأى جماعة يتتابونها للطعام[٢٣٩] وفي إحدى المرات ــ في بعض الطريق ــ استضافه إعرابي وذبح له سخل عجفاء هي كل ما لديه فأعطه خمسمائة دينار فبلغ ذلك معاوية فقال: (لله در عبيد الله من أي بيضة خرج ومن أي عش درج)[٢٤٠] مع أن المسألة لا تحتاج إلى إعجاب أو تعجب فهذا الصحابي (عبيد الله) وقد حاز مليون درهم ببيع ذمته وضميره ليس من المستغرب أن يبعثر عرق (العلوج) في أرض السواد يميناً وشمالاً! ولقد ذكّرني سفه عبيد الله الذي تسميه المصادر كرماً وسخاءً وجوداً بالمثل القائل (ليتها لم تزن ولم تتصدق) فليته لم يخُن تلك الخيانة الفظيعة ثم يسخو ويجود.

* * *

وإذا كان عبيد الله بن العباس قد فعل ذلك فإن أخاه عبد الله

---

(٢٣٦) إليه تنسب نشأة علم النحو.
(٢٣٧) المصدر نفسه، سبق شرحها.
(٢٣٨) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء الثاني، ص ٢٠٥.
(٢٣٩) **تاريخ الطبري**، الجزء الخامس، ص ١٤٢، مصدر سابق.
(٢٤٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

وكان أفقه منه ويعد من علماء الصحابة سبقه وأقدم على فعلة لا تبرير لها ولا مسوغ وتعد بكل المقاييس منافية ومضادة لـ (النصوص) التي كان عبد الله أحد أكابر سدنتها. فقد عينه عليّ عاملاً (والياً/ محافظاً) على البصرة ولأمر ما (شخص عن عمله بالبصرة واستخلف زياداً ــ الذي كان يقال له: زياد بن أبيه ــ على الخراج وأبا الأسود الدؤلي على القضاء)[٢٤١] وكان أبو الأسود الدؤلي من رجال عليّ الأوفياء[٢٤٢] وكان من الذين لا يخافون في الحق لومه لائم فاكتشف أن عبد الله هبش[٢٤٣] من بيت مال الله والمسلمين عشرة آلاف درهم فكتب إلى أبي الحسنين/ يعلمه ذلك وكان ينظر إلى مثل هذه الأمور نظرته إلى الكبائر ــ فسارع بالكتابة إلى ابن عباس يأمره برد المبلغ فرده أو ردَّ أكثره[٢٤٤] وكانت تلك الواقعة هي القشة التي قصمت ظهر البعير فأعلن ابن عباس جفاءه لعليّ ومفارقته إياه وكتب إلى عليّ:

أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزأه ما بلغك أني رزأته من مال أهل هذا البلد فابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعن[٢٤٥] ولكنه لم يظعن منفرداً وإنما حمل معه ما وجده في بيت المال (وقال أبو زيد كانت أرزاقاً قد اجتمعت فحمل معه مقدار ما اجتمع له[٢٤٦] وقد دعا أخواله بني هلال بن عامر ثم اجتمعت معه قيس

(٢٤١) في **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.
(٢٤٢) كتاب **نسب قريش** للمصعب الزبيري، ص ٢٧، مصدر سابق.
(٢٤٣) **أسد الغابةِ**، المجلد الثالث، ص ٥٢٤، مصدر سابق.
(٢٤٤) **الاستيعاب**، المجلد ٣، ص ٩٣٧.
(٢٤٥) المصدر نفسه والمجلد والصفحة نفسيهما.
(٢٤٦) **تاريخ الطبري/ تاريخ الأمم والملوك** لأبي جعفر الطبري (٢٢٤/ ٣١٠هـ) الجزء الخامس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة ١٩٦٣، دار المعارف.

كلها ثم بُعثت الأخماس فلحقوهم بـ (الطف)[٢٤٧] فقالت قيس والله لا يوصل إلى المال وفينا عين تطرف وكان في الأخماس نفر من الأزد فكرهوا قتال إخوانهم من قيس ولكن بنو تميم أبوا ورأسوا عليهم ابن المجاعة فقاتلوهم ولكن لم يبلغوا منهم شيئاً فانصرفوا (ومضى ابن عباس ومعه نحو عشرين رجلاً حتى قدم مكة)[٢٤٨].

وفي رحاله ما احتازه من المال ــ وبقية القصة أنه بعد ذلك رحل إلى الطائف مصيف المرفهين المنعمين من كبار أثرياء مكة وابتنى فيها داراً تليق بمقامه واشترى جاريتين وضيئتين ليمتع بهما نفسه.

ولا زالت فرق التبجيل تسمي عبد الله بن العباس (حبر الأمة) ولو أن الأمة اقتدت بحبرها الجليل أو بجليلها الحبر لما بقي في خزائن المال العام على طول دول العالم الإسلامي وعرضها دانق[٢٤٩].

* * *

كان معاوية يعلم علم اليقين أنه عندما تولى الخلافة رغمت أنوف كبيرة، وسخط فرقاء عديدون، وغضب أناس كثيرون، واستشاطت جماعات لها وزنها وتغيظ أفراد لهم ثقلهم وعاداه رجال لهم مكانتهم وملأ الشنآن قلوب نفر من ذوي الرتبة والوجاهة ونأوأه أقرباء وبعداء، وكاشحه (أضمر له العداوة) صدور القوم من المهاجرين و(على رأسهم الهواشم) ومن الأنصار بل إنه لم

(٢٤٧) **الطف** ضاحية الكوفة وفيها كان مقتل الحسين بن علي على يد يزيد بن معاوية أو يزيد القرود ويزيد الطنابير الخمّير السكير العربيد، الذي فرضه معاوية على أمة لا إله إلاّ الله ليكون خليفة بعده!!!

(٢٤٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢٤٩) في **المعجم الاقتصادي الإسلامي** للشيخ الشرباصي، **الدانق** سدس الدرهم. ا. هـ. ويُضرب به المثل في القلة.

يعدم من بني أمية (رهطه الأدنين) من حَردَ عنه[٢٥٠].

والأسباب لذلك ظاهرة، بادية، غير خافية ولا مستوردة ولا مكنونة ولا محجوبة ومن ثم فلا نرى موجباً للكشف عنها أو الجهر بها أو إفشائها أو تبيينها الخ... والقارئ لا يحتاج إلى قدرٍ من الفطنة أو شطرٍ من الذكاء أو جزء من الحجا ليدركها أو يقف على علمها...

ومن ثم استعمل معاوية مال الله والمسلمين في إزالة السخائم ورفع الأحقاد وإبعاد الضغائن عنه وفي استمالة العدو وتقريب الخصم وطيّ المعارض والمال على طول التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه وفي الشرق والغرب والشمال والجنوب وفي الوسط والأطراف أداة جبّارة وآلة حاسمة في تحقيق الأهداف ونيل الأغراض والوصول إلى المطالب وتيمم القصود (ج. قصد).

١ ــ وكان معاوية أقطع الحسن بن عليّ (عين صيد) أو (عين الصيد) هذه عوضاً من الخلافة وغيرها[٢٥١].

و(عين صيد) بالبطائح بين واسط والعراق وخفان السودة وخفان قرب الكوفة فوق القادسية[٢٥٢] وعلى كثرة ما قرأت في (الفتنة الكبرى) وما أعقبها وعن (عام الجماعة) فلم أقرأ ــ وخاصة من المؤرخين المحدثين وكلهم إن لم تكن غالبيتهم من طائفة المبجّلين والمعظّمين والمفخِّمين من ذكر منهم أن الحسن بن عليّ تنازل عن الخلافة مقابل بعض الإقطاعات التي نفحها إياه ابن هند ــ بل إنهم

(٢٥٠) **الحرْد** بسكون الراء هو أن يغضب الإنسان فيبعد عمن غضب عليه، من **كتاب الفروق** لأبي هلال العسكري، ص ١٤٢، مصدر سابق.
(٢٥١) **فتوح البلدان**، للبلاذري، ص ٣٦٦، مصدر سابق.
(٢٥٢) **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، نقلاً.

وكما قلنا قبل ذلك يجنحون إلى تفسير التاريخ تفسيراً غيبياً ماورائياً ومن ثم فإنهم يرجعون الصلح الذي تم بين الحسن وابن أبي سفيان إلى أنه تحقيق لنبوءة من نبوءات محمد تتمثل في حديث نسبوه إليه ووضعوه على لسانه (إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين من المسلمين) ويسقطون كل الأسباب المادية والإكراهات الواقعية (من الواقع) التي دفعت الحسن لمد يده إلى ابن هند والتوافق معه وإلى العوض الذي قدمه مقابل نزوله عن الإمامة العظمى يضاف إليها ما قيل عن شخصية الحسن من ميل إلى المسالمة وإيثار السلام وحب العافية بعكس شقيقه الأصغر الحسين الذين كان يجنح إلى المصادمة والمشادة والمجادلة الخ... مع خصوم أبيه وأعدائه وأعداء شيعته.

٢ ـــ... معاوية بعث إلى عائشة قلادة قوّمت بمائة ألف فقبلتها وقسمتها في أمهات المؤمنين[٢٥٣] في هذا الخبر يتمثل دهو معاوية وسعة أفقه وأكثر من هذا أنه أثبت أنه يستذكر التاريخ[٢٥٤] ويحفظه جيداً: فعائشة هي أهم واحدة من بين زوجات محمد وأقواهن شخصية وأفصحهن لساناً وبيت محمد هو أصل الأصول ومعدن الرئاسة الروحية ومهوى أفئدة الذين تابعوه على دينه، وعائشة هي التي حرّكت الثورة ضد عثمان لأنه أنقصها عطاءها وكانت تقول لسواد المسلمين اقتلوا نعثلاً (وهو يهودي كان يشبه عثمان) وتدلي لهم من حجرتها بقميص محمد وتصيح بأعلى صوتها: إن عثمان أبلى سنة رسولكم وهذا قميصه لم يبلَ بعد ـــ ثم في أرجح الأقوال ـــ هي التي حرضت الزبير (زوج أختها أسماء

(٢٥٣) **أنساب الأشراف**، للبلاذري، الجزء ١، ص ٤١٩.
(٢٥٤) في مصر تقول العامة: مذاكر كويس.

بنت أبي بكر) وطلحة (وهو من تيم رهط أبيها) على الخروج على عليّ وكان هودجها رمزاً مقدساً في معركة (الجمل) سالت من حوله دماء عشرات المئات من الصحابة والتابعين. وكانت المعارضة المسلحة التي قادتها عائشة بالاشتراك مع الزبير وطلحة أول ثلمة في خلافة أبي الحسنين وهي التي شجعت ابن هند وحفزته لمحاربة عليّ وهي (معارضة عائشة وتداعياتها وأبرزها واقعة الجمل) التي أنهكت جيش عليّ وفيها نبتت بذور الشقاق بين شيعته الذين تحول بعضهم فيما بعد إلى ألد أعدائه (الخوارج) وفي تقديرنا أنه لو لم تحدث معارضة عائشة والزبير وطلحة ومعركة الجمل لكان في ميسور عليّ القضاء على معاوية ومن معه من الشوام بسهولة (هذا إذا كان ابن هند قد فكر في الخروج فقد سبق أن قلنا إن معارضة الثالوث: عائشة/ الزبير/ طلحة هي التي شجعته. ا. هـ).

نرجع إلى السياق:

حفظ ابن هند الدرس ووعاه وعلم أن عائشة أطاحت أو على أقل تقدير تسببت مبادرتها المعارضة أو معارضتها المبكرة في الإطاحة بخليفتين لا يقاس هو بهما فقد كانا من ألصق الصحاب بمحمد وأحبهم إليه وأصهرا إليه فقامتهما الدينية والتاريخية من المستحيل عليه أن يصل إلى سفحها ــ وكانت حركتها في الأصل ضد ابن عفان مردها إقدامه على إنقاص عطائها الذي كان ينفحها إياه ابن الخطاب الذي كان يمتص غضب قريش وبني هاشم بالمنائح الجزيلة أما عثمان فقد كان من بني أمية الأروم المكافئ للهواشم ومن ثم فلم يكن بحاجة إلى تدعيم مركزه بالعطايا فخفّض مخصص عائشة فحركت عجلة الخروج عليه.

لهذا بادر ابن أبي سفيان إلى استرضاء عائشة حتى لا يتكرر

معه ما حدث مع عثمان ثم مع عليّ ومركزه ــ وهو أول من يعلم ذلك ــ أكثر هشاشة واهتزازاً والساخطون والشائنون والكارهون والكاشحون... عليه أضعاف أضعاف من كان يسخط على عثمان وعليّ ــ فأرسل إليها بقلادة قيمتها مائة ألف (درهم أو دينار) وقبلتها ولكنها لم تستأثر بها بل قسمتها بين زوجات محمد.

ولنقارن بين رفض عليّ سداد دين أخيه عقيل وقدره أربعون ألف درهم ــ وبين إهداء معاوية لعائشة قلادة قيمتها مائة ألف (درهم أو دينار) لندرك الفرق بين (الخليفة) و(الملك) وكذلك لكي نعي أن سبب إخفاق أبي الحسن في إعادة الخلافة إلى أن الزمن أصبح زمن (الملوك).

وحتى نعرف أثر الغنائم والأموال الأسطورية التي نُزحت من البلاد المقهورة وكُسحت من المدن والقرى الموطوءة والتي هي في الأساس حصيلة عرق الفلاحين والشغيلة في تلك الدول نقارن بين قول عائشة إنه إبّان حياة محمد كانت لا توقد نار في بيوته التسع وإنهم كانوا يعيشون على الأسودين ــ الماء والتمر ــ وبين احتيازها هي ومن بقي على قيد الحياة من تلك الزوجات قلادة قوّمت بمائة ألف (درهم أو دينار) إنه فارق فلكي يزلزل الكيان ويدير الرأس.

* * *

الصحابة والنكاح

[Blank Page]

حرارة الطقس في منطقة الحجاز وطلاقته واتصافه بالجفاف بالإضافة إلى البداوة النسبية التي تميز بها ذلك المجتمع وبعده عن الحضارة بالقياس بغيره من المجتمعات كلها جعلت الشغل الشاغل لأفراده هو هاجس التماس بالجنس الآخر(١).

ونحن هنا في هذه الفاصلة نتناول العلاقة المشروعة وهي النكاح (الزواج) فهو أحد المؤشرات البليغة على تجذر تلك الرغبة وتوهجها لدى الجنسين معاً وقد تمثل ذلك في الاقتران بعدد من الزوجات فكل ما اتسع مال الرجل وزادت ثروته كثرت زوجاته. وفي الفترة السابقة على الإسلام كان الاقتران بعشر زوجات دليل الوجاهة والغنى والعز والشرف وقد رأينا منهم غيلان الثقفي أبا بادنة أو بادية التي سبق ذكرها وعند دخول أحدهم الإسلام كان محمد يأمره بطلاق ما زاد على الأربع زوجات (روى قيس بن الحارث قال

---

(١) لمزيد من التفصيلات أنظر كتابنا **العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يثرب في العهدين المحمدي والخليفي** الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، دار سينا، الانتشار العربي، القاهرة وبيروت.

أسلمت وتحتي ثمان نسوة فأتيت النبي (ص) فقلت له ذلك فقال: اختر منهن أربعاً)[٢]. وروى محمد بن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة أسلم وتحته عشر نسوة فأسلمن معه فأمره رسول الله (ص) أن يتخير منهم أربعاً[٣].

زينب بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية القرشية الأموية امرأة عروة بن مسعود الثقفي، روى محمد بن عبيد الله الثقفي عن عروة بن مسعود الثقفي: أنه أسلم وعنده نسوة منهن أربع من قريش فأمره النبي (ص) أن يختار منهن أربعاً فاختار أربعاً منهن زينب بنت أبي سفيان ــ أخرجه ابن مندة وأبو نعيم[٤].

قال ابن جريح: جاء الإسلام وعند أبي سفيان ست نسوة وعند صفوان بن أمية بن خلف ست: أم وهب بنت أمية بن قيس من العياطلة وفاختة بنت الأسود بن المطلب وأميمة بنت أبي سفيان بن حرب وعاتكة بنت الوليد بن المغيرة وبرزة بنت مسعود بن عمرو وابنة ملاعب الأسنة عامر بن مالك بن جعفر ــ فطلق أم وهب، كانت قد أسنّت وفرق الإسلام بينه وبين فاختة كانت عند أبيه، في الهامش: العياطلة بنو قيس بن عديّ رجال من قريش كانوا يلقبون العياطل[٥]. ولكن هذا المعلم الاجتماعي ظل سارياً فقد رأينا نفراً من أعيان الصحاب من فاق العشر وأحدهم وهو عبد الرحمان بن عوف وصل إلى عشرين ــ وقيد الأربع الذي فرضه القرآن لم يكن بأيّ حال من الأحوال مانعاً من التزوج بأي عدد عن طريق الطلاق

(٢) رواه أحمد وأبو داوود.
(٣) رواه الترمذي ومالك والشافعي في **مسنده** وأورده ابن قدامة في **المغنى** المجلد السابع، ص ٦٠٤، والمقدسي في **الشرح** المجلد الثامن، ص ٤٥، دار الغد العربي، بمصر.
(٤) **أسد الغابةِ**، المجلد السابع، كتاب النساء، ص ١٣١.
(٥) **أسد الغابةِ**، لابن الأثير الجزري، المجلد ٧، **كتاب النساء**، ص ٤٠٩، مصدر سابق.ط

ثم جاءت الفتوحات بالجواري واستثناهن القرآن من ذلك القيد فأصبح من حق الواحد منهم أن يتسرى بأي عدد منهن ولم تكن النسوان أقل ميلاً في ذاك المجتمع من الرجال فيما يمكن أن نسميه (التعددية الزوجية) فمنهن التي تزوجت خمسة أزواج وهن (المُخمِسّات) وعددهن قليل وأكثر منهن التي تزوجت أربعة وهن (المُربِعّات) إنما الزواج من ثلاثة بعول كان أمراً مألوفاً حتى إننا نستطيع أن نقرر دون تجاوز أن معظم الصواحب كنّ (مُثلّثات) ولم يكن أمراً منكراً أن يتعاقب على الصاحبة خمسة أزواج قد تربطهم روابط حميمة أوثق ما تكون الحميمية رأينا في إحدى الحالات منها شقيقين وهذا ربما له صلة بالنظام المعروف بـ (وراثة النساء) السائد لدى كثير من الشعوب القديمة أو الشعوب التي تمر حالياً بمراحل حضارية أولية أو بدائية وهو (أنه عندما يموت رجل عن امرأة يخلفه عليها أحد ورثته: ابنه أو أخوه أو غيرهما من أقاربه وظل العرب يمارسونه حتى ألغاه الإسلام)[٦]. وقلنا إنه ربما تكون له صلة بـ (وراثة النساء) لأن خلافة الأخ على أرملة أخيه لا تجيء مباشرة بعد وفاة أخيه ففي أحيان تشكّل الزيجة الثالثة أو الرابعة كما سنرى في حالة أسماء بنت عميس الخثعمية. بيد أن خلافة الابن على أرملة أبيه تدخل في باب (وراثة النساء). روى ابن جريج عن عكرمة قال: فرق الإسلام بين أربعة نسوة وبين أبناء بعولتهن: حمنة بنت أبي طلحة، بنت عبد العزي بن عبد الـــدار كانت تحت خلف بن أسد بن عاصم بن الخزاعي فخلف عليها الأســـود بن خلف وفاختة بنت الأسود بن المطلب كانت تحت أمية بن خلف فخلف عليها صفوان بن أمية، وأم عبيد بنت صخر بن مالك بن عمرو بن عزيز كانت

(٦) **نظم العرب قبل الزواج** لد. محمود سلامة زناتي، ص ٨٣، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، د. ت.

تحت الأسلت فخلف عليها أبو قيس بن الأسلت والأسلت من الأنصار، وملكية بنت خارجة بن سنان بن أبي حارثة كانت تحت زبان بن سيّار، فخلف عليها منظور بن زبان بن سيّار(٧).

ويرى د. زناتي أن وراثة النسوان كانت مقررة لدى الأنصار بطريق الحتم في حين أنها لدى القرشيين كانت غير لازمة واستند في ذلك إلى رأي أورده القرطبي في تفسيره وكنا نود أن يقدم الباحث لتدعيم رأيه شواهد متعددة ــ ونحن نؤيد تماماً أن قاعدة وراثة النسوان(٨) هي القاعدة السائدة لدى الشعوب الإفريقية(٩) لأن مذهبنا أن عرب الجزيرة عامة والحجاز خاصة في القرن السابع الميلادي ــ وقت ظهور الإسلام ــ كانوا من الناحية الاجتماعية على درجة من البداوة والبدائية لا تقل كثيراً عن حال القبائل البدائية في قلب القارة السوداء وكعادتنا فنحن لا نلقى الكلام على عواهنه خاصة في هذه الخصوصية التي لا ريب أنها تصدم الكثيرين لذا فإننا نقدم الدليل على ذلك وهو تشابه ولا نقول تماثل العديد من الأنظمة الاجتماعية لدى الاثنين منها ممارسة (طقوس الانتقال)(١٠) وفي بعض المرات تتم وراثة النساء بغرض آخر هو أخذ الثأر بطريقة

---

(٧) **أسد الغابةِ، كتاب النساء**، وهو المجلد السابع ص ٣٦٤، مصدر سابق.

(٨) من الأفضل لو استعمل د. زناتي، كلمة **نظام** بدلاً من **قاعدة** لأن الأنساق الاجتماعية من العسير أن توصف بأنها قاعدة إذ من المتعذر تطبيقها بصرامة وباضطراب مثل القاعدة فضلاً عن افتقارها أو افتقارها لعنصر الجزاء الذي كثيراً ما يحايث القاعدة ا. هـ.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٠١.

(١٠) الخاصة بمراحل العمر المتدرجة: الميلاد، البلوغ، الزواج ثم الموت والرقي والتعاويذ والتمائم والإيمان بالسحر والعين وبكائنات غير مرئية تسبب الأمراض والأذى... الخ. وعجبي لا ينقضي من أن شعباً كان على تلك الدرجة من البداوة والبدائية سحق شعوباً ذات رتبة سامقة من الرقي والتمدن وخلفت حضارات بواذخ: الفينيقية والبابلية والآشورية والساسانية والرومانية/ البيزنطية!

ملتوية أو مستترة أو مستخفية كما يبدو من المثال الآتي:

جعفر بن أبي طـــالب توفي عن أســـماء بنت عميس (هي إحدى المُخَمّسات) فخلفه أبو بكر بن أبي قحافة ثم من بعده عليّ بن أبي طالب ــ فلما توفي الأخير كانت إحدى زوجاته تسمى ليلى بنت معوذ بن خالد النهشلي فما إن قضت عدتها حتى نكحها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فكأنما ثأر لأبيه من عمه عليّ وكان عبد الله بن جعفر آنذاك متزوجاً من زينب بنت عليّ من فاطمة بنت محمد، إذن هو جمع على عصمته أرملة عليّ وابنته في بيت واحد[١١] فأي ثأر أوعر من هذا!

* * *

إن مجال الزواج ثري وخصب وحافل بالأخبار والوقائع التي تنطق بذواتها أن الصحاب والصواحب بشر لهم نوازعهم وطبائعهم وغرائزهم ودوافعهم مثل غيرهم من ذرية آدم هذا من جانب.

ومن جانب آخر نقطع بأن أبناء وبنات مجتمعهم تحكمهم أنساقه وأعرافه ونظمه وإكراهاته وموجباته وأنهم لن يستطيعوا منها فكاكاً، ولا طاقة لهم بالانفلات من قيودها، وأهمية هذه الحقيقة أنها تشكّل قاعدة تنسحب أيضاً على (النصوص) التي انبثقت من ذلك المجتمع وتخلَّقت في باطن رحمه.

فكما أن الصحاب والصواحب أذعنوا وخضعوا لحكمها الخ... فكذلك (النصوص) حذوك القذة بالقذة ــ وكما أن بمقدورك أن تفهم أو تعي الأفعال والممارسات التي بدرت من الصحاب

(١١) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري، ٧٠٧، مصدر سابق.

والصواحب إذا أدركت أنها صدرت منهم وهم يعيشون: يصبحون ويمسون بين جنبات ذاك المجتمع فعلى سبيل المثال: صحابية مثل أسماء بنت عميس لا تجد غضاضة في أن يتعاقب عليها خمسة أزواج منهم شقيقان.

في حين أن أي مصرية معاصرة يستحيل أن تقبل ذلك أو تجيزه.

لماذا؟ لأن مجتمع القرن السابع الميلادي البدائي أو القريب من البدائية في الحجاز يستسيغ ذلك ويهضمه ويعدّه معروفاً لا منكر فيه ــ في حين أن المجتمع المصري الحديث ووريث أعرق حضارة في تاريخ العالم ــ وهو الآن يرنو ببصره إلى القرن الواحد بعد العشرين يستنكر ذلك ويستهوله!

كذلك (النصوص) التي ظهرت وقت ذاك في حنايا مجتمع الحجاز الذي وصفناه لا شك أنها جاءت معجونة بسماته لأنها وليدته وربيبته.

هذه حقيقة يجب الاعتقاد بصحتها حتى تستقيم الأمور.

عودة إلى سياق البحث:

لنبدأ بـ (العشرة المبشرين بالجنة) باعتبارهم قمة هرم مجتمع الصحاب، فضلاً عن أنهم يمثلون فئات متنوعة ــ رغم أنهم جميعاً من قريش ــ فمنهم من كان من ذؤابة قريش وقمة سنامها ومنهم من هو من سفحها أو مؤخرتها أو ذيلها، ومنهم من كان بالغ الثراء، فاحش الغنى، يملك ضروب المال وأنواع النشب ومنهم من كان مليطاً[١٢] لا يجد اللظى[١٣]. إذن عندما نطلع على أحوالهم وهم

---

(١٢) سبق شرحه. مصدر سابق.

(١٣) في **المعجم الوسيط** لمجمع اللغة العربية، **اللظى**: لهب النار الخالص لا دخان فيه، ولا يجد اللظى أي لا يجد ثمن الوقود، كناية عن الفقر المدقع.

يتناكحون ويتناسلون امتثالاً لحديث محمد (تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم لأمم يوم القيامة)[١٤].

نأخذ فكرة تقريبية عن قطاع النكاح في حياة الصحاب، وهو قطاع على قدر متميز من الأهمية، لأنه يكشف عن النوازع والغرائز والدوافع الطبيعية لديهم وعن نظرتهم إليه وتقييمهم أو تقديرهم إياه، فعندما يخبرنا ابن تيمية وهو من هو في سعة العلم والبحث والتمحيص أن علياً توفى عن أربع زوجات حرائر وأربع عشر سريّة وعليّ لم يكن في عداد أثرياء الصحبة، وعندما نقرأ أن عبد الرحمن بن عوف تزوج ما يقرب من عشرين زوجة حرّة وهو من كبار أغنياء الصحابة ندرك على الفور أن نزعة التماس بالأنثى لا صلة لها بالمال، فإن من يعجز منهم عن نكاح عشرين زوجة حرة يتوجه إلى السرّيات وملك اليمين لأنهن أقل مؤونة وأيسر كلفة ويؤدّين الغرض نفسه. كما يلقى أضواء على العلاقات الاجتماعية التي تتشابك بالنكاح.

وعلى التنافس بين الصحبة على الزوجة الحسناء يتعاقبون عليها فما إن يقضي أحدهم وطره منها ويشبع منها حتى الزهق (اضمحلال الرغبة) يتلقفها صاحب آخر في الوقت الذي يكون فيه ثالث منتظراً متربّصاً فما أن يطلقها الثاني أو يموت عنها حتى يهرول هو لنكاحها (طبعاً بعد قضاء عدتها) وهكذا حتى إنّ مما يلفت النظر تبادلهم الزوجات فيما بينهم وصيرورة ذلك نسقاً مستقراً كذلك ليس مستهجناً عندهم أن يتقدم عدد من الصحبة إلى امرأة واحدة يخطبها كل واحد إلى نفسه ويعرض عليها مؤهلاته وميزاته والأغرب أن يكون من بين المتنافسين أب وابنه ففي

(١٤) متفق عليه.

مجال الفوز بالزوجة المليحة القسيمة تتوارى اعتبارات كثيرة قد يرى مجتمع آخر أنها تمنع من المنافسة بتلك الصورة الصارخة.

وهذه المنافسة ليس لها صلة بحديث محمد **(لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه)** ففي هذه الحالة لم تتم خطبة أحد الصحبة للمرأة وقبول من جانبها ولكن الخاطبين تقودموا في وقت واحد أو متقارب ولم يتم قبول من جانب المخطوبة.

* * *

زوجات العشرة المبشرين بالجنة

١ ــ أبو بكر:

١ ــ قتيلة أو قتلة من بني عامر بن لؤي ــ وهي أم عبد الله أكبر أولاده الذكور وأسماء أكبر بناته.

٢ ــ أم رومان بنت الحارث من بني فراس بن غنيم بن كنانة أم ولده عبد الرحمن وعائشة.

٣ ــ أسماء بنت عميس الخثعمية أم ولده محمد.

٤ ــ حبيبة بنت خارجة بن زيد أم كلثوم ولدت بعد وفاته[١].

٢ ــ عمر بن الخطاب:

١ ــ زينب بنت مظعون أم عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة.

٢ ــ أم كلثوم بنت عليّ أم زيد الأكبر ورقية.

٣ ــ جميلة بنت عاصم بن ثابت حميّ الدبر بن الأقلح الأنصارية أم عاصم.

(١) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري، ص ٣٠٢ وص ٣٠٣ و٣٠٤.

٤ ــ مليكة بنت جرول الخزاعية أم زيد الأصغر وعبيد الله.

٥ ــ لُهَيّة (أم ولد) أم عبد الرحمن الأوسط.

٦ ــ عاتكة بنت زيد أم عياض.

٧ ــ أم ولد وهي أم عبد الرحمن الأصغر يلقب بالمجبر.

٨ ــ فكيهة (أم ولد) أم زينب.

٩ ــ أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة أم فاطمة[٢].

٣ ــ عثمان بن أبي عفان:

١ ــ أم كلثوم بنت محمد بن عبد الله.

٢ ــ رقية بنت محمد بن عبد الله أم عبد الله الأصغر.

٣ ــ فاختة بنت غزوان أم عمرو وعبد الله الأكبر.

٤ ــ بنت جندب بن الأزد أم خالد وعمر.

٥ ــ فاطمة بنت الوليد أم سعيد والوليد.

٦ ــ أم البنين بنت عيينة بن حصن أم عبد الملك.

٧ ــ رملة بنت شيبة بن ربيعة أم عائشة وأم إبان وأم عمر.

٨ ــ نائلة بنت الفرافصة.

٩ ــ أم لد وهي أم البنين[٣]. مع ملاحظة أن نائلة بنت الفرافصة

(٢) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** للمحب الطبري، ص ٤٦٦ إلى ص ٤٧٠.
(٣) **الرياض النضرة** ص ٥٦٨، ٥٦٩، مع ملاحظة أن نائلة بنت الفرافصة وإن كانت قد أسلمت إلاّ أن أباها كان مسيحياً (نصرانياً) ا. هـ.

وإن كانت قد أسلمت إلا أن أباها كان مسيحياً (نصرانياً). ا. هـ.

٤ ــ علي بن أبي طالب:

١ ــ فاطمة بنت محمد بن عبد الله أم الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب الكبرى.

٢ ــ خولة بنت إياس بن جعفر الحنفية أم محمد (مشهور بابن الحنفية) قيل إن أبا بكر أعطى علياً الحنفية أم محمد من سبى بني حنيفة أخرجه ابن السمان.

٣ ــ ليلى بنت معوذ بن خالد النهشلي أم عبد الله وأبي بكر.

٤ ــ أم البنين بنت حزام بن خالد الوحيدية ثم الكلابية أم العباس الأكبر وعثمان وجعفر وعبد الله.

٥ ــ أم ولد وهي أم محمد الأصغر.

٦ ــ أسماء بنت عميس الخثعمية أم يحيى وعوف.

٧ ــ أم حبيب الصهباء التغلبية «سبيّة» سباها خالد في الردة فاشتراها علي وهي أم عمر الأكبر ورقية.

٨ ــ بنت أبي العاص أم محمد الأوسط.

٩ ــ أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي أم الحسن ورملة الكبرى.

خلاف أولاد أمهات شتى ولدن له:

أم هاني وميمونة ورملة الصغرى وزينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرم وأم سلمة وأم جعفر وجمانة.

وذكر ابن تيمية أن عدد أمهات الولد أربعة عشرة وقيل ستة عشرة(٥).

٥ ــ طلحة بن عبيد الله:

١ ــ حمنمة بنت جحش أم محمد والسجاد وعمران.

٢ ــ سعدى بنت عوف المرية أم عيسى ويحيى.

٣ ــ أم إبان بنت عتبة بن ربيعة أم اسمعيل وإسحق ويعقوب.

٤ ــ خولة بنت القعقاع بن معبد بن زرارة أم موسى.

٥ ــ أم كلثوم بنت أبي بكر أم زكريا ويوسف.

٦ ــ الفرعة التغلبية أم صالح.

٧ ــ أم حارث بنت قسامة الطائية «الجرباء» أم إسحق.

٨ ــ أم ولد وهي أم الصعبة.

٩ ــ أم ولد وهي مريم(٦).

٦ ــ الزبير بن العوام:

١ ــ أسماء بنت أبي بكر أم عبد الله وعروة والمنذر وعاصم والمهاجر وخديجة الكبرى وأم الحسن.

٢ ــ أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص أم خالد وعمرو وحبيبة وسودة.

٣ ــ الرباب بنت أنيف بن عبد الكلبية أم مصعب وحمزة ورملة.

---

(٥) **الرياض النضرة**، المحب الطبري، ص ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨.

(٦) **الرياض النضرة**، المحب الطبري، من ص ٧٢٥ إلى ص ٧٢٨.

٤ ــ زينب بنت مرثد بن عمرو وقيل بنت بشر من بني قيس بن تغلب أم عبيدة وجعفر.

٥ ــ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط... أم زينب.

٦ ــ الجلال بنت قيس من بني أسد بن خزيمة أم خديجة الصغرى(٧).

٧ ــ عبد الرحمن بن عوف:

١ ــ أم كلثوم بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أم محمد وسالم الأكبر وأم القاسم.

٢ ــ تماضر بنت الأضبح أم عبد الله الأصغر.

٣ ــ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أم إبراهيم وإسمعيل وحميد.

٤ ــ أم إبراهيم وهي أم معن وأم الرحمن الصغرى.

٥ ــ سهلة بنت عاصم بن عديّ وهي أم معن وعمر وسبق أن ذكر أن معن ولدته أم إبراهيم.

٦ ــ بحرية بنت هانئ أم عروة الأكبر.

٧ ــ سهلة بنت سهيل بن عمر وأم سالم الأصغر.

٨ ــ أم حكيم بنت قارظ أم أبي بكر.

٩ ــ بنت أبي الخشخاش أم عبد الله.

١٠ ــ أسماء بنت سلامة أم عبد الرحمن.

---

(٧) **الرياض النضرة**، المحب الطبري، ص ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦.

١١ ــ أم حريث من سبي بهراء أم مصعب وأمية ومريم.

١٢ ــ أم مجد بنت يزيد أم سهيل أبي الأبيض.

١٣ ــ عراك بنت كسرى (أم ولد) وهي أم عثمان.

١٤ ــ أم عروة (أم ولد).

١٥ ــ أم يحيى (أم ولد).

١٦ ــ أم بلال (أم ولد).

١٧ ــ بنت شيبة بن ربيعة هي التي ولدت أم القاسم (هكذا في الصفوة).

١٨ ــ أم حميد وهي أم حميدة وأم عبد الرحمن الكبرى.

١٩ ــ زينب بنت الصباح ولدت أم يحيى.

٢٠ ــ بادنة بنت غيلان أم جويرية(٨).

٨ ــ سعد بن مالك سعد بن أبي وقاص:

١ ــ ابنة شهاب أم إسحق الأكبر وأم الحكم الكبرى.

٢ ــ بنت قيس بن معدي كرب أم عمر ومحمد وحفصة وأم القثم وكلثوم.

٣ ــ أم عامر بنت عمر أم عامر وإسحق الأصغر وإسماعيل وأم عمران.

٤ ــ زيد (بفتحتين) بنت الحارث بن يعمر بن شراحيل أصيبت سباءً أم إبراهيم وموسى.

٥ ــ خولة بنت عمرو أم عبد الله.

---

(٨) **الرياض النضرة**، المحب الطبري، ص ٢٧٢، ٧٧٣.

٦ ــ أم هلال بنت ربيع بن مري أم عبد الله الأصغر وبجير وحمنة.

٧ ــ أم حكيم بنت قارظ أم عمير الأكبر وحمنة (خلاف الأولى).

٨ ــ سلمى بنت حفص أم عمير الأصغر وكل من أم عمر وأم أبونا وأم إسحق.

٩ ــ ظبية بنت عامر أم صالح.

١٠ ــ أم حجير وهي عثمان ورملة.

١١ ــ أم ولد من سبى العرب أم العمياء[٩].

٩ ــ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل:

خلف واحداً وثلاثين ولداً ثلاثة عشر ذكراً منهم والباقي إناث[١٠] ولم يورد المحب الطبري في (الرياض) أسماء زوجاته وأمهات ولده والمصعب الزبيري في (نسب قريش) وأبو محمد بن حزم الأندلسي في (الجمهرة) فعلاً ذلك بل إنهما لم يذكرا في شأنه سوى أسطر قليلة شغل أغلبها ابنه عبد الرحمن الشاعر الذي قال أبياتاً في موقعة الحرة[١١] والمحب الطبري ذكر سيرته في ثمان صفحات بينا تستهلك ماية وستين صفحة في سيرة ابن عمه عمر بن الخطاب وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه بشأن سعيد من أنه انصرف للعناية بإقطاعاته والتناكح والتناسل ومن ثم توارى اسمه في الشؤون العامة تماماً أو لعله كان يفتقر إلى المزايا التي تؤهله

(٩) **الرياض النضرة**، للمحب الطبري، ص ٧٨٩، ٧٩٠.
(١٠) **الرياض النضرة**، ص ٧٩٨.
(١١) وقعت في عهد يزيد بن معاوية يزيد الطنابير والقرود، أحلّ فيها المدينة/ أثرب لأفراد جيشه ففعلوا فيها أفاعيل يشيب لها رأس الوليد.

للتصدي لها أو تحمل أعبائها ولعل الخبر الآتي يؤكد ذلك:

عندما عزم عمر بن الخطاب إنفاذ جيش لفارس أراد عمر توجيه سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل العدوي ثم بدا له فوجه سعد بن أبي وقاص.. وقال إنه رجل شجاع رام[١٢]. ولا شك أن عدول عمر عن تولية سعيد قيادة الجيش هو انتباهه إلى خلو من مؤهلات القيادة وهذه النوعية من البشر تتجه إلى ميدان آخر تثبت فيه وجودها وهو التناكح والتناكح والتناسل وقد نجح أبو الأعور (كنية سعيد) في ذلك نجاحاً فائقاً إذ زاد ولده على الثلاثين ولا شك أنه أنجبهم من زوجات وأمهات ولد عديدات فلو قلنا إن كل واحدة خلفت ثلاثاً فإنهن على أقل تقدير عشر ما بين زوجة وأم ولد بخلاف العواقر وجواري المتعة...

١٠ ــ أبو عبيدة بن الجراح:

سبق أن ذكرنا أنه من القلة من الصحاب الذين لم تغرّهم الدنيا وأعرضوا عنها وسار في حياته وفق تعليمات محمد ووصاياه، لم يغيّر ولم يبدّل وأثبت بحق أنه أمين الأمة ــ ولذا كان مقلاً في كل شيء ومن ثم لم يذكر له المحب الطبري سوى زوجة واحدة هي هند بنت جابر وولدين: يزيد وعمير[١٣] وكذلك المصعب الزبيري[١٤] وابن حزم الأندلسي[١٥].

ومن ألقابه بطل أجنادين وبطل اليرموك والأخير وهو الأشهر.

ولا شك أن إحجام الأمين أبي عبيدة عن العبّ من الدنيا

---

(١٢) **فتوح البلدان** للبلاذري ص ٣١٣، مصدر سابق.
(١٣) **الرياض النضرة**، للمحب الطبري، ص ١٨٢، مصدر سابق.
(١٤) **نسب قريش**، ص ٤٤٥، مصدر سابق.
(١٥) **جمهرة أنساب العرب**، ص ١٧٧، مصدر سابق.

والاكتفاء بزوجة واحدة خلّفت له ذكرين هو الاستثناء الذي يؤيد القاعدة ـ وكأنما بعد وفاته استمر معه عزوفه عن الدنيا فإن ولديه يزيد وعمير كما أكد الأخباريون جميعاً: درجا أي لم يخلفا ذرية.

وبذلك انقطع ذكر أبي عبيدة إلاّ من سيرته التي تفوح مسكاً كنموذج فذ للصاحب الذي عاش بعد وفاة محمد كما كان يحيا وهو معه، لم ينحرف قيد أنملة سائراً على هدى قائده حتى لقي ربه راضياً مرضياً.

يبين من استقراء(١٦) أحوال زواج العشرة المبشرين تبيّن أن مجموع زوجاتهم يقارب التسعين أي في المتوسط لكل واحد تسع زوجات وهو يقارب العدد الذي كان يعتبر شارة الوجاهة والعز (عشر زوجات) في الفترة السابقة على الإسلام ـ وأن العدد لا يرتبط بالغنى فابن الخطاب تزوج تسعاً وأبو الحسن تسعاً وهما لا يعدّان من أثرياء الصحاب في حين أن الزبير وهو ذو ثروة طائلة اقتصر على ست وسعد بن مالك أو سعد بن أبي وقاص وإن كان ذا مال فلا يعتبر واسع الثروة فقد تخطى العشر وكان من البديهي أن يصل العدد عن الملياردير ابن عوف إلى عشرين وهو ضعف عدد زوجات وجهاء فترة ما قبل الإسلام أما أبو بكر فلم يتجاوز العدد الذي سمح به القرآن ـ ولكن الذي كان مثلاً في الالتزام بالتقليل من الدنيا من المناحي كافة فهو أبو عبيدة بن الجراح.

إذن يظهر من الاستقراء أن كثرة عدد الزوجات ليس شرطاً أن يرتبط بالقدرة المالية ولكن هناك دوافع أخرى خلاف الثروة.

---

(١٦) **الاستقراء في المنطق:** تتبع الجزئيات للوصول إلى النتيجة الكلية **المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية**، أو هو الحكم على كلي لوجوده في أكثر جزئياته، **التعريفات** للجرجاني.

قيد الأربع زوجات

لم يحل قيد الأربع زوجات الذي ورد في القرآن دون إقدام الصحابة على نكاح ما يحلو لهم من الزوجات الحرائر ــ دعك من السريات/ ملك اليمين ــ إذ أن المفترض فرضاً عدم إبقاء أربع زوجات في العصمة أي في الوقت نفسه، ولذلك كانوا يلجأون إلى الطلاق أي يطلقون واحدة من الأربع وبعد أن تنقضي عدتها يتزوج أخرى وهكذا وكانوا في كثير من الأحيان يعمدون إلى إرضاء هذه المطلقة التي ضحى بها الصاحب ليمتع نفسه بأخرى في الغالب أصغر منها سناً أو أكثر منها وضاء وحلاوة.

١ ــ روي عن الحسن بن علي أنه متع امرأة بعشرة آلاف درهم فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق(١٧) ولا مشاحة في أن عشرة آلاف درهم مبلغ ليس بالضئيل ولكن في سبيل تحقيق الأرب هي شيء يسير. والمتعة هي مقابل الطلاق.

٢ ــ روى السلمي أن عبد الرحمن بن عوف طلّق امرأته تماضر الكلبية فحممها بجارية سوداء، يعني متّعها. قال إبراهيم النخعي: العرب تسمي المتعة التحميم ــ ويرى ابن عباس أن أعلى المتعة: الخادم(١٨).

ومن البديهي أن عبد الرحمن بن عوف وهو من أثرياء الصحبة يقدم لطليقته أعلى متعة ــ وقد رأينا قبل قليل أن زوجاته الحرات بلغن العشرين ومعنى ذلك أن التحميم أو المتعة تكرر مع الكثيرات منهن. وهكذا لم تُحل النصوص دون تحقيق الغرض وهو التعددية

---

(١٧) **المغني**، لابن قدامة، المجلد ٨ ص ١١١.
(١٨) المصدر نفسه والمجلد والصفحة نفسيهما.

الزوجية التي كانت سائدة في عصر ما قبل الإسلام وتجذرت في نفس الصحاب.

التنافس بين الصحاب

كان التنافس بين الصحاب على الزوجات الحسناوات على وجه الخصوص ظاهرة تلفت النظر حتى بين العشرة المبشرين والأعيان منهم:

١ ــ أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس خالة معاوية أي أخت هند بنت عتبة كانت بالشام مع زوجها أبان بن سعيد بن العاص فقتل عنها بأجنادين فعادت إلى المدينة ولما قدمت من الشام فخطبها: عمر وعلي والزبير وطلحة فاختارت طلحة فتزوجها[١٩].

٢ ــ ذكر ابن عبد البر أن ابن وهب روى بإسناده عن الحارث بن سعد بن أبي ديان أن عمر بن الخطاب خطب امرأة على جرير بن عبد الله وعلى مروان بن الحكم وعلى عبد الله بن عمر فدخل على المرأة وهي جالسة في بيتها فقال عمر: إن جرير بن عبد الله يخطب وهو سيد أهل المشرب، ومروان يخطب وهو سيد شباب قريش وعبد الله بن عمر وهو من علمتم وعمر بن الخطاب فكشفت المرأة الستر فقال: أجاد أمير المؤمنين؟ فقال: نعم فقال فقد أنكحت أمير المؤمنين فانكحوه[٢٠]. ويلفت النظر ما جاء في الخبر أن عمراً خطب المرأة (على) كل من جرير ومروان وابنه عبد الله ونظراً لوجود حديث من محمد (لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه) فإن البادي من سياق الخبر أنهم تقدموا لخطبة المرأة في وقت

---

(١٩) **أسد الغابةِ**، كتاب النساء، المجلد السابع، ص ٢٩٧، مصدر سابق، **الاستيعاب**، المجلد الرابع، ص ١٩٢٤، مصدر سابق.
(٢٠) **المغني**، لابن قدامة، المجلد ٧، ص ٥٨٥، مصدر سابق.

واحد، وفي ذلك المجتمع لم يكن منكراً أن يتنافس ابن وأبوه أو أب وابنه على خطبة امرأة ولا ندري كيف كان شعور عبد الله بعد أن فاز أبوه بنكاح المرأة.

ولسنا بحاجة إلى القول إن تلك المرأة كانت على غاية من الوضاءة والقسامة دفعت أولئك الصحاب على التسابق على نكاحها!

لم يكن الأصحاب وحدهم هم الذين يعددون زوجاتهم ويمتعون أنفسهم بالزوجات الكثيرات بل الصواحب كنّ على الدرجة نفسها، لا تصبر الواحدة منهم على البقاء عزبة بل بمجرد أن تنتهي عدتها من الوفاة أو الطلاق حتى تتشوف للخطاب وتتجمل لهم وتعرض نفسها عليهم.

وأشهر مثل في ذلك ــ سبيعة بنت الحارث الأسلمية كانت امرأة سعد بن خولة فتوفى عنها بمكة وهي حامل فوضعت بعد ليال (قيل نصف شهر) فما إن تعلت من نفاسها حتى تجملت للخطاب فعاينها شاب وآخر كهل فاختارت الشاب[١]. واختيار سبيعة للشاب وتفضيله على الشيخ لا يحتاج في معرفة علته إلى فطنة. أما الهرولة في التعرض للخطاب والبحث عن القرين فمردها النزعة المشبوبة لديهم ذكوراً وإناثاً للتماس بالآخر.

---

(١) **أسد الغابةِ** كتاب النساء، المجلد السابع ص ١٣٧، **الاستيعاب**، المجلد الرابع ص ١٨٥٩، وحديثها رواه البخاري ومسلم في **الصحيحين** وفي **مسند الربيع** عن أم سلمة، الجزء الثاني ص ١٣٨، كما أورده ابن كثير في **التفسير** المجلد ١ ص ٤١٩، طبعة دار الشاب بمصر.

ونتج عن ذلك أننا نقرأ في سيرة الصواحب من تزوجت خمس مرات ولكنهن في الحقيقة كن قليلات أما ذوات الأربعة أزواج فكن كثرة ولكنها لا ترقى إلى حد الغالبية التي يمكن أن نقرر أنها كانت مُثَلِّثَة أي ذات ثلاثة بعول.

أ. المخمسات:

بضم الميم الأولى وكسر الأخرى ــ وتأتي على رأسهن:

١ ــ عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل:

بنت عم عمر بن الخطاب كانت حسناء جميلة تزوجها عبد الله بن أبي بكر وأحبها حباً شديداً حتى غلبت عليه وشغلته عن مغازيه وغيرها فأمره أبوه بطلاقها وامتثل لأمره ولكن نفسه تبعتها وقال في ذلك شعراً مؤثراً فرق له قلب أبيه فأذن له فارتجعها ولكنه في حصار الطائف رمى بسهم مات منه إثر رجوعه أثرب/ المدينة فتزوجها زيد بن الخطاب أخو عمر وقتل عنها يوم اليمامة شهيداً فخلف عليه أخوه عمر فقتل عنها فتزوجها الزبير بن العوام فقتل عنها فتقدم لخطبتها عليّ بن أبي طالب فضنت به على الموت لأن الأربعة الذين نكحوها ماتوا قتلى ــ فتزوجها الحسن بن علي فتوفى عنها[٢] وسبق أن قلنا إنه مات مسموماً أي أن الخمسة لم يمت واحد منهم حتف أنفه ــ على هذه الوضيئة القسيمة المليحة تعاقب خمس من مشاهير الصحبة، وهناك ملحظ شديد الأهمية وهو الفارق في السن بينهم مثل الفارق بين عمر بن الخطاب وبين الحسن بن علي ــ ومع ذلك قبلت عاتكة الاقتران بالحسن الذي لا شك أنه كان يصغرها بسنوات عديدة فلا هي وجدت في ذلك

(٢) **أسد الغابةِ**، كتاب النساء، المجلد ٧، ص ١٨، **الاستيعاب**، المجلد الرابع، ١٨٧٧/ ١٨٨٠.

غضاضة ولا هو رأى في ذلك ما يحول بينه وبينها كذلك لا شك أن دوافع الحسن من التزوج من عاتكة ما كانت خلاءً من رغبة التمتع بهذه الجميلة التي حثت وسامتها وصباحتها أربعة من أعيان الصحابة للاقتران بها مما يجعلنا نقطع بأنها كانت على درجة غير عادية من الملاحة والبهاء ــ ولم ير عمر بأساً في أن يعقب أخاه زيداً عليها ولم يقل لنا الخبر إن باعثه لذلك هو أن زيداً ترك صغاراً قصد عمر رعايتهم وحتى ولو كان هناك صغار فالعناية بهم لا تستلزم نكاح أمهم ــ إذن من أعراف ذلك المجتمع التزوج بأرملة الأخ المتوفى أو الصاحب الحميم.

٢ ــ أسماء بنت عميس الخثعمية:

قصة الفضل بن العباس أنه كان يبصبص المرأة الخثعمية في أقدس الأماكن ومع وجوده مع محمد فيه[٣] تقطع بأن الخثعميات كنّ على درجة ملفتة للنظر من الرواء والإشراق.

وهذه هي الخثعمية الأخرى تعاقب عليها خمس من مشاهير الصحبة ما يؤيد وجهة نظرنا عن ملاحة بنات خثعم. هي أسماء بنت عميس بن معد الخثعمية تزوجها أولاً حمزة بن عبد المطلب فولدت له بنتاً ثم شداد بن الهاد ثم جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة وولدت له هناك عبد الله وعوفاً ومحمداً ثم هاجرت إلى يثرب/ المدينة ثم قتل عنها في معركة مؤتة فأعقبه عليها أبو بكر بن أبي قحافة فولدت له محمد بن أبي بكر ثم مات عنها فخلفه عليها عليّ بن أبي طالب فولدت له يحيى[٤].

(٣) ذكرنا القصة تفصيلاً في كتابنا **العلاقة بين المرأة والرجل في مجتمع يثرب في العهدين المحمدي والخليفي** مصدر سابق.

(٤) **أسد الغابةِ** من كتاب النساء، المجلد السابع، ص ١٥، **الاستيعاب**، المجلد الرابع،

ولعلنا لاحظنا أن التعاقب في حالتي المخمستين عاتكة بنت زيد وأسماء بنت عميس كان محصوراً في طبقة معينة أو فئة محددة.

ففي حالة عاتكة تعاقب عليها:

١ ــ عبد الله بن أبي بكر.

٢ ــ زيد بن الخطاب.

٣ ــ عمر بن الخطاب.

٤ ــ الزبير بن العوام.

٥ ــ الحسن بن عليّ.

وكان تقدم إليها عليّ ولكنها ضنت عليه بالقتل لأن الأربع السوابق عليه قتلوا وهي على عصمة كل منهم ــ كذلك الخامس الحسن (مات قتيلاً بالسُم).

فالزوجة قرشية والأزواج الخمس كلهم من قريش ومن تقدم لخطبة ورفض طلبه كان قرشياً.

أهي العصبية القرشية أم الشعور بالتميز والنخبوية أو الأرستقراطية أم هو امتداد للمبدأ القائل أو العرف الصارم (القرشية لا ينكحها إلاّ قرشي) و(الهاشمية لا ينكحها إلاّ هاشمي) وقد رأينا فيما سلف أن الحجاج وكان والي العراقين لعبد الملك بن مروان تقدم لخطبة هاشمية وأجزل لها الصداق فلما سمع عبد الملك بذلك زبر الحجاج زبراً شديداً وعنفه ووبخه لأنه تعدى طوره وتجاز حده وتخطى مكانته وجهل قدره مع أنه من قبيلة ثقيف إحدى القبائل المعروفة فتراجع الحجاج.

١٧٨٥ مصدر سابق، **جمهرة أنساب العرب**، أبي محمد بن حزم الأندلسي، ص ٣٩١، مصدر سابق.

أما في حالة أسماء بنت عميس:

فقد نكحها كل من حمزة بن عبد المطلب ثم شداد بن الهاد ثم جعفر بن أبي طالب ثم أبو بكر بن أبي قحافة ثم عليّ بن أبي طالب. وأسماء وإن كانت خثعمية فإن أول ناكحيها كان قرشياً وهو حمزة بن عبد المطلب ومن ثم فإن من يخلفه عليها يشترط ألا يقل عنه مكانة أي من قريش مثله ولا يقال دفعاً لذلك أن من بين أزواج أسماء: شداد بن الهاد وهو ليثي وليس قرشياً إذ أن الرد على ذلك أنه كان (حليف بني هاشم)(٥). إذن هو قرشي بالحلف ويقول الفيروزآبادي حالفه: عاهده ولازمه(٦). ويسويّ الرازي (محمد بن أبي بكر) بين الحلف والولاء فيقول: الحليف والمحالف: الموالي(٧). ومولى القوم منهم والولاء يستعار للقرابة من حيث النسبة ومن حيث النصرة والصداقة والاعتقاد(٨). والولاية هي القرابة(٩).

إذن لم يشكّل نكاح شداد بن الهاد لأسماء خروجاً على النسق الاجتماعي المستقر منذ عهد سحيق. وبذلك يمكن القول إن دعوى المساواة بين الناس وأنهم كأسنان المشط كانت شعاراً لم يطبق على أرض الواقع وأن السياج الذي أحاط بالقرشيات (حتى الزواج) حال دون نكاح غير القرشيين لهن أو حتى مجرد التقدم لخطبتهن.

نخلص من ذلك أنه مجتمع له تراتيبيته الخاصة التي يستحيل اختراقها أو تخطيها أو تجاوزها حتى من أكابر الصحاب غير

---

(٥) **الاستيعاب**، المجلد ٢ ص ٦٩٥، **وأسد الغابةِ** المجلد ٢، ص ٥٠٩.
(٦) **القاموس المحيط** فصل الحاء باب الفاء.
(٧) **مختار الصحاح**.
(٨) **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الواو للراغب الأصفهاني، مصدر سابق.
(٩) **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

القرشيين. فقد ذكرنا أن سلمان الفارسي ــ الذي كان مقرباً من محمد ويقضي معه بالليل ساعات طوالاً أثارت سخط زوجته عائشة ــ تقدم لينكح ابنة لعمر بن الخطاب فلم يتوفق له ذلك ــ وعلة عدم التوفيق واضحة لا تحتاج إلى بيان الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه أن بضعة أعوام لا تكفي لمحو الأعراف المتجذرة والغائرة في الأعماق حتى ولو حثّت على محوها أو تغييرها (نصوص) أوفت على الغاية في البلاغة والإعجاز. ولا ينتصب دليلاً يناقض ما طرحناه نكاح زيد بن حارثة للنصف قرشية زينب بنت جحش وأسامة ابنة لفاطمة بنت قيس القرشية الخالصة لأن ذلك كان انصياعاً لأمر حاسم باتر من محمد نفسه وكعادة السماء أنها تكافئ كل من يطيع محمداً فقد أبدلت ــ في الحالة الأولى ــ يزيد بن حارثة، سيد الجزيرة العربية وقائد الثورة/ المظفرة محمداً، وفي الحالة الأخيرة جعلت في زواج أسامة الخير والبركة واغتبطت به.

* * *

كذلك تدل حالة المُخمسات أن الصحاب ــ ومنهم أعيان ــ كانوا يسعون وراء القسامة والوضاءة والبهاء شأنهم في ذلك شأن غيرهم من البشر ــ يضعون الجميلة الحسناء نصب أعينهم فما إن ينتهي المانع الشرعي حتى يهرولوا إلى نكاحها، ولكن هل كان مستوى الجمال في ذلك المجتمع خفيضاً كما نراه الآن في محافظات الصعيد الجواني (في مصر) بحيث يغدو ظهور حسناء أمراً نادراً يحلّب(١٠) ــ ريق الرجال ومن ثم لا يجدون غضاضة في أن يقفوا صفاً انتظاراً للفوز برشيفة يسيرة من الحسن والرواء، ولكننا لا نرجح أن نسبة الوسامة كانت متدنية في قريش فقد رأينا عند

(١٠) **تحلب المائع:** سال، **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

فتح مكة كيف ردّ محمد على سعد بن عبادة الأنصاري عندما استخف بالقرشيات وتهكم على الغالة التي أشعت جمالهن ــ كذلك كنا أوردنا ثلاثة أخبار للتدليل على وضاءة بنات خثعم.

إذن يبقى الفرض الآخر: هو أن هاته المخمسات كنّ ذوات حسن بالغ للغاية وملاحة فائقة وصلت الذروة دفعت هذا النفر من الصحاب الأكابر إلى الرمل للفوز بنكاحهن ــ أو أن هاته المُخمسات كنّ من هذا النوع من النسوان اللاتي لا يصبرن على المباضعة ولا يطقن مباعدة عن المجامعة ولا سعة لديهن على الحرمان من الوطء فما دامت الواحدة منهن لديها رِماق من صلاحية للمفاخذة فإنها لا تهدأ ولا يقر لها قرار حتى تستنفده وتستهلكه.

إنما يبدو من استقراء أحوال ذلك المجتمع أن نسوته جميعهن كنّ على تلك الشاكلة لأن متوسط الأزواج فيهن كان ثلاثة بيد أن الرغبة كانت لدى المُخمسات أكثر اشتعالاً والميل كان أقوى شبوباً والشوق أشد ورياً (نشاطاً).

ذلك أن المرأة في ذلك المجتمع البدائي لم يكن لها من تسلية سوى أن يعتليها زوجها ويمتطيها لأنها كانت أميّة (إلاّ قلة نادرة) ولم تجد أمامها أوجه نشاط فنية أو أدبية أو رياضية تفرغ فيها طاقتها المتوقدة للتماس بالفحل[١١].

ولكن يبدو أن نزعة التماس بالفحل غدت عادة متجذرة في نفوس أولئك الأعرابيات حتى بعد أن مسهن قبسٌ من حضارة الشعوب التي وطؤوها بخيولهم إذ نقرأ عن نسوة الأجيال اللاحقة أنهم كنّ يخمّسن ونقدم مثلاً واحداً يغني عن العديد:

(١١) في **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية: **الفحل:** الذكر القوي من كل حيوان **والفحولة:** الذكورة.

زينب بنت محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب:

هذه القرشية الهاشمية من الجيل السادس ومع ذلك يخبرنا المصعب الزبيريّ أنها خمّست: فقد كانت عند:

١ ــ محمد أبي العباس أمير المؤمنين ــ ثم خلف عليها.

٢ ــ عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس ــ ثم خلف عليها.

٣ ــ محمد بن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ــ ثم خلف عليها.

٤ ــ إبراهيم بن الحسن بن زيد بن حسن بن عليّ بن أبي طالب ــ ثم خلف عليها.

٥ ــ عبد الله بن الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب[١٢].

ونلاحظ أن الأزواج الذين تعاقبوا على زينب هذه أبناء عمومة ــ ولم يكن في ذلك لديهم أي حروجة. كما أن الزوج منهم لا يجد في نفسه أدنى كراهية للاقتران بزوجة سبقه في نكاحها ثلاثة أو أربعة أزواج. وتوارث الأنساق الاجتماعية وانتقالها من السلف إلى الخلف أمر يؤكده علم الاجتماع والأخبار بل حتى الأحداث التي نشاهدها في الواقع المعاش، ويتحدث القرآن عن ذرية بعضها من بعض وهناك أمثال شعبية تؤكد أن البنت تنشأ مثيلة لأمها ولكن الذي يدعو للتأمل أن الأجيال اللواحق لتلك النسوان العربيات لا

(١٢) كتاب **نسب قريش** لأبي عبد الله المصعب الزبيري، ص ٥٥، مصدر سابق.

شك أنها عاشت في مجال حضاري متقدم كثيراً عن المجتمع شبه البدائي الذي طوى المُخمّسات الأول من أمثال عاتكة وأسماء فما الذي أبقى نسق التخميس مستمراً؟

لا سبيل إلى الإجابة عن هذا السؤال إلا الإقرار بأن ذلك أمر مركوز في طبيعة المرأة العربية أو الأعرابية فحتى وإن تنسمت ريح الحضارة ولو بدرجة نسبية مما أتاح لها ولا بد أوجهاً من الأنشطة ــ التي لم تكن متاحة لنسوان فترة التدشين التي تنفّس فيها قدراً من طاقتها الأنثوية فإنها لم تتمكن من دحر النزوع الطاغي لدى تلك المرأة في الاختلاط بالذكر والتماهي فيه.

أما من ناحية رجال الأجيال الخالفة فقد ورثوا من السلف الصالح الرغبة العارمة في ارتشاف ولو غرفة ضئيلة من رحيق الحسناء المليحة التي يدفع بهاؤها خمسة من ذؤابة ذلك المجتمع وخيرة صفوته إلى التعاقب عليها مع ملاحظة أنه في ذلك الوقت كانت توجد تحت أيدي أولئك المتعاقبين عشرات الجواري من كل لون وجنس الخ... تم اصطيادهن من البلاد المقهورة بحد الأسياف المجيدة ليكنّ ملكاً لسادتهن من أبناء وأحفاد أولئك المغاوير الذين فتحوا أوطانهن ودعكوها ودعسوها!!!

خلاصة القول إن التخميس كان له قطبان:

أولهما: الرغبة المشبوبة من النسوان للتلاقي بالفحول وعدم القدرة على البعد عنهن أو مفارقتهن.

آخرهما: السعي الحثيث من قبل الذكور للفوز بذوات الحسن والجمال ولا يهم عدد من سبق لورود ذلك المورد العذب الصافي الرائق ولا يهم أن يكون من بين سبق أخ أو ابن عم أو صاحب حميم.

ب. ذوات الأربعة بعول

لم يكن التخميس شائعاً، لأن العنصر المؤثر فيه هو الحسن الفائق والقسامة والبهاء والملاحة المنقطعة النظير وهو (العنصر) قليل إن لم يكن نادراً في نسوان ذاك المجتمع وإن لم يخل بالطبع من الحسان حسناً عادياً وتأتي بعد المخمسات القليلات العدد، ذوات الأربعة بعول وكان أمراً شائعاً وإن لم يكن غالباً، نذكر من المربعات أمثلة معدودةً لأننا كما قلنا لسنا بصدد عمل إحصائية ونترك ذلك وغيره لمن يأتي بعدنا من البحاث إذ أننا نذهب إلى ضرورة تحليل الأنساق والأعراف كافة في ذلك المجتمع وأن يُفلّي بدقة تامة حتى تعرف أمور ذلك الجيل كافة الذي شافهه محمد بـ (النصوص) لأول مرة وساعده في ترسيخ الدين وإشاعته وتأسيس دولته ودولة قبيلته.

والأحوال الشخصية مجال على قدر وفير من الخطر والأهمية لتجلية أولئك الصحاب والصواحب الفاعلين المؤثرين في تلك التجربة المعجبة وكشف صور الجنود الأوفياء لقائد الثورة التي حققت تغييراً لا في جزيرة العرب فحسب بل في منطقة من أهم مناطق المعمور على كل العصور.

١ ــ سهلة بنت سهيل بن عمرو:

أ ــ أبو حذيفة بن عتبة.

ب ــ عبد الله بن الأسود بن مالك.

ج ــ الشمّاخ بن سعيد بن قائف.

د ــ عبد الرحمن بن عوف(١٣).

(١٣) **الاستيعاب** لابن عبد البر، ص ١٨٦٥، مصدر سابق.

٢ ــ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط:

أقبلت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وأمها أروى بنت كريز بن ربيعة وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ــ مهاجرة إلى النبي (ص) فخطبها الزبير، وزيد بن حارثة، وعبد الرحمن بن عــوف وعمرو بن العاص فاستشارت أخــاها لأمها عثمان بن عفان فأشار عليها بزيد بن حارثة، فتزوجته فولدت له زيداً ورقية فهلك زيد وهو صغير وماتت رقية في حجر عثمان، وطلّق زيد أم كلثوم فخلف عليها عبد الرحمن بن عوف ثم الزبير ثم عمرو بن العاص[١٤].

وكما اكتفينا بمثلين في نطاق المخمسات، نرى كذلك أن عرض حالتين من ذوات الأربعة أنكحه أو المربعات فيه الغناء كله ونترك لأصحاب الاستقصاء وأرباب الإحصاء عمل ما يلزم من إحصائيات واستبيانات في هذه الخصوصية ــ وما قلناه بشأن من خمسن بعولتهن ينطبق ولو بنسبة أقل على من ربعن إن في حق الإناث أو الفحول.

ونلاحظ أن عثمان بن عفان عندما أشار على أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بالزواج من زيد بن حارثة مفضلاً إياه على عبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص تأسّى في ذلك بمحمد عندما أشار على فاطمة بنت قيس باختيار أسامة بن زيد وتقديمه على باقي الخاطبين.

وهناك ملحظ آخر لا بد أن القارئ اللبيب فطن إليه وهو وجود اسم عبد الرحمن بن عوف في غالبية الأحوال في قائمة

(١٤) **أنساب الأشراف**، ج ١، ص ٤٧١، مصدر سابق.

المتقدمين لخطبة من ذكرنا من الصاحبات، فهل ذلك مرجعه إلى غناه العريض أم أنه كان يتمتع بطاقة غير عادي على النكاح ولهذا لم يكن مستغرباً أن ينكح عشرين زوجة هذا بخلاف ملك اليمين.

ولم يكن مستغرباً أيضاً أن تخلو كتب السير والتواريخ من أية مساهمة لعبد الرحمن بن عوف في الشؤون العمومية سوى الدور الذي قام به في لجنة الستة الذين حددهم عمر لاختيار خليفته من بينهم وعمله بكل طاقة على فوز عثمان بالمنصب.

وهذا كله لم يستغرق سوى أيام ــ وبعدها لم نسمع له صوتاً في الأمور العامة لأنه بعد أن أنجز تلك المهمة عاد إلى زوجاته وجواريه وإلى استثمار ثروته الأسطورية.

* * *

ج. المثلثات

لا نكون مغالين إذا قلنا إن غالبية الصاحبات كن مثلثات، فقد كان الاقتران ببعول ثلاثة أمراً طبيعياً إذ من النادر أن يكتفي الرجل بامرأة واحدة يعيش معها طول عمره بل يقضي نهمته منها ثم يطلقها التي يموت عنها زوجها أو يطلقها كانت لا تقضي بقية عمرها دون نكاح، إذ أن طلاقة الجو وميله للحرارة وتدني المستوى الحضاري وانعدام الأنشطة الفنية والاجتماعية كلها تجعل المرأة لا تطيق بعداً عن التماس بالفحل والقابلية للوطء والسعي للتواجد تحته وهو التعبير الدارج الذي يعبرون به في معظم الأحيان عن العلاقة الزوجية فيقولون:

فلانة تحت فلان، ومن مترادفات النكاح، الاعتلاء والامتطاء والوطء والركوب، فالمرأة كانت في ذلك المجتمع لا تتصور نفسها

منفية عن تلك الأوضاع لأنها في نظرها أمور في غاية الطبيعية والتي تنفر منها توصف بأنها مسترجلة وتغدو شاذة بل ملعونة وهو أمر يبدو للوهلة الأولى محيراً وغير منطقي لأن الاسترجال للمرأة هو ضد الميوعة(١٥)، والتغنج(١٦)، والدلال وهي الأمور التي تثير الذكر فيطمع الذي في قلبه مرض بتعبير القرآن، فلماذا هي ملعونة إذن ولماذا لم يمتدحها ذلك المجتمع كما كان متوقعاً؟(١٧).

الإجابة على هذا السؤال:

الاسترجال يدفع المرأة المسترجلة إلى كراهية الركوب والامتطاء والاعتلاء والوطؤ والتموضع (تحت) الرجل حتى يقضي الطرفان وطرهما وهو شأن ذو بال في ذلك المجتمع ـ بالإضافة إلى أنه مجتمع ذكوري، السلطة المطلقة فيه للذكر حتى عند التماس بين الرجل والمرأة يتعين أن يكون الذكر فيه هو الأعلى والأنثى هي الأسفل والذي يظن أن هذه الأنساق الاجتماعية قد زالت في مجتمع الجزيرة العربية أو تطورت فهو واهم فقد قرأت مؤخراً فتوى لأكبر عالم أو فقيه في بلد عري تحرّم على المرأة لبس (البنطلون/ البنطال) حتى في داخل منزلها الذي لا يراها فيه سوى زوجها!!! المخاطبون بالفتوى تلقوها بالدهش فإذا كان الرجل يباح له أن يراها عارية وأن يعاين من جسدها ما لا يحل لغيره فكيف يحرم عليها أن تلبس (البنطلون/ البنطال) وهي في حضرته؟

إن التحريم أو حتى الكراهية تأتي من أنها عندما تلبسه تغدو

(١٥) في **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية، **ماع الجسم:** ذاب وسال.
(١٦) ما يصدر من المرأة من عبارات وحركات تزيدها ملاحة.
(١٧) كانت لأبي جهل ابنة مسترجلة تخرج للصيد وهي متقلدة القوس فكانت مثار حديث أهل مكة على بكرة أبيها ولا بد أنها حوصرت حتى كفت عن استرجالها حتى لا تعدي الأخريات.

مسترجلة وقد يدفعها ذلك إلى أن تتأبى أن تتموضع تحت الرجل وأن تسمح له بأن يركبها ويعتليها ويمتطيها وهذا يخل بواحد من أهم أنساق المجتمع الذكوري البطريركي.

نعود ونساوق الحديث:

زواج الصاحبة من ثلاثة أزواج شجعت عليه ــ فوق العناصر التي ذكرنا ــ أحوال ذلك المجتمع المخالفة تماماً لأحوال مجتمعنا المعاصر فلم تكن الأسرة النووية أو الصغيرة قد انتشرت فيه مثل اليوم بل كانت الأسرة الكبيرة هي السائدة فإذا خلّفت المرأة أولاداً سهل عليها أن تنتقل إلى بيت زوجها الثاني تاركة أولادها لدى أسرتها الكبيرة تربيهم لها، ولعل في الوقائع التي سردناها في الفصول السوابق ما يؤيده، بالإضافة إلى أن الحياة كانت ساذجة فعلى سبيل المثال لم تكن هناك مدارس بالمعنى الحديث توجب على الأم مراعاتهم وملاحظتهم الخ... إنه مجتمع مغاير تماماً. بعد هذه الفرشة[١٨] السريعة يؤون الأوان لضرب أمثلة للمثلثات:

١ ــ أم كلثوم بنت الفضل بن العباس بن عبد المطلب

تزوجها ١، الحسن بن علي بن أبي طالب فولدت له محمداً وجعفراً وحمزة وفاطمة ثم فارقها، فتزوجها ٢، أبو موسى الأشعري فولدت له موسى ومات عنها ــ وجعل لها من ماله شيئاً فتزوجها ٣، عمران بن طلحة ففارقها فرجعت إلى دار أبي موسى فماتت فدفنت بظهر الكوفة[١٩].

(١٨) **فرش** الشيء فرشاً وفراشاً: بسطه من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.
(١٩) كتاب **نسب قريش** للمصعب الزبيري، ص ٢٨، مصدر سابق.

٢ ــ معاذة جارية عبد الله بن أبي بن سلول

كانت مسلمة فاضلة... ثم إنها أُعتقت وبايعت النبي (ص) بيعة النساء فتزوجها بعد ذلك ١، سهل بن قرظة أخو بني عوف فولدت له عبد الله... ثم هلك عنها أو فارقها فتزوجها ٢، الحمير بن عدي القارئ أخو بني الحطمة فولدت له توأماً: الحارث وعدياً ابني الحمير ثم فارقها فتزوجها ٣، عامر بن عدي رجل من بني حطمة[٢٠].

٣ ــ قريبة الصغرى بنت حذيفة بن المغيرة المخزومي وكنيته أبو أمية

وهي أخت هند/ أم سلمة إحدى زوجات محمد التسع كانت عند ١، عمر بن الخطاب ففرق الإسلام بينهما ورجعت إلى الكفار.. ثم أسلمت فتزوجها ٢، معاوية فقال له أبو سفيان أتتزوج ظعينة أمير المؤمنين فطلقها فتزوجها ٣، عبد الرحمن بن أبي بكر فولدت له عبد الله[٢١]. بنات بني أمية مشهورات بالحسن والجمال وعندما تزوج محمد هنداً/ أم سلمة ورأتها عائشة قالت إنها أكثر وضاءة مما وصفت لها. والخبر يدل على دهو أبي سفيان إذ اعترض على نكاح ابنه معاوية من طليقة أمير المؤمنين فقد خشى أن يترك ذلك أثراً في نفس الخليفة وكان معاوية لا يقل دهاءة عن أبيه ولكن بهاء قريبة الصغرى فتنه وخلب لبه وأنساه جودة رأيه وبصره بالأمور ــ ولكن عبد الرحمن بن أبي بكر لم يبال بذلك لأن المنصب الذي يتمتع به ابن الخطاب كان مناحاً من أبي بكر ومن ثم لا يجرؤ على أن يؤنبه.

---

(٢٠) **أسد الغابةِ**، المجلد السابع، ص ٢٦٧، مصدر سابق.
(٢١) **أنساب الأشراف**، للبلاذري، ج ١، ص ٤٣٢.

٤ ــ أمية بنت أبي سفيان

أخت شقيقة لأم حبيبة بنت أبي سفيان إحدى زوجات محمد التسع تزوجها كل من ١، حويط بن عبد العزى ابن أبي قيس بن عبد ودّ ثم خلفه عليها ٢، صفوان بن أمية بن خلف الجمحي ثم ٣، عبد الله بن معاوية.

٥ ــ نائلة بنت عمارة الكلبي

تزوجها ١، معاوية وقال لزوجه ميسون الكلبية (أم يزيد): انطلقي إلى ابنة عمك... فنظرت إليها فسألها: كيف رأيتها؟ فردت: جميلة كاملة ولكن رأيت تحت سرتها خالاً وليوضعن رأس زوجها في حجرهــا فطلقها فتزوجها ٢، حبيب من مسلمة الفهري ــ ثم خلف عليها ٣، حبيب بن النعمان بن بشير الأنصاري فقتل ووضع رأسه في حجرها، هذا الخبر له دلالتان:

الأول: مدى سلطة الزوج على زوجته حتى إنه يأمر زوجته أن تذهب إلى ضرتها وتعاينها فتمتثل لأمره ولا تعصيه.

الآخر: أن معاوية رغم ما عرف عنه من سعة أفق ونضج في التفكير تأثر بما قالته له زوجه ميسون عن ضرتها من أن الخال الذي تحت سرتها (الزوجة الجديدة) ينبئ بأن زوجها سوف يقتل ويرمى برأسه في حجرها. فيبادر معاوية بتطليقها.

وهذا يقطع بأن اعتقاد الصحبة في الخرافات ظل ملازماً لهم رغم المحاولات الجبارة التي حاولها محمد معهم لانتزاعها من نفوسهم.

وإذا كان صحابي في قامة معاوية يؤمن بهذه الخزعبلات فكيف بمن هو أدنى منه عقلاً من الصحاب؟ وسوف نتناول هذا

الجانب في الفصلة الخاصة بالأفق العقلي والحضاري للصحاب.

ولعل هذه الأمثلة الخمسة فيها الغناء لنصب دليل الثبوت على صحة ما طرحناه في هذه الخصوصية.

* * *

ومما يزيدها تأكيداً أن تثليث الفحول استمر في نسوانهم بعد طبقة الصواحب:

١ ــ زينب الصغرى بنت عليّ بن أبي طالب

زينب الصغرى كانت عند ١، محمد بن عقيل بن أبي طالب ثم خلف عليها ٢، كثير بن العباس بن عبد المطلب ثم تزوجها ٣، جعفر بن تمام بن العباس(٢٢).

٢ ــ لبابة بنت عبد الله بن العباس بن عبد المطالب

كانت عند ١، علي بن عبد الله بن جعفر ثم خلف عليها ٢، اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله فولدت له يعقوب ثم فارقها فتزوجها ٣، محمد بن عبد الله بن العباس(٢٣).

٣ ــ أم عبد الرحمن بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب

تزوجها ١، عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ــ ثم خلف عليها ٢، مسكين بن عبد الله بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ثم خلف عليها ٣، داوود بن علي بن عبد الله بن العباس بن المطلب(٢٤).

---

(٢٢) **نسب قريش** ص ٤٥، مصدر سابق.
(٢٣) المصدر السابق. ص ٢٩.
(٢٤) كتاب **نسب قريش**، ص ٣٥٧، مصدر سابق.

الزوج الأول والزوج الثاني إبنا عمومة ولم يكن في ذلك حروجة لأننا رأينا أخوين يتعاقبان على الزوجة.

* * *

المثلان الأولان يمثلان الجيل الثاني أي التالي مباشرة بعد الصواحب مما يمكن أن يقال عنهما إنهما تابعيتان لأن أولاهما بنت عليّ والأخرى بنت عبد الله بن العباس.

أما صاحبة المثل الثالث والأخير فهي من الجيل الثالث لأن جدها لأبيها هو الصحابي عبد الله بن عمر ــ مما يقطع بأن النسق أو نظام (التثليث الأزواجي) ظل مستمراً، ولا شك أن هذين الجيلين (الثاني والثالث) طالهما بدون ريب قدر من التحضر مما كان يحتم على نسوانه الانصراف ولو بنسبة معقولة عن نزعة الاختلاط بالفحول والتموضع تحتهم ويكسر حدتها ويقلل من عرامتها ولكن الطبع غلاب وللوراثة موجباتها التي لا فكاك منها ــ ويبين من تفرس[(٢٥)] الحالتين الأولى والثانية أن كلتا المنكوحتين هاشمية وأن الناكحتين هواشم والحالة الثالثة قرشية والأزواج من قريش ــ مما يؤكد المبدأ أو العرف المستقر (الهاشمية لا ينكحها إلاّ هاشمي والقرشية لا ينكحها إلاّ قرشي) ــ الأمر الذي يدلل على أن المساواة بين أتباع محمد ومعتنقي الديانة التي بشّر بها هو مجرد شعار لا صلة له بالواقع ــ إذ بدا تحطيمه مبكراً على أيدي الصحاب والصواحب بل بمعرفة أقرب الناس لقائد الثورة محمد.

وهذا أمر كثير الحدوث في العقائد والإيديولوجيات والثورات على مر التاريخ: (النظرة شيء والتطبيق شيء آخر).

* * *

(٢٥) **فرس** الأمر: أدرك باطنه بالظن الصائب، من **المعجم الوجيز** لمجمع اللغة العربية.

وكان الصاحب ما إن يبرم عقد النكاح حتى يرمل إلى الامتطاء ويخبّ إلى الاعتلاء ويهرول إلى الركوب[٢٦] حتى وإن كان الظرف أو المكان لا يسمح بذلك ولا يستسيغه مما يقطع بأن المفاخذة كانت هي الهدف والمباضعة هي القصد والملامسة هي الغاية، ولا يقال دفعاً عن ذلك إن القرآن تحدث عن المودة والرحمة التي جعلت بين الزوجين إذ أن المبادئ السامية والقيم العليا التي جاءت بها (النصوص) منقطعة الصلة بما كان يمارسه الصحاب على أرض الواقع وقد رأينا ذلك جليّاً ومن أوثق المصادر في مجالات العلاقة بينهم وبين بعضهم والمال:

أم حكيم بنت الحارث بن هشام القرشية كانت تحت ابن عمها عكرمة بن أبي جهل وقتل عنها فتزوجها خالد بن سعيد فلما نزل المسلمون مرج الصفر عند دمشق أراد خالد أن يعرّس بها فقالت: لو تأخرت حتى يهزم الله هذه الجموع فقال تحدثني نفسي أني أقتل فقالت فدونك، فأعرس بها عند القنطرة التي بالصفّر فبها سميت قنطرة أم حكيم وأولم عليها[٢٧] هذا الخبر على قصره ملئ بالدلالات التي تضيء لنا جوانب متعددة في الموضوع المبحوث حالياً وهو الصحاب والنكاح منها:

١ ـ إن الزوج الأول عكرمة بن أبي جهل والزوج الثاني خالد بن سعيد والزوجة أم حكيم بنت الحارث كلهم قرشيون، هي دائرة مغلقة عليهم ومحرمة على غيرهم، ومن ثم فإنهم ينظرون إلى أنفسهم أنهم النخبة والصفوة المختارة وغيرهم نخالة وقمامة وكناسة

(٢٦) في معاجم اللغة **الرمل والخبب والهرولة** الإسراع في الشيء على درجات متفاوتة بين كل لفظ.
(٢٧) **أسد الغابةِ**، المجلد ٧، كتاب النساء ص ٣٢١.

ومما يؤسف له أن المحاولتين اللتين قام بهما محمد في حالتي تزويج زيد وابنه أسامة من قرشيتين لم تفلحا في كسر هذه القاعدة الجامدة وليتها وقفت عند النكاح ولكنها انتقلت إلى مجال الحكم فاستأثروا به دون المسلمين جميعاً مما كان له أوخم العواقب على الإسلام والمسلمين وجرّ من الكوارث ما لا يعلمه إلا الله لأن من بين من تولى الخلافة من هؤلاء القرشيين من كان لا يصلح لإدارة فرن[٢٨] بلدي في الوقت الذي كان يوجد من بين المسلمين من غير قريش من هو كفء للخلافة.

٢ ــ مرج الصفّر كما جاء بمعجم البلدان لياقوت الحموي: جنوب دمشق بحوران ــ ودارت فيها معركة من أشرس المعارك بين الروم والمسلمين (قالوا: ثم اجتمعت الروم جمعاً عظيماً وأمدهم هرقل بمدد فلقيهم المسملون بمرج الصفّر متوجّهين إلى دمشق وذلك لهلال المحرم سنة أربع عشرة فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى جرت الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة وجرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف ثم ولّى الكفرة منهزمين مغلوبين لا يلوون على شيء حتى أتوا دمشق وبيت المقدس واستشهد يومئذ خالد بن سعيد بن أمية ويُكنى أبا سعيد وكان قد أعرس في الليلة التي كانت الوقعة في صبحيتها بأم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي امرأة عكرمة بن أبي جهل[٢٩].

في ليلة مثل تلك المعركة التي أجاد أحمد بن يحيى (البلاذري) في وصف أهوالها ومفازعها ومخاطرها لم يكن للصاحب خالد بن سعيد بن أمية سوى أن يفاخذ زوجته ويباطنها ولما تتمنع عليه

---

(٢٨) في **المعجم الوسيط الفرن:** موقد الخبز.

(٢٩) كتاب **فتوح البلدان** للبلاذري، القسم الأول، مصدر سبق ذكره.

بجملة عابرة يرد قائلاً إن نفسه تحدّثه أنه سوف يُقتل، فكيف يغادر الدنيا قبل أن يمارس الطقس اليومي الذي تعود عليه هو وباقي الصحبة ـــ ولا ندري كيف طاوعته نفسه وهو في ذلك الظرف الحرج والمكان المحفوف بالمخاطر أن يعرّس بزوجته!

ألا يقطع هذا بأن التماس بالآخر سواء للذكر والأنثى عندهم كان مشبوباً بدرجة بالغة الغرابة!

٣ ـــ أما الزوجة أم حكيم فقد كانت زوجة لابن عمها عكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي وقتل عنها يوم أجنادين قبل معركة مرج الصفّر بوقت قصير وكانت عركة جنادين أشد هولاً إذ شهدها من الروم مائة ألف وكان هرقل بنفسه يشرف على إدارتها من مقر قيادته بحمص وقاتل المسلمون فيها قتالاً شديداً وكتب لهم النصر بفضل عبقرية خالد بن الوليد الحربية التي لا يماري فيها أحد وقتل منهم خلق كثير يعنينا منهم زوجها عكرمة واثنان من إخوة زوجها المقبل هما عمر بن سعيد وأبان بن سعيد ومن بني مخزوم أيضاً هبّار بن سفيان ومن أقاربها الأدنين سلمة بن هشام بن المغيرة وغيرهم[٣٠].

فعندما خطبها سعيد ـــ طبعاً في اليوم التالي لانقضاء عدتها لم ترفض وترد عليه: هذا ليس أوانه وإذا كنت أنت لم تحزن لقتل أخويك فإنني حزينة لقتل زوجي وابن عمي ومن معه من الأقارب الحميمين بل قبلت على الفور ـــ وعندما دعاها ليلة معركة مرج الصفّر للمفاخذة تمنعت قليلاً ـــ مما يذكرنا بقولة أبي الحسنين عليّ بن أبي طالب: يتمنعن وهن الراغبات!

---

(٣٠) المصدر نفسه والقسم نفسه ص ١٣٥.

واستجابت في حين أن الاستعدادات للمعركة كانت تجري على قدم وساق ــ ويبدو أن سعيداً كان فحلاً شديد الفحالة لأن البلاذري يخبرنا أنها عندما سمعت بقتله (انتزعت عمود الفسطاط فقاتلت به فيقال إنها قتلت يومئذ سبعة نفر وأن بها لردع الخلوق)[٣١].

خلاصة القول إن مثل سعيد وأم حكيم أو خبرهما يرسم لنا صورة ناطقة عن كنه النكاح لدى الصحبة رجالاً ونسواناً.

* * *

ولما كان الهدف الرئيس والغرض الأصيل لديهم من النكاح هو المعافسة والملامسة فقد كانوا ــ القرشيون منهم على وجه الخصوص ــ يتلذذون بالنساء مقبلات ومدبرات وباركات ومستلقيات ويجبوهن ويشرحونهن شرحاً عنيفاً ويمشقونه مشقاً مكيناً وكانت الصواحب تتقبل ذلك بغاية الرضى ومنتهى السرور لأنه يعمّق متعتهن من الامتطاء ويضاف لذتهن ويزيد بهجتهن ويوسع نشوتهن.

ولكن لما نزح (هاجر) القرشيون إلى أثرب/ المدينة وتزوج بعضهم من يثربيات أرادوا أن يفعلوا بهن ذلك وخاصة طرق الشرح والتبجية والمشق استنكرن ذلك وأبدين تأففاً وامتعاضاً واستهجاناً بل وعارضنه ورفضنه لأنهن لم يتعودن عليه ذلك أن رجال الأوس والخزرج كانوا يباشرون حليلاتهن (على حرف) وهي طريقة بسيطة تتم في مقدم الفراش والغرض منها قضاء الحاجة لا الإمعان في اللذة وقد أخذوها عن جيرانهم اليهود الذين كانوا كذلك ينظرون

(٣١) المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسيهما، أي بقايا الطيب.

إلى مسألة التماس بالزوجة تأثراً بتعاليم التوراة ــ ولكن القرشيين رأوا في تمرد الأنصاريات ورفضهن ما يطلبونه منهن ــ في تلك الخصوصية ــ إهداراً لما يبتغونه من الاعتلاء ولما يطلبونه من الامتطاء وبالتالي هو في نظرهم إلغاء لكنه الزواج وإبطال لكينونته وارتفع (وصل) هذا الخلاف إلى محمد وكما قلنا فيما سبق إنه في مثل هذا الموقف كان محمد يتلو آية أو أكثر من القرآن ترفع النزاع وتزيل التخاصم وتفض الاشتباك فبعد أن استمع إلى مرافعة الطرفين وحججهم قرأ الآية ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾[٣٢] وتفسيرها بأي طريقة بشرط أن يصيب موضع الولد ويجتنب الإتيان في الدبر[٣٣]. وطقطق النازحون وبالأخص القرشيون أصابعهم فرحاً وسروراً إذ غدا من حقهم بنص القرآن ملامسة حليلاتهم على أي هيأة: مستلقيات أو باركات مقبلات أو مدبرات وتحولت التجبية والشرح والمشق من عادات اجتماعية إلى واجبات شرعية بحيث إذا لم تمتثل الزوجة أثمت وغدت عاصية وكانت النازحة (المهاجرة) وخاصة القرشية أشد اغتباطاً وأكثر جذلاً وأقوى بشراً لأن بعلها إذا تراخى في شرحها أو حتى شرحها شرحا خفيفاً أو قصّر في تجبيتها أو جباها تجبية[٣٤] هينة أو تكاسل عن مشقها أو مشقها مشقاً هزيلاً ذكّرته بأن ذلك قد أصبح من التزاماته التي عليه شرعاً أن يفي لها بها.

أما اليثربيات فقد انصعن لما جاءت به الآية إذ لا خيرة لهن في

(٣٢) الآية ٢٢٣ من **سورة البقرة.**
(٣٣) **أسباب النزول** للنيسابوري ص ٤٧، مصدر سابق، **وأسباب النزول**، للسيوطي، ص ٣٠ ــ ٣١، مصدر سابق، وأحاديث، هذا المعنى تناوله أبو داوود في **السنن** والحاكم في **المستدرك** والدارمي في **السنن**، بخلاف ما جاء في كتب التفسير عند تناولها للآية.
(٣٤) **التجبية** أن يقوم الإنسان قيام الراكع مختار **الصحاح** للرازي.

ذلك وطفقن يوطّن أنفسهن على التلاؤم مع الأوضاع التي حملها إليهن النازحون أو المهاجرون.

* * *

تدل الملابس سواء للرجل أو المرأة على درجة مجتمعه الحضارية، فكلما كان بدائياً أو قريباً من البدائية كانت الملابس بسيطة وساذجة وملابس الصواحب إنْ في مدينة القداسة (مكة) أو في المدينة/ أثرب في ذلك الوقت كانت تعبيراً بليغاً عن الرتبة الحضارية، كانت النسوة يرتدين عدة أنواع من الملابس ولكنها جميعاً اتسمت بالبساطة والبعد عن التعقيد والفخامة منها:

أ ــ المرط

ثوب غير مخيط تتلفح به المرأة وتجعله حول وسطها. (عن ثعلبة بن مالك أن عمر بن الخطاب قسمَ مروطاً (جمع مرط) بين نساء من نساء المدينة...)[١].

ب ــ الدرع

يشبه القميص وقد يطلق اللفظ عينه على القميص. (في حديث يحيى بن أبي سليم قال: رأيت سمراء بنت نهيك وكانت قد

---

(١) رواه البخاري في **الصحيح**.

أدركت النبي (ص) عليها دروع (جمع درع)...[٢].

ج ــ القميص

معروف ــ عن عطاء أنه كان يأتي عائشة هو وعبيد بن عمير وهي مجاورة في جوف ثبير (جبل بمكة) ورأيت عليها درعاً مورداً أي قميصاً لونه لون الورد[٣].

د ــ الخُمار

عطاء الرأس ــ تكملة حديث يحيى بن أبي سليم في وصف سمراء بنت نهيك عليها وخُمار غليلظ... وبيدها سوط[٤].

هـ ــ الخمار المصبوغ

وقد يكون الخمار سادة (ساذجاً) تارة ومصبوغاً تارة أخرى (عن عائشة أن رسول الله (ص) وجد على صفية بنت يحيى في شيء فقالت صفية يا عائشة: هل لك أن ترضى رسول الله (ص) عني ولك يومي؟ قالت نعم فأخذت خماراً مصبوغاً بالزعفران فرشته بالماء ليفوح ريحه ثم قعدت إلى جنب رسول الله (ص) فقال النبي (ص) يا عائشة إليك عني إنه ليس يومك، فقالت ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فأخبرته بالأمر فرضي عنها ــ أي عن صفية)[٥].

و ــ الخميصة

كساء من خز أو صوف مُعلّم.

---

(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه الطبراني.
(٥) **سنن ابن ماجة** المجلد الأول، الحديث رقم ١٩٧٣، ص ٦٣٤ ــ ٦٣٥، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

عن أم خالد ــ أبوها خالد بن سعيد بن العاص وأمها هيمنة بنت خلف قالت قدمت من أرض الحبشة (مع أبويها) وأنا جويرية (جارية صغيرة) فكساني رسول الله (ص) خميصة لها أعلام ــ فجعل رسول الله (ص) يمسح الأعلام بيده ويقول: سناه... سناه، قال الحميري: حسن... حسن[٦].

ز ــ ثوب عصب

هي برود يمانية يعصب غزلها أي يربط ثم يصبغ ثم ينسج فيبقى ما عصب أبيض لم يأخذه صبغ ــ (عن أم عطية قالت: قال رسول الله (ص): لا تحدّ على ميت فوق ثلاث إلاّ امرأة على زوجها أربعة أشهر وعشراً ولا تلبس إلاّ ثوب عصب الخ...)[٧].

ح ــ المعصفر والممشقة

في حديث أم سلمة عن المتوفى عنها زوجها أنها لا تلبس المعصفر من الثياب ولا الممشقة[٨] والمعصفر هو المصبوغ بالعصفر وقد عصفر الثوب فيتعصفر[٩]. والممشق هو المصبوغ بالمغرة وهي طين أحمر تصبغ به الثياب ويذهب جابر إلى أن المعصفر ليس طيباً ولذا أورد البخاري في باب الحج أن عائشة لبست الثياب المعصفرة وهي مُحرمة.

إذن ثوب عصب هو من ملابس الحداد عندهم ــ والمعصفر ليس كذلك ولا الممشقة، ولكن المعصفر يباح لبسه في الإحرام (بالحج) ــ أي أن هناك ملابس للمناسبات.

---

(٦) رواه البخاري.
(٧) **سنن ابن ماجة**، المجلد ١، الحديث رقم ٢٠٨٧، ص ٦٧٥، مصدر سابق.
(٨) رواه أبو داوود في **سننه**.
(٩) **مختار الصحاح** للرازي.

ولكن الملبس العاجي للرجال والنساء هو:

ط ــ الإزار والرداء

الإزار لباس غير مخيط يستر النصف الأسفل من الجسم ويقابله الرداء وهو ما يستر النصف الأعلى[١٠] والإزار من الأزر وهو الشد والتقوية والإحاطة.

أما الرداء فهو من الرد وهو الرجوع والعطف. إذن هي أو هو يشد وسطه الجزء الأسفل بالإزار. ثم يرجع ويعطف ويرد ما بقى منه على النصف الأعلى ــ عن أنس بن مالك قال: جاءت بي أمي إلى رسول الله (ص) وقد أزرتني بنصف خمارها وردتني بنصفه. وفي حديث عائشة (لما كانت ليلتي التي كان النبي (ص) فيها عندي، انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه عن رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه فاضجع فلم يلبث إلاّ ريثما ظن أني رقدت فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويداً وفتح الباب ثم أجافه (رده) رويداً، فجعلت درعي (قميصي) في رأسي واختمرت وتفنعت أزاري (غطت به رأسها وبدنها كله) وانطلقت على إثره حتى جاء البقيع...)[١١].

وفي حديث أبي هريرة: أن النبي (ص) كان يرى عضلة ساقه من تحت إزاره إذا اتزر.

ي ــ السراويل

لم تكن نساء ذلك المجتمع يعرفن الملابس الداخلية التي ترتديها نساء هذا الزمان على الإطلاق أما السراويل فاللاّتي كن يرتدينها

(١٠) باختصار من **المعجم الكبير**، لمجمع اللغة العربية، الجزء ١، الهمزة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠.
(١١) رواه مسلم في **صحيحه**.

قلة ربما النخبة وسبق أن قلنا إن سهولة حوادث الاغتصاب مرجعها إلى ذلك.

والحادثة التي ترويها كتب السِّيَر أن شاباً يهودياً رقيعاً ربط ذيل رداء امرأة مسلمة بأعلى إزارها فلما قامت انكشفت سوأتها فسخر منها اليهود وكانت فتيلاً زاد العداوة بين المسلمين واليهود اشتعالاً الخ... هذه الواقعة تقطع بعدم معرفة غالبية الصواحب للسروالات لأن تلك المرأة لو كانت متسرولة لما ظهرت عورتها ــ وكان محمد يحث النسوة على لبس السراويل بأن يدعو للمتسرولات ومن الطريف أن السروالات كانت تباع بالوزن ــ لقد سبق أن أكدنا أنه مجتمع كانت له أنساقه وعوائده المختلفة عن مجتمعنا لنحاول أن نقنع من لديه استعداد للإقتناع أن «النصوص» التي تخلقت في رحم ذلك المجتمع يتعين ربطها بموجبات ذلك المجتمع وأن سحب أحكامها على مجتمعات تختلف عن ذاك المجتمع فيه إعنات وضيق بالمخاطبين بها (النصوص) والقرآن ينص على أنه (وما جعل عليكم في الدين من حرج)[١٢].

١ ــ عن عليّ قال: كنت عند النبي (ص) بالبقيع في يوم غيم ومطر فمرت امرأة على حمار فسقطت فأعرض عنها فقالوا: إنها متسرولة فقال: اتخذوا السراويلات فإنها أستر ثيابكم وحصنوا بها نساءكم إذا خرجن[١٣].

وفي رواية أخرى فقال: «اللهم اغفر للمتسرولات من

---

(١٢) **سورة الحج**، الآية رقم ٧٨.
(١٣) **البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف**، الجزء ١ رقم ٢٤، ص ٣٧، تأليف حمزة الدمشقي تحقيق الشيخ الحسيني هاشم، مكتبة مصر بالفجلة، دون تاريخ نشر.

أمتي»[١٤]. فإعراض محمد عند وقوع المرأة علته أنه كان يتوقع أنها بدون سروال بالإزار والرداء فقط وأمره أتباعه بتحصين نسائهم بالسراويل إذا خرجن دليل على أن نسوانهم لا يفعلن ذلك لأنه لا معنى أن يأمر بشيء متحقق فعلاً ــ ونلاحظ أنه نص على ارتداء السروال للمرأة عند الخروج خاصة أي لا ضرورة له في داخل الحناء والبيت ــ ولا ننسى أن حرارة الجو وشدة القيظ من العوامل الفاعلة في إعراضهم عن لبس السروالات رجالاً ونسواناً. ودعوته لمتسرولات من أمته تحريض منه واضح للنسوة على التسرول حتى ينلن بركة الدعاء.

بيد أن الذي لا مشاحة فيه أن التطور الحضاري جعل كل نسوان أمة محمد متسرولات.

٢ ــ عن سويد بن قيس قال: جاء رسول الله (ص) فساومنا سراويل وعندنا وزّان يزن بالأجر فقال يا وزّان إذا وزنتم فأرجحوا[١٥].

الآن تباع السراويل بطريقة مختلفة عن الوزن ــ كما أن التي تتولى شراءها في الأغلب الأعم ــ النساء بأنفسهن ــ لأن أحوال ذلك المجتمع باينت أحوال المجتمع المعاصر ــ والسراويلات عادة ليست واسعة ولا طويلة جمع سراويل وهذه جمع سروال أي أن السراويلات جمع الجمع ــ وهي كلمة أعجمية وقيل بل هي عربية.

* * *

هذه هي أنواع ملابس النسوة التي استطعنا أن نستخلصها من

(١٤) المصدر السابق، الحديث رقم ٣٦٤، ص ٩٠.
(١٥) المصدر السابق، الحديث رقم ١٧٨، ص ١١١، كما رواه الدارمى في **سننه**، المجلد الثاني، ص ٢٦٠.

مطالعة عشرات المئات من الأحاديث الأخبار والآثار الخ... أو هي إن شئت الدقة أشهرها وما لم نذكره لا يخرج عما ذكرناه ويبين منها جميعاً أنها على درجة وفيرة من السذاجة... وذلك أمر بديهي حتى تتناسب مع ذلك المجتمع الذي كان بعيداً عن الحضارة لأنه من المعلوم أن منطقة الحجاز بالأخص وبطريق اليقين والقطع من البقاع التي لم تطلها أي حضارة.

* * *

[Blank Page]

وإذ كان مجتمع مكة ثم أثرب الذي عاش في حناياه الصحاب والصواحب ساذجاً بسيطاً فإن الحُلّي الذي كانت تتجمل به الزوجات لأزواجهن بدائية.. منه:

أ ــ **الفتخ:** جمع فتخة وهي الخواتيم العظام وفي المعجم الوسيط الفتخ هو كل خلخال لا يصوّت وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي/ الفتخة ــ خاتم كبير يكون في اليد والرجل ــ وبالجملة: حلقة من فضة مرة توضع في اليد ومرة توضع في الرجل.

ب ــ **الشنف:** قرط يعلق أعلى الأذن.

ج ــ **القرط:** ما يعلق أسفل الأذن.

د ــ **الخلخال:** حلقة من ذهب أو فضة توضع أسفل الساق وقد يكون سادة وقد يكون بجلاجل (جمع جلجل وهو الجرس الصغير).

هـ ــ **القلادة:** ما يجعل في العنق من حلى.

و ــ السخاب: أو السخب قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جوهر. وفي حديث عائشة دخل عليّ رسول الله (ص) فرأى في يدي سخاباً من ورق فقال: ما هذا يا عائشة فقلت: صنعتهن أتزين لك فيهن يا رسول الله...[1].

ز ــ المسكة: عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة أتت رسول الله (ص) ومعها ابنة لها وفي يدها مسكتان غليظتان[2].

ح ــ السوار: معروف.

ط ــ الأوضاح: جمع وضح وهو نوع من الحُلّيّ وقيل هو الخلخال وفي القاموس المحيط/ الوضح هو الخلخال وهو حلي من فضة وأصله الغرة والتحجيل في القوائم.

وفي حديث أم سلمة: كنت ألبس أوضاحاً فسألت عن ذلك النبي (ص) الخ...[3].

ي ــ عقد من جزع: والعقد معروف والجزع خرز في سواده بياض وقد اشتهرت به ظفار وهي في شرق اليمن وفي حديث عائشة (فلما قضيت شأني وأقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار انقطع...)[4].

ولذلك كان من الطبيعي أن الصحاب عندما وطؤوا بخيولهم المظفرة أراضي إمبراطورية آل ساسان واستولوا على نفائسهم

---

(١) رواه الحاكم في **المستدرك** وقال صحيح على شرط الشيخين.
(٢) من **سنن أبي داوود**.
(٣) رواه أبو داوود في **سننه** والحاكم النيسابوري في **المستدرك** وقال صحيح على شرط البخاري.
(٤) رواه البخاري ومسلم كل في **صحيحه** وهو متعلق بحديث الإفك الذي خاض فيه عدد من الصحبة منهم حسّان بن ثابت «شاعر الرسول» فأقام عليه الحد.

وكنوزهم تحيّروا وولهوا وأصابهم الدهش وكادت عقولهم أن تذهب لما رأوها ولم يصدقوا أعينهم وركبهم البهر وكادت أنفاسهم أن تتقطع من شدة الإعجاب، وكذلك لم يكن مستغرباً أن المصوغات الذهبية بالخصوص عندما كانت تصل إلى أيدي عثمان بن عفان كان يهرول بها إلى نسائه: زوجاته، جواريه، بناته، أو نسوان آل أبي معيط (رهطه الأدنين) وقد أبكى هذا الصنيع الصحابي أبا موسى الأشعري وقارن بينه وبين عمر بن الخطاب كما سوف نرى ــ وربما يكون عذر عثمان ــ وهو رجل طيب خيّر كريم ــ أنه أراد أن يدخل البهجة والغبطة والحبور على حريمه ويطلعهن على ما لم يرينه في حياتهن ويملكّنهن ما لم يكنّ يحلمن به طول عمرهن.

ولا وجه للمقارنة بين حلّي النسوان في مجتمع الصحابة في أثرب وبين ما كانت تتزين به المرأة في مصر القديمة للفارق الشاسع في المستوى الحضاري ومع ذلك استطاع أصحاب هذا المجتمع الساذج العبيط[٥] بسنابك أحصنتهم المهيبة أن يدوسوا على أرض الكنانة ذات أعرق حضارة عرفها التاريخ بل ويعطيها أحدهم طعمة لآخر جزاء وقفته معه!

* * *

وكانت توجد في ذلك المجتمع (الماشطة) التي تحترف تجميل العرائس وبعض نساء الطبقة المترفة الغنية ذكر منهن ابن هشام واحدة تسمى أم غيلان مولاة لدوسي ورجيلة ماشطة زوجة عبد الله بن رواحة[٦].

(٥) **الدم العبيط:** الخالص الطري، **مختار الصحاح** للرازي.
(٦) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** المعروف بـ (السيرة الشامية) لمحمد بن

وإذ أنه كان من أغنياء الأنصار اتخذت زوجته ماشطة لتزينها له.

وقيل إن عثمان بن عفان كانت له أخت تسمى آمنة تعمل ماشطة قبل الإسلام وأخرى هي أم رعلة القشيرية التي سألت محمداً عن الجُعل الذي تأخذه لقاء تجميل النسوة وتزينهن فأفتاها بأنه حلال وشجعها على ذلك ــ ويذكر ابن الأثير الجزري أنها كانت ذات لسان وفصاحة[٧]. وكانت أساليب التجميل ساذجة أيضاً لا تخرج عن الكحل في العينين والخضاب للأيدي والأرجل والوشم في بعض مواضع من الوجه واليدين ويذكر أن أسماء بنت عميس كانت تضع وشماً على يديها ــ والتنميص وهو إزالة شعر الوجه والتفلج وهو توسعة ما بين الثنيتين والوصل وهو وصل الشعر الأصلي بشعر مستعار ــ وكانت هناك من تحترف تلك الأعمال.

ولكن محمداً حرمها لما فيها من تغيير لخلق الله ولما فيها من خداع وتمويه للخاطبين فضلاً عما تلحقه بالجسم من أضرار مثل الوشم والفلج ــ وواضح أنها طرائق تتسم بقدر من السذاجة إذ لا زالت القبائل البدائية في أفريقيا وآسيا تستعمل نساؤها كثيراً منها.

يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢هـ) تحقيق إبراهيم الترزي وآخر، ج ٤، ص ٥٠٠، طبعة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر.

(٧) **أسد الغابةِ**، المجلد السابع، كتاب النساء، ص ٣٣١.

كان محمد مثلاً فريداً لم يتكرر في حسن معاملته لزوجاته ــ لم يحدث منه أن آذى واحدة منهن بكلمة واحدة ــ حتى عندما ترتكب إحداهن مخالفة واضحة مثل تلك التي كسرت الصفحة التي أرسلت بها إليه إحدى ضرائرها ودلقت ما فيها من طعام شهي كانت تجيده الضرة التي جاءت من بيئة أكثر رقياً لم يزد محمد على التبسم والقول: لقد غارت أمكم (يعني أم المؤمنين إذ كل زوجة من زوجاته التسع تحمل هذا اللقب المنيف) ولما تأمرن أو تحزبن ضده بحجة التوسعة ــ وهذا أمر لم يكن في طاقته اعتزلهن دون أن يجرح أحاسيس إحداهن بعبارة أو إشارة.

وكان من المفترض أن يكون صحابته على شاكلته ويهتدون بهديه ويقتدرون به ولكن حدث العكس، لماذا؟ لأن محمداً كان شخصية فذة وعبقرية نادرة وإنساناً باهراً بكل مقياس فمن ثم استطاع أن يفك نفسه من قيود مجتمعه وأن يحرر ذاته من إسار بيئته.

أما الصحاب وبداهة لم يتمتعوا بتلك المواهب الفريدة عجنهم

ذلك المجتمع بمائه وطحنتهم تلك البيئة بضروسها. وذلك المجتمع كما ذكرنا قبل ذلك بطريركي ذكوري ــ السيادة فيه للذكر له المكان الأعلى معنوياً ومادياً ــ والبيئة بكل عناصرها ألهبت الغرائز وأشعلت النوازع وحتمت على المرأة أن تكون دائماً وفي أي زمان ومكان وهي موضع الوطر ومحل الأرب وماعون اللذة مستجيبة لذلك على الفور ــ فإذا هي تأففت من السيادة أو مانعت في قضاء الحاجة فلا جزاء لها إلا الضرب وقد حاول محمد أن يثنيهم عن ذلك وأن يمنعهم من الضرب المبرح ووصف من يضربهن باللؤم والخساسة ولكن الصحاب لم يمتثلوا ويذعنوا ويطيعوا.

١ ــ في ليلة واحدة سبعون صحابياً يضربون سبعين صحابية.

عن حميد بن نافع عن أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق أن النبي (ص) نهى عن ضرب النساء ثم شكاهن الرجال ــ فخلّى النبي (ص) بينهم وبين ضربهن ــ فقال النبي (ص) لقد طاف الليلة بآل محمد سبعون امرأة كلهن ضُربن[١].

لا شك أن هناك أخريات منعهن الحياء والخوف وعدم تكدير خاطر محمد بخلاف السبعين اللاتي تقدمن بشكواهن إليه ــ ومع ذلك فسبعون في قرية مثل أثرب/ المدينة عدد ليس بالقليل ويقطع بذاته أن الضرب أمر عادي ومن الطقوس المعتادة ــ ولولا أن الضرب كان موجعاً لما خرجت الصواحب السبعون يرفعن شكايتهن لمحمد ــ وهناك ملحظ شديد الأهمية وهو أن الضرب كان بالليل وقت المعافسة وأوان المفاخذة وظرف المباطنة ولا مشاحة في أن امتناع أو تمنع تلك الصاحبات أحد أسباب الأذية البدنية الفادحة.

(١) **أسد الغابةِ**، المجلد ٧، كتاب النساء، ص ٣٨٣، مصدر سابق.

٢ ــ أحد العشرة المبشرين بالجنة يضرب بنت أحد العشرة المبشرين بالجنة ويكسر يدها.

كان أصحاب رسول الله (ص) يؤدبون نساءهم ويضربونهن:

هذا الزبير بن العوام حواريّ رسول الله (ص) وابن عمته وثب على امرأته أسماء بنت أبي بكر وهي أفضل نساء أهل زمانها فضربها في شيء عتبة عليها، فضربها ضرباً مبرحاً حتى كسر يدها، وكان ذلك سبب فراقها ذلك أنها استغاثت بولدها عبد الله ــ فجاء يخلّصها من أبيه فقال: هي طالق إن حُلت بيني وبينها ففعل وبانت منه(٢) هذا مثل صارخ يؤكد أن الضرب في ذلك المجتمع كان شأناً مألوفاً ذلك أن:

أ ــ الزوج صحابي مرموق ومبشر بالجنة وعضو مجلس العشرة ومن الأغنياء وابن عمة محمد.

ب ــ أسماء صحابية معروفة ولها في رحلة النزوح/ الهجرة دور بارز ومن ذوات الألقاب الرنانة (ذات النطاقين) وابنة أبي بكر صاحب اللقب المفرد (الصدّيق) وأخت عائشة زوج محمد وعاونت زوجها الزبير في بداية حياتهما وكانت نعم الزوجة المخلصة.

ج ــ أنهما كانا كبيرين في السن لأن ابنهما الأكبر عبد الله تدخل وحال دون والده والمضي في الاعتداء الوجيع.

فأين هي (المودة والرحمة) التي تحدث عنها القرآن ــ وإذا لم تكن هناك ألفة بين الزبير وأسماء فأين تكون ــ وإذا كان ذلك هو حال زوجيْن من الذؤابة والصفوة والنخبة فكيف كانت حال

(٢) **المحاسن والأضداد**، للجاحظ ص ١٣٩، مصدر سابق.

الزوجين من الرعية أو السوقة أو الدهماء الخ...

ألم يكن مجتمعاً شديد الاختلاف من مجتمعنا؟

٣ ــ أنصاري يضرب زوجته المهاجرة.

وهذا كعب بن مالك الأنصاري عتب على امرأته وكانت من المهاجرات فضربها حتى حال بنوها بينه وبينها فقال: فلولا بنوها حولها لخبطتها كخبطة فروج ولم أتلعثم(٣)..

٤ ــ مبشر آخر بالجنة من العشرة يضرب زوجته.

كان سعد بن أبي وقاص (رض) قد تزوج امرأة المثنى بن حارثة الشيباني فلما رأت القتل قد استمر بالمسلمين وشاهدت كثافة جيش الفرس صاحت «وامثنّاه» فضربها سعد وكان غائباً لمرضه وانتهت المعركة بفوز المسلمين(٤).

المثنى بن حارثة من بني شيبان هو أول من وطيء بالمسلمين أرض فارس وظل يقاتل بها حتى قتل عام ١٤هـ قبل القادسية وكان متزوجاً من سلمى بنت جعفر بن ثقيف(٥). ولما تولى سعد بن أبي وقاص القيادة (بالمرة) نكح سلمى بعد أن حلت مباشرة. هذا ديدنهم وهذه تقاليدهم وتلك كانت عاداتهم ــ ولما نشبت معركة القادسية كان سعد يشكو قرحة برجله فلم يشترك فيها ــ على الأقل في مراحلها الأولى ــ فاستاءت لذلك زوجه الجديدة سلمى وقارنت بينه وبين زوجها السابق المثنى فصاحت تلقائيا: «وامثناه». وبدلاً من أن يقول لها: يا بنت جعفر والله ما تخلفت

---

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٤) كتاب **الأموال**، لأبي عبيدة ص ١٠٦، هامش كتبه المحقق الشيخ محمد خليل الهراسي.
(٥) **الاستيعاب**، المجلد ٣، ص ١٤٥٦، مصدر سابق.

جبناً ولا خوفاً ولا فرقاً ولكن لأن رجلي تؤلمني من قرحة الخ... إذا به يبادر إلى الحل المألوف لديهم الذي يؤكد سلطان الرجل وذكوريته وتفوقه على المرأة وهيمنته عليها: إلى الضرب واللطم والعقاب البدني غير عابئ أنه من السابقين الأولين ومن العشرة المبشرين وأنه ما زال (عريساً جديداً) لا يصح أن يبدأ عهده معها بالتعامل العنيف باليد!!!

٥ ــ أحد النقباء يلطم زوجته

قال مقاتل: «الرجال قوامون على النساء» نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي هريرة وهما من الأنصار وذلك أنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى النبي (ص) فقال: أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي (ص) لتقتص من زوجها وانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي (ص) ارجعوا: هذا جبريل عليه السلام ــ أتاني وأنزل الله تعالى هذه الآية أي ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ ــ فقال رسول الله (ص) أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير ــ ورفع القصاص[٦]. سعد بن الربيع من النقباء الذين سبقوا في مبايعة محمد من الأنصار وقتل في عرك أحد وكانت زوجته وابنتاه السبب في نزول آية الميراث للبنتين فما فوق ثلثا تركه الأب المتوفى من سورة النساء[٧]. أي أنه صحابي ذو مقام رفيع ومع ذلك لا يتمالك نفسه عند الغضب فيمد يده على رفيقة حياته وشق ذلك على أبيها فشكاه إلى محمد الذي كان من رأيه أن تقتص من زوجها لأنه كان لا يرضى ضرب

(٦) **أسباب النزول**، للواحدي ص ١٠٠، طبعة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي، بمصر، مرجع سابق.
(٧) **الاستيعاب**، لابن عبد ربه، المجلد ٢، ص ٥٩١، مصدر سابق.

الزوجات وكان كثيراً ما يسأل الصحبة متعجباً مندهشاً: كيف يضرب أحدكم أهله أول النهار ثم يلم بهم في الليل؟ ولكن السماء كان لها رأى آخر فرفعت القصاص.

* * *

تلك كانت خمس وقائع تعمدنا أن يكون أبطالها من أعيان الصحاب وكبارهم والسابقين للإسلام إما مُبَشرين أو نقباء حتى لا يقوم لنا فلحاس[٨] كيف تحاكم الصحبة بما فعله عامتهم أو سوادهم؟ ورغم أن الرد على ذلك أن مجرد الصحبة شرف رفيع ورتبة عالية ودرجة متقدمة فإننا حتى نسد باب مثل هذا الجدل العقيم قدمنا هؤلاء ليقوم البرهان وتتأكد الحجة أن الضرب: ضرب الزوج لزوجته نسق اجتماعي شائع بين الصحبة سواء من تربع على قمة جبل التراتبية أم اكتفى بالسطح الخفيض وسواء نال لقباً باذخاً أم لم ينل وسواء كان ثرياً تُعد ثروته بالملايين أو كان مليطاً[٩] لا يجد قوت يومه سواء كان قرشياً أم غير قرشي سواء كان مهاجراً (نازحاً) أم أنصارياً وسيان كانت منكوحته: قرشية أم ثقفية أم أثربية (أنصارية) الخ..

* * *

ويبقى في النهاية وسؤال نرى أنه على درجة وفيرة من الخطر:

هل تلك الأحوال التي سلطنا عليها أشعة الضوء على بعض مناحى مجتمع الصحبة وهي الآن تثير دهشتنا ــ هل كانت غريبة كما نراها نحن الآن أم كانت متوافقة مع سمات ذلك العصر؟

---

(٨) سبق شرحها، مصدر سابق.
(٩) سبق شرحها، مصدر سابق.

الرد على السؤال بإيجاز بالغ:

إنها في معتقدنا كانت في غاية المواءمة والاتساق فالزمن كان العالم كله آنذاك عصر القرون الوسطى الخفيضة والمنطقة من المناطق القليلة التي تجاوزها قطار الحضارة رغم أنه حوّم حولها شمالاً وجنوباً مع تسليمنا بانفتاح أهلها وخاصة المكاكوة (المكيين) في رحلات الشتاء والصيف وغيرهما على البلدان المجاورة ولكنّ زيارة الأماكن المتحضرة شيء وتوطن الحضارة في البلد شيء آخر.

إذن تعاضد الزمان والمكان على تخليق المجتمع الذي عاش فيه الصحاب في لحظة تاريخية نادرة ــ إعلان محمد لثورته التي غيرت تاريخ المنطقة بالكلية ونقلتها نقلة لم يكن يتخيلها أحد ولا حتى هم أنفسهم. ولكن الذي لا يختلف عليه ــ في رأينا ــ أن المبادئ والقيم السامية التي نادى بها ــ لم تتح لها الفرصة ــ لمحو بصمات الزمان والمكان اللذين ذكرنا ــ من سلوكيات الصحاب والصواحب التي سردنا طرفاً منها في هذا السفر والتي نرجو أن يفسح الله لنا ــ في الصحة والعمر ــ لبيان أطراف أخرى منها في الأسفار القوادم.

* * *

السفر الثالث

الصحابة والمجتمع

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد).

الصحاح الستة.

أولاً: المصادر

أصول الفقه

فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري، د. ت. ن. دار إحياء التراث العربي.

كتاب المستصفي في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، مصور من الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر المحمية، ١٣٢٩هـ/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

التاريخ

الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، ١٩٦٠، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، مصر.

أخبار مكة، أبي الوليد الأزرقي، تحقيق رشدي صالح ط/ ٣ ــ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م دار الأندلس، بيروت.

الأصنام، هشام بن السائب الكلبي، ت. ٢٠٤هـ تحقيق محمد عبد القادر وآخرين، ١٩٩٣م مكتبة النهضة المصرية.

الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع الكلاعي (٥٦٨/ ٦٣٤هـ) تحقيق مصطفى عبد الواحد، جزءان ١٣٨٩م، مكتبة الخانجي، مصر.

الإمامة والسياسة المعروف **بتاريخ الخلفاء**، أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣هـ/ ٢٧٦هـ) جزءان في مجلد واحد الطبعة الأخيرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

إمتاع الأسماع بما للنبي من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، ج ١، تقي الدين، المقريزي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤م، تحقيق محمد النميسي ومراجعة محمد جميل غازي، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) نشرته دار الأنصار، مصر.

أنساب الأشراف، للبلاذري، تحقيق محمد عبد الله، طبعة أولى، دار المعارف، مصر.

تاريخ الأمم والملوك، الطبري، طبعة دار المعارف بمصر.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) تحقيق محمد محي الدين جزءان، طبعة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، كتاب التحرير، دار الشعب، مصر.

المغازي، الواقدي، تحقيق مارسدن جونز، د. ت. ن، مؤسسة الأعلمي بيروت.

النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، لتقي الدين المقريزي، تحقيق حسين مؤنس ١٩٨٨م، دار المعارف، مصر.

التفسير

تفسير الطبري، دار المعارف، مصر.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين النيسابوري، تحقيق وتعليق حمزة النشرتي وآخرين د. ت. ن.

مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، قحز الدين الرازي، طبعة دار الغد العربي، مصر، ظهرت المجلدات تباعاً في أعوام متعاقبة.

دواوين السنّة

جمع الجوامع أو الجامع الكبير، السيوطي، من إصدارات مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، مصر.

سنن الأوزاعي، عبد الرحمن الأوزاعي، تحقيق مروان محمد الشعار، ط ١، ١٩٩٣م، دار النفائس، بيروت.

سنن البيهقي.

سنن الدارقطني.

فتح المبدئ شرح مختصر الزبيدي، تحقيق أحمد عمر هاشم، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، دار الشعب مصر.

المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري.

المسند، أحمد بن حنبل.

مسند الربيع بن حبيب الأزدي البصري.

مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة، الهيثمي ط ١، توفيق عفيفي، القاهرة.

معجم الطبراني، الكبير والأوسط والصغير.

الموطأ، مالك بن أنس، د. ت. ن. طبعة كتاب الشعب بمصر.

السير والتواريخ

إمتاع الأسماع، ج ١ ط ١، المقريزي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤م نشرته دار الأنصار بمصر.

جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد بن علي بن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٥، ١٩٨٢م، دار المعارف، مصر.

الدور في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر تحقيق مصطفى أديب البغا، ط ٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت.

عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، د. ت. ن. دار المعرفة، بيروت.

السير والمناقب

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق عباس محمد البجاوي، ط ١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت.

أسد الغابةِ في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري، طبعة دار الشعب.

إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، الشهير **بالسيرة الحلبية**، برهان الدين الحلبي، طبعة ١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، البابي الحلبي، مصر.

حلية الأولياء، لأبي النعيم الأصفهاني.

حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار الوعي، حلب.

الخصائص الكبرى، للسيوطي، تحقيق النشرتي، ١٩٩٦م، د. ت. ن. القاهرة.

الروض الأنف، على هامش السيرة النبوية، لابن هشام، لأبي القاسم الخثعمي السهيلي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، د. ت. ن. مؤسسة نبع الفكر العربي، مصر.

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المعروف بالسيرة الشامية لمحمد بن يوسف الصالحي (ت ١٤١٢هـ) الطبعة ١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الأوقاف مصر.

السيرة النبوية، لابن هشام، طبعات متعددة، ودور نشر مختلفة.

السيرة النبوية، إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، د. ت. ن. عيسى البابي الحلبي، مصر.

الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الواقدي.

العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي، أبو بكر العربي (٤٦٨هـ/ ٥٣٤هـ) تحقيق محيى الدين الخطيب (١٣٠٣هـ/ ١٣٨٩هـ)، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩هـ المكتبة السلفية، مصر.

علوم الحديث

أسباب ورود الحديث أو اللمع في أسباب الحديث، السيوطي، تحقيق يحيى

إسماعيل، الطبعة ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر.

الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، أبو بكر الهمذاني (٥٤٨هـ/ ٥٨٤هـ) تحقيق عبد المعطي أمين قلعة جي، ط ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م دار الوعي حلب.

الباعث الحثيث في شرح اختصار الحديث، ابن كثير، أحمد محمد شاكر، ط ٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار التراث، مصر.

البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، حمزة الدمشقي، تحقيق الحسيني هاشم، د. ت. ن، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة.

تدريب الراوي، السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، مكتبة التراث، مصر.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محيى الدين الخطيب وآخرين، الطبعة الثانية، ١٣٨٠هـ/ ١٤٠٥هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر.

علوم القرآن

أسباب النزول، السيوطي، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، دار الشعب، مصر.

أسباب النزول، للواحدي النيسابوري. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي بمصر.

معاني القرآن، أبو زكريا الفراء.

الفقه

الأم، محمد بن إدريس الشافعي، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، دار الشعب، بمصر.

الأموال، أبو بكر بن محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٥ مكتبة الكليات الأزهرية، مصر.

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الماوردي، ط ٣، ١٩٩٣هـ/ ١٩٧٢م، مكتبة البابي الحلبي بمصر.

أحكام القرآن، أبو بكر بن محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق محمد علي البجاوي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

أحكام القرآن، عماد الدين محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، (ت ٥٠٤هـ) الطبعة ١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الخراج، ليحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ) تصحيح وشرح أحمد شاكر (١٣٠٩هـ/ ١٣٧٩هـ) الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ المكتبة السلفية، مصر.

السماع، لابن القيرواني، ٤٤٨/ ٥٠٧هـ، تحقيق أبو الوفا المراغي، ط ١، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الأوقاف، مصر.

السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لتقي الدين أحمد بن تيمية، ط ٢، ١٣٩٩هـ، المكتبة السلفية بمصر.

الاستخراج لأحكام الخراج، أبو الفرج بن رجب الحنبلي، تصحيح عبد الله الصديق، ط ١١، ١٩٨٢م، دار الحداثة، بيروت.

السير الكبير، محمد بن حسن الشيباني، بشرح شمس الأئمة السرخي، الجزء ١، تحقيق محمد أبي زهرة، تحقيق مصطفى زيد، الطبعة ١، ١٩٥٨، مطبعة جامعة القاهرة.

الشرح الكبير، شمس الدين المقدسي، على هامش **المغني**.

الفتاوى الكبرى، لابن تيمية الحراني، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م، دار الغد العربي، مصر.

المغني، ابن قدامة المقدسي، دار الغد العربي، بمصر، المجلدات ظهرت تباعاً في أعوام متعاقبة.

منهاج السنة النبوية، أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني، مصور من الطبعة ١، المطبعة الأميرية، ببولاق، مصر المحمية، ١٣٢٢هـ/ دون ناشر.

موسوعة فقه إبراهيم النخعي، تجميع محمد رواس قلعة جي الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م دار النفائس/ بيروت.

موسوعة فقه سفيان الثوري، تجميع محمد رواس قلعة جي، الطبعة ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٩٠، دار النفائس/ بيروت.

موسوعة فقه عمر بن الخطاب، تجميع محمد رواس قلعة جي ط ١، ١٤٠١هـ، دار النفائس، بيروت.

كتب المفردات

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، الطبعة ١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر.

التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني المعروف بالسيد الشريف، طبعات مختلفة.

المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

متنوعة

تخريج الدلالات السمعية على ما كان من عهد الرسول (ص) من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية، أبو الحسن علي محمد الخزاعي التلمساني، ٧٨٩هـ/ تحقيق أحمد محمد أبو سلامة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي، (٣٥٠هـ/ ٤٢٩هـ) تحقيق محمد أبو الفضل، طبعة ١٩٨٥ سلسلة ذخائر العرب، ٥٧، دار المعارف، مصر.

الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، شرح وتعليق علي متولي صلاح، ١٩٧٢، مكتبة الآداب، مصر.

هذا بخلاف عشرات المصادر التي نقلنا عنها طريق غير مباشرة.

ثانياً: المراجع

أبو يوسف، حياته وآراؤه الفقهية، محمود مطلوب، ط ١، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، جامعة بغداد.

الإسرائيليات في التفسير والحديث، محمد حسين الذهبي، ط ٣، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مكتبة وهبة، مصر.

أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس، الطبعة الأولى، ١٣٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الزهراء للإعلام، مصر.

حجية السنّة، لعبد الغني عبد الخالق، ط ١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، من إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، نشر دار القرآن الكريم، واشنطن.

الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، خليل عبد الكريم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، دار سينا، القاهرة.

ذو النورين عثمان بن عفان، محب الدين الخطيب، الطبعة ١، ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية بمصر.

السنّة قبل التدوين، لمحمد عجاج الخطيب، الطبعة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الفكر العربي بمصر.

ضحى الإسلام، ج ١، ط ٣، ١٩٣٨م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية، ضياء الدين الريّس، ط ١، ١٩٦٢، العدد العاشر من سلسلة أعلام العرب، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة.

عبقرية خالد، عباس محمود العقاد، د. ت. ن. دار الكتب الحديثة **(**توفيق عفيفي**)** شارع الجمهورية القاهرة.

عبقرية عمر، عباس محمود العقاد، د. ت. ن دار الهلال، القاهرة.

عثمان بن عفان، صادق إبراهيم عربسون، ط ١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، جماعة الأزهر الشريف للنشر والتأليف دار التوزيع والطباعة والنشر، القاهرة.

عثمان بن عفان، محمد حسين هيكل، الطبعة السادسة، دار المعارف، مصر.

العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يثرب في العهدين المحمدي والخليفي، خليل عبد الكريم ١٩٩٦م دار سينا والانتشار العربي، القاهرة وبيروت.

علم الاجتماع الديني، زيدان عبد الباقي، د. ت. ن مكتبة غريب بمصر.

الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، دار المعارف بمصر.

قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، ط ١، ١٩٩٢، دار سينا، القاهرة.

كرامات الصحابة (رض)، سعيد هارون عاشور، ط ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، مكتبة الآداب، القاهرة.

مبادئ علم النفس العام، يوسف مراد، ط ٣، ١٩٥٧، دار المعرف، مصر.

مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة والراشدة، تجميع محمد عبد الله آل حيدر آبادي، د. ت. ن مكتبة الثقافة الدينية.

مذاهب التفسير الإسلامي، للمستشرق اجتنس جولدتزيهر، ترجمة د. عبد الحليم النجار، الطبعة ١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، مكتبة الخانجي، مصر.

مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٨٥.

الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، فاطمة موسى، ط ١، د. ت. ن دار الغد العربي، مصر.

موقف الإسلام من العمل والعمال، خليل عبد الكريم، طبعة أولى، ١٩٨٧م.

النظام المالي في الإسلام، عبد الخالق النواوي، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، المكتبة العصرية، بيروت.

نظام العرب قبل الإسلام، محمد سلامة زناتي، الطبعة ١، ١٩٦٢، د. ت. ن.

نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز رفاعة رافع الطهطاوي، مكتبة الآداب مصر.

ثالثاً: المعاجم والقواميس

أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري، جزءان، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق عبد الله أحمد فراج، سلسلة التراث العربي، ١٦، ط ٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، وزارة الإعلام، الكويت.

شرح الفصيح في اللغة، أبو منصور بن السيان، دراسة وتحقيق عبد الجبار القزاز، سلسلة خزانة الكتب الطبعة ١، ١٩٩١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

القاموس المحيط الفيروزآبادي، أربعة أجزاء، ١٣٩٧/ ١٩٧٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

قاموس النهضة، إسماعيل مظهر، ط ١، ١٩٤٥م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لغة إنكليزية.

قاموس وبستر العالمي الجديد، ط ثانية، لغة إنكليزية.

المختار من صحاح اللغة، محمد محيى الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف، ط ٢، د. ت. ن، المكتبة التجارية، مصر.

مختصر العين، ج ١، أبو بكر الزبيدي الإشبيلي، تحقيق وتقديم صلاح نهدي الفرطوسي، ط ١، ١٩٩١م، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

المعجم الاقتصادي الإسلامي، أحمد الشرباصي، طبعة أولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الجيل، لبنان.

معجم ألفاظ القرآن الكريم، جزءان، مجمع اللغة العربية، سلسلة التراث للجميع، الطبعة ٣، ١٩٧٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، طبعة أولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣.

المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية، الأجزاء ٢، ٣، الطبعة دار الكتب، مصر.

المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم بمصر.

المعحم الوسيط لمجمع اللغة العربية، جزءان، طبعة ثالثة.

الممدود والمقصود، أبو الطيب الوشاء، تحقيق رمضان عبد التواب، سلسلة روائع التراث العربي، ط ١، مكتبة الخانجي، مصر.

نظام الغريب في اللغة، عيسى بن إبراهيم الربعي الوحيظي الحميري، تحقيق محمد علي الأكوع العوالي، الطبعة ١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار المأمون، بيروت.